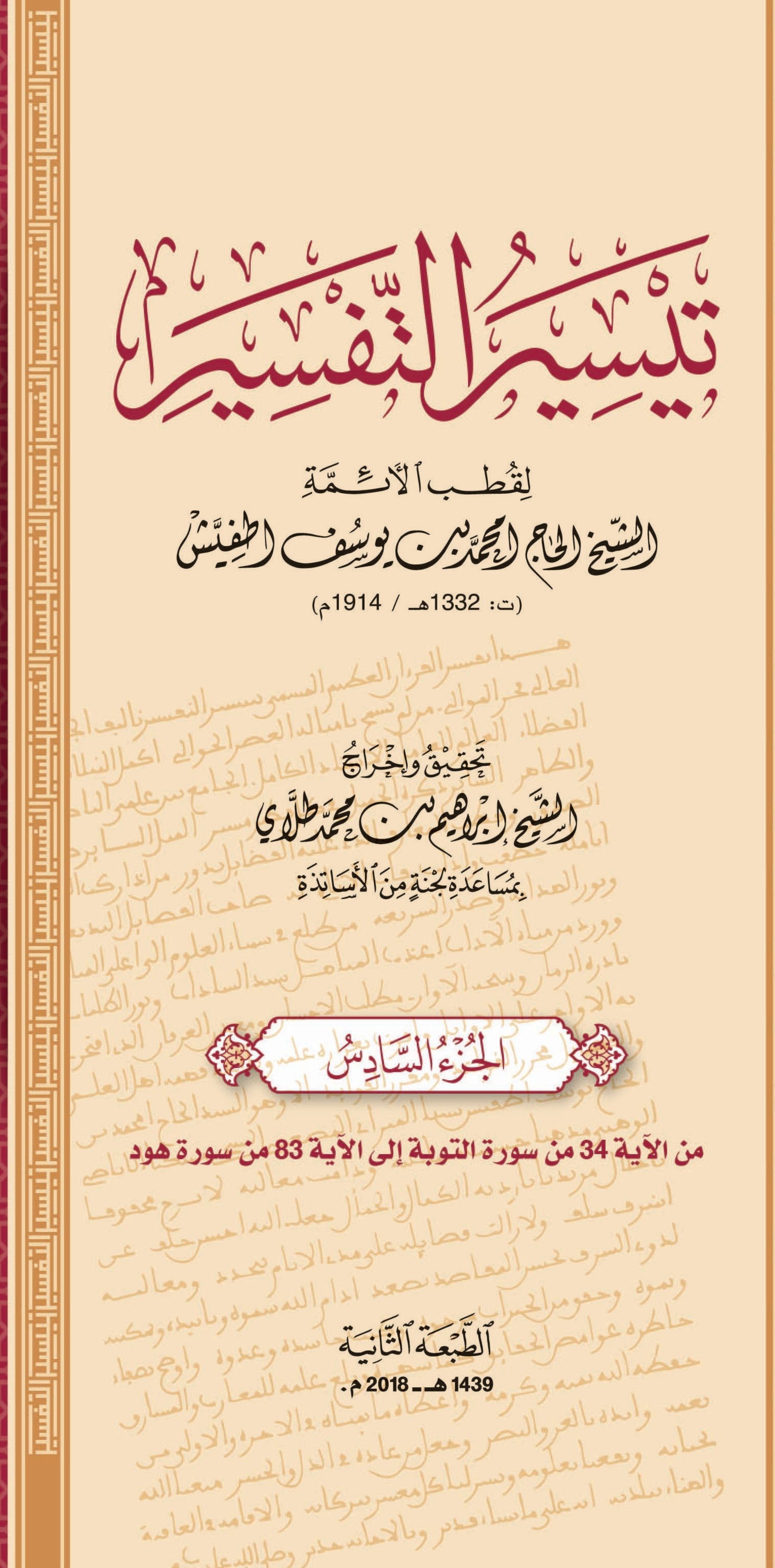


تيسير التفسير

لِقُطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الجزء السادس

من الآية 34 من سورة التوبة إلى الآية 83 من سورة هود

الطبعة الثانية

1439 هـ - 2018 م.


تيسير التفسير
الجزء السادس



لوزارة التُّراث والثقافة
سلطنة عُمان

الطَّبعة الثَّانِية
مزيدة ومنقَّحة
1439هـ / 2018م

سلطنة عُمان ـ ص.ب.: 668 مسقط، الرمز البريدي: 100
هاتف: 24641300 / 24641325، فاكس: 24641331
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om



لِقُطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة



من الآية 34 من سورة التوبة إلى الآية 83 من سورة هود



تخريجُ الأحاديثِ ووضعُ التراجمِ:

أ. أحمد بن حمو كروم

أ. عمر بن أحمد بازين

الرقنُ والفهرسةُ ومتابعةُ الطبعِ:

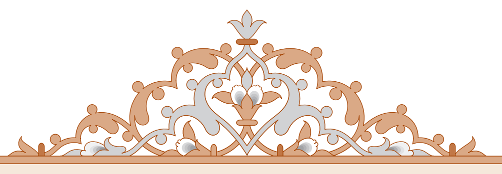
أ. مصطفى بن إبراهيم طلاي

تدقيقُ النصِّ ومتابعةُ الطبعِ:

د. مصطفى بن محمد شريفي

9

تابع تفسير سورة التوبة



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ۝٣٥ ﴾

سيرة الأحبار والرهبان في معاملاتهم مع الناس

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ناداهم تحذيرا عن فعل الرهبان والأحبار من أكل المال بالباطل، وتعجيبا من صدِّهم عن سبيل الله وعدم اتِّبَاعهم لكتبهم، فإيَّاكم ومخالفة كتابكم القرآن، عــاب اتِّبَاعهم باتِّخاذهم أربابــا، وفيه عيب قبولهم اتِّخَــاذ الأتباع، وعابهم بأكل المــال باطلا، وبالصــدِّ، وعابهم بالحرص على المال في قوله: ﴿إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ وبالحرص على الجاه في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعرضون عن الحقِّ من القرآن وغيــره، ليبقوا في مراتبهــم محترمين، آكلين لأمــوال غيرهم، أو يمنعون غيرهم عــن الحقِّ بإلقاء الشــبه والخديعة ليبقوا أتباعــا لهم منتفعين باستخدامهم وأموالهم.

ومعنى أكل أموال الناس بالباطل: أخذها بتحريف آيات التوراة والإنجيل في وصفه ﷺ، وفـي بعض الأحكام، وبكتابة من عندهم مـع قولهم: إنَّها من الله ﷻ، وبالرشـوة في الحكم، لا خصـوص أكلها في البطـن، إلَّا أنَّه خصَّ بالذكر لأنَّه المقصود الأعظم في المال، والأكل سبب للأخذ والتملُّك، وملزوم لهما، ويجوز العكس، وهو أنَّ الأخذ والتملُّك مسبِّبان للأكل ولا زمان له.

أو المراد بالأموال الأطعمة أو الأكل اسـتعارة للأخذ، شـبَّه مبالغتهم في الأخذ بلا تمييز للباطل منه بالمبالغة في الأكل بلا تمييز طعام من طعام لشدَّة الجوع، ولا يقال ببرودة هذه الاسـتعارة لأنَّه لا ذِكْرَ في الآيـة للمبالغة، لأنَّا نقول: ذكرت بذكر الباطل. وليس معنى ﴿كَثِيرًا﴾ أكثر بحسـب اللغة، بل يعمُّ النصف وأكثر وأقلَّ، ولو كان الواقع في الصدِّ والأكل هو أكثرهم، وقلَّ من لم يفعل ذلك منهم على عهده ﷺ أو قبله.

﴿**وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ**﴾ من الأحبار، أو من أهل الكتاب، أو من المؤمنين، أو من الكلِّ، وهو أولى. وخصَّ الذهب والفضَّة بالذكر لأنَّهما أعظـم، قيل: ولأنَّهمـا الأصـل الغالب في الأمـوال، وإلَّا فحكـم النحاس المضروب سكَّة حكمهما، وكذا كلُّ مال تلزم فيه الزكاة أو النفقة ولا تخرج.

روى أبو داود عن ابن عَبَّاس أنَّه لَمَّا نزلت الآية كبرت على المسـلمين، فقال عمر: أنا أفرِّج عنكم، فانطلق فقال: يا رسـول الله إنَّه كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: «**إنَّ الله لـم يفرض الزكاة إلَّا لتطييب مـا بقي من أموالكم، وإنَّما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم**» فكبَّـر عمر ثمَّ قال له: «**ألَا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سـرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته**»[1].

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الزكاة، باب في حقوق المال، رقم 1664. ورواه **التبريزي** في كتاب الزكاة، الفصل الثاني، رقم 1781 (10). من حديث ابن عَبَّاس.

وروى الترمذي عن ثوبان: لَمَّا نزلت ﴿وَالذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ كنَّا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: نزلت في الذهب والفضَّة، فلو علمنا أيَّ المال خير اتَّخذناه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أفضله لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوج صالحة تعين المؤمن على إيمانه**»[1] ولفظ الحديث: «زوجة صالحة» بالتاء في «زوجة» لا يقول النبيء ذلك إن شاء الله تعالى، وإنَّما يقول: «زوج»، وكذا لا يقوله الصحابي ولا نحوه، [قلت:] وهذا مِمَّا يقوِّي ما ذهبت إليه من أنَّه لا يكون الحديث حجَّة في النحو؛ لأنَّ رواته يغيِّرونه إلى ما لا يجوز، أو يضعف جدًّا كضعف «زوجة» بالتاء، وضعف مَثْنَى مَثْنَى مرَّتين، وضعف قَرْنُ خبرِ كاد بـ«أَن»، ولم أر حديثا لم يتكرَّر فيه مثنى، ولا خبر كاد لم يقرن فيه بـ«أن»، وذلك لا يوصف به كلامه ﷺ، ولو في قليل فكيف بالملازمة؟ فعلمنا أنَّ الرواة يحرِّفون **لكنَّهم حافظوا على المعنى**.

﴿**وَلَا يُنفِقُونَهَا**﴾ أفرد الضمير للتأويل بالعين أو بالورق، وهو شامل للذهب والفضَّة، أو بالدنانير والدراهم والأموال ﴿**فِي سَبِيلِ اِللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ اَلِيمٍ**﴾ كنز المال: جمعه وإبقاؤه بدفن أو بلا دفن، فذكرُ عدم الإنفاق زيادة بيان، أو استعمل الكنز بمعنى الجمع تجريدا عن بعض معناه، وذكر البعض بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ في الزكاة والجهاد وأنواع البرِّ.

وذلك في أهل الكتاب وصفهم بالحرص في جمع المال، ثُمَّ بالشحِّ، ونادى المسلمين تنبيها عن أن يفعلوا فعلهم كما قال معاوية، أو في الموحِّدين المانعين للزكاة، قرنهم بأهل الكتاب الأشحَّاء الفاعلين لمثل ذلك كما قال ابن عَبَّاس، أو في الفريقين جميعا كما قال أبو ذرٍّ. وَلَمَّا نزلت أتى عمر النبيء ﷺ فيها وقد اشتدَّت عليه وعلى المسلمين، فقال له: «**إنَّ الله لم يفرض الزكاة إلَّا ليطيب بها ما بقي من أموالكم**» فإذا أخرجنا الزكاة حلَّ الباقي ولو ملأ السماوات والأرضين،

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (10) باب ومن سورة التوبة، رقم 3094، من حديث ثوبان.

وقصَّة عمر هذه لا تتعيَّن في نزولهـا في الموحِّدين، ولو قيل به، لأنَّها إنَّما نزلت فينا وفي أهل الكتاب، فقد عمَّت أيضا، وإن نزلت فيهم، فقد حذَّرنا الله أن نكون مثلهم، ومن ذلك قوله ﷺ: «**ما أدي زكاته فليس بكنـز**»[1]، رواه ابن عمر. وعن ابن عمر: «**ما أديت زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤدِّ زكاته فهو الذي ذكر الله ولو كان على ظهر الأرض**».

[فقه] والتغيِّي بقوله: «وإن كان تحت سبع أرضين» معتبرٌ بالإخفاء لا بالكثرة كما هو ظاهر، وكما دلَّ له قوله: «ولو كان على ظهر الأرض» أي غير خفيٍّ، والمراد: ليس بكنز موعود عليه، قال ﷺ: «**من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها**»[2]، يعني تركها بلا زكاة، ووجد في إزار رجل من أهل الصفَّة دينار فقال ﷺ: «كيَّة»، وفي إزار رجل آخر ديناران فقال: «كيَّتان»[3] وذلك قبل أن تفرض الزكاة، أو أظهرا الفقر ولهما ذلك.

وروى أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه أوجب على الناس أن لا يدَّخروا دينارا ولا درهما ولو بعد الزكاة وأداء سائر الحقوق، فأنكر الناس عليه كلُّهم بالأحاديث وآيات المواريث، وعابوه على ذلك، فإن صحَّ عنه فذلك هفوة منه غفرها الله تعالى له، ولا يوجد من لا يهفو، فقيل: إنَّ عثمان خاف أن يتبع في ذلك فنفاه إلى الربذة، وقيل: اختار العزلة فاستشار عثمان فأمره بالذهاب إليها، ونسب الرواة أنَّ لأبي ذرٍّ حدَّة، وأنَّ كعب الأحبار رضي الله عنه نهاه عن ذلك، فقال: ليس هذا في اليهوديَّة التي هي أضيق الشرائع، وكيف يكون في الملَّة السمحة؟ وأنَّه قال له: ليست المسألة من ذلك يا يهودي، وتبعه بالعصا حتَّى أوصله عثمان فكفَّه عنه، فقيل: ضربه، ووقعت العصا على عثمان، قلت: لا يصحُّ عنه أن يقول له

(1) أورده **السيوطي** في الدرِّ، ج3، ص232. من حديث ابن عمر.

(2) رواه **أحمد** في كتاب مسند الأنصار، رقم 20506، من حديث أبي ذرٍّ. (م.ح).

(3) رواه **أحمد** في كتاب باقي مسند الأنصار، رقم 21153، من حديث أبي أمامة الحمصي. (م.ح).

يا يهودي معايرة له بنسبه ولا بما تاب منه، وإن صحَّ فما هو إلَّا قد تاب، لأنَّه ﷺ قال: «**إنَّه من أهل الجنَّة**».

و«الذِينَ» معطوف على «كَثِيرًا»، والفاء تفريع، أو منصوب على الاشتغال، أو مبتدأ والفاء صلة، أو تشبيه للمبتدإ باسم الشرط، وفي الأخير: الإخبار بالطلب. وسائر أموال الزكاة في حكم الذهب والفضة، وخصَّهما بالذكر لأنَّهما أعظم، ولأنَّهما أسهل للإخفاء. والتبشير استعارة تهكُّميَّة لعلاقة التضادِّ، أو مجاز مرسل لعلاقة الإطلاق والتقييد.

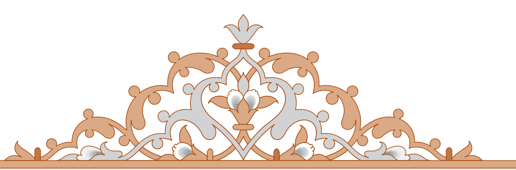
﴿**يَوْمَ يُحْمَى**﴾ متعلِّق بـ«عَذَابٍ»، أو بمحذوف نعت له، أو مفعول به، أي: اذكر للناس يوم يحمى، ولا يقدَّر: عذاب يوم يحمى، فيجعل «عَذَاب» بدل «عَذَابٍ» فحذف المضاف، لأنَّ «يَوْمَ» منصوب، إلَّا إن بني لإضافته لجملة ﴿**عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ**﴾ يوم توقع شدَّة الحمي عليها، فالواقع عليها الحمي لا النار، لأنَّ النار من تحتها وجوانبها أيضا لا فوقها فقط، أو الأصل: «تحمى النار عليها» بالتاء الفوقيَّة، كما قرأ الحسن، وذلك مبالغة في حرارة النار، وَلَمَّا حذف النار ناب عنه قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ فكان «يُحْمَى» بالياء التحتيَّة، ولحذفه ساغ ذكر قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

وإفراد الضمير في «عَلَيْهَا» و«يُنفِقُونَهَا» لتأويل الكنوز، واختير ذلك لأنَّ المراد الكثير من الذهب والفضَّة، ولو صحَّ إطلاق الكنز أيضا على القليل، ولا يختصُّ بالكثير كما توهم، وإنَّما حملت الآية على الكثير لأنَّ الآية في قوم كنزوا كثيرا، وغيرهم ملحق بهم، والقليل ملحق بالكثير، وجاز رجوع الضمير إلى «الْفِضَّة» وهي أقرب، فيلحق بها الذهب بالأولى، وخصَّت بالذكر لأنَّها أكثر، ولأنَّ الناس أحوج إليها.

﴿**فَتُكْوىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ**﴾ أمَّا وجوههم فلأنَّهم يطلبون بالأموال الاحترام والوجاهة، وفي الوجه يظهر العزُّ، ولأنَّهم أعرضوا بها عن

ســائلهم، وأمَّا جنوبهم فلانفتاحها في الأكل والملابس الحسنة، وكذا الظهور ولأنَّه يصير بعد الإعراض عن المواجهة إلــى مجانبة، فيكوى الجنب، ثمَّ إنْ زِيدَ ســؤالٌ أو لم يُزَدْ ولَّــى ظهرًا فيكــوى ظهره، ولأنَّ ذلــك جهات أربع، ومشــتمل على الدماغ المحاذي للجبهة، والقلب المحاذي للجانب الأيســر، والكبد المحاذي للظهر، ولأنَّها الجهات التي يلتفت إليها عند الدفن، قال أبو هريرة: «مــا من صاحب ذهب ولا فضَّــة لا يُؤَدِّي منها حقَّهــا إلَّا إذا كان يوم القيامة صفِّحت له صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره».

﴿**هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ**﴾ مفعول لحال محذوفة صاحبها الهاءات الثلاث الأخيرة، أي مقولا لهم: هذا الذي تكوون به المال الذي كنزتم لأنفسكم صار لكم ضرًّا، أو هذا الكيُّ جزاء ما كنزتم، أو هذا الكي هو الذي كنزتم لأنفسكم بكنزكم موجبــه الذي هو ذلك المال، تبســط جلودهم حتَّى تســع جميع ما كنزوا، ولو كان ميــلا أو أكثر من المال. ﴿**فَذُوقُــواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِــزُونَ**﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، أو اسم، أي: ذوقوا جزاء كنزكم للمال أو جزاء المال الذي كنزتموه، أو جزاء مال كنزتموه.



﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (36) إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (37)﴾

تحريم النسيء والأمر بقتال المشركين

ومهَّد لجناية أخرى جناها مشركو العرب، قيل: واليهود والنصارى، وهي النسيء بقوله ﷻ: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ**﴾ أي العَرَبِيَّة القمريَّة ﴿**عِندَ اللَّهِ**﴾ أي في حكمه أو علمه، أو اللوح المحفوظ، وقيل: [في] القرآن لهذه الآية نفسها، وقيل: لأنَّ فيه آيات تدلُّ على الحساب ومنازل القمر لا ابتداع الناس فكيف يغيِّرونها بالنسيء كما جعل الأَيَّام سبعة، وإلَّا فالشهور والأيَّام في أنفسها متماثلة لا حصر لها هي سيَّالة لا يحدُّها حدٌّ بخلاف شهور الشمس، فإنَّها تعدُّ بقطع الفَلَكِ إلى موضع ابتدأت منه، إلَّا أنَّ الله ﷻ قرَّب العَرَبِيَّة إليها وبنى عليها إذ حُدَّتْ، وزادتْ بعشرة أَيَّام أو أحد عشر تقريبا، وبهذه الزيادة تنتقل الشهور القمريَّة في الشمسيَّة، فيكون رمضان مثلا تارة في يناير وتارة في فبراير وهكذا...

وأمرهم الله من زمان إبراهيم بناء العبادات على القمريَّة، واعتبروا الشمسيَّة لمصالح دنياهم، فذمَّهم الله إذ أخَّروا حرمة شهر إلى آخر. وذكر قوله: ﴿عِندَ

اللهِ﴾ لبيان كمال قُبْح النسيء وهو متعلِّق بـ«عِدَّةَ»، وصحَّ التعلُّق به مع أنَّه بمعنى العدد، لأنَّ الظروف معمولات ضعيفة، يكفيها أدنى رائحة الحدث.

ويدلُّ على أنَّه ليس مصدرا بمعنى العَدِّ الإخبار عنه بقوله: ﴿**اِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا**﴾ ولو كان في الأصل مصدرا. و«شَهْرًا» تمييز مؤكَّد لتقدُّم قوله: ﴿عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ دفعا لاحتمال التجوُّز بالشهور بأن يراد بها السنة، ولو قيل: اثني عشر عاما أو يوما لصحَّ، لأنَّه قال: ﴿عِندَ اللهِ﴾ كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ [سورة الحج: 47] ولذلك الدفع قيل: غير مؤكَّد.

وأوَّلها: المحرَّم وآخرها ذو الحجَّة، وهما من عام واحد، وقيل: أوَّلها رجب فهي من عامين. قال ابن عمر: خطبنا رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع بمنى في وسط أيَّام التشريق فقال: «**يا أيُّها الناس إنَّ الزمان قد استدار، فهو اليوم كهيئة يوم خلق السماوات والأرض، وإنَّ عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم أوَّلهنَّ رجبُ مُضَرٍ بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم**»[1]. وقيل: أوَّلها ذو القعدة، روى البخاري ومسلم: «**ألا إنَّ الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات... ورجبُ مُضَرٍ**»[2] وأضيف رجب لمضر لأنَّ ربيعة كانوا يحرِّمون رمضان ويسمُّونه رجبا، وذلك مبنيٌّ على أَنَّ أَوَّل السنة المحرَّم.

وعرض على عمر تاريخ الأكاسرة بمن كان غالبا من ملوكهم، وتاريخ اليهود فاستحسن التاريخ بالهجرة، وأرَّخوا في أوَّل الإسلام بربيع الأَوَّل سنة القدوم، وبأوَّل شهر منها، وهو ربيع الأول، وأوَّل هلال المحرَّم في التاريخ الهجري ليلة الخميس بالحساب، وبالرؤية ليلة الجمعة.

---

(1) أورده **السيوطي** في تفسيره، ج5، ص88.

(2) رواه **مسلم** في كتاب القسامة والمحاربين، رقم 3179. ورواه **البخاري** في كتاب التفسير (156) باب قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ...﴾، رقم 4385. من حديث أبي بكرة.

[فلك] والشـــهر الشـــرعيُّ معتبر برؤية الهلال أو إكمـــال ثلاثين يوما، والحقيقيُّ معتبر من اجتماع القمر مع الشمس في نقطة وعوده بعد المفارقة إلى ذلك، ولا مدخل للخروج من تحت شعاع إلَّا في إمكان الرؤية بحسب العادة الشائعة التي عليها الشـــرع، ومدَّة الحقيقيِّ تسعة وعشرون يوما ومائة واحدة وتسعون جزءا من ثلاثمائة وستِّين جزءًا لليوم وليلته، فالسنة القمريَّة: ثلاث مائة وأربعة وخمســـون يوما وخمس يوم وسدســـه وثانية، وذلك أحد عشـــر جزءا من ثلاثين جزءًا لليوم وليلته، وإذا اجتمع من هذه الأجزاء أكثر من نصف يوم عدُّوه يومـــا كاملا وزادوا في الأَيَّام، وتكون الســـنة كبيســـة وأيَّامها ثلاثمائة وخمسة وخمسون يوما.

واصطلحوا على جعل الأشهر شـــهرا كاملا وشهرا ناقصا، وهذا هو الشهر الاصطلاحي، فالمحرَّم ثلاثون وصفر تسعة وعشرون، وهكذا فالأفراد ثلاثون وأوَّلها المحرَّم، والأزواج تسعة وعشرون وأوَّلها صفر، إلَّا ذا الحجَّة من السنة الكبيســـة فمن ثلاثين، لجعلهم ما زاد في أَيَّام الســـنة الكبيسة في ذي الحجَّة آخر السنة، ومعنى قوله ﷺ: «**شَـــهْرَا عيدٍ لا ينقصان رمضان وذو الحجَّة**»[1] أَنَّ ثواب تســـعة وعشـــرين فيهما ثواب ثلاثين، أو لا يكونان في سنة واحدة من تسعة وعشرين معا غالبا.

﴿**فِي كِتَـــابِ اِللهِ**﴾ اللوح المحفـــوظ، أو حكمه إن فســـرت «عِندَ اللهِ» بعلمه، وهو نعت لشـــهر، أو اثني عشر. ﴿**يَوْمَ خَلَقَ اَلسَّـــمَاوَاتِ وَالَارْضَ**﴾ متعلِّق بمتعلَّق «فِي كِتَابِ» أو بـ«فِي كِتَـــابِ» أو بـ«كِتَابِ» بمعنى مكتوب، أو كتابة، قيل: أو بدل من «عِندَ» وهو ضعيف، لأنَّ «عِندَ» للمكان المجازي، والزمان لا يبدَل من المـــكان، ولا المكان من الزمـــان. وذلك في علم الله

(1) رواه **البخاري** في كتاب الصوم، باب شـــهْرَا عيد لا ينقصان، رقم: 1813. ومســـلم في كتاب الصيام، باب بيان قوله: شهْرَا عيد لا ينقصان، رقم 2583. من حديث أبي بَكْرَة.

وحكمه قبل خلق السماوات والأرض واللوح، لَكِنَّ الظهور يحصل بخلق السماوات والأرض.

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ معظَّمة بالعبادة وتحريم القتال وتضعيف الحسنات والسيِّئات فيها، أو ممنوعة عن القتال: ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم ورجب.

[فقه] [قلت:] والصحيح نسخ تحريم القتال فيهنَّ، ويدلُّ له أنَّه ﷺ حاصر الطائف وغزا هوازن في شوَّال وذي القعدة، وقوله ﷻ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [سورة التوبة: 05] على ما قيل: إنَّ تعميم الأمكنة تعميم للأزمنة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي التحريم المعلوم من «حُرُمٌ»، أو كون العدَّة اثني عشر، ورجِّح بأنَّ المراد الردُّ على الكفرة في النسيء والزيادة، وأمَّا التحريم فإنَّها محرَّمة في الجَاهِلِيَّة أيضا، ويترجَّح الأوَّل بالتفريع في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ...﴾. ﴿اَلدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ القويم المستقيم، دين إبراهيم وإسماعيل، ومنهما ورثه العرب، ولو كان لا قتال لهما فإنهنَّ محترمات عندهما بالعبادة. أو ﴿الدِّينُ﴾: الحكم والقضاء، و﴿الْقَيِّمُ﴾: الدائم، أو ﴿الدِّينُ﴾: الحساب، أي الحساب المستقيم لا ما تفعله العرب من النسيء.

﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ﴾ في الأربعة الحرم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بالذنوب وهتك حرمتهنَّ، فإنَّ السيِّئات تتضاعف فيهنَّ كما تتضاعف الحسنات، وهكذا تتضاعف حيث تتضاعف الحسنات من زمان أو مكان، كذنوب مكَّة ورمضان، أو الضمير للشهور الاثني عشر، والأوَّل أولى لأنَّه أقرب مذكور، لأنَّ النهي عن الظلم في الاثني عشر يكفي عنه مطلق النهي عن الذنب في العمر كلِّه، ويدلُّ له قول عطاء: «لا يحلُّ للناس الغزوُ في الحرم والشهر

الحرام إلَّا أن يقاتلهم العدوُّ»، إلَّا أنَّ الصحيح نسخ تحريم القتال فيهنَّ كما مرَّ، فالظلم غير القتال الحلال، وكان الرجل من العرب يلقى قاتل أبيه أو ابنه فلا يَضُرُّه، ولو بإشارة بلسان أو عضو، وسمُّوا رجبا أصمَّ ومنصل الأسنة حتَّى أحدثوا النسيء فغيَّروا.

﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان ولو في الأشهر الحرم أو الحرَم، وقد زعم بعض أنَّ عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والأزمنة والأمكنة، و«كَافَّةً» حال، أي جميعا، من الفاعل قبله، أو المفعول في الموضعين، وهو مصدر «كفَّ» بوزن اسم الفاعل كما قيل في العافية والعاقبة، فإنَّه إذا تمَّ الجمع لا يتصوَّر أن يزاد فيه، والفرض أنَّه لم يبق منه شيء خارج، فكذلك منع وكفٌّ، وقيل: «كَافَّةً» وصف، والتاء فيه للمبالغة، والمعنى: كافِّين لهم وكافِّين لكم، وقيل: معناه جماعة، ومن أسماء الجماعة «كَافَّة»، والتاء للتأنيث، والجماعة المخصوصة تكفُّ غيرها أن يزاد عليها، وتكفُّ عن التعرُّض لها.

وبشَّر المسلمين بالنصر مع الحضِّ على التقوى في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اَللَّهَ مَعَ اَلْمُتَّقِينَ﴾ بكلِّ خير بسبب تقواهم دنيا وأخرى، وأخذت العموم من إطلاق المعيَّة، إذ لم يقل: مع المتَّقين لكذا، ودخل المخاطبون بالأولى، وقيل: هم المراد، أي إنَّ الله معكم بالنصر والإمداد.

﴿إِنَّمَا اَلنَّسِيُّ﴾ مصدر بمعنى التأخير لحرمة الشهر إلى آخر، أو بمعنى مفعول، أي الشهر المؤخَّر، فيقدَّر: إنَّما زيادة النسيء، أو إنَّما النسيء ذو زيادة في الكفر، والأصل: «النسيء» قلبت الهمزة ياء وأدغمت فيها الياء. ﴿زِيَادَةٌ فِي اِلْكُفْرِ﴾ إذا جاءهم شهر حرام وهم في الحرب، أو أرادوا إنشاءها فيه أحلُّوه وحرَّموا آخر مكانه، وقالوا: أمرنا بتحريم أربعة أشهر، وقد وفَّينا بالأربعة، ولو لم تكن عين ذي القعدة وذي الحجَّة والمحرَّم ورجب، فضمُّوا إلى شركهم

الســـابق كفرا آخر هو تحريم ما أحلَّ الله من الشـــهور وإحلال مـــا حرَّم منها، وأعظم من ذلك قولهم: إنَّ الله أمرنا بذلك، وربَّما جعلوا الســـنة ثلاثة عشـــر شهرا وذلك بجمع تلك الزيادات.

﴿**يَضِلُّ بِهِ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ يزيدون به ضلالا، واستعمل الفعل في الزيادة، أو يقـــدَّر: يضلُّ ضلالا آخـــر، أو ضلالا زائـــدا ﴿**يُحِلُّونَهُ عَامًـا**﴾ أي يحلُّون النســـيء، بمعنى المؤخَّر أو التأخير، والأوَّل أولى، لكن لا مانع من أن يقال: أحلُّوا التأخير أو حرَّموه، والجملة مستأنفة لبيان فعلهم، أو تفسير لقوله ﷻ: ﴿يَضِلُّ...﴾ أو حال. ﴿**وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا**﴾ كانـــوا يصعب عليهم ترك الحروب والغارات ثلاثة أشـــهر متواليـــة، فيحلُّون المحـــرَّم ويحرِّمون صفـــرا مكانه، يمكثون زمانا على ذلك، ثمَّ يردُّون التحريم إلى المحرَّم.

ينادي مناديهم فـــي ذي الحجَّة إذا اجتمعت العرب للموســـم: أن أحلوه وحرِّموا مكانه شهرا آخر، وأوَّل من فعل ذلك نعيم بن ثعلبة من كنانة، إذا همَّ الناس بالصدور من الموســـم خطب وقال: «لا مردَّ لِمَـــا قضيت أنا الذي لا أُعاب ولا أُخـــاب» فيقولون: لبَّيك، فيســـألونه تحريم القتال فـــي عامهم أو تحليله، وقيل: أوَّل من فعل ذلك جُنادة بن عوف الكناني بضمِّ الجيم، وكان مطاعا في الجَاهِلِيَّة ينادي على جمل في الموسم: «إنَّ آلهتكم قد أحلَّت لكم المحرَّم فأحلُّوه»، ومن قابل: «إنَّ آلهتكم قد حرَّمت عليكم المحرَّم فحرِّموه»، وتارة إذا حرَّموا صفرا بدلا من المحرَّم أحلُّـــوه وحرَّموا ربيعا الأوَّل، وهكذا حتَّى يصلوا المحرَّم بالتحريم، ويحجُّون في كلِّ شهر عامين. وحجَّ الصدِّيق في الســـنة التاســـعة في ذي القعدة، وحجَّ ﷺ من قابل، وقد وصلوا المحرَّم بالتحريـــم، فنادى في منـــى: «**ألا إنَّ الزمان قد اســـتدار كهيئـــة يوم خلق الله السماوات والأرض**»[1] ووافق ما على عهد إبراهيم عليه السلام ومن قبله.

(1) تقدم تخريجه في هذا الجزء، ص 12.

وتنازع «يُحِلُّ» و«يُحَرِّمُ» في قوله ﷻ: ﴿لِيُوَاطِئُواْ﴾، والأولى تعليقها بما يعمُّهما، أي فعلوا ذلك ليواطئوا، بل هذا متعيِّن، لأنَّ معنى ﴿يُحَرِّمُونَهُ﴾: يبقونه على تحريمه، فلا يعلَّل بقوله: ﴿لِيُوَاطِئُواْ﴾ إلَّا أن يُتَكَلَّف بجعل اللام في معناها الحقيقيِّ وهو التعليل، والمجازيِّ وهو العاقبة، ولكن لا مانع من أنَّهم قصدوا تحريمه من أنفسهم لا إبقَاءَهُ، فتكون للتعليل في الجانبين.

﴿**لِيُوَاطِئُواْ**﴾ يوافقوا بالتحليل ﴿**عِدَّةَ**﴾ عدد ﴿**مَا حَرَّمَ اَللَّهُ**﴾ راعوا وجوب أربعة ولم يراعوا أعيانها التي فرض الله ﷻ. ﴿**فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اَللَّهُ**﴾ من الأشهر ﴿**زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ اَعْمَالِهِمْ**﴾ زيَّنها الله بمعنى خذلهم، وخلق فيهم اشتهاءها، أو زيَّنها الشيطان فرأوها حسنة ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي اِلْقَوْمَ اَلْكَافِرِينَ**﴾ لا يوفِّق الأشقياء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (41)﴾

التحريضُ على الجهاد والتحذير من تركه، ونصرةُ الله لرسوله

وشرع في حثِّ المؤمنين على قتال المشركين بعد بيان نُبَذٍ من جناياتهم الموجبة له وفي فضيحة المنافقين بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ**﴾ توبيخ وتعجيب وإنكار للياقة في الشرع، وقوله: ﴿**إِذَا قِيلَ**﴾ قال الله أو رسوله ﷺ ﴿**لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ**﴾ حال، أو الحال «اِثَّاقَلْتُم» مع خروج «إذا» عن الشرط والصدر إن عُلِّقت بـ«لَكُمْ» قبله، أو بمتعلَّقه، والأوَّل أولى لأنَّه أنسب بجعل «اِثَّاقَلْتُم» بمعنى مضارع التكرُّر، فإنَّ معنى ما لكم تثاقلون بصيغة التجدُّد كما يناسبه «إذًا» أولى من معنى ما لكم

تثاقلتم بدون تجدُّد. و﴿انفِرُواْ﴾: اخرجوا سراعا، وخصَّه بعض بما لا بدَّ منه كما هنا، و﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾: الجهاد فإنَّه سبيل الله، ويجوز كون «فِي» للتعليل. والأصل: تثاقلتم، كما قرأ به الأعمش، أبدلت المثنَّاة مثلَّثة فأدغمت فجيء بهمزة الوصل لسكون الأوَّل، كقوله ﷻ: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ [سورة البقرة: 72] و﴿ادَّارَكُواْ﴾ [سورة الأعراف: 38] بإبدال التاء دالا وإدغامها، وهمزة الوصل والتفاعل هنا للمبالغة، أو لأنَّ ثقل كلٍّ يدعو ثقل الآخر، وضمِّن معنى الميل فعدِّي بـ«إلى»، والمعنى: البطء والكسل، و﴿الَارْضِ﴾: الدنيا، أي تركنون إلى الدنيا بحبِّ الحياة والراحة، ويجوز أن يراد أرض المدينة، أي تركنون إلى اختيار الأوطان عن الجهاد، والأوَّل أبلغ وأعمُّ.

﴿**أَرَضِيتُم**﴾ توبيخ وتعجيب وإنكار لللياقة ﴿**بِالْحَيَاةِ الدُّنْيا**﴾ وغرورها وراحتها ولذَّاتها ﴿**مِنَ اَلَاخِرَةِ**﴾ بدلها وبدل نعيمها ﴿**فَمَا مَتَاعُ**﴾ تمتُّع ﴿**الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي اِلَاخِرَةِ**﴾ أي في تمتُّعها ﴿**إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ تعليل لمضمون ﴿أَرَضِيتُم﴾، كأنَّه قيل: أخطأتم في رضاكم بالدنيا بدل الآخرة، لأنَّ متاع الدنيا قليل، قال المسور عن رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلَّا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليمِّ ثمَّ يرفعها فلينظر بم يرجع**»(1) كما رواه مسلم والترمذي والنسائي. ومرَّ رسول الله ﷺ بذي الحليفة فرأى شاة شائلة برجلها فقال: «**أترون هذه الشاة هيِّنة على أهلها؟**» قالوا: نعم، قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لَلدُّنيا أهون على الله تعالى من هذه على صاحبها**»(2) و«**لو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء**»(3).

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الزهد (14) باب منه، رقم 2322، من حديث مستورد.

(2) رواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد (3) باب مثل الدنيا، رقم 4110. ورواه **الطبراني** في الكبير، ج6، ص157، رقم 5840. من حديث سهل بن سعد.

(3) رواه **الترمذي** في كتاب الزهد (14) باب هوان الدنيا على الله ﷻ رقم: 2320. من حديث سهل بن سَعْد.

و«فِي الَاخِرَةِ» حال من المبتدإ، أي ثابتا مقابلة الآخرة، أو يقدَّر خاصّ، أي محسوبا، ويقال لـ«فِي» هذه ونحوها قياسيَّة، لأنَّ المعنى بالنسبة إلى الآخرة ولا يتعلَّق بقليل ولو سومح في تقديم الظرف على «إِلَّا»، لأنَّ تلك القلَّة ليست تقع في الآخرة، ومعناها صغر مدَّتها وصغر منافعها لانقطاعها، أو حقارتها كمًّا وكيْفا لتكدُّرها وانقطاعها.

[سيرة] دعاهم ﷺ في رجب من السنة التاسعة بعد الرجوع من غزوة هوازن والطائف وفتح مَكَّة إلى غزوة تبوك، وهم في قحط وشدَّة حرٍّ وقت إدراك الثمار، مع بعدها بأربع عشرة مرحلة، وكثرة عدوِّها وشدَّتهم من النصارى والروم، وتسمَّى غزوة العسرة لذلك، والفاضحة لأنَّها أظهرت حال كثير من المنافقين حتَّى زعم بعض أنَّه تخلَّف عنها عشر قبائل، ولتلك الشدَّة لم يُورِ ﷺ عنها كما يُوري عن سائر غزواته، بل أظهرها ليستعدُّوا ما يليق، وبلغه أنَّ مقدِّمة هرقل من الروم والشام بلغت البلقاء، وبعث ﷺ إلى مكَّة وقبائل العرب، وحضَّ الأغنياء على النفقة وهي آخر غزواته، وأنفق عثمان ما لم ينفقه غيره، جهَّز عشرة آلاف، وأنفق عليهم عشرة آلاف دينار، وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس، وأعطى من كلِّ ما يحتاج إليه من الزاد وغيره حتَّى أوكية الأسقية، وأوَّل من أنفق الصدِّيق، جاء بأربعة آلاف درهم، وهي جميع ماله يومئذٍ، والفاروق بنصف ماله، وذلك النصف أكثر من أربعة آلاف، وعبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية، كالصدِّيق، والعبَّاس وطلحة بمال كثير، والنساء بما قدرن عليه من حليِّهِنَّ. وهم ثلاثون ألفا، أو أربعون، أو سبعون، والخيل عشرة آلاف، واستخلف على المدينة محمَّد بن مسلمة الأنصاري، أو عليًّا، ورجع عبد الله بن أُبي ومن معه من ثنيَّة الوداع، ودفع اللواء الأعظم للصدِّيق والراية العظمى للزبير، وراية لأسيد بن خضير من الأوس، وراية للخبَّاب بن المنذر من الخزرج، ولكلِّ قبيلة أو بطن من العرب لواء وراية،

ووجد ماء تبوك قليلا فاغترف من مائها غرفة فتمضمض بها فردَّها فيه ففاض، وأقام بها بضع عشرة ليلة أو عشرين، فأتاه بَحْنَةُ بن رؤبة صاحب أيلة، وعرض عليه الإسلام فأبى، وأهدى بغلة بيضاء فكساه ﷺ رداء، وعقد عليه الجزية وكتب له كتابا ليعلموا به، واستشار ﷺ الصحابة في مجاوزة تبوك فأبوا، فقفل إلى المدينة، ولَمَّا قرب منها قال لهم: «**لا تكلِّموا أحدا مِمَّن تخلَّف ولا تجالسوه حتَّى آذن لكم**»، فالرجل يعرض عن أبيه وأخيه ومن يعزُّ عليه.

وبالغ في الحثِّ على القتال بقوله تعالى: ﴿**اِلَّا تَنفِرُواْ**﴾ معه ﷺ ﴿**يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا اَلِيمًا**﴾ في الآخرة، قيل: بحبس المطر، أو غلبة العدو، أو ما شاء الله، أو عذاب الدنيا والآخرة، قال ابن عَبَّاس: استنفر ﷺ حيًّا من العرب فتثاقلوا، فأمسك عنهم المطر، فذلك عذابهم، وعلى هذا لم ينسخ وجوب خروج الكلِّ لأنَّها نزلت في مخصوصين، وقال عكرمة والحسن: نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُومِنُونَ...﴾ [سورة التوبة: 122].

﴿**وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ**﴾ أطوع منكم ليسوا من أولادكم ولا من أرحامكم، قيل: أبناء فارس، وقيل: أهل اليمن، وعلى الأَوَّل سعيد بن جبير، وقيل: ما يعمُّ هؤلاء وغيرهم وهو أولى، وليست نصرته متوقِّفة عليكم، وهي واقعة لا محالة.

[أصول الدين] وإذا قال الله ﷻ: إن لم تفعلوا كذا كان كذا، وقد قضى الله أن يفعلوا ونحو ذلك وقضاؤه لا يتخلَّف، ولا يخفى عنه ما يكون، وما لا يكون، فمعناه: احذروا وما يدريكم بما عند الله، وبنى الله تعالى الخلق كلَّه، بعضُهُ بلا ترتيب على شيء وبلا سبب، وبعضه على ترتيب وتسبُّب، ويقول: إن لم تفعلوا كذا كان، ولو علم أنَّهم يفعلون، ويقول: إن فعلتم، ولو علم أنَّهم لا يفعلون.

﴿**وَلَا تَضُرُّوهُ**﴾ بترك نصره ﴿**شَيْئًا**﴾ ضرًّا مَّا، ونصره واقع لا محالة، والهاء لرسول الله ﷺ، ويدلُّ له: ﴿اِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذَ اَخْرَجَهُ الذِينَ

كَفَرُواْ﴾، وقيل: للدِّين المدلــول عليه بالمقام، والأوَّل أولــى لأنَّه المذكور، ولأنَّه أنســب بمتعلَّق الضرِّ نفيا أو ثبوتا، وعدم مضرَّته عدم مضرَّة دينه، أو لله وهو أولى، إلَّا أنَّه يرجع إلى القول الثاني، لأنَّ الله لا يتضرَّر بشــيء، فالمراد: لا تضرُّوا دينه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَــيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على نصره ونصر دينه ولو بلا واسطة، وعلى الاستبدال، وزاد تأكيدا وزجرا عن الكسل بقوله:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ إن لا تنصروه ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ تعليل للجواب المحذوف، أي فالله ينصره، أو فسينصره، أو فلن يخذله، لأنَّ الله قد نصره، لأنَّ الله قد قضى نصره فيما مضى. والنصرة ولو كانت لا توجب نصرة بعدها ـ لأنَّ الله فعال لِمَا يريد ـ إلَّا أنَّ الكلام يحمل على عوائد كرمه، وعلى استصحاب كرمه والقياس عليه. والخطــاب للمتثاقلين، والهاء للنبــيء ﷺ، وإنَّما لم نجعــل «قَدْ نَصَرَهُ» جوابا لأَنَّ نصره الســابق أو الوعد بنصره اللاحق لا يتوقَّف على عدم نصرهم إيَّاهُ، ولأنَّ السابق لا يكون جوابا مستقبلا، والجواب مستقبل.

﴿إِذْ﴾ متعلِّــق بـ«نَصَرَ» ﴿أَخْرَجَهُ﴾ أهل مَكَّة ﴿الذِيــنَ كَفَرُواْ﴾ ضيَّقوا عليه حتَّى خرج، لأَنَّهُ ســمع عنهم ما ذكــر الله ﷻ بقولــه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِــكَ اَلذِينَ كَفَرُواْ...﴾ [ســورة الأنفال: 30] فذكر المســبَّب وهو الإخراج والمراد الســبب وهو التضييق، وما خرج إلَّا بأمر الله. ﴿ثَانِــيَ اَثْنَيْنِ﴾ والآخر الصدِّيق إجماعا رضي الله عنه لا ثالث لهما من الناس، فكيف لا ينصره الآن ومعه جنود من الناس، وهذا بحسب العادة، والأمر ســواء عند الله، أو المعنــى: نصره حين أخرجــوه لأنَّه ما أذن له بالخروج إلَّا لينصره من خارج مَكَّة، والخروج إنَّما هو للنصرة فكيف تتخلَّف؟ والمراد بعض اثنين، لأنَّه أضيف لِمَا هو من مادَّته لا لِمَا تحته نحو ثالث اثنين.

﴿إِذْ هُمَا فِي اِلْغَــارِ﴾ «إِذْ» بدل من الأولى بــدل مطابق، بأن نجعل وقت الخروج والذهــاب إلى الغار واللبث فيه واحدا، لا بــدل بعض لعدم الرابط، ولا يقدَّر هذا منه أو من ذلك الوقت ربط بالضميــر في منه عائدا إلى «إِذْ» أو

بالإشارة لأنَّه لم يسمع عود الضمير أو الإشارة إلى «إِذْ» مع ضعف رجوع الضمير من الجملة إلى الظرف المضاف إليها.

[سيرة] وهو غار في أعلى ثَوْر ـ بفتح المثلَّثة وإسكان الواو ـ وهو جبل في يمين مَكَّة، ويمينها الجنوب، وهو على سير ساعة من مَكَّة، دخله الصدِّيق قبله ﷺ ليلاقي هو ما فيه من ضرٍّ، ثمَّ لَمَّا دخله سدَّ جُحره بثوبه خِرقا، وبقيت جحرة فسدَّها بقدمه فنهشته حيَّة، وَلَمَّا جاء أجل موته انبعث عليه سمُّها فمات به ليكون قد مات موت شهيد، وشهر أنَّه انبعث إليه سمٌّ أكله في الطعام مع رسول الله ﷺ.

﴿**إِذْ**﴾ بدل من الثانية، أو من الأولى على جواز الإبدال من البدل، أو تعدُّد البدل، وعلى المنع يقدَّر له: «اذكر»، أو يقدَّر له «نَصَرَ» لا على طريق البدل، أو يعلَّق «إِذْ» الثانية بـ«ثَانِيَ» لكن بضعف، قيل: لإيهامه تطفُّله ﷺ على الصدِّيق في اللبث في الغار ومقدِّماته، من تقدُّم الصدِّيق بالدخول للتمهيد فيه واختبار هل فيه من دَابَّة، وليس كذلك، فإنَّ معنى ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾: بعض اثنين، والإخبار بأنَّه ثان في الغار لا يوجب أن لا يكون ثانيا في الذهاب إليه، بل لا مانع من معنى قولك: إنَّه ثان لتكريمه بتقدُّم الصدِّيق لإصلاح الغار، وما دخل ﷺ إلَّا بعد إصلاح الغار بخرق الثوب وبالقدم. ﴿**يَقُولُ**﴾ ﷺ ﴿**لِصَاحِبِهِ**﴾ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذ قلق وحزن وقال: إن متُّ أنا مات رجل واحد، وإن متَّ أنت مات الدين وهلكت الأمَّة، وقال: لو نظر أحد تحت قدمه ـ أي جعل خدَّه في موضعها ـ لأبصرنا، أو طلعوا فوق الغار فلو نظر أسفله لأبصرنا، ويروى أنَّ أحد الفتيان المتَّبعين بال في مقابلة الغار، فقال الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يرانا، فقال ﷺ: لا إنَّ الملائكة تسترنا ولو كان يرانا ما كان يبول هناك. والمضارع لحكاية الحال الماضية.

﴿**لَا تَحْزَنِ اِنَّ اَللَّهَ مَعَنَا**﴾ بالنصر والولاية الدائمة، و«مَعَ» هنا دخلت على التابع والأصل دخولها على المتبوع، أو يعتبران المباشرة تليق بالخلق

فدخلت عليه «مَعَ»، ولا بأس باعتبار خواصِّ المعانـــي الحقيقيَّة في المعاني المجازيَّة، وهنا مجازيَّة واعتبرنا فيها خَاصَّة المعيَّة.

[سيرة] قـــال الصدِّيق ﵁: لـــو أنَّ أحدهم رفع قدمـــه لأبصرنا تحت قدمه، وقصدت فتيان الغار فسبق أحدهم ورأى حمامة على فم الغار، وبينه وبين الغار قدر أربعين خطوة فرجع، وقال: ارجعوا لو كان فيه أحد ما كانت هناك حمامة، ويروى أنَّهم رأوا بيضها في فم الغار، ورأوا نسج العنكبوت، فرجعوا قائلين: لو كان فيه ما باضت في فم الغار ولا نسج العنكبوت، وإنَّه لأَقْدَمُ من ميلاد محمَّد. ويروى: على فمه حمامتان، وخرق الصديق كســـاءه فألقمه الجحر، وبقي جحر فألقمـــه قدمه فلدغ، وحيـــث الذهاب من مَكَّة يكون الصدِّيق أمامه وخلفه ويمينه ويســـاره، فقال ﷺ: «**ما هذا؟**» قال: أذكر الرصد فأتقدَّم، والطلـــب فأتخلَّف، وأكون جانبا لآمـــن عليك، قال ﷺ له: «**ما ظنُّـــك باثنيـــن ثالثهمـــا الله بالحفـــظ والنصـــر**»، قال رســـول الله ﷺ لأبي بكر ﵁: «**أنت صاحبي في الغـــار أنت صاحبي على الحوض**». وعن أنس قال رسول الله ﷺ لحسَّـــان: «**هل قلت في أبي بكر شيئا؟**» قال: نعم، قال: «**قل وأنا أسمع**» فقال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدوُّ به إذ صاعد الجبَلا
وكان حِبُّ رسول الله قد علموا ... مـــن البريَّة لـــم يعل بـــه رجلا

فضحك رسول الله ﷺ حتَّى بدت نواجذه، قال: «**صدقت يا حسَّان هو كما قلت**». وروي أنَّ أبا بكر قال:

قال النبيء ولـــم يجزع يوقِّرني ... ونحن في سدف في ظلمة الغار
لا تخش شـــيئا فـــإنَّ الله ثالثنا ... وقـــد تكفَّل لـــي منـــه بإظهار
وإنَّما كيد من تخشـــى بـــوادِرَهُ ... كيد الشياطين قد كادت لكفَّار
الله مُهلكُهُـــم طُرًّا بمـــا صنعوا ... وجاعل المُنتهى منهم إلى النار



ومن فضائله أنَّه أسلم على يده عثمان وطلحة والزبير وغيرهم، ومنها أنَّه حضر معه في جميع مشاهده ولم يغب عنه في سفر ولا حضر، قيل ومنها أنَّه عاتب الله تعالى أهــل الأرض إلَّا إيَّاهُ في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُــرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اُ۬للَّهُ﴾ ويبحث بأنَّ الخطاب لمن تثاقل عن الخروج فقط.

﴿**فَأَنزَلَ اَ۬للَّهُ**﴾ عطف على «يَقُولُ»، والترتيب ذكريٌّ. ﴿**سَكِينَتَهُ**﴾ طمأنينته التي تســكن معها القلوب ويحصل بها اليقين ﴿**عَلَيْهِ**﴾ على رســول الله ﷺ الثاني فــي الغار القائــل لصاحبه، فالضمائر لــه، ولو عاد هــاء «عَلَيْهِ» إلى الصدِّيق لتفكَّكــت الضمائر، فإنَّ الهاء أيضا فــي قوله: ﴿**وَأَيَّــدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ للنبيء ﷺ أولى من أن تكون للصدِّيق ﵁، ولو كان أنسب بإنزال الســكينة، لأنَّه هو الذي قلق لا رســول الله ﷺ، إلَّا أنَّه لا مانعًا من أن يراد بإنزال السكينة عليه ﷺ زيادتُها في محلٍّ يقلق فيه غيره، أو دوامها، ففي آية أخرى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اَ۬للَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُــولِهِ وَعَلَى اَ۬لْمُومِنِينَ﴾ [سورة التوبة: 26] لكن لا يضرُّ تفكيك الضمائر، وعن أنــس أنَّه ﷺ قال للصدِّيق ﵁: «**إنَّ الله تعالى أنزل سكينته عليك وأيَّدك**».

والمراد أنَّه أنزل ملائكة ليحرســوه في الغار ويصرفــوا وجوه الكفَّار عنه ويرعبوهم حين رجعوا، أو ليعينــوه في بدر وأُحد وحُنيــن وغيرهنَّ، وليس المراد لم تروها حين الغار فإنَّهم لم يحضروه، اللهمَّ إلَّا باعتبار المجموع فإنَّ الصدِّيق والرسول ﷺ حضراه. والعطف على «نَصَرَهُ اللهُ» إذا قلنا أنزلها ليعينوه في بدر... إلخ، وعلى «أَنزَلَ اللهُ» إذا قلنا أنزلها للحرس في الغار، تردَّدُوا حول الغار وصرفهم عن أن يــروه، وقال قائفهم: انتهت هنا فصعدا إلى الســماء أو نزلا في باطن الأرض، يعني الجبل.

[سيرة] أمره الله ﷻ بالهجرة فجاء إلى دار الصدِّيق ﵁ في الظهيرة فرأته امرأة منها، فقالت له: هذا رســول الله ﷺ جاء، فقال: بأبي وأمي ما جاء به في

وقت لا يعتاده؟ فدخل بإذن فقال: «**أمرت بالهجرة**» فقال: الصحبة يا رسول الله، فقال: «**نعم**» فقال: خذ إحدى الراحلتين، فقال: «**بالثمن**»، فأخذ القصوى بثمان مائة درهم، وهي التي يخرج عليها للجهاد والحجِّ وماتت في زمان الصدِّيق، وزوَّده الخبز واللحم والتمر وخرجا أوَّل الليل إلى الغار، وخلَّف عليًّا في فراشه ليظنَّه المشركون رسول الله، واستأجر الصدِّيق عبد الله بن أريقط ودفع له الراحلتين، وواعده أن يجيء بهما بعد ثلاث ليال يلبثان في الغار، وكان عامر بن فهيرة يختلف إليهما بالطعام وعليٌّ يجهِّزهما، واشترى ثلاثة أباعر من إبل البحرين واستأجر لهما دليلا وأتاهما عليٌّ في الليلة الثالثة بالإبل والدليل، وكان عبد الله بن أبي بكر غلاما ثقفا لقنا يبيت معهما ويخرج سحرا فيصبح في مكَّة كبائت، ويأتيهما بأخبار قريش إذا اختلط الظلام، ويأتيهما عامر بن فهيرة بلبن غنم ليلا.

[سيرة] ويروى أنَّه ﷺ استأجر مشركا من دبل من بني عبد بن عدي، وهو خريث، ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث، فأتاهما براحلتيهما صبح ثلاث فأخذ بهم طريق الساحل، ويسمَّى طريق أذاخر، ورجع الرصد سُود الوجوه حزنين هم ومن أرسلهم إذ لم يجدوه، وبكى الصدِّيق رضي الله عنه في الغار حين أحسَّ بالرصد فقال ﷺ له: «**ما يبكيك؟**» قال: بكيت للدين ينقطع بموتك لا لموتي، وكذا بكى حين لحقهم سراقة فقال: «**ما يبكيك؟**» فأجابه بذلك، وبسطت القصَّة في «الهميان» وغيره.

﴿**وَجَعَلَ كَلِمَةَ اَلذِينَ كَفَرُواْ**﴾ كفَّار قريش ﴿**السُّفْلَى**﴾ وهي دعوة الشرك، أو الكفَّار مطلقا والشرك مطلقا، كقول النصارى: ثالث ثلاثة، أو الكلمة اعتقاد الشرك ﴿**وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ اَلْعُلْيَا**﴾ وهي الدعاء إلى الإيمان أو اعتقاده، برفع «كَلِمَةُ» لا بالنصب ليكون اللفظ في معنى أَنَّهَا عليا في نفسها لا بالجعل، وإن كان النصر بها بالجعل، وحصر العلوَّ فيها بضمير الفصل وبتعريف الطرفين،

وكلمة السفلى بجعل الله إِيَّاهَا نفسها السفلى، فهي مغلوبة لخسَّتها، ولو غلب أهلها حينا فإنَّ غلبتها كلا غلبة ﴿وَاللّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه، فيعزُّ من والاه ويذلُّ من عصاه ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه، أو لا يفعل إلَّا الصواب.

﴿اِنفِرُواْ خِفَافًا﴾ شبابا ونشاطا وركبانا وفقراء، إذْ لا يُعطِّلهم المال، أو أغنياء إذا وجدوا ما يسرعون به، ومُقلِّلين السلاح وغير مشغولين، وأصحَّاء وعزَّابا ومتجرِّدين من الأتباع، ومسرعين حال سماع الهَيْعَةِ بلا تفكُّر ﴿وَثِقَالاً﴾ عكس ذلك، انفروا على أيِّ حال ثمَّ نسخ عن المرضى والزمنى والعمي ومن لا يقدر، أو لعدم المال بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ...﴾ [سورة التوبة: 91]، وقيل: بقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُومِنُونَ...﴾ [سورة التوبة: 122]. لم يتخلَّف أبو أيُّوب عن غزوة على عهد رسول الله ﷺ ولا بعده، فقيل له، فقال: «استنفر الله الخفيف والثقيل، ولا أجدني إلَّا خفيفا أو ثقيلا». وخرج سعيد بن المسيّب وهو أعور فقيل: إنَّك معذور، فقال: «استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنني الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع». وقال صفوان بن عمرو والي دمشق لشيخ من أهل دمشق خرج على راحلته: إنَّك يا عمُّ معذورٌ، فرفع حاجبيه وقد سقطا على عينيه فقال: «يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا، إلَّا أنَّه يبتلي من أحبَّ». وقال ابن أمِّ مكتوم: يا رسول الله أعليَّ أن أنفر؟ فقال: «**نعم، ما أنت إلَّا خفيف أو ثقيل**» فتقلَّد بسلاح ووقف بين يديه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى الَاعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [سورة الفتح: 17].

﴿وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ بما أمكن بهما أو بأحدهما، وقد قيل: الآية على الندب، أو هي من أوَّل الأمر في من أمكن له القتال. ﴿فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ في إعلاء دينه ﴿ذَالِكُمْ﴾ أي الجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ نفع وحسن في الدنيا والآخرة، وتركه ضرٌّ وقبيح، أو أفضل ممَّا تعدُّونه نفعا وحسنا من عدم الخروج له ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه خير وأنَّه من الله، فبادروا إليه.

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ٤٤ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾

تخلُّف المنافقين عن غزوة تبوك وقضية الإذن لهم

وعاب المتخلِّفين المنافقين وقرَّر تثاقلهم في قوله: ﴿**لَوۡ كَانَ**﴾ أي الجهاد الذي دعوتهم إليه بقطع النظر عن كونه في تبوك، فكأنَّه عاد الضمير إلى الجهاد على طريق التجريد، لأنَّ الجهاد مع فرض أنَّه في تبوك لا يتصوَّر أنَّه دونها، أو يقدَّر مضاف، أي لو كان بدله ﴿**عَرَضٗا**﴾ نفعا أي ذا نفع من منافع الدنيا ﴿**قَرِيبٗا**﴾ سهل التناول، شبَّه سهولة التناول بقرب المكان على التجوُّز الاستعاري، وقرب المكان سبب للسهولة على التجوُّز الإرسالي ﴿**وَسَفَرٗا قَاصِدٗا**﴾ ذا سفر قاصد أي ذا قصد، كلابِن وتامر بمعنى ذي لبن وذي تمر، فقاصد للنسب، أي متوسطا بين القِلَّة والكثرة، يقصده كلُّ أحد، تسمية للمتعلَّق بالفتح باسم المتعلِّق بالكسر، أو القصد بمعنى التوسُّط حقيقة لا مجازا، وعلى كلِّ حال ليس بمعنى الإرادة، سُمِّي المتوسِّط بين طرفي الإفراط والتفريط ذا قصد ﴿**لَّاتَّبَعُوكَ**﴾ إليه ليأخذوا العرض القريب من الغنيمة ﴿**وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ**

عَلَيْهِمُ﴾ منهم، أو الاســتعلاء للمضرَّة **﴿الشُّقَّةُ﴾** أي المسافة التي تقطع بمشقَّة، ولذلك سمِّيت بالشقَّة، ومن باب أولى أن يتَّبعوك لو قربت المسافة.

﴿وَسَــيَحْلِفُونَ﴾ لكم أي المتخلِّفون عن اتِّباعك **﴿بِاللَّهِ﴾** إذا رجعت من تبوك، وهو موضع قرب دمشــق فيما قيل، سُمِّيَ باســم عين فيه، وهي العين التي أمر ﷺ أن لا يمسُّوا منها حتَّى يأتي، فســبق إليها رجلان وفيها ماء قليل فجعلا يوسِّــعانها بســهم، فقال ﷺ: «**ما زلتما تبوكانها**» أي تحفرانها فسميت تبوك لذلك، والآية نزلت قبل الرجوع من تبوك فهي إخبار بالغيب على تقدير القول، أي قائلين: والله **﴿لَوِ اسْــتَطَعْنَا﴾** ويجوز أن لا يقدَّر القول على تضمين «يَحْلِفُونَ» معنى يقولون، فلا يتعلَّق «بِاللَّهِ» حينئذٍ بـ«يَحْلِفُونَ» بل بفعل القسم محذوفا، أي: يقولون بالله لو استطعنا.

﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي لو اســتطعنا الخروج معكم لخرجنا معكم، أو لو اســتطعنا قُوَّة بدن أو مال لخرجنا معكــم، و«لَوْ» وشــرطها وجوابها جواب القســم، أو «لَخَرَجْنَا» جواب القســم وجواب «لَوْ» أغنى عنه جواب القســم **﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾** بدل من «يَحْلِفُونَ» بدل اشتمال لا بدل مطابق، كما قيل، فإنَّ الحلف سبب الإهلاك لا نفس الإهلاك، وقد يقال: إنَّهُ هو لأنَّ إيقاعه إيقاع للهلاك؛ أو حال مــن واو «يَحْلِفُونَ» أو مــن الفاعل فــي «خَرَجْنَا». وإهلاك أنفسهم بالكذب، قال ﷺ: «**من حلف بالله كاذبا تبوَّأ مقعده من النار**»[1] وقال: «**اليمين الكاذبة تذر الديار بلاقع**»[2].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في نفيهم الاســتطاعة إذ قالوا: «لَوِ اسْتَطَعْنَا»

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، وفي سنن **أبي داود** وغيره: «من حلف على يمين مصبورة كاذبًا فليتبوأ بوجهــه مقعده من النار». كتــاب الأيمان والنذور، بــاب التغليظ في الأيمان الفاجرة، رقم: 3242، ج3، ص220. من حديث عمران بن حصين.

(2) رواه **البيهقي** في كتــاب الأيمان (19) باب ما جــاء في اليمين الغمــوس، رقم 19871. من حديث يحيى بن أبي كثير.

لأنَّهم مســتطيعون، وفي دعوى أنَّهم مؤمنون، وليس المراد تكذيبهم بأنَّهم لو استطاعوا لم يخرجوا لأنَّ في هذا إثبات عدم استطاعتهم وهم مستطيعون.

[سبب النزول] واعتذرت طائفة من المنافقين وطلبوا أن لا ينفروا فأذن لهم في التخلُّف اجتهادا منه بلا نوع مصلحة من الدنيــا، فعاتبه الله بلطف في قوله: ﴿عَفَا اَللَّهُ عَنكَ﴾ بتقديم العفو عن العتاب تعظيما له لم يقع لغيره وتطييبا لقلبه، والعفو مؤذن بالإســاءة ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في التخلُّــف عنك بقول كاذب، وهذا بيان لِمَا فيه العفــو وهو الإذن لهم، ويجوز أن لا يكون قولــه: ﴿عَفَا اَللَّهُ عَنكَ﴾ مشعرا بالإساءة، بل بدْءُ كلام بخير إعظاما له، كما تقول لمن لم يسئ إليك: عفا الله عنك افعل لي كذا أو لا تفعل كذا، وعفا الله عنك ما فعلت في أمري؟ ورضي الله عنك ما قلت في جوابي؟ قال ابن الجهم للمتوكِّل حين أمر بنفيه:

عـفــا الله عـنــك، ألا حـرمــة	تجــود بفضلك يا ابــن الندى
ألــم تــر عبــدا عــدا طــوره	ومولــىً عَفُوًّا أو رشــدًا هدى
أقلنــي أقالــك مــن لــم يزل	يقيــك ويصرف عنــك الردى

[أصول الدين] فــلا دليل في الآيــة على أنَّه ﷺ اجتهــد وأخطأ، وأنَّ له الاجتهــاد مطلقا، أو في مصالــح الدنيا، ولا على أنَّه صدر منــه الذنب بذكر العفو وبالاستفهام الإنكاري، فإنَّا نقول: الآية أمر له بالأولى، ولو أبقينا العفو مشعرا بالإساءة، وأيضا ذلك إساءة لم تصل الذنب، وعاتبه على شيئين: الإذن لهؤلاء وأخذ الفــداء، وقد يزاد إليهما في غير الجهــاد قصَّة ابن أمِّ مكتوم في «عبس»، وما فــي «التحريم» [في بدايتها]، ثمَّ إنَّه إن اجتهــد فغايته أنَّه اجتهد ولم يصب فله أجر واحد لا ذنب ولو أصاب لكان له أجران.

﴿حَتَّــىٰ يَتَبَيَّنَ لَــكَ اَلذِينَ صَدَقُــواْ﴾ في اعتذارهم بــأن يكون لهم عذر صحيح ﴿وَتَعْلَمَ اَلْكَاذِبِينَ﴾ فيه غايــة لقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لأنَّ المعنى: لا ينبغي لك الإذن حتَّى يتبيَّن... إلخ وأذن له في ســورة النور أن يأذن لمن شاء

من المؤمنين، ﴿فَاذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [سورة النور: 62] ولم يعرف ﷺ المنافقين حتَّى نزلت سورة براءة، كذا قيل، ويجوز أن يقدّر لا تأذن لهم حتَّى يتبيَّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين، ولم يقل: وتعلم الذين كذبوا كما قال: ﴿الذِينَ صَدَقُواْ﴾ للفاصلة، ولم يقل: ويتبيَّن الكاذبون للتفنُّن. قال عمرو بن ميمون الأودي: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر بشيء فيهما، إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون.

﴿لَا يَسْتَاذِنُكَ اَلذِينَ يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِلَاخِرِ﴾ في ترك الجهاد أو بذكر الجهاد طمعا في أن ترخِّص لهم في تركه، وإنَّما ذلك حال المنافق أو من له عذر، والنفي متوجِّه للاستئذان والكراهة معا، أو للكراهة، بل يستأذنك المؤمن المخلص لعذر صحيح، أي تحقَّق إيمانهم بالله واليوم الآخر ﴿أَنْ يُّجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ بل يتبعونك ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ويكرهون التخلُّف ولو أبحته لهم لخلوص إيمانهم، ورجاء الثواب وخوف العقاب، وذلك شأنهم، فهلَّا ارتبت فيمن استأذنك وتمهَّلت في شأنهم.

ومن شأن المؤمن أن يسارع في الخير، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**مِن خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلَّما سمع هيعة أو فزعا طار على متنه يبتغي القتل أو الموت مظانه**»(1) أي في مواطن يعلم أنَّ الموت فيها شريف كالموت في الغزو ولو بلا قتل، كمرض وجوع وعطش.

ونفي الاستئذان نفي لسببه وملزومه وهما حبُّ التخلُّف، ويجوز أن يقدَّر: كراهة أن يجاهدوا. [قلت:] أكبُّ على التأليف إذ لم أجد لنا بنا غازيا يوما ولا من به أغزو، ولو كنت في زمان الأمير يوسف بن تاشفينت(2) لكنت أطوع له من سائر أعوانه إن شاء الله، ولعلَّ الله يجعل لي ثوابا لقصدي.

---

(1) رواه **المنذري** في كتاب الترغيب في الرباط في سبيل الله، ج2، ص247، رقم 20. من حديث أبي هريرة.

(2) يوسف بن تاشفين بن إبراهيم المصالي الصنهاجي اللمتوني أمير المؤمنين وملك الملثمين =

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ أراد المتَّقين مطلقا، فيدخل هؤلاء الذين لا يستأذنونك أوَّلا، أو هم المراد وشهد لهم بالتقوى ووعد لهم الثواب، فمقتضى الظاهر: والله يحبُّهم، فوضع الظاهر موضع المضمر ليمدحهم بالتقوى وللفاصلة، وفي «أخبار الملوك»: [ليمدَّهم] بالإحسان عدَة لجزاء المحسنين.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـٔذِنُكَ﴾ في ترك الجهاد بلا عذر ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُومِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْاخِرِ وَٱرْتَابَتْ﴾ شكَّت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عطفت هذه الجملة على جملة الصلة «لم يومنوا» تحقيقا فلم يرجوا ثوابا ولا خافوا عقابا، ولم يقل: وترتاب بصيغة المضارع لأنَّ الريبة ماضية في قلوبهم راسخة سابقة، وعدم الإيمان مترتِّب عليها فكان بصيغة المضارع، وربَّما أفاد التجدُّد بأن يتخيَّل لهم أنَّ الإيمان حقٌّ ثمَّ ينفونه، ويتخيَّل لهم ثمَّ ينفونه وهكذا... وأمَّا من له عذر من المؤمنين فمعذور في طلب التخلُّف، فقيل: ككعب بن مالك، وهلال بن أميَّة، ومرارة بن الربيع من المخلصين.

وعدم الاستئذان علَّة مستمرَّة في المخلصين إلَّا لعذر صحيح، ثمَّ إنَّه إذا جاز فإنَّما يقال: استأذن في ترك الخروج لا في الخروج، لأنَّ الخير لا يستأذن فيه، كما لا تستأذن أخاك في أن تسدي إليه معروفا، وكما لا تقول للضيف: هل أقدِّم لك الطعام؟ أو هل أقدِّم الشراب؟ أو هل أعلف دابَّتك؟ كما راغ الخليل في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ﴾ [سورة الذاريات: 26] أي ذهب خفية فَجَاءَ بِعِجْلٍ حَنيذٍ، فإنَّ الاستئذان في نحو ذلك يفهم التكلُّف والكراهة، وقد

= ومؤسِّس دولة المرابطين بمراكش ولد سنة سنة 410هـ قوي أمره في المغرب الأقصى فاستنجد به المعتمد بن عباد بإشبيلية على قتال الفرنجة فزحف بجموعه فكانت واقعة زلاقة المشهورة وقد غيَّرت ميزان القوى في الأندلس لفترة طويلة، وبايعه ملوك الأندلس وأمراؤها وكانت له جولة ثانية إلى الأندلس فشمل سلطانه المغرب الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس وتوفي بمراكش سنة 500هـ. الأعلام للزركلي، ج8، ص222.

يســـوغ الاســـتئذان لداع فيتبيَّن له وجه الاســـتئذان إذا كان يخاف على فساد الطعام بنحو صومه، أو شغل قلبه.

﴿**فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**﴾ يتحيَّــرون، والتردُّد: الذهاب والمجيء، فهذا اســـتعارة تمثيليَّة، أو مجاز عن التحيُّر بعلاقة السَّـــبَبيَّة، فعادة المتحيِّر التردُّد. و«فِي رَيْبِهِمْ» حال من واو «يَتَرَدَّدُونَ» لا متعلِّـــق بـ«يَتَرَدَّدُونَ»، وقدِّم للفاصلة والحصر. وروي أنَّ ذلك في تسعة وثلاثين رجلا من المنافقين.

وزعم بعض أنَّ قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـــتَاذِنُكَ...﴾ منسوخ بقوله تعالى في ســـورة النور: ﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءَامَنُواْ بِاللهِ وَرَسُـــولِهِ...﴾ إِلىَ ﴿...غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة النور: 62] فخيَّر الله تعالى رسوله ﷺ: من غزا فله الثواب ومن قعد فلا حرج عليه.

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿46﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿47﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿48﴾﴾

تخلُّف المنافقين بغير عذر وخطر خروجهم للقتال

﴿**وَلَوَ ارَادُواْ الْخُرُوجَ**﴾ معك إلى الجهاد ﴿**لأَعَدُّواْ**﴾ هيَّؤوا ﴿**لَهُ**﴾ للخروج ﴿**عُدَّةً**﴾ وخرجوا، والعدَّة: المؤونة، أي مؤونة تليق به من سلاح ومركوب وزاد ونحو ذلك ﴿**وَلَكِن كَرِهَ اَللهُ انبِعَاثَهُمْ**﴾ هذا الاستدراك متعلِّق بقوله: ﴿لأَعَدُّواْ﴾ باعتبار إثباته بإثبات إرادة الخروج لو ثبتت، أي لو أرادوها وأعدُّوها لخرجوا في زعمهم، لكن لا يخرجون في قضاء الله، وكراهة الله انبعاثهم سبب وملزوم لعدم خروجهم، أو متعلِّق بقوله: ﴿وَلَوَ ارَادُواْ الْخُرُوجَ﴾ أي لكن ما أرادوه، فعبَّر عن قوله: لكن ما أرادوه بقوله: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اَللهُ﴾ لأنَّ كراهته سبب وملزوم لعدم إرادتهم، أو المعنى: ما تركوا العدَّة بأنفسهم تحقيقا بل بخذلان الله تعالى وكراهته فلم تقع، لكن بين متَّفقين، فإنَّها لا تقع بينهما بل بين ضدَّين، أو نقيضين أو مختلفين، والانبعاث انفعال عن بعث النبيء ﷺ لهم، أي ولكن كره الله توفيقهم إلى المطاوعة.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ حبسهم عن الخروج بالجبن والركون إلى الراحة، والتخويف من شدَّة قتال الروم، وذلك خذلان لا إجبار، ويجوز أن يكون محطُّ الاستدراك هو قوله: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي لأعدُّوا له عدَّة ولكن ثبَّطهم عن الإعداد بخذلانهم عن إرادة الخروج، وذلك كما يفيد الخبر بتابعه، نحو: زيد رجل صالح، وأيضا كأنَّه قيل: ما خرجوا أو ما أعدُّوا لكن تثبَّطوا، كما تقول: ما قام زيد لكن قعد، وما أحسن زيد لكن أساء، واتِّفاق ما بعد «لَكِن» وما قبلها جائز، إذا اختلفا نفيا وإثباتا، وانتفاء إرادة الخروج يستلزم انتفاء خروجهم، وكراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبُّطهم عن الخروج.

وأيضا أنت خبير بأنَّ قضاء الله لا يردُّ، وقد قضى أن لا يريدوا، فكراهته نفي لإرادتهم ونائبة عنه، فكأنَّه قيل: ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدَّة ولكن ما أرادوا، لأنَّ الله كره انبعاثهم لِمَا فيه من المفاسد. [قلت:] وإنَّما عاتب رسولَ الله ﷺ على إذنه في التخلُّف لهم مع أنَّ خروجهم مفسدة لأنَّه مكلَّف بالظاهر، ولا يدري غَيب مفسدتهم وهي الخبال والإيضاع بالنميمة، وإظهار العدوِّ على الأسرار، ولأنَّه أذن لهم بلا إذن من الله ﷻ.

﴿وَقِيلَ﴾ أي قال بعضهم لبعض، أو قال لهم رسول الله ﷺ، أو قال لهم الله بالخذلان، أي قدَّر عدم الخروج، أو قال الشيطان ﴿اقْعُدُواْ مَعَ اَلْقَاعِدِينَ﴾ من الصبيان والمجانين والبلَّه والنساء والمرضى والهرمى، أو ذلك قول من الله أمر توبيخ، كقوله تعالى: ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: 29] وقوله: ﴿اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [سورة فصّلت: 40] ولا ضعف في قولك: أراد الله عدم خروجهم فقضى على رسوله أن يأذن لهم، أو سلَّط عليهم الشيطان فوسوس لهم. والقاعدون: هم من جاز له القعود، وأمَّا من لم يجز لهم فهم هؤلاء المنافقون الذين تخلَّفوا، وفي القاعدين نقص مع أنَّه أبيح لهم ولكن لا مؤاخذة ولنقصهم ذمَّ المنافقين المتخلِّفين بمعيَّتهم.

﴿**لَوْ خَرَجُواْ**﴾ إلى الجهاد ﴿**فِيكُم**﴾ أي معكم أو حال من الواو ﴿**مَا زَادُوكُم**﴾ شيئا من الأشياء ﴿**إِلَّا خَبَالاً**﴾ أي إلَّا شيئا هو خبال، ولا يلزم من زيادة أنَّه قد كان فيهم خبل من قبل ثمَّ زيد خبل آخر، فإنَّه لا خبال في الخارج، ولا يلزم من الزيادة أن تكون على شيء من جنسه، وقيل: إنَّ فيهم بعضا، فالزيادة على ظاهرها.

ويدلُّ له ما روي أنَّه قلَّ عنهم الماء فدعا رسول الله ﷺ فجاءت سحابة فأمطرت، فقيل لرجل: ويحك أسلم ألا ترى؟ فقال: ما ذاك إلَّا سحابة مرَّت فأمطرت. ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ التقدير: ما زادوكم خيرا إلَّا خبالا، لأنَّ الاستثناء المنقطع لا يكون في التفريغ، إذ لا دليل عليه، إلَّا أن يقال: لَمَّا كان المقام مقام طمع المؤمنين أن يفعل هؤلاء خيرا كفى ذلك دليلا. والخبال: الفساد بتخذيل المؤمنين وتجبينهم، وتعظيم أمر الروم، والتردُّد في الرأي، وتزيين أمر لفريق وتقبيحه لآخرين ليختلفوا. ﴿**وَلأَوْضَعُواْ**﴾ بلام ألف بعدها ألف [اتباعا لخطِّ المصحف] ﴿**خِلَالَكُمْ**﴾ أسرعوا.

[لغة] وأصله للإبل ونحوها من الركائب ويستعمل لازما، يقال: أوضعت دَابَّة زيد أي أسرعت، وأوضعتها: أسرعتها، وعلى التعدية يقدَّر: أوضعوا النمائم، واستعير لهم شبه سرعتهم بسرعة الإبل، أو شبَّه شدَّة انتقال قلوبهم في الشرور بسرعة نحو الإبل، وكأنَّه قيل: أسرعوا بإبلهم، ويستعمل أيضا متعدِّيا، أي أسرعوا إبلهم في عمل.

و«خِلَالَكُمْ» بينكم، فهو ظرف مكان، جمع لخلل وهو الفرجة، ويجوز أن يكون الكلام استعارة بالكناية، وإثبات الإيضاع تخييليَّة، والأولى أن يكون استعارة تمثيليَّة، شبه فسادهم وسرعتهم فيه من النميمة ونحوها بسير الإبل وسرعتها، والجامع مطلق الإسراع وعدم التحرُّز عن عاقبة.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة، فحذف الجارَّ، والأخفش يقيس ذلك، أو ضمِّن معنى التصيير، أي يطلبون أن يكون أمركم الفتنة، أي يصيِّرون أمركم الفتنة، أو يصيِّرونكم ذوي فتنة. والفتنة هنا: الشركُ، وصُحِّحَ أنَّها اختلاف الكلمة، وقيل: الفتكُ برسول الله ﷺ ليلة العقبة، اجتمع اثنا عشر رجلا فوقفوا على الثنية ليقتلوه، فخيَّبهم الله تعالى. والجملة حال من واو «أَوْضَعُوا».

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ﴾ كلامكم ﴿لَهُمْ﴾ أي لأجلهم، ينقلون أخباركم أَيُّهَا المسلمون إلى المنافقين، أو هم يسمعون كلامكم لهم، يعني لنفعهم، فاللام متعلِّق بـ«سَمَّاع»، أو بمحذوف نعت لـ«سَمَّاعُونَ» باعتبار نيابة «سَمَّاعُونَ» عن رجل. ﴿سَمَّاعُونَ﴾: ثابتون لهم كأنَّهم منهم فينقلون، ويجوز أن يكون السمع بمعنى القبول، أي رجال يقبلون كلام المنافقين مطيعين لهم لشبهات يلقونها إليهم مع أنَّهم كبراء، واللام في هذا للتقوية، والجملة حال من واو «يَبْغُونَكُم»، أو كَافَّة.

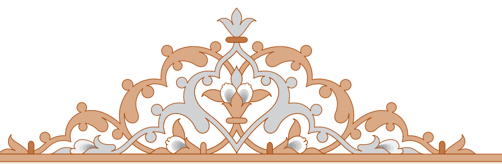
﴿وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي بهم وبأحوالهم، وهم السَّمَّاعون، وعبَّر عنهم بالظاهر ليصفهم بالظلم، أو مطلق الظالمين فيدخل هؤلاء السَّمَّاعون بالأولى، فهو يجازيهم على ظلمهم ﴿لَقَدِ اِبْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ﴾ افتراق أمركم أو كلمتكم وخذلانكم، لتضعفوا فيغلبوكم ﴿مِن قَبْلُ﴾ يوم أُحُد.

[سيرة] كما انصرف ابن أُبَيٍّ لعنه الله يوم أُحُد من ثنية الوداع بأصحابه وهم ثلاثمائة، وبقي من المسلمين من هو مخلص وهم سبعمائة، وقيل: رجع بهم قبل الثنية لعنه الله من ذي جدَّة، وكما قالوا يوم الخندق: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، وكما وقف له اثنا عشر رجلا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا به ﷺ كذلك، قيل: من ذي جدَّة، والصواب من ذي جدر، وهو موضع قريب من المدينة، وكذا قيل: انصرف لعنه الله في هذه الغزوة قريبا من ثنية

الـــوداع ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ اَلْأُمُـــورَ﴾ ردَّدوا فكرهم لأجل مضرَّتـــك، ومضرَّة دينك وأصحابك، كمن يقلب شيئا ظهرا لبطن وبطنا لظهر ليظهر له ما يظهر ﴿حَتَّىٰ جَآءَ اَلْحَقُّ﴾ النصر ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ﴾ عزُّه وعزُّ دينـــه وأهله، أو قضاؤه الأزليُّ وقدره ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لذلك، فأظهروا الدخول فيـــه أكثر مِمَّا أظهروه قبلُ، وماتوا علـــى نفاقهم إلَّا من شـــاء الله، وإنَّما صـــحَّ التغيِّي بـ«حَتَّـــى» لتأويل ﴿ابْتَغَوْا﴾ و﴿قَلَّبُوا﴾ بالبقاء على ابتغاء الفتنة والتقليب، أو لتقدير: اســـتمرُّوا على ذلك.

وســـلَّى الله بالآيتين نبيه ﷺ والمؤمنين على تخلُّف المنافقين، فإنَّه ضاق صدره بتخلُّفهم ولو أذن لهـــم لأنَّه أذن لهم بلا طيب من نفســـه، وبيَّن له أنَّه ثبَّطهم لفسادهم وهتك أستارهم، وأنَّه لا عذر لهم.





﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿49﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿50﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿51﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿52﴾﴾

انتحال المنافقين لأعذار، وابتهاجهم بسوء يصيب المسلمين

﴿**وَمِنْهُم مَّنْ يَّقُولُ ايذَن لِّي**﴾ في التخلُّف عن الخروج ﴿**وَلَا تَفْتِنِّي**﴾ لعدم الإذن لـي، فإنِّي إن لم تأذن لـي وتخلَّفت كنت مفاتنا لـك بالتخلُّف، أو لا تكلِّفني بالخروج في هذه الشدَّة، أو أراد فتنة الدين للنبيء ﷺ وهو معصية الله بمخالفتك، لأنَّهم قَدْ يُراعون أمر الله في بعض الأحيان، أو ذلك من لسانه لا من قلبه، وفي قوله تلويح بأنَّه قاعد أذن له أو لم يأذن، إلَّا أنَّه أحبَّ أن يكون قعوده بإذن، أو الفتنة: ضياع المال والعيال إذ لا كَافـل لهما بعدي، أو الفتنة ببنات الروم فتنة المعصية أو فتنة القلب بأن يزني بهنَّ قبل القسمة.

وإسناد الفتنة في ذلك كلِّه إلى النبيء ﷺ لعلاقة السببيَّة، أي لا تكن سببا لوقوعي في الفتنة بعدم الإذن، والمراد في ذلك كلِّه الجد بن قيس، وروي أنَّ رسـول الله ﷺ قال له: «**يا أبا وهيب هل لك في حـلاوة بني الأصفر؟ أو في**

جلاد بني الأصفر ـ أي جهادهـــم يعني الروم ـ **تتَّخذون منهم ســـراري بيضا لعســـا لم تر مثلهنَّ؟**» فقال: إيذن لي في القعود لا تفتنِّـــي ببنات الأصفر، قد علمت الأنصار أنِّي رجل مفرط في التعلُّق بالنســـاء، فأخشـــى أن أفتن ببنات الأصفر بالزنى بهنَّ قبل القسمة، أو خرج عن محلِّ الكلام فقال: إنَّهنَّ يفتنَّني عن الكسب والجهاد، فإنَّ هذا قبل الخروج والقسمة لا يتمُّ اعتذارا، والأصفر رجل من الحبشـــة ملك الروم، فولد له بنات لعس، واللعساء: التي شفتها إلى السواد، وذلك ملاحة، أو وقع جيش من الحبشة على نساء الروم فولدن أولادا صفرا بين البياض والســـواد، ويقال: بنو الأصفر ملوك الروم، أولاد أصفر بن روم بن عيص بن إسحاق.

وردَّ الله عليه قوله: ﴿**أَلَا فِي اِلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ**﴾ فتنة الدين، أو مفاتنة الرسول، ســـواء أراد الجدُّ النســـاءَ أو غيرهنَّ ممَّا مَرَّ، أو فتنة التخلُّف أو إظهار النفاق. ذكر الفتنة فقابله الله بذكرها، ســـواء أكانـــت التي أراد أم غيرهـــا، والله عالم بمراده، و«أَلَا» تنبيه وتأكيد لكونه وقع في الفتنة التي فرَّ منها مِمَّا مرجعه إلى الدين، أو في الفتنة الكاملة وهي ما مرجعه إلى الدين. و«ال» للكمال ومراده غيرها، أو عدَّ الله ﷻ عليه ما عَدَّهُ فتنة كلا فتنة بالنســـبة إلى فتنة الدين إذ أراد هو غيرها. والتقديم للحصر. وضمير الجمع له ولأتباعه، أو للمنافقين مطلقا، ذكرهم لذكر واحد منهم، وعلى هذا فالفتنة فتنـــة الدين بأيِّ وجه كانت، مثل أن يقال: سقطوا [في الفتنة] بالتخلُّف.

﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِالْكَافِرِينَ**﴾ بالكافرين المصرِّين، لا محيد لأحدهم عنهـــا. والعطف على «سَـــقَطُوا» عطف اســـمِيَّة علـــى فِعلِيَّة، فينســـحب على المعطوفة ما جـــرى على المعطوف عليها مـــن التنبيه والتأكيـــد بـ«أَلَا»، ففي المعطوفة تأكيـــد بـ«أَلَا» وبِـ«إِنَّ» واللام والجملة الِاســـمِيَّة مع ذكر الإحاطة، ففيها ما ليس في قولك: لهم جهنَّم، ولا ســـيما إن قلنـــا: محيطة بهم من الآن

لإحاطة أســبابها بهم، فإنَّه آكد من أن يقال: محيطة يوم القيامة، فيجوز أن يراد بجهنَّم أسبابها وملزوماتها، تسمية باسم المسبّب اللازم لاسم السبب الملزوم، فيكون اسم الفاعل للحال كما قيل: هو حقيقة، وإن أريد أنَّ جهنَّم ستحيط بهم فهو للاستقبال، وإن قيل: أحاطت بهم بنفسها لتحقُّق الوقوع فهو للحال، وكذا ما قيل: إنَّ أعمالهم في الدنيا هي نار جهنَّم نفســها، ويوم القيامة تظهر صورة هذه النار، وهو وجه في قوله تعالى: ﴿يَاكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [سورة النساء: 10]. والكافرون على العموم، فيدخل هؤلاء بالحجَّة، وهــي وجود الكفر فيهم، أو المراد هؤلاء، ذكرهم باسم الكفر تشنيعا عليهم في دعواهم الإسلام وللفاصلة.

﴿**إِن تُصِبْكَ**﴾ يا محمَّد في الغزو أو غيره ﴿**حَسَــنَةٌ**﴾ ما يستحسن بالطبع كالظفر والغنيمة ودخول الناس في الإســلام والهدايا، وكون الكلام في الغزو لا يمنع التعميم في الحســنة وَالسَّــيِّئَة ﴿**تَسُــؤْهُمْ**﴾ بالحزن لشــدَّة بغضهم وحســدهم ﴿**وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ**﴾ فعلة مصيبة هذا هو الأصل، ثمَّ استعملت لفظة مصيبة اسما غير وصف، وفي الشــرِّ دون الخير، وذلك كالقتل والشدَّة يوم أحد، وكلِّ ما يكره ولو مرضا أو شــتما، وذلك في نفس الأمر، وأما الآية فالمصيبة في الغزو لقوله تعالى: ﴿**يَقُولُواْ قَدَ اَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ**﴾ جملة «هُمْ فَرِحُونَ» حال مــن واو «يَتَوَلَّواْ» وكفى، لا منها ومن واو «يَقُولُوا»، إذ لا يعمل في الحال عاملان، وكذا غيرها.

وقابل الحســنة بالمصيبة ولم يقابلها بالســيِّئة كما في آل عمران: ﴿وإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ [سورة آل عمران: 120] لأنَّ ما هنا للنبيء ﷺ وما أصابه من سوء هو مصيبة يثاب عليها، وما في آل عمران للمؤمنين وهم قد تصيبهم ســيِّئة لذنبهم. ومعنى أخذهم أمرهم من قبل: هو حذرهم كالتخلُّف يوم أحد قبل المصيبة، وإذا سمعوا أنَّ سلطانا أوعد رسول الله ﷺ كتبوا إليه، أو أرسلوا إليه نحن معك تحرُّزا وأخذا للحذر.

وتوليهم: ذهابهم عن موضع اجتماعهم وتحدُّثهم، ويضعف أن يفسَّر بالتولِّي عن رسول الله ﷺ، لأنَّه لم يجر ذكر لاجتماعهم معه حين أصيب، وحذف من الأوَّل: «يا ليتنا كنَّا معه فنفوز فوزا عظيما» لأنَّ المقام بيان لقسوتهم، وحذف من الثاني ذكر شماتتهم بما أصابهم من ضرٍّ ومشقَّة وذلك احْتِبَاك.

وَلَمَّا جعل المنافقون المتخلِّفون يخبرون أخبار السوء عن رسول الله ﷺ وأصحابه بأنَّهم لقوا مشقَّة السفر وهلكوا، كذَّبهم الله تعالى بقوله: ﴿**قُل**﴾ يا محمَّد ردًّا لفرحهم بمصيبتك: ﴿**لَّن يُّصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اَللَّهُ لَنَا**﴾ في اللوح المحفوظ أن يصيبنا، أو ﴿مَا كَتَبَ﴾: قضى، أو ما خصَّ لنا من خير الدنيا والآخرة مثل النصر والشهادة، ومن سوء الدنيا ونثاب عليه.

[صرف] والياء عن واو مكسورة نقل كسرها للصاد فقلبت ياء، من الصواب بمعنى وقوع الشيء فيما قصد به، أو من الصوب وهو النزول.

قال كعب الأحبار: سبع آيات في كتاب الله إذا قرأتهنَّ لا أبالي ولو انطبقت السماوات على الأرض لنجوت: ﴿قُل لَّن يُّصِيبَنَا...﴾ إلى: ﴿...الْمُومِنُونَ﴾، ﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ...﴾ إلى: ﴿...الرَّحِيمُ﴾ [سورة يونس: 107] ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الَارْضِ...﴾ إلى: ﴿...مُبِينٍ﴾ [سورة هود: 06] ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ...﴾ إلى: ﴿...مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: 56] ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ...﴾ إلى: ﴿... السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة العنكبوت: 60] ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ...﴾ إلى: ﴿... الْحَكِيمُ﴾ [سورة فاطر: 2] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ...﴾ إلى: ﴿... الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة الزمر: 38].

﴿**هُوَ مَوْلَانَا**﴾ متولِّي أمرنا بالنصر ومصالحنا كلِّها ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [سورة محمَّد: 11] ﴿**وَعَلَى اَللَّهِ**﴾ لا على غيره ﴿**فَلْيَتَوَكَّلِ**﴾ الفاء للتأكيد والربط، فلا تمنع تعلُّق ما قبلها فيما بعدها، وعبارة بعض: إنَّها

للاستجابة، ولا يظهر ذلك، وإذا كانت للتأكيد والربط لم يجتمع عاطفان: الواو والفاء، ويجوز تعليقه بمحذوف عطف عليه بالفاء، أي وعلى الله توكّلنا فليتوكّل عليه سائر المؤمنين، وقيل: الفاء في جواب شرط، وإنّما قدّم معمول ما بعد الفاء عليها ليبقى شيء قبلها، أي وإذا كان الأمر كذلك فليتوكّل المؤمنون على الله ﷻ ﴿**الْمُومِنُونَ**﴾ إذ لا يليق بإيمانهم أن يتوكّلوا على غيره، ثمّ إن كان قوله: ﴿وَعَلَى اَللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اِلْمُومِنُونَ﴾ من مقول القول فإظهار اسم الجلالة للتلذُّذ والتعزُّز، وإلّا فالمقام للإضمار.

ثمّ بعدما ردّ فرحهم بما يسوؤه ﷺ بقوله: ﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَا...﴾ ردّه أيضا بقوله: ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ**﴾ تتربّصون أي تنتظرون، وأيضا في هذا بيان لقوله تعالى: ﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اَللهُ لَنَا﴾. والتربُّص يقع في الخير كما يقع في الشرّ، والأصل: تتربّصون، حذفت إحدى التاءين. ﴿**بِنَا**﴾ يقال: انتظر به، ولا يلزم أن يقدّر: هل تربّصون أن يقع بنا، بل لو قدّر لكان مفعولا به لـ«يتربّص»، ولَكَانَ التفريغ في الإثبات لأَنَّ النفي بـ«هَلْ» حينئذ تسلّط على قوله: أن يَقَعَ بِنَا.

﴿**إِلَّآ إِحْدَى اَلْحُسْنَيَيْنِ**﴾ الخصلتين، أو الفعلتين، أو العاقبتين الحسنيين، وقد تغلبت الإسميّة على العاقبة، وهما النصر والشهادة، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**تكفَّل الله تَعالى لمن جاهد في سبيله، لا يُخرجه من بيته إلّا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنَّة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة**»[1] أي أو مع ما نال من أجر.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب التوحيد (28) باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ رقم 7457. ورواه **مسلم** في كتاب الإمارة (28) باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم 104 (...). من حديث أبي هريرة.

[لغة] ولا يلزم أن يقال: النصرة بالتاء لأنَّه يقال النصر فعلة حسنة ويقال الكرم خصلة حسنة وكذا فعلة، وتربُّص الكافرين يتحقَّق في الشهادة من حيث إنَّها قتل لا من حيث إنَّها شهادة، وأمَّا في النصر للمؤمنين فلا تربُّص لهم فيه إلَّا باعتبار المآل، كـ«لَامِ» الصيرورة، وذلك بالنظر إلى ما في نفس الأمر، لأنَّهم لا يحبُّون النصرة للمؤمنين ولا ينتظرون، فأطلق التربُّص فيهما تغليبا، أو استعمالا للكلمة في المجاز والحقيقة. والحسنى: تأنيث الأحسن، وهما للتفضيل، فكلاهما أحسن معًا من غيرهما، وليس المراد أنَّ إحداهما أحسن من الأخرى، اللهمَّ إلَّا أن يقال: كلٌّ أحسن من الأخرى من وجه، فباعتبار أنَّ النصر قتل لأعداء الله ﷻ وإذلال لهم وإقامة للدين في الحين وما بعد الحين يكون أفضل، وباعتبار أنَّ الشهادة إفضاء إلى الحبيب سبحانه تكون أفضل.

وعنه ﷺ: «**يضمن الله ﷻ لمن خرج في سبيله لا يخرج إلَّا إيمانا بالله وتصديقا لرسوله أن يدخله الجنَّة، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة**»[1] فـ«إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ»: المغفرة أو الجنَّة، والأخرى: الأجر أو الغنيمة على منع الخلوِّ لا على منع الجمع، [قلت:] ولا مانع من أن يكون قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ...﴾ تهكُّما بهم بأنَّ ما ننال هو ما تحبُّون لنا وهو إحدى الحسنيين جعلهم كأنَّهم يحبُّون الخير للمسلمين.

﴿**وَنَحْنُ**﴾ معشر المؤمنين ﴿**نَتَرَبَّصُ بِكُمُۥٓ أَنْ يُّصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ**﴾ داهية كصاعقة ثمود وريح عاد، وخسف قارون وغيره، وقوله: ﴿نَحْنُ﴾ للحصر فيما زعم أهل المعاني، أو للتأكيد إذ لم يقل: ونتربَّص، ولذلك غيَّره عن أسلوب قوله: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾. ﴿**أَوْ بِأَيْدِينَا**﴾ بأن يأذن لنا في قتالكم، لأنَّه ﷺ لا يقاتل المنافقين لأنَّهم لم يظهروا الشرك والعناد، ولو فعلوا لقاتلهم

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الإمارة (28) باب فضل الجهاد رقم 103 (1871). من حديث أبي هريرة.

وإنَّما يقاتلهم بالحجَّة لا بالسيف، قال الله ﷻ: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ أي بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي بالحجَّة. ولم يقل: أن يصيبكم بإحدى السُّوأَيَيْن كما قال: ﴿إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ لأنَّ المقام لبيان ما يصيبهم وإرهابهم به. والعطف على «بِعَذَابٍ» أو على «مِنْ عِندِهِ»، وهو نعت «عَذَابٍ»، أي ثابت من عنده، أو «بِأَيْدِينَا» أي أو ثابت بأيدينا.

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ بنا ما تربَّصون، أو ما هو عاقبتنا، أو مواعد الله تعالى لنا بمعنى أنَّها العاقبة، ولو لم تكن في حسبان الكفَّار، والعطف عطف إنشاء على إخبار، أو الفاء في جواب شرط أي إذا كان الأمر كذلك فتربَّصوا، والأمر للتهديد ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما يقع بكم، أو ما هو عاقبتكم، أو مواعد الشيطان من المهالك، أو تربَّصوا مواعد الشيطان إنا معكم متربِّصون مواعد الله ﷻ، وحذف متعلِّق المتربصين للعلم به مِمَّا مرَّ، ويحتمل العموم. وعلى كلِّ حال إذا وقع ما يُتربَّص فُزْنَا وخبتم وشاهدنا ما يسرُّنا، أو شاهدتم ما يسوؤكم إن عذِّبتم بعذاب من عند الله أو بأيدينا.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55)﴾

إحباط ثواب المنافقين وعلَّة ذلك

[سبب النزول] ونزل في الجدِّ بن قيس إذ قال: لا أخرج معك لأنِّي لا أصبر عن النساء، ولكن أعينك بمالي وفي غيره مِمَّن على رأيه، أو في المنافقين مطلقا قوله تعالى:

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُّتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ قل يا محمَّد لهم: أنفقوا أموالكم طائعين لرسول الله ﷺ في أمره لكم بالإنفاق، أو لله تعالى في أمره به، أو كارهين، أو ذوي طوع أو كره، أو إنفاق طوع أو كره لن يتقبَّل الله إنفاقكم في طاعة الله على زعمكم أو برضاكم لا يثيبكم عليه، أو لن يأخذه عنكم رسوله، كما يُقوِّيه قصَّة ثعلبة لأنَّكم كنتم خارجين عن الطاعة بالعناد.

ونائب «يُتَقَبَّلَ» عائد إلى الإنفاق المعلوم من قوله: ﴿أَنفِقُوا﴾ أو إلى المال المعلوم منه. ومعنى الطوع: عدم الإلزام والقهر من رسول الله ﷺ، لا الرغبة في الطاعة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي كارهون بقلوبهم،



ولا بأس بإبقاء الطوع على رضا النفس أو طاعة الله، لأنَّ الأمر تهديد لا يقبل عنهم ولو على تقدير قصد وجه الله.

وفي قوله عَجَّلَّ: ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُم﴾ استعارة تمثيليَّة، شبِّهت حالهم في النفقة وعدم قبولها بوجه من الوجوه بحال من يؤمر بفعل ليجرِّبه، فيظهر له عدم جدواه، وإنَّما لا يقبل إن أنفقوا لأنَّهم لم يقصدوا به وجه الله عَجَّلَّ، وإنَّما علَّل عدم القبول بالفسق مع أنَّه علَّله بقوله: ﴿**وَمَا مَنَعَهُمُۥٓ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمُۥٓ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَاتُونَ اَلصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾ لأنَّ هذا أعمُّ من الأوَّل، أو أراد بقوله: ﴿فَاسِقِينَ﴾ ما ذكره هنا، فهذا تفسير له.

وحاصل الكلام الإخبار، أي سواءٌ إنفاقكم طوعا وإنفاقكم كرها في عدم قبوله، فإنَّهم إذا أنفقوا طوعا إنَّما ينفقون رياء أو لغرض من الدنيا، شبَّه النسبة الخبريَّة بالنسبة الإنشائيَّة في اللزوم ثمَّ استعير للنسبة الخبريَّة لفظ الأمر، وقلنا: الأمر في معنى الخبر كقوله: ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ﴾ وفائدة التعبير عن الخبر بالأمر التأكيد والمبالغة في تساوي الأمرين، وكأنَّه قيل: أنفقوا على أيِّ حال أردتم ثمَّ انظروا هل يتقبَّل منكم.

[بلاغة] شبَّه الهيئة المنتزعة من إنفاقهم طوعا أو كرها وعدم قبوله لانتفاء شرطه بحال من أمروا بالإنفاق لا لطلب الفعل منهم بل ليمتحنوا فينفقوا أيتقبَّل منهم أو لا؟ والجامع عدم الفائدة مع الاشتغال بأفضل القربى، وفاعل «مَنَعَ» «أَنَّهُمْ كَفَرُواْ»، أي وما منعهم من أن تقبل نفقاتهم إلَّا كفرهم بالله... إلخ، أو فاعله ضمير يعود إلى الله، أي وما منعهم الله، فيقدَّر: إلَّا لأنَّهم، ويجوز أن لا يقدَّر «مِنْ» على تعدية «مَنَعَ» لمفعولين ثانيهما غير صريح، أو على بدل الاشتمال من الهاء. والكسل: التثاقل، وإنَّما ينفقون كرها لا طوعا لأنَّهم مشركون بالباطن، لا يرجون ثوابا ولا عقابا لكفرهم بالبعث، والمراد: كارهون للإنفاق لأنَّهم يعدُّونه خسارة، وأنَّه لا ثواب عليه لأنَّهم منكرون للبعث، أو شاكُّون فيه.

[أصول الدين] وإنَّما علَّل منع القبول بالعناد، والكفر بالله ورسوله، والكسل عن الصلاة وكراهة الإنفاق، مع أنَّه إذا منع بواحد من ذلك لم يبق ما يمنع بالآخر لأنَّا والأشعريَّة نقول: هذه أسباب غير موجبة لثواب ولا عقاب، فلا يضرُّ اجتماعها ولا واجب على الله، لا كما قال المعتزلة بأنَّ العلل مؤثِّرة، وأنَّه يجب على الله الأصلح، وأنَّ الكفر لكونه كفرا يؤثِّر في الحكم.

﴿**فَلَا تُعْجِبْكَ**﴾ يا محمَّد، أو يا من يصلح، على حدِّ: ﴿**لَا تُشْرِكْ بِاللهِ**﴾ [لقمان: 13][1]، ﴿**أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم**﴾ الفاء تفريع وسَبَبِيَّة نهاه عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم وعن أن يفتتن بها لفسقهم، وخصالهم القبيحة المذكورة، فإنَّهم لم يرادوا فيها بخير، وإنَّما هي استدراج، ونهيه المطلق نهي لأمَّته ﷺ. والإعجاب بالشيء: استحسانك إِيَّاهُ سواء أكان لك أو لغيرك، سواء مع الافتخار به أو دون الافتخار به، وسواء خصِّصت به أم كان مثله لغيرك أيضا، فلا تَهِم، خلافا لمن خصَّه بما إذا افتخرت به أو خصِّصت أنت مثلا به، فإنَّه يقال مطلقا: أعجبني الشيء وهو معنًى عرفيٌّ في اللغة، لا كما قيل: إنَّ أصل التعجُّب: حيرة للجهل بسبب الشيء، وإذا صحَّ فقد خرج عن ذلك الأصل خروجا شائعا.

واللفظ نهي للأموال والأولاد عن أن تعجبه، وهو من نهي الغائب والإسناد إلى السبب، والمراد: لا تكترث بها فضلا عن أن تعجبك، كقولك: لا أرينَّكَ هنا أي لا تكن هنا فضلا عن أن أراك.

وبيَّن الاستدراج بقوله: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ**﴾ مفعوله محذوف أي يريد الله أن

---

(1) هَذِهِ الآية التي ساقها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وردت في خطاب لقمان لابنه وَهُوَ يعظه، ولَعَلَّ الآيَة المتعلِّقة بالشرك والأنسب للاستشهاد بها في هَذَا المقام هي قوله تَعَالىَ: ﴿لَئِنَ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: 65) لأَنَّ الخطاب فيها للنَّبِيء ﷺ والمراد أمَّته. ينظر مثلا: تفسير القرطبي للآية.

يعطيهم الأموال والأولاد واللام للتعليل في قوله تعالى: ﴿**لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ ويجوز جعل مصدر «يُعَذِّب» مفعولا به لـ«يُرِيدُ»، على أنَّ اللام صلةٌ.

أمَّا تعذيبهم بالأولاد فلاشتغال قلوبهم بهم، والاجتهاد فيما يسرُّهم ويليق بهم، وفي إزاحة ما يسوؤهم، والحميَّة عليهم من كلِّ وجه، وجمع المال لهم، ولجزعهم بموت الأولاد في القتال إذ لا يرجون لقاءهم بالبعث لإنكارهم البعث، ولا يرجون لهم ولا لأنفسهم على موتهم وعلى المصيبة [أجرا]، بخلاف المؤمن فإنَّه يرجو ثواب ذلك، والشهادة لولده.

وأمَّا تعذيبهم بالأموال فلاشتغالهم بجمعها، والمحافظة عليها، واهتمامهم وتعبهم فيها، وما يلاقون من الشدائد فيها، والمؤمن ولو كان يحصل له ذلك كلُّه بالأولاد والأموال لكن لا يرغب فيها لذاتها، بل ليتوصَّل بها للآخرة، وإن زلَّ فيها تاب، وله الثواب على ما يصيبه ممَّا يكره، وتخرج نفسه غير كافرة، ومن تعذيبهم بالأموال والأولاد خوفهم من سبيها لو أظهروا شركهم، وإعطاء مالهم في الزكاة، ونفقات الجهاد بدون أن يرجوا لها ثوابا، ولهم مزيد حبٍّ في الأموال والأولاد وأمور الدنيا، وبدأ بها ليكون لهم مزيد حزن وشدَّة ضيق، وما أصدق قول بعض:

ومن سرَّه أن لا يرى ما يسوؤه   فلا يتَّخذ شيئا يخاف له فقدا[1]

و«في» متعلِّق بـ«يُعَذِّبَ» لقربه لا بـ«تُعْجِبْكَ» لبعده والفصل.

﴿**وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ**﴾ أرواحهم، تخرج بصعوبة ﴿**وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ فيعذَّبون بعذاب الآخرة لكفرهم وعدم الاستعداد للآخرة كما عذِّبوا في الدنيا.

---

(1) وأصدق منه قول المتنبي:

فضول العيش أكثرها هموم   وأكثر ما يضرُّك ما تحبُّ

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝56 لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝57 وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝58 وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝59﴾

حلف المنافقين الأيمان الكاذبة والطعن في رسول الله ﷺ

﴿**وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ**﴾ من جملتكم في الإيمان ﴿**وَمَا هُم مِّنكُمْ**﴾ بل من المشركين باطنا، أظهروا الإيمان خوفا منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشـــركين، ويؤكِّدونه بالأيمان الكاذبة كما قال: ﴿**وَلَكِنَّهُمْ قَـــوْمٌ يَفْرَقُونَ**﴾ يخافون أن تقتلوهم وتسبُوهم، وتغنموا أموالهم كما تفعلون بسائر المشركين، والفرق بمعنى الخوف، قيل: مأخوذ من المفارقة، لأنَّ الخائف فارق الأمن.

﴿**لَـــوْ يَجِدُونَ**﴾ لو كانـــوا يجدون فالمضـــارع للتجـــدُّد، أي يتولَّون إلى الملجـــأ، أو المغارة أو المُدَّخل كلَّمـــا وجدوه، ويجوز أن يكـــون المعنى إنَّ امتناع تولِّيهم إلى ذلك سبب امتناع استمرار وجدانهم ذلك ﴿**مَلْجَأً**﴾ موضع لَجْءٍ أي هروب إليه، وتحصُّن به، وانحياز إليه، كرأس جبل، وقرية في جبل، أو جزيرة، أو سلطان، ويجوز أن يكون زمانا أو مصدرا، وما تقدَّم أولى. ﴿**أَوْ مَغَارَاتٍ**﴾ جمع مغارة أي موضع غور أي استتار، وكلُّ ساتر مغارة في السهل أو الجبل، وقيل: المغارة الســـرب في الأرض والغار في الجبل. وأصل مغارة

«مَغْوَرَة» بإسكان الغين نقلت إليها فتحة الواو وقلبت ألفا ﴿**اَوْ مُدَّخَلاً**﴾ موضع إدخال بشدِّ الدال فيهما، والأصل «مُدْتَخَل» بوزن مفتعل، قلبت التاء دالا وأدغمت في الدال، والمراد: منفذ جوف الأرض يدخلون فيه كجحر اليربوع، ويجوز أن يراد ما يشمل البناء الذي يستترون فيه، ولا يحتاجون إلى الخروج. وعطف «مَغَارَاتٍ» و«مُدَّخَلاً» على «مَلْجَأً» عطف خاصٍّ على عامٍّ، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ الملجأ رأس جبل أو قلعة أو جزيرة.

﴿**لَّوَلَّواْ اِلَيْهِ**﴾ يتحصَّنون فيه ويظهرون شركهم، فيقاتلونكم متى وجدوا، ويتحصَّنون فيه بعد القتال، أو يظهرون شركهم بلا قتال ولا تصلون إليهم، أو لَوَلَّوا إليه لئلَّا يروكم لشدَّة بغضهم لكم حتَّى لا يستطيعون النظر إليكم ﴿**وَهُمْ يَجْمَحُونَ**﴾ يسرعون، شبَّه سرعتهم بإسراع الفرس في نفاره، واستعار له الجموح، واشتقَّ «يَجْمَحُ» منه، أو شبَّههم بالأفراس النافرة فرمز لذلك بإثبات ما يوصف به الفرس وهو الجُموح.

﴿**وَمِنْهُم مَّنْ يَّلْمِزُكَ فِي اِلصَّدَقَاتِ**﴾ يعيبك في قسمها، وهي الغنائم والزكوات، وقيل: اللمز في الوجه والغمز في الغيب، وقيل بالعكس، وهو أظهر، والواضح ترادفهما ﴿**فَإِنُ اعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ**﴾ عنك وأثنوا عليك ﴿**وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَا**﴾ أو أعطوا دون ما يرضيهم ﴿**إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾ عليك ويذمُّونك لحرصهم على الدنيا.

[سبب النزول] قيل: نزلت في أبي الجواظ المنافق إذ قال: «ألا ترون إلى صاحبكم؟ إنَّما يقسِّم صدقاتكم في رعاة الغنم!» فقال ﷺ: «**لا أبا لك، أما كان موسى راعيا؟ أما كان داود راعيا؟**» وَلَمَّا ذهب قال: «**احذروا هذا وأصحابه فإنَّهم منافقون**» رواه الكلبي، وروي أنَّه قال: «لم تقسم بالسويَّة».

وقال قتادة: قائل ذلك بدويٌّ حديث عهد أتاه يقسم ذهبا أو فضَّة، فقال: «يا محمَّد لئن كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت هذا اليوم» فقال ﷺ: «**ويحك**

فمن يعــدل عليك بعدي؟» ثــمَّ قال: «**احذروا هذا وأشــباهه، فــإنَّ في أمَّتي أشباهه، قوما يقرؤون القرآن ولا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق الســهم من الرميَّة**»[(1)]، وكان يابس الحاجبين، مشرف الحاجبين، غائر العينين، وذلك في غنيمة هوازن أو [في تقسيم] الصدقات، وهو أنسب بذكر الصدقات بعدُ وهنا وبذكر الصدقات في كلام أبي الجواظ، وروي أنَّه قال: «**لقد شقيت إن لم أعدل**». وقيل: قائل ذلك من الأنصار، وقال ابن زيد: هم بعض المنافقين يقولون: «والله ما يعطي محمَّــد إلَّا من أحبَّ ولا يؤثر إلَّا هــواه». وقيل: هم المؤلَّفة قلوبهم إذا لم يعطوا آمالهم.

وأمَّــا حرقوص بن زهير فمرضيٌّ شــهد لــه رســول الله ﷺ بالجنَّة، قالت عائشة ﵂: أشهد أنَّ محَمَّدًا رسول ﷺ في بيتي وقال: «**يا عائشة أوَّل من يدخل من هذا الباب مــن أهل الجنَّة**» فقلت في نفســي أبو بكر، عمــر، فلان، فلان، فبينما أنا كذلك إذ أقبل حرقوص بن زهير، وقد توضَّأ وإنَّ لحيته تقطر ماء، ثمَّ قال ذلك في اليــوم الثاني والثالــث ودخل حرقوص فيهما، وقال أبو موســى الأشعري: والذي نفسي بيده لو اجتمع أهل المشرق والمغرب على الرمح الذي طعن به حرقوص لدخلوا به النــار، وذلك في أهل النهــروان، وهو الذي دفن دانيال ؈، سأل الله أن يدفنه رجل من أهل الجنَّة فلم يزل في تابوت في أيدي ضُلَّال أهل الكتاب يستسقون به إذا أمســك عنهم المطر، حَتَّى فتح أبو موسى الأشعري السوس[(2)]، أي سوس الشــرق، فوجده في تابوت فكتب إلى عمر بن الخطَّاب ﵁ فكتب إلى أبي موســى أن مر من يدفنه ولا يشعر به أحد، فبعث أبو موسى حرقوصا ليدفنه فوجد في التابوت حلَّة فكساها عمر حرقوصا.

---

(1) رواه **الربيع** في مسنده: (5) باب ما جاء في طلب العلم لغير الله ﷻ وعلماء السوء، ج 1، ص 34، رقم 36. وأوَّل الحديث عنده: «يخــرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم...». ورواه **مالك** في كتاب القرآن (4) باب ما جاء في القرآن، رقم 10. من حديث أبي سعيد الخدري.

(2) مدينة في إيران وتسمَّى خوزستان فتحها المسلمون زمن عمر ﵁، خرِّبت في القرون الوسطى.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الغنيمة وغيرها، والمعطي رسول الله ﷺ ويأخذون من يده، ولكن ذكر الله نفسه لتعظيم رسوله، والتنبيه على أنَّ الإعطاء جرى على يد رسول الله ﷺ بقضاء الله وأمره، فما فعله حقٌّ لا ريبة فيه ولا اعتراض عليه. ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا الله في أمورنا كلِّها، كما دلَّ عليه عدم ذكر ما فيه الكفاية، ودخل العطاء بالأولى.

﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُ﴾ من غنيمة أخرى أو صدقة أخرى، أو ما شاء الله ﷻ ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ في أن يعطينا ما يكفينا أو يقينا عن أموال الناس، أو إنَّا راغبون في أن نكون من أولياء الله وأهل السعادة لا في المال.

[قصص] مرَّ عيسى عليه السلام بقوم يذكرون الله، قال: ما الباعث لكم؟ فقالوا: الرغبة في ثوابه، قال: أصبتم، ومرَّ بقوم مشتغلين بالذكر فسألهم، فقالوا: الخوف من عقابه، قال: أصبتم، ومرَّ بقوم مشتغلين بالذكر فسألهم، فقالوا: لا للجنَّة ولا للنار بل لإظهار عبوديَّتنا، وعزَّة الرُّبُوبِيَّة، وتشريف القلب بمعرفته، واللسان بذكره وذكر صفاته، فقال: أنتم المحقُّون المحقِّقون.

وجواب «لَوْ» محذوف، أي لكان خيرا لهم، وحذفه ليذهب السامع فيه كلَّ مذهب ممكن، كأنَّه لا يحاط بمضمونه، وردَّ الله عليهم سخطهم في أمر الزكاة وصوَّب فعل رسول الله ﷺ بأنَّهم ليسوا أهلا، وإنَّما هي لإصلاح الدين وأهله.

وإنَّما أهلها مَن في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾

مصارف الزكاة الثمانية

﴿**إِنَّمَا اَلصَّدَقَاتُ**﴾ الزكوات ﴿**لِلْفُقَرَآءِ**﴾ ما الصدقات ثابتات أو مصروفات إلَّا للفقراء، والقصر قصر موصوف على صفة قصر إفراد، لأنَّ هؤلاء المنافقين يشركون أنفسهم في الزكاة فأفردها الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم إلى الثمانية.

[فقه] ويجوز صرفها فيهم أو في بعضهم، ولو إنسانا واحدا، وإن قلَّ المال صرف في نوع واحد أو في فرد واحد، وما فوق ذلك بحسب الصلاح، ويقدَّم الأهمُّ فالأهمُّ، وقيل: لا بدَّ من صرفها فيهم كلِّهم في ثلاثة فصاعدا من كلٍّ، ويدلُّ للأوَّل أنَّه ﷺ أتاه مال من الصدقة فجعله في المؤلَّفة قلوبهم، وأتاه مال آخر فجعله في الغرماء.

وكان حرف الجرِّ لامًا في الأربعة الأولى لمجرَّد الاختصاص ولأنَّهم يأخذون تملُّكا، وفي الأربعة الأخرى [حرف] «في» للإيذان بأنَّهم أرسخ في الاحتياج، ولأنَّ ما يأخذونه للصرف في غيرهم لا لمطلق التملُّك، حتَّى قال بعض: إنَّه يعطى السَّيِّد لا المكاتب، ولعلَّه قول من قال: إنَّه عبد ما لم يقض، وفي أبي داود عن زيَّاد بن الحارث الصدائي: أتيت رسول الله ﷺ فبايعته، فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال

رســـول الله ﷺ: «**إنَّ الله تعالى لم يرض بحكم نبـــيء ولا غيره في الصدقة حتَّى حكـــم هو فيهـــا، فَجَزَّأَهَا ثمانية أجـــزاء فإن كنت مـــن تلك الأجزاء أعطيتك حقَّكَ**»[1].

﴿**وَالْمَسَاكِينِ**﴾ أمَّا الفقير فمن ليس له شيء يصرفه فيما يحتاج إليه، كأنَّه كسرت فِقَار ظهره في الشـــدَّة والكرب، ولم يكســـب مالا كما لا يكسبه من كسرت فقاره، والمسكين: من له مال أو كسب لا يكفيه، ومع ذلك كأنَّه ساكن لا يتحرَّك للعجز، أو الســـكون معنويٌّ، ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّا اَلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [ســـورة الكهـــف: 79] سمَّاهم مساكين مع أنَّ لهم سفينة، وأنَّه ﷺ يسأل المســـكنة في قوله: «**اللهمَّ أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشـــرني في زمرة المســـاكين**»[2] أي من قلَّ ماله وتواضع لله ﷻ، وأنَّه يتعوَّذ من الفقـــر في قوله: «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بك مـــن الفقر**»[3] وقوله «**كاد الفقر أن يكون كفرا**»[4] فكيف يتعوَّذ من الفقر ويسأل ما دونه؟ فهو أشدُّ حالا من المسكين، ويقال: قيل لهم «مساكين» ترحُّما.

وقيل بالعكس: المسكين من ليس له شيء إلى آخر ما مرَّ، والفقير من له مال... إلخ، لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [ســـورة البلد: 16] أي كملتصق

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الزكاة، باب من يعطى مـــن الصدقة؟ وحدُّ الغنى. رقم 1630. ورواه **البيهقي** (الكبرى) في كتاب الزكاة (166) باب من قال: قسم زكاة الفطر على من تقسَّم عليه زكاة المال... رقم 7733. من حديث زيَّاد بن الحارث الصدائي.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب الزهد (37) باب ما جاء في أنَّ فقراء المهاجرين يدخلون الجنَّة قبل أغنيائهم، رقم 2352، من حديث أنس. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد (7) باب مجالســـة الفقراء، رقم 4126، من حديث أبي سعيد الخدري، مع زيادة في آخره.

(3) رواه **النسائي** في كتاب الاستعاذة (14) باب الاستعاذة من الذلَّة، رقم 5475. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم 1544. من حديث أبي هريرة.

(4) رواه **التبريزي** في كتاب الآداب (17) باب ما نهي عنه من التهاجر والتقاطع واتباع العورات رقم: 5050. ورواه **أبو نعيم** في الحلية: ج3 ص53. من حديث أنس.

بالتراب من شـدَّة الحاجة، قيل: أو ستر جسـده في التراب لعدم ما يلبسه، وأجيب لهذا القول بأنَّ السفينة بالعارية أو بالأجرة لا بالملك، ومن في يده شيء نسب إليه ولو لم يملكه، وكونها ملكا لهم يوجب أنَّهم أغنياء، ومن له النصاب غنـيٌّ لقوله ﷺ: «**أمرت أن آخـذ الزكاة من أغنيائهـم**»[1] وقد يقال بكثرتهم أو بقلَّة ثمنها فليسـوا بأغنياء ولو ملكوها، وأيضا هي آلة ولا زكاة في الآلة، ولو عظمت قيمتها ما لم يجعلها للبيع، كما لا زكاة في ديار تكرى ولو عظم كراؤها، وإنَّمـا يزكَّى الكراء. وإذا صرنا إلى الاشـتقاق فإنَّه يقال: فقرته له أي فرضت له قطعة من المال. وأجيب عن الاسـتعاذة من الفقر أنَّ المراد به فقر النفس، وقد قال ﷺ: «**إنَّما الغنى غنى النفس**»[2].

[فقه] وقيل: هما سـواء، فكأنَّه قيـل: إنَّما الصدقة لمـن اتَّصَفَ بالفقر والمسكنة، فإن أوصى لزيد والفقراء والمساكين فلزيد النصف ولهما النصف، وعلى القولين الأوَّلين فله الثلث ولهما الثلثان، ويقال: لا تحلُّ الزكاة لمن لا يحلُّ له السؤال وهو من له خمسـون درهما، فقد عدَّه ﷺ غنيًّا كما في حديث ابن مسـعود، أو من له أربعون درهما كمـا في حديث أبي سـعيد أنَّه غنيٌّ، ويجمع بينهما بأنَّ المراد التمثيل لِمَا يكفي.

[فقه] والأكثرون على أن لا يعطاها من له ما يكفيه وعياله سنة، وقيل: لا يعطاها من له مائتا درهم، قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش**» أو خدوش أو كدوح، قيل: يا رسول الله وما يغنيه؟ قال: «**خمسـون درهما أو قيمتها من الذهب**»[3].

(1) تقدَّم تخريجه، انظر ج6، ص3.

(2) رواه **أحمد** في مسنده: ج2، رقم 9341. ورواه **الحميدي** في مسنده: ج2، ص458 رقم 1063. وأوَّل الحديث عندهم: «ليس الغنى عن كثرة العرض...»، من حديث أبي هريرة.

(3) رواه **الترمذي** في كتاب الزكاة (22) باب ما جاء في من تحلُّ له الزكاة، رقم 650. ورواه **أبو داود** في كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة، رقم 1622. من حديث ابن مسعود.

وعن أبي سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف**»[1].

﴿**وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا**﴾ من يجمعونها من أصحاب الأموال، ومن يقسمها، ومن يكتبها، ومن يحرزها، ومن يحسب، ومن يحشر من يستحقُّها، ومن يسعى فيها بوجه، سواء دخل القرى أو البدو، أو رصد أصحاب الأموال على الطرق. وعداه بـ«عَلَى» لتضمين معنى القائمين عليها بأخذها من ذوي الأموال ويعطونها ـ ولو كانوا أغنياء ـ بقدر تعبهم، وإن استغرقها عناؤهم قيل أخذوا النصف أو أقلَّ. ولا يستعمل فيها مشرك، ولا خائن، ولا عبد، ولا هاشميٌّ، وقيل: يجوز الهاشميُّ ويأخذ من غير الزكاة عناءه، وأجيز منها على كراهة، [قلت:] والصحيح أنَّ الهاشميَّ أو المطَّلبيَّ لا يكون عاملا على الصدقات لِمَا روي عن أبي رافع أنَّ رسول الله استعمل رجلا من بني مخزوم على الصدقة، فأراد أبو رافع أن يتبعه، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تحلُّ لنا الصدقة**» وإنَّ مولى القوم منهم.

[فقه] ﴿**وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ**﴾ الذين أريد تأليف قلوبهم إلى الإسلام، ضعف إيمانهم فيعطون ولو أغنياء ليقوى، أو أشركوا فيعطون ليسلموا، قيل: أو أسلموا وقوي إسلامهم فيعطون ولو كانوا أغنياء ليسلم نظراؤهم، قلت: هذا جائز، لكن لا يصدق عليهم أنَّهم مؤلَّفة قلوبهم، قيل: من أسلم وكان يذبُّ على الإسلام في أطراف بلاد الإسلام يعطون ولو أغنياء، قلت: هذا جائز لكن لا يصدق عليهم أنَّهم مؤلَّفة قلوبهم، وأشراف يُترقَّب إسلامهم

(1) **رواه النسائي** في كتاب الزكاة (90) باب إذا لم يكن عنده دراهم وكان له عدلها، رقم 2595. ورواه **أبو داود** في كتاب الزكاة باب من يعطى من الصدقة وحدُّ الغنى، رقم 1627. وأوَّل الحديث عندهم هو: «نزلت وأهلي ببقيع الغرقد، فقالت لي أهلي: اذهب إلى رسول الله ﷺ فسله لنا شيئا...». من حديث عطاء بن يسار.

فيعطون ليسلموا فيسلم نظراؤهم أو أتباعهم، وقوم من منعوا الزكاة لا يقدرون بلا مال على قتال من مَنَعها، وفي ذهاب الجيش إليهم مؤونة، فيعطون ليقاتلوهم حتَّى يعطوها.

[فقه] ويعطى المشركون ليقاتلوا المشركين، وقد أعطى ﷺ صفوان بن أميَّة لِمَا رأى فيه من الميل إلى الإسلام، وقد عُدَّ من المؤلَّفة، ومن يؤلَّف قلبه بشيء على قتل الكفَّار، وأعطى عيينة والأقرع والعبَّاس بن مرداس، ولا يعطى كفَّار يخافون شرَّهم لو أعطوا لانكفُّوا، وقيل: لا يعطى بعده ﷺ كافر ليسلم أو يذبَّ عن الإسلام، وقيل: فيمن ضعف إسلامه ومن يؤلَّف ليسلم نظراؤه وهو شريف في قومه لا يعطون، وقيل: يعطون من سهم المصالح، وقيل: يعطى من يميل إلى الإسلام أو يخاف شرُّه من خمس الخمس من الغنيمة، وقيل: فيمن يجاهد من يليه من الكفَّار أو من مانعي الزكاة يعطى من خمس الخمس، قيل: أو من سهم المؤلَّفة، وقيل: من سهم الغزاة.

[فقه] وقيل: بطل سهم المؤلفة لَمَّا قوي الإسلام، كما روي عن عمر أنَّه أبطل كتابة الصدِّيق إليه بإعطاء الأقرع والعبَّاس بن مرداس، وقال: قوي الإسلامُ اثبتوا على الإسلام أو تقتلوا، ورجع إلى قوله الصديق فأوَّلاً كان إعزاز الإسلام بتأليفهم، وفي الوقت إعزازه بمنعهم إظهارا لاستغناء الإسلام عنهم، ولم يبطل الإرمال [في الطواف] بعد زوال خوف أن يظنَّ المشركون الضعف بالمؤمنين، لأنَّه ﷺ أبقاه، وقيل: بطل، فانظر «وفاء الضمانة»[1].

﴿وَفِي اِلرِّقَابِ﴾ أي ومصروفة في الرقاب، وبهذا يترجَّح أن يقدَّر «مصروفة» في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾، فيناسب ما هنا، لكن لا مانع أن يقدَّر هنا ثابتة كما هنالك، لأنَّ الرقاب وما بعدهم محلٌّ لها، فهي ثابتة في محلِّها هذه الأربعة.

(1) راجع الكتاب ج1، ص466 ـ 467. ط.ح.

ومعنى كونهــا في الرقاب أن يعطــى منها المكاتبون، ويفدى الأســرى، ويشترى بها عبيد ليســلموا، ويعينوا المسلمين في القتال أعتقوا أم لم يعتقوا، أو يشترى عبيد موحِّدون فيعتقوا.

[فقه] وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا يعتــق بها رقبة كاملة بل يعطى في بعضها، ولا في مكاتب بل يعان، ويعطَى المكاتبُ لا سيِّده، فيؤدِّي لسيِّده، لأنَّه حرٌّ من حينــه على الصحيح، وقيــل: هو عبد ما لم يقــض، وعن ابن عَبَّاس: لا بأس أن يعتق الرجل من الزكاة، وقال أصحاب الشافعي: الأحوط أن تعطى سيِّدَه.

وكانت الأربعــة الأولى باللام والأخرى بـ«في» لأنَّ الأَوَّلِينَ اســتحقُّوها لذواتهم الموصوفة، والآخرين استحقُّوها لجهة حاجتهم، فالرقبة لتقضي دين الكتابة أو لتحصل عقد الكتابة، والغارم ليقضي ما عليه، وابن الســبيل ليصل بها لأهله، أو للإعلام بأنَّهم أحقُّ فهي راسخة فيهم.

[فقه] ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الذين عليهم ديون لأنفســهم فــي غير معصية ولا إســراف، إذا لم يكن لهم وفاء من مــال، أو لإصلاح بين النــاس ولو كانوا أغنياء، قال بعضهم: أو لمعصية أو إسراف إن تابوا نصوحا، وبه قال النووي، ووجه المنع أنَّه متَّهم في إظهارها، ويبحث بأنَّه قــد لا يراب. ولا يعطى هذا أكثر مِمَّا عليه، وقيل: يعطى ما لا يكون به غنيًّا، وقيــل: إن ملك نصابا زائدا عن دَينه لم يعطَ. ويقدَّم الغريم على الفقيــر، وفي الحديث: «**لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ إلَّا لغاز في ســبيل الله**»[1] أو لغــارم، أو لرجل اشــتراها بماله، أو رجل صارت إليه مِمَّا حلَّت له بالصدقة، أو الهديَّة، أو القرض، أو بالإرث، أو الهبة أو مثل ذلك، أو لعامل لأنَّها له أجرة، وقيل: المراد بغنى الغازي صحَّة بدنه.

(1) أورده **البغوي** في كتابه شرح السنَّة: ج6، ص89، بدون ذكر لفظ «الغني».

[فقه] والواضح جوازها لغاز له مال لدخوله في سبيل الله، وتعطى المرأة الزكاة ولو كان زوجها غنيًّا إذا كان عليهــا دين إذ لا تدرك عليه قضاءه، وتبيع من حليِّها وتبقي قليلا تتزيَّن بــه لزوجها، وإن لم يف ما باعت بالدَّين أخذت زكاةً لتقضيه، وهي داخلة فــي الغارمين، ويعطيها زوجهــا زكاة ماله إذا كان عليها دَين ولا مال لها.

﴿**وَفِي سَـــبِيلِ اللهِ**﴾ الجهاد ولو لغنيٍّ، يعطى منها زادا أو مركبا وســلاحا وما يحتاج إليه، ولو كان له مال كما قال ﷺ: «**الصدقة تحلُّ للغازي الغنيِّ**»[1]. وأعاد «في» تعظيما للجهاد، وقيل: ســبيل الله شــامل لإصــلاح الطرق وبناء القناطر ومواضع الماء كالسكَّة، والأَولى تفســيره بالسعي في طاعة الله تعالى وسبل الخير، **ولا بدَّ أن يكون فقيرا، فذكره تخصيص بعد تعميم للمزيَّة.**

﴿**وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ المنقطع عن ماله بســفره في حجٍّ أو عمرة أو طلب علم أو غير ذلك من أنواع الطاعات، أو في المبــاح، قيل: أو في المعصية إن تاب نصوحا، ولو كان ابن السبيل غنيًّا في بلده ومثله من هو في بلده وله ديون لم يحلَّ أجلها، أو حلَّ أجلهــا لكن على مفلس، أو على مُنكــر ولا بيان له، أو على من لا يقدر عليه، ولا تحلُّ له حتَّى يحلف منكره، وكذا لو كانت له بيِّنة غير عادلة وأنكر.

[فقه] وأجيزت للمرأة إن كان لها على زوجها ولــم يقبل أن يعطيها إلَّا بعد الارتفاع إلى القاضي فتأخذ ولا ترفعه ســواء مهرها أو غيره، وذكر بعض أنَّ لمن له دين أن يأخذ مــا يوصله إلى حلول أجله فقــط، إن كان يصل إلى أخذه بعد حلوله، وقيل: من له دين لا يأخذها إن كان يصل إلى أخذه إذا حلَّ.

(1) لم نقف علــى تخريجه بهذا اللفــظ، وفي **موطأ** الإمــام مالك «لا تحل الصدقــة لغني إلا لخمســة: لغازٍ في ســبيل الله...» كِتاب الزكاة، باب مــن تحل له الزكاة، رقــم: 604، ج1. ص268. عن عطاء بن يسار.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فرضها الله فريضة وهي بمعنى المصدر، أو منصوب بمعنى إنَّما الصدقات... لأنَّ معناه: فرض الله الصدقات لهؤلاء، أو حال من المستتر في «لِلْفُقَرَاءِ» ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالصواب والمصالح وكلِّ شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه لا يجور ولا يسفه، يضع الزكاة في مواضعها، واتَّبِعوا ما وضعه للزكاة من محالِّها فلا تصرف في غير ما ذكر من محالِّها.

[فقه] والمذهب أن لا يجب صرفها في الثمانية كلِّها بل في الموجود منهم، ولا تخبَّأُ لغائب مخصوص، ويجوز تفضيل بعض على بعض، والعامل قد عمل فله أجرته إن غاب بعد عمله. و«ال» للحقيقة، فلا يجب إعطاء ثلاثة من كلِّ صنف، كما لا يجب استغراق كلِّ صنف، وإنَّما أوجبت الآية أن لا تخرج عن الأصناف الثمانية لا أن تعمَّ أو تستغرق، والنظر إلى الإمام في ذلك، ولا تعطى لبني هاشم ولا لبني المطَّلب، وأمَّا بنو عبد المطَّلب فمن بني هاشم، والمطَّلب وهاشم أخوان، وقيل: إن تعطَّلت الغنائم أعطي من الزكاة محتاجو بني هاشم وبني المطَّلب.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿61﴾﴾

إيذاء المنافقين النبيء ﷺ والردُّ عليهم

﴿وَمِنْهُمُ الذِينَ يُـوذُونَ اَلنَّبِيءَ﴾ بكلام السـوء كالحُلاس بن عمرو (بالضمِّ والتخفيف)، ووديعة بـن ثابت أخو أميَّة بـن زيد بن عمرو بن عـوف، وقيل: الحلاس بن سويد بن صامت، ورفاعة بن عبد المنذر، ونبتل بن الحارث، وكان آدَمَ أحمرَ العينين أسـفع الخدَّين مشـوَّه الخلقـة نمَّاما عنه ﷺ إلـى المنافقين، قال ﷺ: «**مـن أراد أن ينظـر إلى الشـيطان فلينظر إلـى نبتل بن الحـارث**»(1). يؤذونه ﷺ بما يكره من القول، مثل أن يقولوا: يعطي قريشا ويتركنا ولو لم يفعل، أو فعل لحكمة، أو جاء هو وأصحابه فعزُّوا بنا، ولا يعرف لنا حقًّا، وهم كاذبون.

[سبب النزول] وكقول وديعة بـن ثابت: إن كان ما يقول محمَّد حقًّا فنحن شرٌّ من الحمير، وَلَمَّا قال هذا قال له عامر بن قيس وهو غلام: «والله إنَّه لصادق وأنت شرٌّ من حمارك» فأخبر الغلام بذلك فقالوا: لم نقل إنَّه غلام لم يعرف ما يقول، فجعل الغلام يبتهل: «اللهمَّ صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب» فنزلت الآية.

ومن ذلك قولهم: «سـمِّن كلبـك يأكلك»، بمعنى أنَّهـم قاموا به ﷺ فرجع عليهم، وقولهم: لو كان نبيئا لعلم أين ناقته، فإذا قال بعض لبعض:

(1) لم نقف على تخريجه، وقد أورده المفسرون، منهم **القرطبي**، في تفسير الآية ذاتها، ج8،ص192.

لا تقولوا فإنَّه يصله الخبر فيقع بنا، قال الجلاس ـ بالجيم، وقيل: نبتل أو غيره ـ: نقول ما شئنا فنحلف بالله وننكر القول فيصدِّقنا، فإنَّه يقبل إنكارنا ويصدِّق لقلَّة رأيه أو كثرة كرمه واحتماله، كما قال الله ﷻ: ﴿**وَيَقُولُونَ هُوَ أُذْنٌ**﴾ كثير السماع أي القبول لاعتذار المعتذر، ولو كان المعتذر كاذبا حتَّى كأنَّه نفس الأذن، كما يسمَّى الجاسوس عينا لكثرة مراقبته بعينه. نكذِّب ونعتذر ويقبل اعتذارَنَا، خاف بعض المنافقين أن يخبر الله تعالى رسوله ﷺ بما يقولون فيعاقبهم، فأجابه الباقون بأنَّه أُذْنٌ يقبل اعتذارنا ولو كذبنا فيه.

[بلاغة] ويقال: قالوا هو أذن سامعة، من إطلاق اسم الجارحة على صاحبها لكثرة فعله بها، لكن المراد هنا القبول، وفي هذا نكتة زائدة على مطلق تسمية الكلِّ باسم الجزء، وقيل: شُبِّه بالأذن في أنَّه ما فيه تمييز بين الحقِّ والباطل، بل سَمْعٌ فقط ما يليق وما لا يليق. وقدَّر بعضهم مضافا، أي ذو أذن، ويجوز أن يكون «أُذْنٌ» مصدر «أَذِنَ» بفتح الهمزة وكسر الذال، أي سمع وكأنَّه نفس السماع.

﴿**قُلُ اذْنُ خَيْرٍ لَّكُمْ**﴾ أي هو أي النبيء، أي أنا أذن خير لكم يسمع الوحي لكم، وهو منفعة لكم، ويصدِّق المؤمنين المخلصين، أو الإضافة بمعنى في، أي أُذن في الخير، ولوَّح بأنَّ المنافقين أذن شرٍّ يسمعون كلام الله تعالى وكلام المؤمنين ويكذِّبون بما سمعوا، ويدُلُّ على معنى «فِي» قراءة حمزة بجرِّ ﴿رَحْمَةٌ﴾، فإنَّه لا معنى لها سوى أنَّه أذن في الرحمة، كذا قيل، ويبحث بجواز أنَّه أذن رحمة على حكايتها عن الله ﷻ.

أثبت الله أنَّه أذن خيرٍ لا على ما قالوا مُجَرَّد كرم أو قلَّة رأي وتجربة، فذلك قول بالموجب، وهو حمل لفظ على خلاف مُرادِ لَافِظِه، كبيت البديع:

فَقُلت: ثقلتُ إذ أتيت مرارا قال: ثقَّلت كاهلي بالأيادي

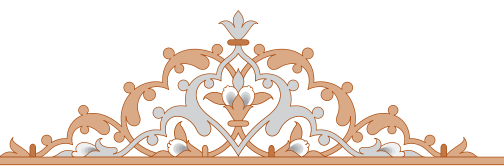
وقول القَبَعْثَرى: «مِثْلُك يحمل على الأدهم والأشـــهب»، أراد الفرس لَمَّا قال له الحجَّاج: «لأحملنَّك على الأدهم»، أي القيد من الحديد، فقال: «ويلك أردتُ الحديد!»، فقال: «لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا»[1].

وبيَّن ذلك بقولـــه: ﴿يُومِنُ﴾ يُصدِّق ﴿بِـــاللهِ وَيُومِـــنُ لِلْمُومِنِينَ﴾ يذعن، ويُسَلِّم ـ بضمِّ الياء وفتح السين وكسر اللام مشـــدَّدا ـ كقوله تعالى: ﴿أَنُومِنُ لَكَ﴾ [سورة الشعراء: 111] وقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنَ ـ اذَنَ لَكُم﴾ [سورة طه: 71، وسورة الشـــعراء: 49] أي يذعن لِمَا قال المؤمنون بالتصديق، وأمَّا قبوله عذركم فاحتمال ومعاملة بالحســـنى لكم، واللام للتعديـــة ولا وجه لكونها زائدة ســـوى أنَّها زيدت على «يُومِنُ» الأوَّل، بمعنى أنَّها ليســـت فيه، وإضافة الأذن للخير لأنَّ الســـماع للخير يكون بالأذن، أو من إضافة الموصوف إلـــى الصفة، كقولك: رجل عدل، إذا أضفت رجلا للعدل، وأردت بالعدل الوصف لا المصدر.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ عطف على «أُذْنُ» أي هو رحمة لمن أظهر الإيمان، يأخذ بظاهر قوله ولا يفتِّش عن سرِّه، ولو كان كاذبا لرفقه بهم لعلَّهم يخلصون الإيمان. و«مِنْ» للبيان، والمراد: ورحمة لكم، أو للتبعيض العامِّ لهم كلِّهم على ســـبيل البدليَّة. وَســـمَّى حالهم إيمانا مجاراة لهم، إذ زعموا أنَّهم آمنوا، أو المراد: أظهـــروا الإيمان، وقيل: المراد: المخلصـــون، على أنَّ «مِنْ» للتبعيض، بمعنى أنَّ المنافقين يزعمون أنَّهم مؤمنون، ولا يتبادر هذا.

﴿وَالذِينَ يُوذُونَ رَسُـــولَ اَللهِ﴾ بألســـنتهم كغيرهـــا ﴿لَهُمْ عَـــذَابٌ اَلِيمٌ﴾ لإيذائِهم إيَّاهُ مع إحســـانه إليهم، بالســـتر لهم وبتبليغ الوحي، وقد يُؤذى ﷺ بمخالفة الكتاب أو الســـنَّة، وبإيذاء أهل بيته بما لم يفعلـــوا، ومجاوزة الحدِّ فيما فعلوا.

(1) راجع شرح أرجوزة الخضري في فنِّ البلاغة للشيخ الدمنهوري، ص73.



﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)﴾

بيان أحوال المنافقين الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك

﴿**يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ**﴾ لإيهام الصدق، الخطاب للمؤمنين، لأنَّ الرسول مذكور في قوله: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ...﴾ أو للمؤمنين ورسوله ولو ذكر بعدُ، لأنَّ الكلام في إرضائه لا في إرضاء المؤمنين فقط، يقولون: والله ما قلنا ما ذكر لك عنَّا، ولا نقول فيك إلَّا خيرا.

[سبب النزول] سمع غلام اسمه عامر بن قيس وديعة بن ثابت يقول: إنَّ هؤلاء لخيارنا وأشرافنا إن كان ما يقول محمَّد حقًّا فنحن شرٌّ من الحمير!، فأخبر به النبيء ﷺ فدعاه فحلف هو ومن معه ما قالوا، وجعل الغلام يقول: اللهمَّ صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب، فنزلت ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ بالاتِّباع والإخلاص ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ وخصَّ الإرضاء للمؤمنين بالذكر تلويحا ببعدهم عن إرضاء الله ورسوله، لأنَّ الله ﷻ علَّام الغيوب ومخبر لنبيئه ﷺ.

[نحو] وفي الكلام حذف، إذ لم يقل: أن يرضوهما، والتقدير: والله أحقُّ أن يرضوه ورسوله أحقُّ أن يرضوه، فحذف من أحدهما، واختار سيبويه الحذف من الأَوَّل والمبرِّد من الثاني، أو اقتصر على إرضاء الرسول أو إرضاء الله تعالى لأنَّ إرضاءه إرضاء رسوله، وإرضاء رسوله إرضاء له، ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدَ اَطَاعَ اللَّهَ﴾ [سورة النساء: 80]، فرُدَّ إلى الله والرسول ضمير واحد لذلك.

أو المعنى: مَن ذكر، ولم يُثَنِّ لئلَّا يعود ضمير واحد إلى الله تعالى ورسوله ﷺ، وجعل «أَحقُّ» خبرا للرسول أولى لقربه وعدم الفصل، ويكون الكلام في إيذائه، ولو كان جعله خبرا لله أولى من حيث إنَّهُ هو المقصود بالذات في العبادة، وإذا أريد الرسول فذكر الله تعظيم له، كقوله تعالى: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [سورة المائدة: 33] في أحد أوجه، ولا وجه لإلغاء لفظ الجلالة عن الإخبار لمجرَّد أنَّ طاعة رسوله طاعته لأنَّه مبدوء به. وجواب «إِنْ» محذوف، أي فليخلصوا في الإرضاء، أو ظهر لهم أنَّ الله ورسوله أحقُّ أن يرضوه.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ﴾ أي المنافقون، تَوبِيخٌ ﴿أَنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿مَنْ يُّحَادِدِ اِللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ من يعاند الله ورسوله، كأنَّه يجعل الله ورسوله في حدٍّ ونفسه في حدٍّ، والحدُّ: الجانب، وقيل: من الحدِّ بمعنى المنع، و«أَنَّ» هذه لتأكيد الشرط والجواب، وفي قوله: ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ لتأكيد الجملة بعدها، وهي وما بعدها جواب الشرط مع ما حذف، أي فالواجب، أو فالأمر، أو فحقَّ ثبوت نار جهنَّم له.

وأجاز بعضهم حذف الجواب ولو كان الشـــرط مضارعا مجرَّدا من «لَمْ»، كما في المغني، فيجوز عطف ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ علـــى ﴿أَنَّهُ مَنْ يُّحَادِدِ اِللَّهَ وَرَسُـــولَهُ﴾ ويقدَّر الجواب لفظ: «يهلك»، لَكِنَّ المعنـــى بعيد، وهو توبيخهم على عدم العمل بعلمهم بهلاك من شاقَّ الله ورسوله وبأنَّ له نار جهنَّم، لأنَّهم ليسوا عالمين بذلك بل هم منكرون له أو متردِّدون، اللهمَّ إلَّا أن ينزَّلوا منزلة من علم، لظهور الدلائل على أنَّه ﷺ رسول الله وأنَّ مخالفه هالك.

[لغة] وأما تكريـــر التأكيد فلا بأس بـــه، فكلُّ واحدة أكَّـــدت ما بعدها، كقولك: ألم تعلم أنَّ زيدا وأنَّ عمرا قائم؟ فكلُّ واحدة أكَّدت القيام، نعم يقال لأيِّهما الخبـــر؟ فيجاب بأنَّـــه للأوَّل. والتأكيـــد معنويٌّ لا صناعـــيٌّ فلا يضرُّ الفصل، قال الشاعر:

لقد علم الحـــيُّ اليمانيُّون أنَّني ... إذا قلت «أَمَّا بعدُ» أنِّي خطيبها

و«خَالِدًا» حال من الهاء.

﴿ذَالِكَ﴾ أي ما ذكر من ثبوت نار جهنَّـــم الدائمة له، أو ذلك الخلود فيها ﴿الْخِزْىُ الْعَظِيمُ﴾ موجـــب الخزي العظيم، لأنَّ الخزي الذُّل الذي يُســـتحَى منه، وأمَّا تفســـيره بالعذاب الدائم أو الهلاك الدائم فيغنـــي عنه قوله: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ ولا يفسَّر بالإهلاك، لأنَّ الإهلاكَ فعلُ الله، والخزيَ وصفٌ لهم.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُـــورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَـــا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإنكار والاســـتهزاء. و«عَلَى» بمعنى في، أي في شـــأنهم، أو في سرِّهم، أو تبقى على ظاهرها لأنَّ تنزيل السورة مضرَّة لهم لافتضاحهم بها، والهاء لهم لا للمؤمنين لأنَّه المتبادر، ولئلَّا يلزم تفكيك الضمائر لو أعدناها للمؤمنين، لكن يجوز التفكيك مع ظهور المعنـــى، وعليه فالمعنى: يحذر المنافقون أن تنزَّل ســـورة على المؤمنيـــن تنبِّئهم بأســـرارهم، ويجوز عـــود الهاءين من الأُولَيَيْن للمؤمنين.

[بلاغة] وهذه التنبئة من لازم الفائدة يخبرهم بما في قلوبهم، لا ليعلموا به لأنَّهم عالمون به بل ليعلموا أنَّ الله عالم به. والمنبئ الله لكن أسند التنبئة إلى السورة لأنَّها بالسورة ولأنَّها في سورة. وإذا اعتبرنا أنَّ النازل في شأنهم كالنازل عليهم كان في الكلام استعارة تمثيليَّة، شبَّه الهيئة المنتزعة من النازل فيهم بالهيئة المنتزعة من النازل على النبيء ﷺ، فاستعمل الموضوع للهيئة المشبَّه بها في الهيئة المشبَّهة. وَلَمَّا سمعوا من النبيء ﷺ والصحابةِ ذِكْرَ ما في قلوبهم بألفاظ السورة حاروا، كأنَّهم أخبروا بما لم يعلموا وهم عالمون بما في قلوبهم، كما علمت أنَّ ذلك من لازم الفائدة.

ويجوز أن يكون اللفظ إخبارا والمعنى أمر، أي ليحذر المنافقون، واللام للأمر.

[قلت:] والإبقاء على الظاهر أولى، ووجهه أنَّهم غير جازمين في أمره ﷺ بل تردَّدوا في صدقه، ألا ترى أنَّهم أثبتوا أَنَّ السورة تنزل، إلَّا أن يقال: أثبتوها استهزاء إذ رأوه ﷺ يذكر أحوالهم ويقول إنَّه أوحي إليه بها، أو أرادوا أنزل على زعمه، أو تنزل من غير الله.

قال الله ﷻ: ﴿**قُلِ اِسْتَهْزِءُواْ**﴾ تهديد ﴿**إِنَّ اَللَّهَ مُخْرِجٌ**﴾ مظهر ﴿**مَّا تَحْذَرُونَ**﴾ من تنزيل السورة في مساوئكم، أو ما تحذرون مطلقا بسورة أو غيرها، قال ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: أنزل الله ﷻ ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم في هذه السورة، ثمَّ نسخ لفظ ذلك رحمة عَامَّة ورحمة لأولادهم وآبائهم وأقاربهم، لأنَّه قد يكون أبو المنافق أو ولده أو أخوه مؤمنا فيعيَّر به.

[سيرة] واجتمع اثنا عشر رجلا أن يفتكوا به ﷺ ليلا في العقبة [بالأردن] حين رجع من تبوك، وتلثَّموا فأخبره الله بهم، وأمره بأن يأمر من يصرف وجوه دوابِّهم عنه، فأمر حذيفة فصرفها، فقال: «هل عرفت منهم أحدا؟» فقال: لا،

فقال ﷺ: «فلان وفلان أخبرني بهم جبريل»، فقال حذيفة: ألا تقتلهم؟ فقال: «لا، لئلا يقول العرب ظفر بأصحابه فقتلهم، بل يكفينا الله ﷻ»، وقال: «إنَّ ناسا اجتمعوا على قتلي فليقوموا ويعترفوا لأستغفر لهم»، فلم يعترفوا، فقال: «قم يا فلان، قم يا فلان» فقالوا: نقوم ونعترف، قال: «لا إنَّما ذلك أَوَّل، أخرجوا عنِّي، أخرجوا عنِّي!» فخرجوا كلُّهم، قال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ في أمَّتي اثني عشر منافقا لا يدخلون الجنَّة ولا يجدون ريحها حتَّى يلج الجمل في سمِّ الخياط، ثمانية تكفيهم الذبيلة، خراج من النار يظهر في أكتافهم حتَّى تنجم من صدورهم»**[1].

﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ**﴾ والله لئن سألتهم سؤال تقرير عن استهزائهم بك وبالقرآن، إذ قالوا في سيرهم معك إلى تبوك: «انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح حصون الشام والروم وقصورها، هيهات هيهات!» وقالوا: «يزعم محمَّد أنَّه نزل في أصحابنا قرآن وإنَّما هو كلامه»، فأخبر الله ﷻ نبيئه ﷺ بما قالوا، فقال: «**هل قلتم كذا وكذا؟**» فقالوا: «إنَّا كُنَّا نخوض ونلعب».

كما قال الله ﷻ: ﴿**لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ**﴾ ليخفَّ عنا السير ومشاقُّ السفر، ولا تكذيب في قلوبنا. وأصل الخوض: المشي في مائع أو مبلول كماء وطين وتلطيخ، سواء أكان فيه أذى أم لا، ثمَّ استعمل لكلِّ دخول فيما يكره أو يحرم. ويبعد أن يراد بالسؤال القول بدون صيغة استفهام، بمعنى: قلتم كذا وكذا، لأنَّه خلاف الظاهر، والسؤال بعد نزول الآية، فهم ﷺ من قوله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ الأمر بالسؤال ضِمْنًا فسألهم: هل قلتم كذا؟ فقالوا: كُنَّا نخوض ونلعب.

(1) رواه **مسلم** في كتاب صفات المنافقين (المقدمة) رقم 10. ورواه **البغوي** في كتاب شرح السنة: ج3 ص177. من حديث قيس بن معاذ.

فنزل بعد ذلك قوله ﷻ: ﴿قُلَ اَبِاللهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ لأنَّه لو سـألهم قبل نزول الآية لا يقال: إن سـألتهم، اللهمَّ إلَّا أن يقال «إنْ» بمعنى «إذا» على معنى التجدُّد، وَأَنَّ ذلك عادتهم، وحكمة التعبير بها عن «إذا» تلويح بأنَّ جوابهم قبيح ينبغي أن لا يكون، حتَّى إنَّ العاقل يشكُّ هل وقع؟ وهل وقع السؤال عنه؟ فجيء بـ«إنْ» التي لا تدلُّ على الوقوع ولا على عدمه، لا بـ«إذا» التحقيقيَّة، وكأنَّه لم يقع سـؤال فقيل: إن وقع. وقدَّم «بِاللهِ [وَءَايَاتِهِ] وَرَسُـولِهِ» للفاصلة، وعلى طريـق الاهتمام والتعظيـم وللحصر، ولِيَلِيَ أداة الاسـتفهام الإنكاري ما به تعلَّق الإنكار وهو الله وما بعده، لا مطلق الاستهزاء.

والمعنى: أيحسـن بكم أن لا تكون همَّتكم إلَّا الاسـتهزاء بالله ورسوله؟ على طريق قصر القلب، أي يجب عليكم أن تسـتهزئوا بالباطل ولا تستهزئوا بالحقِّ فصحَّ الحصر، لا كما قيل: لا يصحُّ، والاسـتفهام توبيخ وإنكار للياقة. ﴿وَءَايَاتِهِ﴾: القرآن، ﴿وَرَسُـولِهِ﴾: سـيِّدنا محمَّد ﷺ، ووجه ذلك أنَّ القرآن صريح في قدرة الله على كلِّ شيء، فتح الروم وغيره، وفي نصره ﷺ، وأنكروا ذلك، وقولهم: «إِنَّمَا كُنَّـا...» تصديق لقوله تعالـى: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ فهو معجزة، والإخبار بما قالوا معجزة، كما أنَّ فتح فـارس والروم يكون تصديقا لأخباره وإعجازا، كما روي أنَّهم قالوا: ما أبعد محَمَّدًا عن فتح الروم!. وروي أنَّ اثنين يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك، وأسلم بعدُ.

كما روي عن عبد الله بن عمر أنَّه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأيت مثل قُرَّائنا هؤلاء: أرغبَ بطونا، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل: كذبت ولكنَّك منافق، لأخبرَنَّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. وروي أنَّ القرآن نزل فـي ذلك قبل بلوغ المخبـر إليه ﷺ، قال: فأنا رأيت الرجل يتعلَّق بحقب ناقة رسـول الله ﷺ والحجـارة تنكبه وهو يقول: يا رسول الله إنَّا كُنَّا نخوض ونلعب.

﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾ فإنَّ اعتذاركم كاذب لا يقبل.

[لغة] وأصل الاعتذار الدروس والقطع، فإنَّ المعتذر يحاول زوال أثر ذنبه، يقال اعتذرت المنازل أي درست، والاعتذار سبب لقطع اللوم، والقلفة عذرة لأنَّها تقطع بالختن، والبكارة عذرة لأنَّها تقطع بالافتراع، واعتذرت المياه انقطعت، ومن ذلك قول الشاعر: «حاشاي إنِّي مسلم معذور»[1] أي مختون.

﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ أظهرتم كفركم في ذلك الخوض وغيره بعد إظهار الإيمان، ولم يتحقَّق إيمانهم قبل، وفي معنى ذلك: قد كفرتم عند المؤمنين بعد كونكم عندهم مؤمنين، و**اللعب والجدُّ في أمر الكفر سواء.**

﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾ بالتوبة لتوفيق الله إليها، ومنهم مخشي بن حُمَيْر ـ بضمِّ الحاء وفتح الميم ـ تاب وحسن إسلامه، ومات شهيدا في وقعة اليمامة، ويقال: جحش بن حمير الأشجعي، وهو من جملة من يخوض ويلعب، وقيل: كان يضحك من كلام من يخوض ويلعب، وَلَكِنَّ الضحك عند المعصية بلا بغض لها رضًى بها كفرٌ إن كانت كبيرة، وكان يمشي مجانبا لهم وينكر عليهم بعض ما يقولون، وَلَمَّا نزلت الآية تاب من نفاقه، وقال: «اللهمَّ إنِّي لا أزال أسمع آية تُقرأُ تقْشَعِرُّ منها الجلود وَتخفق منها القلوب، اللهمَّ اجعل وفاتي قتلا في سبيلك لا يعلم مقتلي، لا يقول أحد إنِّي غسلته أو كفَّنته أو دفنته»، فأصيب يوم اليمامة ولم يعرف أحد من المسلمين مصرعه، وكأنَّهم رأوه ميِّتا ثمَّ لم يُرَ، أو رَجَّحوا موته لدعائه [بذلك] مع نصوح توبته ولو كان في حكم المفقود **ولا يعمل بهذا.** والطائفة تطلق على القطعة من جملة، فصدق على الواحد فصاعدا، قال مجاهد: إلى الألْف، ويجوز أن يراد بالعفو عن طائفة توفيقها للإسلام دون أن يتقدَّم لها نفاق.

---

(1) هذا عجز بيت للأقيشر السعدي، وصدره: «في فِتيةٍ جَعَلوا الصليبَ إلَهَهُم». ينظر: اللسان، ج 14، ص178.

﴿تُعَذَّبْ طَآئِفَةٌۢ﴾ عذاب الدنيا والآخرة، أو عذاب الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنَّهـــم ﴿كَانُــواْ مُجْرِمِينَ﴾ مصرِّيـــن على النفــاق، أو مقْدِمين علـــى الإيذاء والاستهزاء، ويجوز أن يراد بالعذاب عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة لا بدَّ منه، لكن يعفو عن طائفة فلا تعذَّب في الدنيا وتعذَّب طائفة، فالعفو: ترك العذاب. ويقال: هـــم ثلاثة، اثنان يتكلَّمان بالســـوء والثالث يضحـــك لكلامهما، وهو جحش بن حمير وهو الذي تاب ومات شهيدا.

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (67) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ (68) كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (69) أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (70)﴾

أوصاف المنافقين وجزاؤهم الأخروي

﴿ٱلۡمُنَافِقُونَ﴾ ثلاث مائة ﴿وَٱلۡمُنَافِقَاتُ﴾ مائة وسبعون، قلَّ في النساء لقلَّة ملاقاتهنَّ للنبيء والناس وإلَّا فهنَّ ناقصات عقل ودين، أو كثر فيهم حتَّى كان في النساء اللاتي من شأنهنَّ أن لا يلاقين ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٍ﴾ كأنَّه خلق كُلُّ واحد من الآخر، وهذا لا يتصوَّر إلا أنَّ المراد لازمه وهو التشابه في النفاق، يقال: أنا منك وأنت منِّي، أي أمرنا واحد، وأيضا كأنَّهم أعضاء إنسان يشبه بعضها بعضا، أو كأنَّه خلق ذاك من ذلك، لا ذلك من ذاك بمعنى أنَّ

القويَّ في النفاق خلق منه من هو دونه فيــه، أو دين بعض مأخوذ من بعض، وَالِاتِّصَال الدَّالَّة عليه «مِنْ» الابتدائيَّة معتبر بالنفاق، وما في بعض منه ناشــئ من بعض وذلك نقــض لقولهم: «إِنَّهُــمْ لَمِنكُمْ»، فإنَّهم مضــادُّون للمؤمنين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر كما قال:

﴿**يَامُرُونَ بِالْمُنكَرِ**﴾ الشرك وســائر الذنوب الكبار والصغار، وذكر بعض أنَّ كلَّ منكر ذكر في القرآن فهو عبادة الأوثان والشيطان، [قلت:] وليس كذلك بل أعمُّ وقد يقتضي المقام خصوصا.

﴿**وَيَنْهَوْنَ عَنِ اِلْمَعْرُوفِ**﴾ التوحيد وسائر الطاعات الواجبة وغير الواجبة، وحذف المفعول للعمــوم أي يأمــر بالمعصية بعضهم بعضــا، ويأمرون من ضعف إيمانه، ومن غفل من أهل الشرك أو المعاصي، ومن خافوا منه التوبة، وكذا في النهي عن المعروف. والضمائر للرجال والنساء، المنافق من المنافق ومن المنافقة، والمنافقــة من المنافقة ومن المنافق، وتأمــر وتنهى غيرها من الذكور والإناث، ويأمر غيره كذلك وينهى.

﴿**وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ**﴾ لا يمدُّونها بالإنفاق الواجب والمســتحبِّ، وذلك كناية عن الشــحِّ كما أنَّ بســطها كناية عن الجود مطلقا، لأنَّ الإنفاق يتصوَّر أيضا بلا مدِّ يد، مثل أن تقول: خذ من مالي كذا أو هو لك.

﴿**نَسُــواْ اللَّهَ**﴾ تركوا توحيده وطاعته، وضع النسيان لترك الشيء ولذهابه عن الحافظة بعد كونه فيها، وعلى فرض أنَّه موضــوع لذهابه عنها يكون هنا مجازًا استعمالا في اللازم، فإنَّ من ذهب عن حافظته شيء يتركه، ﴿**فَنَسِيَهُم**﴾ ترك رحمتهم والإحسان إليهم لاختيارهم الخذلان.

﴿**إِنَّ اَلْمُنَافِقِيــنَ**﴾ بإضمــار الشــرك وتوابعــه، ودخلــت المنافقات في المنافقين، أو حذف لفظ المنافقات للعلم به ﴿**هُمُ الْفَاسِــقُونَ**﴾ الكاملون في

الخــــروج عن الطاعــة، فإنَّ غيرهـــم من أصحـــاب الكبائر غير الشـــرك ومن المشـــركين صراحا دونهم في الكمال، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اَلْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ اَلاسْفَلِ مِنَ اَلنَّارِ﴾ [سورة النســاء: 145] أي إنَّ المنافقين بإضمار الشرك. والحصر باعتبار الكمال، وإلَّا فقد كثر الفاســقون غيرهم، وأمَّا المؤمنون فلا يتَّصفون بالفسق، وفسق غير هؤلاء المنافقين دون فسقهم.

ومقتضى الظاهر: «إنَّهم هم الفاسقون» وأظهر لزيادة التقرير وللإهانة، فإنَّ في ذكرهم بالنفاق ما ليس في ذكرهم بالضميــر، أو المراد: مطلق المنافقين، وعلى كلِّ حال المراد: ما يشمل المنافقات.

﴿**وَعَدَ اَللهُ الْمُنَافِقِينَ وَاَلْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ**﴾ المشــركين صراحا وأصحاب الكبائر، واعلم أنَّ وَعَدَ والوَعْدَ يســتعملان في الخير والشرِّ، وأوْعد والوعيد في الشرِّ، وقيل: يستعمل أوعد في الخير والشرِّ.

﴿**نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ حال من المنافقين والمنافقات والكفَّار مقدَّرة، لكن على معنى مقــدَّرًا خلودُهم بفتح دال مقدَّرًا، والمقدِّر ـ بكســرها ـ الله، وأمَّا أن يقال: مقدِّرين ـ بكســر الدال ـ فلا يصــحُّ، لأنَّ الوعد أزليٌّ، وكذا إن أريد ما كتب في القرآن، أو في اللوح لأنَّهم لم يكونوا ناوين الخلود في الأزل ولا فيما بعد، وإنَّما ينوونه إذا شــاهدوا أمارته بعد الموت، ويجوز أن يكون المعنى: يقدِّرون الخلود فيما بعد، وكذا قُلْ في مثل هذا، أو يقدَّر: يعذِّبهم الله خالدين فيها فالحال مقارنة.

﴿**هِيَ حَسْبُهُمْ**﴾ حسابا وعقابا كافية في أنَّها شديدة طبق عنادهم، ولو شاء الله لزاد شــدَّة أو شــدَّات على شــدَّتها، ومن رحمته أنَّه لم يزد ولو زاد لكان عدلا، وبطل القول بأنَّه لا تمكن الزيادة عليها، وذلك كما صحَّ أنَّ نعم الجنَّة لا تزال تزداد كمًّا وحلاوة ولذَّة، بل ثبت في الأثر أنَّ شدَّة جهنَّم لا تزال تزداد على أهلها.

واللعنة والعذاب المقيم المذكوران في قوله ﷻ: ﴿**وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ**﴾ أبعدهم عن رحمته تعالى ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾ هما مما تضمَّنته جهنَّم والخلود فيها، فإنَّها تتضمَّن شدائد العذاب من اللعن والذمِّ والإهانة بالسلاسل والأغلال، بسم الله الرحمن الرحيم ننجو منها ومن سخطه [آمين]، ولا تكرير مع أنَّه لا مانع من التكرير للتأكيد.

ويجوز أن يراد بالعذاب المقيم ـ أي الدائم ـ ما يقاسونه من وقوع الفضائح ومن الخوف من الافتضاح من اطِّلَاع الرسول على بواطنهم، ونزول الآية فيهم. واللعن أزليٌّ، أو إبعاد لهم وفِعْل كالشتم لهم، وفي الآية عطف الفِعلِيَّة على الِاسمِيَّة، والِاسمِيَّة على الفِعلِيَّة.

﴿**كَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ أي أنتم أَيُّهَا المنافقون والمنافقات وَالكُفَّار كالذين من قبلكم، أو فعلتم كفعل الذين من قبلكم على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، أي أشبهتم مَن قبلكم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والشحِّ كما قال: ﴿**كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اَسْتَمْتَعَ اَلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالذِي خَاضُواْ**﴾ إلَّا أنَّه زاد في المشبَّه به بيان أَنَّهُ أَشَدُّ قُوَّة وأكثر مالا وولدا، وصرَّح بالخوض في التشبيه مراعاة لقوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [في الآية رقم 65] وذلك لبعد ذكره.

ويجوز أن يكون محطُّ التشبيه هو قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُواْ﴾ وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ﴾ كقولك: أنت كزيد يقتل الأعداء وتقتلهم وتجود كما يجود، والمراد بِالقُوَّةِ قُوَّة الأبدان، والاستمتاع: التمتُّع العظيم، فالاستفعال هنا للمبالغة لأنَّ أصله العلاج والطلب، وخَلَاقهم: نصيبهم من ملاذِّ الدنيا، من الخلْق بمعنى التقدير، فإنَّ نصيب كلِّ أحد مقدَّر له.

والآية ذمٌّ لهم باتخاذهم طريق من اختار الدنيا وركن إليها عن الآخرة، ذكر بعض أنَّ قوله: ﴿كَمَا اَسْتَمْتَعَ اَلذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ مغن عن قوله:

﴿فَاسْــتَمْتَعُواْ﴾ وإنَّما ذكر الأوَّل والثاني معا للتأكيد، ولبيان أنَّ محطَّ التشبيه الاســتمتاع، ثمَّ زيد بيان بقولــه: ﴿كَمَا...﴾ وفي هذا إشــارة إلى أنَّ الأصل: وخاضوا وخضتــم كالذي خاضــوا، كما في مــا قبله، فالأصل: اســتمتعتم بخلاقكم كما اســتمتع الذين من قبلكم، دون ذكر «بِخَلَاقِهِمْ»، وبإسقاط فاء «فَاسْتَمْتَعْتُمْ» وكذلك أظهر «الذِينَ» للتأكيد، والأصل: كما استمتعوا بخلاقهم، بل كما اســتمتعوا به، بالإضمار للخــلاق، ولا مانع من أن يقــال بأن يكفي الأَوَّل عن الثاني وجُمِعَا تأكيدا.

[لغة] ثمَّ إِنَّ الفاء في قوله: ﴿فَاسْــتَمْتَعُواْ﴾ ظاهرة السَّبَبِيَّة دون الفاء في قوله ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ﴾ لأنَّ كون من قبلهم أقوى وأكثر أموالا وأولادا لا يكون ســببا لاســتمتاع من بعدهم، فالثانية إمَّا بمعنى الــواو، أو لمجرَّد الترتيب الذكري، وهذا لا يتمُّ، لأنَّ ما عطف على المسبَّب يكون مسبَّبا، وإمَّا للسَّــبَبِيَّة باعتبار أنَّ لهم أمــوالا وأولادا وَقُوَّة، ولو كانت لمــن قبلهم أقوى وأكثر، فكانت قواهم وأموالهم وأولادهم سببا للاستمتاع لهم، كما للذين من قبلهم، وقد يقال بالسَّــبَبِيَّة فــي الثانية بــلا تقدير على معنــى اقتدائهم في الاستمتاع بالأوَّلين.

والآية تنبيه على أنَّه عوقب من هو أشــدُّ وأكثر منهم فكيف هم، والأمر في قدرة الله ســواء، والمراد بالخوض: الخوض في الباطــل. و«الذِي» واقع على الفريق باعتبار لفظه، وجمع في «خَاضُوا» لاعتبار معناه، والرابط الواو، أو على الخــوض فالرابط ضمير «هو» مفعول مطلــق محذوف، أي وخضتم كالخوض الذي خاضوه، فَلَا تَهِــم أنَّ الهاء مفعول بــه، ولا أنَّ التقدير فيه، وإنَّما هي كهاء قولك: القيام قمته، [قلــت:] وذلك أولى من أن يقال: الأصل «كالذين» حذفت النون تخفيفا، وأولى مــن أن يقال «الذِي» حرف مصدريٌّ، أي خوضا كخوضهم.

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ الخطاب له ﷺ أو لِكُلِّ من يصلح ﴿**حَبِطَتَ اَعْمَالُهُمْ**﴾ الإشارة إلى المشبَّهين الآخرين، والمشبَّه بهم الذين من قبلهم، وقيل: إلى المشبَّه بهم فيكون حكم المشبَّهين مفهوما ضمنا، وفيه أنَّ الأنسب حينئذ أن يقال: أولائكم. والمراد بالأعمال ما يثابون عليه لو أسلموا من الصدقة ومكارم الأخلاق ﴿**فِي اِلدُّنْيَا**﴾ لم تنفعهم في الدنيا إذ لا تمنعهم من الذمِّ والخزي والقتل والسبي فيمن يقتل ويسبى، وأمَّا ما أعطوا من الخير الدنيويِّ فإمَّا استدراج لهم وإمَّا ثواب لهم، فقد بطلت في الدنيا ولم يوافوا بها الآخرة، ﴿**وَالَاخِرَةِ**﴾ لا يثابون عليها فيها لكفرهم.

﴿**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ لم يستفيدوا من أبدانهم وما أعطاهم الله في الدنيا فائدةً في الآخرة، بل زادوا بذلك عذابا فخسروا دنياهم وأخراهم.

[بلاغة] والحصر بالنسبة للمؤمنين، أي إنَّما خسروا هم لا المؤمنون، أو بالنظر لِمَا في الدنيا، وأمَّا غيرهم فلم يخسر في الدنيا خسرانهم، ولو خسر في الآخرة؛ أو الحصر للكمال، أي الكاملون في الخسران، والمؤمنون لا خسران لهم البتَّة، وخسران غيرهم دون خسران هؤلاء.

﴿**أَلَمْ يَاتِهِمْ**﴾ أي المنافقين ومن ذكر معهم، ولا التفات هنا كما قيل، بل هذا تبع للالتفات في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَت...﴾ إلى ﴿...الْخَاسِرُونَ﴾ من الخطاب إلى الغيبة الملتفت عنها إلى الخطاب في قوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ...﴾، ﴿**نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ هدَّدهم بأخبار من قبلهم، وهلاكهم لأفعالهم لينزجروا، حَذَرًا من أن يقع بهم ما وقع بمن قبلهم.

﴿**قَوْمِ نُوحٍ**﴾ بدل مطابق باعتبار ما يعطف عليه والمبدل منه «الذِينَ»، والمراد به الستَّة هنا فلا ينافي بدل المطابقة أنَّ المهلكين أكثر منها، وإنَّما اقتصر عليها لقربها من أرض العرب، يرون أثرها بالشام واليمن والعراق، ويعرفون أخبارها، أغرق قوم نوح وأحرقوا أيضا بالنار في الماء ﴿**وَعَادٍ**﴾ قبيلة

سـمُّوا باسـم أبيهم أهلكوا بالصيحة، والريح المتضمِّنة للنار يراها في الريح هودٌ نبيئهم عليه السلام ومَن معه من المؤمنين ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح، وهم قبيلة سمُّوا باسـم أبيهم أهلكوا بالزلزلة أوَّلاً والصيحة من السـماء، أو بالصيحة أوَّلاً، أو بهما معًا دُفعةً، وتقطَّعت قلوبهم، ولم يقل: وقوم هـود وقوم صالح لأنَّهم لم يشهروا عند النزول باسمي هود وصالح، وقيل: لأنَّه آمن منهم الكثير.

﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ سـلطانهم نمروذ (بفتح النـون وضمِّها وإعجام الذال) أهلكه الله ببعوضة، وأهلك القوم الكُفَّار معه بالبعوض، تأكل طعامهم ودوابَّهم وأجسـادهم فماتوا بها وبالجوع، أهلكته بعوضة واحدة دخلت دماغه عكسا وإذلالا لطغيانه، وأبوه كنعان.

﴿وَأَصْحَـابِ مَدْيَنَ﴾ أهل قرية تسـمَّى مدين باسـم جدِّهـم مدين بن إبراهيم، وهم قوم شـعيب، أهلكوا بالنار إذ نصبت لهم سحابة في صحرائهم وقد اتَّقد مَا سواها حرارة، وغلت مياههم سبعة أيَّام، حتَّى اجتمعوا تحتها لبرد تحتها، فأحرقوا منها، هذا قول ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، وقال قتادة: أهلكوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة بالنار، قيل: وهم قوم شيت، ولا يصحُّ.

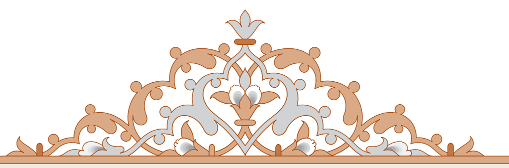
﴿وَالْمُوتَفِـكَاتِ﴾ أي وأهل القـرى الموتفـكات، أي المنقلبة، مطاوع «أفكَها» أي قَلَبَها فانقلبت، صار أعلاها أسـفلها، وهـنَّ قرى قوم لوط، قلبت وضربوا بالحجارة من سجِّيل، وقيل: المراد قرى المكذِّبين المتمرِّدين انقلبت أحوالهم من الخير إلى الشرِّ، فالإئتِفَاكُ في هذا مجاز، قال ابن الرومي:

وما الخسف أن تلقى أسافل بلدة أعاليَهـا بل أن تسـود الأراذلُ

أي بل الخسف رئاسة الأراذل.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُـلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بيان لـ«نَبَأ»، فإنَّ خبرَهم أنَّهم أتتهم رسـلهم بالمعجزات فكذَّبوهم فأهلكوا.

﴿**فَمَـا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ**﴾ عطف على أهلكـوا، أي لا يليق به أدنى ظلم ولم يَعْتَد الظلمَ، أو اسـتمرَّ نفيُ الظلم عنه ﴿**وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَـهُمْ**﴾ مفعول لقوله: ﴿**يَظْلِمُونَ**﴾ إذ عرَّضُوها للعقاب بكفرهـم، وقُدِّم على طريق الاهتمام وللفاصلة، والحصر، لا يقال ظلمهم الله حاشاه، ولا ينال عقابهم المؤمنين.



﴿وَالْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَاتُ بَعْضُهُمُۥٓ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۖ يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُوتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۖ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُۖ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌۖ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِے مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِے جَنَّٰتِ عَدْنٍۖ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُۖ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُۖ (72)﴾

أوصاف المؤمنين وجزاؤهم الأخروي

وبعد ما عاب المنافقين والكافرين بقبائحهم وعقابها مَدَحَ المؤمنين بأضدادها وثوابها: ﴿**وَالْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَاتُ بَعْضُهُمُۥٓ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ**﴾ قال هنا: ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ وهنالك: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ لأنَّ اتِّصَال هؤلاء بمقتضى الطبع، واتِّصَال المؤمنين بالدين الوَاحد المنافي للمخالفة المقتضي للمعاونة والتناصر ﴿**يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ الواجب وغير الواجب، وهو مقابل للأمر بالمنكر ﴿**وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ الكبير والصغير، وهو مقابل للنهي عن المعروف.

[أصول الدين] وكذلك يجب على الفاسق الأمر بالمعروف ولو كان لا يفعله، والنهي عن المنكر ولو كان يفعله، والممتثل يكون أمره ونهيه أشدَّ تأثيرا في غيره، قال بعض المغاربة:

أخذت بأعضادِهم إذ نَأَوْا وخلَّفَكَ القوم إذ وُدِعُوا

فكــم أنــت تنهــى ولا تنتهي   وتســمع وعظــا ولا تســمعُ
فيا حجــر السَّــنِّ حَتَّــى متَى   تَسِــنُّ الحديــد ولا تقطــع [1]

﴿وَيُقِيمُــونَ اَلصَّــلَاةَ﴾ الواجبة وغيــر الواجبة، وهو مقابل لنســيان الله ﴿وَيُوتُونَ اَلزَّكَاةَ﴾ مقابل لقبض الأيدي ﴿وَيُطِيعُونَ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كلِّ أمر ونهي، وهو مقابل لكمال الفسق والخروج عن الطاعة.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المتَّصفــون بصفات الخيــر ﴿سَــيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ مقابل لقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، الســين للتأكيد والقطع، وهو من معاني السين كما تشعر به عبــارات الفصحاء، لا كما قيل: إنَّ ذلك مســتفاد من المقــام، أمَّا إذا أريد بالرحمة ما حضر منها دينا ودنيا لأنَّه غير مســتقبل وقــد ذكر خير الآخرة في قوله: ﴿وَعَــدَ اللَّهُ﴾ فالمضارع للحال المســتمرِّ، وأمَّا إذا أريــد رحمة الآخرة والمقام مقام تبشير فالاستقبال غير مراد بالسين، فهي لمجرَّد التأكيد، ويجوز جمع الوجهين فهي كذلك للتأكيد، فالرحمة حاضرة مســتمرَّة متَّصلة بعضها في الحياة وبعضها في الموت وما بعده، ولا مانعا من إبقاء المضارع والسين على الاستقبال، والرحمة رحمة الآخرة.

﴿إِنَّ اَللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلــب عمَّا أراد، فهو منجز لوعــده ووعيده لأهلهما ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في مواضعها.

﴿وَعَــدَ اَللَّهُ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ مقتضى الظاهــر: «وعدهم» بالإضمار لكن أظهر ليشــعر بأنَّ الإيمــان علَّة للوعد، وهــذا وما بعــده مقابل لوعيد المنافقين المعبَّر عنــه بالوعد تهكُّما، على تبادر الخير مــن لفظ الوعد، وإلَّا فالوعد يكون في الخير ويكون في الشرِّ.

(1) تنسب الأبيات إلى محمد بن تومرت. ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص54.

﴿**جَنَّاتٍ**﴾ نخلا وأشجارا من كلِّ نوع ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلۡاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ**﴾ بيوتا ودورا وقصورا ﴿**طَيِّبَةً**﴾ من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر، كما في الحديث، طيِّبة في نفسها، ويطيب العيش فيها لسكَّانها، لا يلحقهم كدر كما في الدنيا.

﴿**فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ**﴾ هنَّ ثمان كما أنَّ النار سبع، وكلُّهنَّ للعَدَنِ، أي للإقامة لا خروج عنهنَّ، كما يخرج عمَّا في الدنيا، كما قال الله ﷻ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ [سورة الكهف: 108] وقد تخصُّ جنَّة عدن بواحدة من الثمان، قال رسول الله ﷺ: «**عدن دار الله التي لم ترها عين قطُّ، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيئون والصدِّيقون والشهداء، يقول الله: طوبى لمن دخلكِ**»[1] رواه أبو الدرداء وزاد عبد الله بن عمرو بن العاص: «**حولها البروج والمروج، لها خمسة آلاف باب**»[2].

ولفظ الطبراني عن عمران بن حصين وأبي هريرة: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قال: «**قصر من لؤلؤة فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء، في كلِّ دار سبعون بيتا من زمردة خضراء، في كلِّ بيت سبعون سريرا على كلِّ سرير سبعون فراشا من كلِّ لون، على كلِّ فراش زوجة من حور العين**» وفي رواية: «**في كلِّ بيت سبعون مائدة على كلِّ مائدة سبعون لونا من الطعام، وفي كلِّ بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القُوَّة ما يأتي على ذلك كلِّه**»[3]. وعن الحسن: سألت عمران بن حصين وأبا هريرة فقالا على الخبير سقطت، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «**قصر من لؤلؤة**» إلى آخر ما مرَّ.

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج3، ص278. من حديث كعب.

(2) رواه **البزار** في مسنده، رقم2487، ج6، ص449. من حديث عبد الله بن عمرو.

(3) رواه **الطبراني** في المعجم الكبير، ج18، ص160، رقم 353. ورواه **الهيثمي** في المجمع، ج10، ص420. من حديث أبي هريرة.

ويجوز أن يكون ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا اَلْاَنْهَارُ﴾ والمساكن الطيِّبة شيئا واحدا هو دار أولياء الله المتَّصفة بأنَّها مشتملة على البساتين وعلى المساكن الطيِّبة، وكلُّها عادنة أي مقيمة، يقال: إبل فلان عادنة بموضع كذا، أي لازمة له، رغبة فيه، وعدن الجنَّة عدم فنائها، وعدن أهلها عدم خروجهم عنها، ويجوز أن يراد أنَّ لبعضهم بساتين ولبعضهم مساكن وهو ضعيف، لأنَّ أهل المساكن يحتاجون أيضا إلى البساتين، ولو لم يحتج أهل البساتين إلى المساكن المبنية بأن تكون أشجارهم مظلِّلة عليهم كالبيوت، ويجاب بأنَّ أهل المساكن يؤتون من الله ﷻ بالثمار، والوصف بالخلود في البساتين غير الوصف بخلود دار أولياء الله، فلا تكرار.

﴿وَرِضْوَانٌ﴾ نكَّره للتعظيم لا للتبعيض، لأنَّ رضوانه لا يتبعَّض، لأنَّه هنا صفة ذات فلاتهم ﴿مِّنَ اَللَّهِ أَكْبَرُ﴾ نفعا وشأنا من الجنَّات والمساكن، والرضوان أزليٌّ. ذَكَّرهم ما قد يغفلون عنه، وقد يغفلون عن أنَّه يدوم مع أنَّهم عارفون به وبدوامه، وكأنَّه قال: رضواني ألذُّ لكم وأنفع ممَّا فرحتم به من الجنَّات والمساكن لدوامه، وكونه سببا لكلِّ خير، ومنشأ لتلك الجنَّات والمساكن ولقائه.

يقول الله ﷻ: «**هل رضيتم؟ فيقولون: يا ربَّنا ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: لكم عندي أفضل، فيقولون: وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا**»[1] رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري، ومعنى «أحلُّ عليكم رضواني» أخبركم به أو بدوامه، فإنَّ الصفة الذَّاتيَّة ولو كانت لا تقبل الفناء لكن في الإخبار تلذيذ، ويجوز أن يراد بالرضوان شيء من نعم الله على أنَّه غير الصفة، وقوله: «لا أسخط عليكم أبدا» يناسب غير هذا.

(1) رواه **البخاري** في كتاب الرقاق (51) باب صفة الجنَّة والنار، رقم 6183. ورواه **مسلم** في كتاب الجَنَّة وصفة نعيمها وأهلها، رقم 5057. من حديث أبي سعيد الخدري.

وعن بعض المعتزلة: لا تطمح عيني ولا تنازع نفســي إلى شيء مِمَّا وعد الله به في دار الكرامة كما تطمح وتنازع إلى رضاه عنِّي، وأن أحشــر في زمرة المهديِّين المرضيِّين عنده، وإنَّما لم يقل: «ورضوانا أكبر» بنصبهما عطفا على «جَنَّاتٍ تَجْرِي» لأنَّ الرضوان في ضمن كلِّ ما ذكر.

﴿**ذَالِكَ**﴾ المذكور من الرضوان والبساتين والمساكن، أو ذلك الرضوان، قيل: أو الدنيا ونعيمها والجنَّة وما فيها ﴿**هُوَ الْفَوْزُ**﴾ أي المفوز به فهو مصدر بمعنى المفعــول، أو يقدَّر المضاف أي نيل ذلك هو الفــوز ﴿**الْعَظِيمُ**﴾ الذي تحقر في مقابلته نعمُ الدنيا كلُّها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (73) يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)﴾

الأمر بجهاد الكفَّار والمنافقين

﴿**يَآ أَيُّهَا اَلنَّبِيءُ جَاهِدِ اِلْكُفَّارَ**﴾ بالقتال ﴿**وَالْمُنَافِقِينَ**﴾ بإقامة الحجَّة والوعظ وإقامة الحدود، كالجلد والرجم والقطع، ومن لم يطق فبالقلب، فالجهاد مستعمل في حقيقته الشَّرعِيَّة وهي القتال، ومجازه الشرعيِّ وهو مطلق الدفع عمَّا لا يرضى بإقامة الحجَّة وما بعدها، وعلى منع الجمع بينهما يفسَّر بمطلق المعنى الموجود فيهما الصادق بهما، وهو بذل الجهد في دفع ما لا يرضى بالقتال لِلْكُفَّارِ، وإقامة الحجَّة وما بعدها في المنافقين، فالآية على **العموم**، **وبيَّنت السنة من يُقتل**، وهو مُظهِر الشرك، **ومن يُقتَصَرُ فيه على ما دون القتل وهو مظهر الإسلام مضمر الشرك وكذا من لم يضمره.**

[أصول الدين] وزعم بعض أنَّ الجمع بين الحقيقة والمجاز جائز إجماعا إذا كان المجاز عقليًا، وهو باطل. وعن الحسن: جاهد المنافقين بإقامة الحدود، ولا حصر لها فيهم، ولكن هم أكثر من يعمل موجبها على عهده ﷺ،

فالحسن كأصحابنا يطلق النفاق على فعل الكبيرة، وهو حقٌّ إلَّا أنَّ التعميم فيهم بإقامة الحجَّة والحدود أولى في الآية.

[أصول الدين] ولا دليل في قوله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**»[1] ويروى أربع: «**إذا خاصم فجر**» لأنَّه ﷺ لم يجعلهنَّ نفاقا بل علامة نفاق، هو إضمار شرك إلَّا أنَّ الأمر سهل لأنَّا نسمِّيهنَّ نفاقا ولو لم يضمر شركا، وقومنا يقولون: المراد أنَّه شبيه بمضمر الشرك، وقال بعض قومنا: إن غلبت عليه ولم يكترث سمِّي منافقا، ولو لم يضمر شركا لأنَّه غير بعيد أن يضمره، وزعموا أنَّ الحسن رجع إلى أنَّ المنافق من أضمر الشرك.

﴿**وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ بكلام السوء والانتهار وسوء النظر، والتعبيس في وجوههم ولا تلن لهم ﴿**وَمَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِيسَ اَلْمَصِيرُ**﴾ هي.

﴿**يَحْلِفُونَ**﴾ أي المنافقون ﴿**بِاللهِ مَا قَالُواْ**﴾ فيك ما بلغك عنهم من التكذيب لك والسبِّ ﴿**وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ اَلْكُفْرِ**﴾ إنَّ محمدًا ﷺ ليس رسولا من الله، أو شكِّهم في أنَّ ما يقول حقٌّ، وقول ابن أبيٍّ: «والله ما مثلنا إلَّا كما قيل: سمِّن كلبك يأكلك» وقول من قال: «لئن كان صادقا كيف يملك الشام والروم؟».

﴿**وَكَفَرُواْ**﴾ أظهروا الكفر الذي أضمروا من قبلُ، وذلك أنَّهم لم يخلصوا الإيمان ثمَّ ارتدُّوا، بل هم من أوَّل الأمر على الكفر أظهروا التوحيد ﴿**بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ**﴾ بعد إظهارهم الإسلام.

[سيرة] روي أنَّه ﷺ خطب يوما بتبوك وقد مكث فيها شهرين ينزل عليه القرآن، فذكر المنافقين وسمَّاهم رِجسا وعابهم، فقال الجُلاس ـ بضمِّ

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الإيمان، رقم 89. ورواه **الترمذي** في كتاب الإيمان، رقم 2555. من حديث أبي هريرة. (م.ح)

الجيم وفتح اللام ـ: «إن كان ما يقول محمَّد في إخواننا الذين خلَّفناهم بالمدينة حقًّا ـ يعني ساداتهم الباقين بالمدينة مثل عبد الله بن أبيٍّ ـ فنحن شرٌّ من الحمير»، وروي أنَّه سمعه عمير بن سعد فقال: «والله يا جلاس إنَّك لأحبُّ الناس إليَّ وأحسنهم عندي أثرا، ولقد قلتَ مقالة لئن ذكرتُها لتفضحنَّك ولئن سكتُّ عنها لتهلكنَّني، ولَإحداهما أشدُّ عليَّ من الأخرى»، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فحلف الجلاس ما قال، فنزلت الآية، فأخذ رسول الله ﷺ بأذن عمير فقال: «**لقد وفَّتْ أذنك يا غلام وصدَّقك ربُّك**»، وقيل: سمعه عامر بن قيس الأنصاري فقال: «يا رجل، إنَّ محمدًا هو الصادق وأنتم شرٌّ من الحمير»، فلمَّا انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: «كذب يا رسول الله عليّ»، فأمرهما رسول الله أن يحلفا عند المنبر، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف: «بالله الذي لا إله إلَّا هو ما قلت، ولقد كذب عليَّ عامر»، فحلف عامر: «بالله الذي لا إله إلَّا هو لقد قال وما كذبت»، ثمَّ رفع عامر يده إلى السماء فقال: «اللهمَّ أنزل على نبيئك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب»، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: «آمين»، فنزل جبريل عليه السلام عليه ﷺ قبل أن يتفرَّقا بهذه الآية إلى قوله: ﴿فَإِنْ يَّتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فقال الجلاس: «يا رسول الله إنَّ الله قد عرض عليَّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال، وأنا قلته، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه»، فقبل عنه رسول الله ﷺ وحسنت توبته.

ولا ينافي توبته وقبولها ما روي عن ابن عَبَّاس أنَّ رسول الله ﷺ جلس في ظلِّ شجرة وقال: «**يأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فلا تكلِّموه إذا جاء**»، فطلع رجل أزرق العينين، فقال له رسول الله ﷺ: «**علام تشتمني أنت وأصحابك؟**» فجاء بأصحابه فحلفوا ما فعلوا حتَّى تجاوز عنهم.

فيحلفون للماضي عبَّر عنه بصيغة الحضور تقوية للماضي باستحضاره، كأنَّه يشاهده من لم يشاهده، وكأنَّه شاهده الآن من شاهده أوَّلاً. وقال: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ والحالف واحد ـ وهو الجلاس ـ لرضا إخوانه بحلفه، وقيل: الآية في عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول إذ قال: «لئن رجعنا إلى المدينة...»، روي أنَّه اقتتل رجل من جهينة وآخر من غفار، وكانت جهينة من حلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهني، فقال عبد الله بن أبي للأوس: انصروا أخاكم، والله ما مثلنا ومثل محمَّد ﷺ ـ وحاشاه عمَّا يقول هذا المنافق ـ إلَّا كما قال القائل: «سمِّن كلبك يأكلك»، والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى اَلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ...﴾ [سورة المنافقون: 8]. أخبر رجل رسول الله ﷺ، فأرسل إليه فجاءه فجعل يحلف بالله ما قاله، فنزل: ﴿يَحْلِفُونَ...﴾ الآية، وإذا كان القول لبعض وأسند للكلِّ فلرضاهم.

﴿**وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ**﴾ من الفتك بالنبيء ﷺ.

[سيرة] توافق خمسة عشر رجلا ـ عند أحمد واثنا عشر عند مسلم عن عمَّار وحذيفة، وما رواه أحمد هو حديث أبي الطفيل ـ عند الرجوع من تبوك، أن يدفعوا رسول الله ﷺ عن راحلته ليقع في الوادي فيموت، فأخبره الله بذلك، فلمَّا وصل إلى العقبة نادى مناديه بأمره: إنَّ رسول الله يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد غيره، واسلكوا يا معشر الجيش بطن الوادي فإنَّه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادي، وسلك النبيء ﷺ العقبة، والليل مظلم وعمَّار آخذ بزمام ناقته وحذيفة سائقها، أو بالعكس، فازدحموا إليه متلثمين حتَّى نفرت ناقته فسقط بعض متاعه، فصرخ بهم حذيفة وضرب وجوه رواحلهم، وقيل: ضربها عمار وقد سمع ضاربها منهما قعقعة السلاح، فقال: «إليكم إليكم يا أعداء الله!»، فولُّوا مدبرين فأسرعوا إلى بطن الوادي، واختلطوا بالناس، فقال ﷺ لحذيفة: «**هل عرفت أحدا منهم؟**» قال: لا كانوا متلثمين والليلة مظلمة قال: «**هل علمت مرادهم؟**» قال لا، فقال ﷺ: «**أرادوا المكر بي**».

وقيل: الذين همُّوا بما لم ينالوا عبد الله بن أُبــيٍّ ومن معه، همُّوا بإخراج الرســول إذ قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا...﴾ الآية [ســورة المنافقون: 8]، أو همَّ من معه بأن يُتَوِّجوه ولو لم يرض ﷺ، فقيل له: هلَّا نقتلهم؟ وقيل له: أرســل إلى أهليهم يأتوك برؤوســهم قال: «**لا، فإنَّه يُتحدَّث أنِّي لَمَّا كنت غالبا قتلت أصحابي**» ودعا الله أن يحرق قلوبهم، وهــم من الأوس والخزرج أو مــن حلفائهم، لا قريشي فيهم.

وقال الباقر: ثمانية من قريش وأربعة مــن العرب، ولا تصحُّ هذه الرواية، وعدَّ ابن إسحاق منهم الجلاس، ولا ينافي ما مرَّ من توبته وإحسانه، على أنَّ المراد الغالب لا الكلُّ في مثل قوله: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة».

ولا يخفــى أنَّ قوله: ﴿وَكَفَــرُواْ﴾ وقولــه: ﴿وَهَمُّــواْ﴾ للمنافقين على التوزيع، فطائفــة همُّوا بمــا لم ينالــوا، وطائفــة قالــوا: «إن كان ما يقول محمَّــد...»، ويجوز أن يراد الــكلُّ في الكلاميــن، لأنَّ كلًّا يرضى بما فعل الآخر أو يقول، أو جمع معه حاطبا، وكان له مال بالشــام فأبطأ عنه، فحلف لئن تفضَّل الله عليه بمجيء ذلك المال لأتصدَّقنَّ منه، ولأَصِلَنَّ قرابتي، وَلَمَّا أتاه لم يف.

واثنان جمعٌ مجازا. وخلف الوعد نفاق. وقيل: ﴿مَا لَمْ يَنَالُوا﴾: هو تتويج عبد الله بن أُبي، قالوا وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أُبي تاجا.

﴿**وَمَا نَقَمُواْ**﴾ ما ذكروا وما اعتقدوا شيئا يوجب الانتقام ﴿**إِلَّآ أَنَ اَغْنَاهُمُ**﴾ أو ما تكرهوا وتنكروا إلَّا لأجل أن أغناهم ﴿**اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾ بعد قدومه المدينة وأكثر أهلها محاويج ﴿**مِن فَضْلِهِ**﴾ بالغنائم والدية، إذ أخذ الجلاس بن سويد ـ بالجيم لا بالحاء ـ اثني عشــر ألف درهم دية لمولى حرٍّ له قتل فقيل ذلك دية، وقد منع منها فسعى [له] ﷺ في أخذها.

وروي أنَّه ﷺ أَدَّى حمالة كانت على الجلاس، وقيل: الدية عشـرة آلاف، والزائد سنق كانوا يعطون الدية ويتكرَّمون بالزيادة عليها، وتسمَّى الزيادة عليها سنقا، يقال سنق الفصيل أو الفرس: إذا تخم بالعلف.

والإغناء من فضل الله ليس مِمَّا ينكر فينقم عليه، فذلك من باب تأكيد المدح بما يشبه الذمِّ، كأنَّه قيل: إِنْ كان شيء يوجب الانتقام أو يثبت الانتقام لأجله فهو إغناء الله لهم من فضله، ولا يخفى أنَّ ذلك مِمَّا لا ينقم عليه، فلا شيء ينقم عليه، كقول النابغة:

ولا عيب فينا غير أنَّ سيوفنا بهنَّ فلول من قراع الكتائب

وقول بعض: «ما نقم الناس من أميَّة إلا أنَّهم يحلمون إن غضبوا».

﴿**فَإِنْ يَّتُوبُواْ**﴾ عن الإشراك والنفاق كالجلاس ﴿**يَكُ**﴾ أي يك التوب، أي التوبة المأخوذ من قوله: ﴿يَتُوبُواْ﴾ ﴿**خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ أي نفعا، أو أفضل مِمَّا يدَّعون أنَّ فيه فضلا، وهو النفاق والإشراك ﴿**وَإِنْ يَّتَوَلَّوْاْ**﴾ عن إخلاص الإيمان إلى الإصرار على النفاق ﴿**يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا اَلِيمًا**﴾ مؤلما، كسميع بمعنى مسمع، أو تألُّم مجازا ﴿**فِي الدُّنْيَا**﴾ بما شاء من الهموم العظيمة وغيرها، وإن أَدَّى بهم الإصرار إلى إظهار الشرك فبالقتل أيضا ﴿**وَالَاخِرَةِ**﴾ بالنار.

﴿**وَمَا لَهُمْ فِي اِلَارْضِ**﴾ في طولها وعرضها الواسعين ﴿**مِنْ وَّلِيٍّ**﴾ يحفظهم من توجُّه العذاب إليهم ﴿**وَلَا نَصِيرٍ**﴾ يدفعه عنهم بعد مجيئه.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا ءَاتَيْهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَيهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78)﴾

قصَّة ثعلبة بن حاطب وخلفه للعهد

﴿**وَمِنْهُم**﴾ من المنافقين ﴿**مَّنْ عَاهَدَ اَللَّهَ لَئِنَ ـ اتَانَا مِن فَضْلِهِ**﴾ مالا واسعا ﴿**لَنَصَّدَّقَنَّ**﴾ لنتصدَّقنَّ منه على الفقراء، وفي وجوه الأجر، أبدلت التاء صادًا فأدغمت الصاد في الصاد ﴿**وَلَنَكُونَنَّ مِنَ اَلصَّالِحِينَ**﴾ نعمل أعمال أهل الصلاح، من صلة الرحم وإيتاء الزكاة والإنفاق في الجهاد وسائر أنواع الأجر والاشتغال بالعبادة.

ومقتضى الظاهر: «أتاني من فضله لأصدَّقنَّ ولأكوننَّ» وكذا بإفْراد ضمائر الغيبة بعدُ، ولعل الجمع لأنَّ معه من رضي فعله ورغب فيه.

﴿**فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ**﴾ الهاء من «بِهِ» عائد إلى مفعول محذوف، أي فلمَّا آتاهم الله مالا بخلوا به، أو لَمَّا آتاهم ما سألوا بخلوا به.

[نحو] و«مِنْ» للابتداء، ولو جعلناها تبعيضيَّة وقلنا «مِنْ» التبعيضيَّة اسم لكانت مفعولا لـ«ءَاتَى»، وعادت إليه الهاء، ويجوز عودها إلى «فَضْلِهِ» العامِّ المذكور مرادًا بها الفضل الخاصُّ، وهو ما أعطاه الله على طريق الاستخدام وبخلهم هو منعهم الزكاة.

﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عمَّا عاهدوا من الزكاة والطاعة ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ في غير ذلك أيضا عن الحقِّ ومن عادتهم الإعراض.

[سيرة] جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري ـ بثـاء مثلَّثة وعين مهملة ـ إلى رســول الله ﷺ، فقــال: يــا رســول الله، ادع الله أن يرزقنــي مــالا، فقــال له رسول الله ﷺ: «**ويحك يا ثعلبة قليل تؤدِّي شكره خير من كثير لا تطيقه**» وكان قبل ذلك يحافظ علــى الصلاة مع الجماعــة ويعجِّل الخروج من المســجد، فقال ﷺ له: «**فيك خصلة نفاق**» فقال: مالنا للصلاة إلَّا هذا الثوب، فأتعجَّل به إلى زوجتي لتصلِّي به، ثمَّ أتاه بعد ذلك، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا، فقال له رســول الله ﷺ: «**أمالك فيَّ أسوة حســنة، والذي نفسي بيده، لو أردت أن تســير الجبال معــي ذهبا وفضَّة لســارت**» ثمَّ أتاه بعــد ذلك، فقال: يا رســول الله ادع الله أن يرزقني مالا، والذي بعثك بالحقِّ لئن رزقني الله مالا لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ ارزق ثعلبة مالا**»، فاتَّخذ غنما فنمت كما ينمو الدود، فضاقــت عنه المدينة فتنحَّى عنها، ونزل واديا من أوديتها فكان يصلِّي مع رســول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلِّي سائر الصلوات في غنمه، ثمَّ كثرت ونمت حتَّى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد إلَّا الجمعة، فزادت حتَّى لا يشــهد جماعة ولا جمعة، وإذا كان يوم الجمعــة تلقَّى الناس يســألهم عن الأخبار، فذكره رســول الله ﷺ وقــال: «**ما فعل ثعلبــة؟**» فقالوا: يا رسول الله اتَّخَذَ ثعلبة غنما لا يسعها واد، فقال رسول الله ﷺ: «**يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة!**» ونزلت آية الصدقة، فبعث رســول الله ﷺ رجلا من بني سليم ورجلا من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة، وكيف يأخذانها، وقال لهما: «مرَّا على ثعلبة بن حاطب وفلان من بني سليم فخذا صدقاتهما»، فخرجا حتَّى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رســول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلَّا جزية، ما هذه إلَّا أخت الجزية، انطلقا حتَّــى تفرغا ثمَّ عودا إليَّ فانطلقا، وســمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أســنان إبله فعزلها للصدقة، واستقبلهما بها، فقالا: ما

عليك هذا، قال خذاه فإنَّ نفسي بها طيِّبة، فقالا: حتَّى يأذن لنا رسول الله ﷺ، ومرَّا على الناس وأخذا الصدقات ثمَّ رجعا إلى ثعلبة، قال: أرياني كتابكما فقرأه، وقال: ما هذه إلَّا جزية ما هذه إلا أخت الجزية، اذهبا حتَّى أرى رأيي، فرجعا فلمَّا رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يتكلَّما: «**يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!**»، وأخبراه بخبر السلمي فقبل عنه ودعا له بخير، وأخبراه بخبر ثعلبة ونزل فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اَللَّهَ لَئِنَ ـ اتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ اَلصَّالِحِينَ فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

وروي أيضا أنَّه أتى مجلس الأنصار فقال: عاهدت الله إن أتاني مالا تصدَّقت منه، وأدَّيت حقَّه، فورث ابن عمٍّ له ولم يف بالوعد، وكذا معتب بن قشير: وَعَدَ فأُتي مالاً فلم يف، وكان لحاطب أيضا مال بالشام فأبطأ عنه وعهد فجاءه ولم يف، فلعلَّ الآية نزلت في ذلك كلِّه.

﴿**فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ**﴾ وكان عند رسول الله حين نزلت الآية رجل من أقارب ثعلبة، فذهب إليه فقال: قد نزلت فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتَّى أتى رسول الله ﷺ فسأله أن يقبل صدقته، فقال: إنَّ الله منعني أن أقبل صدقتك، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال له رسول الله ﷺ: «**هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني**»، وأتى أبا بكر في خلافته فقال: لم يقبلها منك رسول الله فلا أقبلها، وأتى عمر في خلافته فقال له: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر فلا أقبلها، وأتى عثمان في خلافته فلم يقبلها ومات في خلافته، ولو أدرك الإمام عليًّا لم يقبلها منه كما لم يقبلها مَن قبله، وهو كأشدِّهم عزوبا عن الدنيا ومالها ولذَّتها.

والواجب أداء الزكاة بطيب نفس، أو بالصبر عليه احتسابا. والضمير في «أَعْقَبَ» عائد إلى البخل، أي أورثهم، أو إلى الله ﷻ، أي صيَّر عاقبتهم نفاقا، يقال: أعقبك الله خيرا: أي صيَّر عاقبتك خيرا، وهذا أولى لعود هاء «فَضْلِهِ»

وهاء «يَلْقَوْنَهُ» إليه تعالى، قيل: ولأنَّ إسناد إعقاب النفاق إلى البخل بعيد لقوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ فإنَّ الإخلاف هو البخل، فكأنَّه أعقب البخل نفسه، الجواب أنَّه نفاق أعقب نفاقا آخر، **والمعصية تورِّث معصية**. و«فِي» متعلِّق بنعت محذوف، أي راسخا في قلوبهم، والنفاق في القلب والنفاق بالجارحة تابع له.

[نحو] وأجاز بعضهم عود الهاء مِن «يَلْقَوْنَهُ» للبخل أي جزاء بخلهم، والفاء في قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ والباء في قوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا﴾ سَبَبِيَّتان، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي بإخلافهم الله، ويوم اللقاء: وقت الموت أو البعث، والذي وعدوا الله به: الصلاحُ وأداء حقوق المال والنفلُ منه، وكذبهم هو خلف الوعد، فذلك تأكيدٌ، لأنَّ إخلاف الوعد متضمِّن للكذب، إلَّا أن يقال: الكذب أوَّلا في حين نطقوا بالوعد وهو لفظ، ونفاقه إضمار شرك، بدليل قراءة: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ ولو كان حثْوُ التراب على رأسه يدلُّ على أنَّ له تصديقا، ويناسب الإشراك قولُه: «ما هذه إلَّا جزية»، وقوله: «ما هذه إلَّا أخت الجزية» ولو أتى بها بعدُ.

[نحو] و«مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر من الكون الذي له خبر، وهو دال على الحدث فيتعلَّق به الظروف، فالتقدير: بكونهم يكذِّبون، [قلت:] هذا هو الحقُّ، لا ما قيل: إنَّه لا يدلُّ على الحدث، وإنَّه لا يعلَّق به الظروف، وإنَّ المصدر مِمَّا بعده هكذا: «وبكذبهم»، ألا ترى إلى قوله: «وكونك إيَّاهُ عليك يسير»، وترجمة مصدره: «يَلَيَّ» (بفتح اللام) بلغة البربر.

ومن حديث أبي هريرة مرفوعا: «**آية النفاق ثلاث: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**»[1]. ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خُلَّة** ـ وفي رواية:

(1) تقدَّم تخريجه في هَذَا الجزء، انظر ص 87.

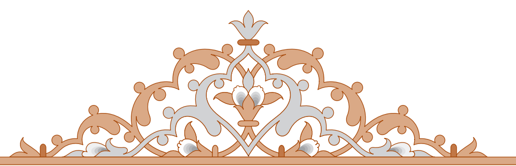
خصلة منهنَّ ـ كانت فيه خصلة من نفاق حتَّى يدعهـا: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»[1].

[أصول الدين] وهـذا ظاهر فـي أنَّ النفاق يطلق في إضمار الشـرك مع إظهار التوحيد، وفي الفسق مِمَّن يوحِّد الله في قلبه ولسانه، وقومنا لَمَّا خصُّوا النفاق بإضمار الشـرك وإظهار التوحيد احتاجوا إلى أن يقولوا: شـبَّه الفاسق بمن أظهر الشـرك وأظهر التوحيد، وإلى أن يقول بعض منهـم: إنَّ ذلك في الفاسـق الغالب عليه ذلك، وإلـى أن يقول بعض: ذلك فـي المنافقين على عهده ﷺ، وإلى أن يقول بعض: ذلك في رجل مخصوص في عهده، [قلت:] وذلك خبط، والحقُّ ما قلت أوَّلاً.

﴿**أَلَمْ يَعْلَمُواْ**﴾ أي المنافقون عمومـا، أو المنافقون المذكورون في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اَللَّهَ﴾ ﴿**أَنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُ سِـرَّهُمْ**﴾ أي مسرورهم في أنفسهم بلا نطق ﴿**وَنَجْوَاهُـمْ**﴾ أي منجوهم فيما بينهم بنطق خفـيٍّ، ومثله ما جهروا به حيث لا يسـمع أحد، فهما مصدران بمعنى مفعول، وذلك أنَّهم أسـرُّوا في قلوبهم وفيمـا بينهم النفاق، والإخلاف، والطعن، وتسـمية الـزكاة جزية أو أختها، والتكذيب، والفتك بالنبيء ﷺ.

﴿**وَأَنَّ اَللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ جمع للغيب الذي هو مصدر بمعنى غائب، هو علَّام لأنواع ما غاب عن خلقه فكيف يخفى عنه حال المنافقين.

(1) تقدَّم تخريجه، انظر ج2، ص324.



﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿79﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿80﴾﴾

استهزاء المنافقين بالنبيء وحرمانهم من الاستغفار لهم

[سبب النزول] وحثَّ رسول الله ﷺ في خطبة على صدقة بعد نزول آية الزكاة وشهرتها، ومضى مدَّة فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بأربعة آلاف درهم، فقال: كان لي ثمانية آلاف درهم فأقرضت ربِّي أربعة، وأمسكت لعيالي أربعة، فقال له رسول الله ﷺ: «**بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت**» فبارك الله له حتَّى صولحت إحدى امرأتيه على ثمانين ألف درهم، فثمن ماله أكثر من مائة ألف درهم وستِّين ألف درهم، كما يدلُّ له المصالحة مبادرة، وقيل: إنَّه جاء إلى النبيء ﷺ بأربعمائة أوقية ذهبا، واسم تلك المرأة «تماضر»، وقيل: أزواجه أربع فصولحت تلك المرأة عن ربع الثمن عن ثمانين ألفا فثمن ماله أكثر من ثلاث مائة ألف وعشرين ألف درهم، وَمِمَّا بورك له به أنَّه أعتق ثلاثين ألف رقبة، وأوصى بخمسين ألف دينار وألف فرس في سبيل الله، وأوصى لكلِّ واحد مِمَّن بقي من أهل بدر بأربع مائة دينار، والباقون مائة رجل، وأظُنُّ أنَّه بورك له في الآخرة بأكثر من سبع مائة لكلِّ حسنة.

وجاء عاصم بن عديٍّ بمائة وسق تمرًا، والوسق: ستُّون صاعا، أو حمل بعير، وجاء أبو عقيل الأنصاري واسمه الحبحاب ـ وقيل: سهل بن رافع ـ بصاع تمرا، فقال: بتُّ ليلتي أجرُّ بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالي وجئت بصاع، فأمر رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات، والجرير: الحبل يسقي به على بعيره أو على ظهره من البئر لشجرهم ونخلهم أو حرثهم، أو يرفع به التراب يجرُّه به في وعاء، ثمَّ رأيت ما يعيِّن الأوَّل وهو السقي، وهو لفظ البخاري ومسلم: «بتُّ ليلتي أجرُّ بالجرير الماء حتَّى نلت صاعين فأمسكت أحدهما لعيالي...» فقال المنافقون: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلَّا رياء، وقد كان الله ورسوله غنيَّين عن صاع أبي عقيل، ولكن أحبَّ أن يذكره ليعطى من الصدقة، وقد قال ﷺ خلاف قولهم: «**أفضل الصدقة جهد المقلِّ**»[1].

ونزل في ذلك كلِّه قوله: ﴿**اِلذِينَ يَلْمِزُونَ اَلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ اَلْمُومِنِينَ فِي اِلصَّدَقَاتِ وَالذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ**﴾ كالحبحاب ورفاعة بن سعد، وقال مجاهد: هو رفاعة بن سعد، جمع تعظيما، أو هو سبب النزول ففسِّر الجمع به.

﴿**فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اَللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ**﴾ أي هم الذين يلمزون، والضمير للمنافقين، أو أعني الذين أو أذمُّ الذين، أو مبتدأ والخبر «سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ»، أو بدل من هاء «سِرَّهُمْ». و﴿يَلْمِزُونَ﴾: يعيبون، و﴿المُطَّوِّعِينَ﴾: المتطوِّعون، أبدلت التاء طاء وأدغمت الطاء في الطاء، ومعناه: معالجون للطاعة بالنفل، «وَالذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ» عطف على «الْمُطَّوِّعِينَ» عطف خاصٍّ على عامٍّ، لأنَّ المطَّوِّعين شامل للذين لا يجدون إلَّا جهدهم لا على المؤمنين، لئلَّا يوهم أنَّ الذين لا يجدون إلَّا جهدهم ليسوا من المؤمنين، ولو أمكن عطفه عليه عطف خاصٍّ على عامٍّ أيضا. والجهد:

(1) تقدَّم تخريجه، انظر ج2، ص31.

الطاقة. و«يَسْخَرُونَ» معطوف على «يَلْمِزُونَ» ومعناه: يستهزئون. و﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنهُمْ﴾: جازاهم على سخرهم، وهذا مشاكلة واستعارة تبعيَّة، لأنَّ جزاء السخر مثل السخر و﴿لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ على كفرهم ونفاقهم وعطفه على «سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ» عطف اسمِيَّة على فِعلِيَّة.

وجاءوا يعتذرون ويقولون: استغفر لنا يا رسول الله، وكذا عبد الله بن عبد الله بن أُبي لَمَّا مرض أبوه طلب الاستغفار له، فنزل قوله تعالى: ﴿**اِسْتَغْفِرْ لَهُمُۥٓ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُم**﴾ هو أمر ونهي مراد بهما الإخبار باستواء الاستغفار وعدمه في عدم المغفرة لهم، كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمُۥٓ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمُۥٓ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَّغْفِرَ اللَّهُ لَهُم﴾ [سورة المنافقون: 6] وقد قيل: نزل ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمُ...﴾ بعد طلب الاستغفار، وهو من سورة أخرى.

ولا ينافي أنَّ آخر سورة نزلت سورة براءة لجواز نزول بعض آية مثلا في أخرى، وأيضا قد قيل: الآخرة نزولا المائدة، وكالآية قوله تعالى: ﴿قُلَ انفِقُواْ طَوْعًا اَوْ كَرْهًا﴾ فإنَّه صورة الأمر بالإنفاق طوعا أو كرها، والمراد الإخبار بالمساواة بين الطوع والكره في عدم القبول، وفائدة الإنشاء بدل الإخبار التأكيد في المساواة، كأنَّه قيل: استغفر لهم تارة فتشاهد عدم المغفرة، وإن شئت فلا تستغفر لهم فتشاهد أيضا عدم المغفرة، أو استغفر تارة فترى عدمها ولا تستغفر أخرى فترى عدمها أيضا.

ويقال: استغفر لوالد عبد الله لَمَّا طلبه عبد الله فنزل قوله تعالى: ﴿**إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَّغْفِرَ اَللَّهُ لَهُمْ**﴾ فقال: لأزيدنَّ على السبعين فنزلت: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمُ...﴾ فجعلت في سورة أخرى، على أنَّه ﷺ فهم أنَّه إن استغفر لهم أكثر من سبعين جاز له، كذا قيل.

[قلت:] وهذا الفهم بعيد عنه ﷺ، لأنَّه اشتهر بين الناس أنَّ السبعين مثلٌ للإيَّاس، والزيادة عليها لا تفيد، فإن صحَّ عنه ـ وهو رواية للبخاري ومسلم

وابن ماجه ـ فلعلَّ هذا الاستعمال وقع وشهر بعد نزول الآية، ثمَّ إِنَّهُ لا يتصوَّر منه أن يستغفر لهم وهم مشركون، وكذا روى الضحَّاك أنَّه قال ﷺ: «**إنَّ الله قد رخَّص لي فسأزيد على السبعين**» أو قوله: «سأزيد» مجرَّدُ مزيد الشفقة، لا ظاهره من إيقاع الزيادة، فيكون كقوله:

هَوَايَ مع الركب اليمانين مصعد[1] ....إلخ

في كون المراد غير الظاهر، وكالكناية المستعملة في غير مَا اللَّفْظُ له، وعن ابن عَبَّاس عن ابن عمر: «**لو علمت أنِّي إن زدت على السبعين يغفر له لزدت**» وهذا تقييد لإطلاق الزيادة على السبعين، والحديث يقيِّد بعضه بعضا، ثمَّ الشفقة المذكورة لا تتمُّ لهم بل لغيرهم، إذ لا يشفق عليهم بعد إقناطه عنهم.

[لغة] قد شاع استعمال السبعة واستعمال السبعين وسبع مائة وسبعة آلاف ونحو ذلك في الإقناط، ووجه ذلك أنَّ السبعة مشتملة على جميع أنواع العدد، فكأنَّه قيل: العدد كلُّه، فهي كناية على الكثرة بلا حدٍّ، وإيضاح ذلك: أنَّ العدد إمَّا زوج أو فرد أو زوج زوج أو زوج فرد، فالزوج الاثنان والفرد الثلاثة، وزوج الزوج أربعة، وزوج الفرد الستَّة، والواحد على المشهور ليس عددا، فالسبعة سِتَّة وواحد، والسبعة أكمل الأعداد لجمعها معاني الأعداد، لأنَّ الستَّة أوَّل عدد تامٍّ لأنَّها تعادل أجزاءها إذ نصفها ثلاثة وثلثها اثنان وسدسها واحد، والجملة سِتَّة وهي مع الواحد سبعة، وليس بعد التمام إلَّا الكمال، فإذا أريدت المبالغة جعلت آحادها عشرات فتكون سبعين، أو زيادة المبالغة جعلت عشرات السبعين مئات، وهكذا... وعنصر ذلك سبعة، وقد ذكرت في «شرح القلصادي» كلاما مناسبا لهذا.

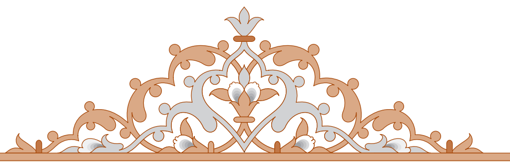
---

(1) نسبه الشيخ الطاهر ابن عاشور في **التحرير والتنوير** إلى جعفر بن علبة الحارثي. ينظر: ج1، ص161. ط. تونس.

وقد قيل خصَّ الله تعالى السبعين بالذكر لأنَّ العرب تستكثر السبعين كما كبَّر ﷺ على عمِّه حمزة سبعين، ولأنَّ السبعة عدد شريف، كما أنَّ السماء سبع، والأرض سبع، والأيَّام سبعة، والأقاليم سبعة، والبحور سبعة، والنجوم السيَّارة سبعة، وإنَّما أمكن [له] ﷺ الاستغفار لأنَّه يدَّعي التوبة ويظهرها ولو كان ينقضها.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من انتفاء المغفرة لهم ﴿**بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**﴾ بسبب كفرهم الصارف عنها لا لبخل منَّا ولا لقلَّة ما عندنا، ولا لعدم الاعتداد بذلك.

[أصول الدين] وعدم المغفرة لمن أصرَّ على الذنب شرعيٌّ عند الأَشعَرِيَّة والعقل يسيغها له، وقالت المعتزلة: عقليٌّ لا يسوغ، قلنا: عقليٌّ، لأنَّ إهمال المكلَّف غير حكمة وشرعيٌّ أيضا ﴿**وَاللهُ لَا يَهْدِي اِلْقَوْمَ اَلْفَاسِقِينَ**﴾ المقضي عليهم بالشقوة، فهم لا يعقلون عن الفسق المنافي للمغفرة، فالله لا يغفر لهم بعد أن هداهم هدى بيان فأصرُّوا.



﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (82)﴾

تهديد المنافقين المتخلِّفين والأمر بإقصائهم وحرمانهم

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الاثنا عشر الذين خلَّفوا أنفسهم، أو خلَّفهم الله، أو خلَّفهم الشيطان عن النبيء ﷺ وعن الغزو، أو خلَّفهم الكسل أو النفاق، أو النبيء ﷺ إذ طلبوا التخلُّف فأذن لهم فيه ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بقعودهم عن غزوة تبوك ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللهِ﴾ أي خلفه، يقال: خلف كذا وخلافه بمعنًى، وهو متعلِّق بـ«مَقْعَدِ»، أو مصدر بمعنى الوصف، أي مخالفين لرسول الله ﷺ، أو يقدَّر: ذوي خلاف له، وهو حال، ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا لـ«مَقْعَدِ» وهو مصدر، فإنَّ التخلُّف عنه قعود عنه كقمت وقوفا، أو مفعولا من أجله، أي لأجل خلاف رسول الله ﷺ، والناصب «فَرِحَ».

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لميل الطبع إلى الراحة والقعود مع الأهل والولد والحياة، إذ لم يعالجوا أنفسهم إلى ما فعل المؤمنون من دخول المشقَّة، ومفارقة الأهل والمال والولد، وبذل أموالهم وأزواجهم لرضا الله ﷻ، ففي الآية تلويح بمدح المؤمنين بأنَّهم رضوا ذلك ولم يكرهوا ﴿وَقَالُوا﴾ للمسلمين على وجه ادِّعاء النصح، أو لضعفاء المسلمين، أو قال بعض لبعض: ﴿لَا تَنفِرُوا﴾ إلى الجهاد ﴿فِي الْحَرِّ﴾ كانت غزوة تبوك في زمان شدَّة الحرِّ، مع القحط، وبُعد المسافة، وخوفهم من شدَّة قتال الروم.

﴿**قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا**﴾ من حرِّ السفر إلى تبوك، وكان الواجب أن يقوا أنفسهم به عن حرِّ جهنَّم، ولكن اختاروا حرَّ جهنَّم عنه بالمعنى للمخالفة ﴿**لَوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ**﴾ أي لو كانوا يعلمون بجهنَّم وأشدِّيَّة حرِّها لم يختاروا عدم الخروج.

﴿**فَلْيَضْحَكُواْ**﴾ الفاء لسَبَبِيَّة ما سبق للإخبار بالضحك والبكاء لا لنفسهما ﴿**قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا**﴾ أي زمانا قليلا وزمانا كثيرا، أو ضحكا قليلا وبكاء كثيرا، والضحك في الدنيا والبكاء في الآخرة.

ويروى أنَّ المنافقين يكونون في النار قدر عمر الدنيا لا يرقى لهم دمع ولا يكتحلون بنوم، وقيل: كلاهما في الدنيا، كحديث: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا**»[1] ولا يخفى أنَّ الدنيا وما فيها قليل بالنسبة للآخرة، ولو مع غاية الكثرة، والمنقطع الفاني مثل العدم بالنسبة للدائم، وإن شئت فالضحك أيضا في الآخرة، وعليه فالقلَّة العدم كما يطلق الكثرة على الكلِّ، فإنَّه لا ضحك لهم في الآخرة.

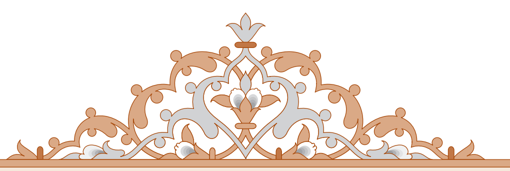
ويجوز كون الضحك والبكاء كناية عن الفرح والحزن لا حقيقتهما، ولام الأمر للتأكيد، والمراد الإخبار بأنَّهم ضحكوا في الدنيا قليلا ويبكون في الآخرة كثيرا، فإنَّ الأمر لا يحتمل الكذب كما لا يحتمل الصدق، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة الأنعام: 73] بصيغة الأمر، وأمر المطاع لا يتخلَّف، والأمر للوجوب، فناسب التعبير به، فكأنَّه قيل: لا بدَّ من ضحكهم قليلا وبكائهم كثيرا، فتارة ذلك، وتارة يستعمل الخبر بمعنى الأمر لتحقُّق الوقوع، كأنَّه وقع فأخبر عنه، والمراد بكثرة ما في الآخرة ما لا نهاية له

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الزهد (9) باب في قول النبيء ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا» رقم 2312. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد (19) باب الحزن والبكاء رقم 4190. من حديث أبي ذر.

قال ﷺ: «**يا أيُّها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا أن تبكوا فتباكوا، فإنَّ أهل النار يبكون في النار حتَّى تسـيل دموعهم في وجوههم كأنَّها جداول، حتَّى تنقطع الدموع فتسيل الدماء، فتقرح العيون، فلو أن سفنا أجريت فيها لجرت**»[1].

﴿**جَزَآءً**﴾ مصدر مؤكّـد للجملة قبله، أي يجازيهم جـزاء، أو مفعول من أجله، أي حكمنـا عليهم بالضحك القليـل والبكاء الكثير للجـزاء، ومحطُّ القليل قوله: ﴿وَلْيَبْكُواْ﴾ ولو فسَّـرنا ذلك بالكناية ﴿**بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ أي بما كانوا يكسبونه، أو كونهم يكسبون.

(1) رواه **المنـذري** في كتاب الترغيب والترهيـب، باب في الترهيب من النـار، ج4، ص493، رقم 95. وأورده **السيوطي** في الدر، ج3، ص287. من حديث أبي موسى الأشعري.



﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥﴾

منع المنافقين من الجهاد، والمنع من الصلاة على موتاهم، والتحذير من الاغترار بأموالهم وأولادهم

وفرَّع على فرحهم بالتخلُّف وكراهة الجهاد والقول: «لَا تَنفِرُوا» والوعيد على ذلك قولَه:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ﴾ ردَّك من تبوك، والمصدر: «الرجع» لأنَّه متعدٍّ، و«رَجَعَ» اللازم مصدره «الرجوع»، وقد يكون «الرجع» مصدرا له أيضا، وحمل بعض عليه قوله: ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [سورة الطارق: 11] والواضح إبقاؤه على أصله أي: والسماء ذات الرجع لِكَذَا، واختار المتعدِّي في الآية ليكون فعلا لله ﷻ، لأنَّ ذلك السفر فيه خطر، فالمناسب أن يعبر بما يفيد التأييد الإلهي، كما عبَّر بـ«إنْ» لا بـ«إذا» للشكِّ في السلامة، تعالى الله عن الشكِّ وصفات النقص ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يرجع إليهم كلِّهم إلَّا من مات أو غاب، وكلُّهم منافقون ولكن خصَّ طائفة تريد الخروج معه لغزوة بعد تبوك إن أرادت، وألْغى من لا يطلب الخروج بعد، ففرض الكلام فيمن يطلب الخروج، فلا يقبل كما قال: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ...﴾.

ويجوز أن تكون «مِنْ» للبيان، والهاء للمنافقين أو المتخلِّفين، أي طائفة هم المنافقون، أو هم المتخلِّفون، ويجوز إبقاؤها على التبعيض، فيكون البعض الآخر من خرج معه إلى تبوك من المنافقين، ومن مات أو غاب أو تاب؛ ويجوز ردُّ الضمير إلى المتخلِّفين المعذورين وغير المعذورين على الاستخدام، بقصد غير المعذورين فقط، أو بلا استخدام، فإنَّه مَن عُذِرَ لِعُذْرٍ صحيح لكنَّه فرح بالتخلُّف وكره الجهاد وقال: «لَا تَنفِرُوا» يكون من المنافقين، فهم طائفة. والتنكير في ذلك كلِّه للتحقير.

﴿**فَاسْتَاذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ**﴾ إلى غزوة بعد تبوك، والفاء لمطلق التفريع لا للاتِّصال ﴿**فَقُل**﴾ لهم ﴿**لَن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا**﴾ إلى غزوة، ولو بلا قتال كحمل المؤونة والرجال والمنافع ﴿**وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِي عَدُوًّا**﴾ ولو في المدينة بلا خروج، أو هذا تأكيد للأوَّل، واللفظ خبر والمعنى النهي، وذلك تأكيد، أي لا تخرجوا معي ولا تقاتلوا معي، فإنَّ الله ﷻ خذلهم وأبعدهم عن رتبة الجهاد والخروج له، والصحبة معه ﷺ فيه، وعن ديوان الغزاة، وعن عدِّهم من الجند.

واستدلَّ بعضٌ على إرادة النهي بقوله: ﴿فَاسْتَاذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ فإنَّه لا يلائم الإخبار بأنَّهم لن يخرجوا مع أنَّهم يريدون الخروج، وفيه أنَّه لا مانع من الإخبار بأنَّهم يريدونه ولا يكون، لأنَّه لا يقبله منهم فلا يكون.

وعلَّل ذلك بقوله: ﴿**إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ في الوقت الأوَّل وقت الخروج إلى تبوك، والأصل: في المرَّة الأولى، وإنَّما يكون وقت غزوة تبوك أوَّلا بالنسبة لِمَا بعده، وقيل: نُصب على أنَّه مفعول مطلق، أي قَعْدَة سابقة.

[صرف] وأصل مرَّة واحدة من المُرُور، مصدر، ثمَّ استعمل ظرف زمان. ولم يؤنَّث اسم التفضيل لأنَّه أضيف لمنكر. ﴿**فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ**﴾ المتأهِّلين للتخلُّف عن الغزو لنقصهم، كالصبيان والبُلَّه والمجانين والمرضى والعمي والعرج والمقعدين والهرمى والنساء، أو هو من الخلف ضدَّ الصلاح،

فإنَّ الصبيان ومـن بعدهم كذلك، ومنـه «خلوف فم الصائـم»، وعن قتادة: ﴿الْخَالِفِينَ﴾ النسـاء، ويردُّه أنَّ صفة المؤنَّث لا تجمع جمع المذكَّر السالم، وأجازه الكوفيُّون، وأمَّا على الأوَّل فالجمع تغليب للذكور.

[أصول الدين] ﴿وَلَا تُصَـلِّ عَلَىٰٓ أَحَـدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَـدًا﴾ لأنَّ نفاقهم إضمار شرك، ولو كان نفاق جارحة لأجاز له الصلاة عليهم، لقوله ﷺ: «**صلُّوا على كلِّ بارٍّ وفاجرٍ**»(1). وَيَدُلُّ على أنَّه إضمار شـرك قولـه: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإنَّه لا يقال للمنافق بالجارحة: كَفَر بالله، ولا كفر برسوله، بل يقال: كَفَر وكافر.

و«مَاتَ» نعـت. ﴿**وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**﴾ لدفن أو زيـارة، في الحين أو بعد ذلك، أو لدعاء كذلك، أو لتلقين شـهادة، أو إيناس، أو إظهار شفقة عليه، أو لشفقة، فقيل: لم يصلِّ عليه ولم يقم على قبره البتَّة، أراد الصلاة فنزلت الآية.

ويروى أنَّه ﷺ زار قبر أمِّه عام الحديبيَّة في ألف مُقنَّع فناسب أنَّها أحياها الله قبل وآمنـت به ﷺ، وقولـه ﷺ: «**زوروا القبور فإنَّها تذكِّركـم الآخرة**»(2) مختصٌّ بقبور الموحِّدين.

[سيرة] ويروى أنَّـه لَمَّا احتضر عبد الله بـن أُبي أو ثقل مرضه أرسـل إلى رسـول الله ﷺ فسـأله أن يدعو له، ويصلِّ عليه إذا مات، ويقوم على قبره ويعطيه قميصه ليكفن فيه، والمنافقون عنده، فأسلم ألف من المنافقين لَمَّا علموا أنَّه يرجو بركته ﷺ، وروي أنَّه أرسل إليه قميصه فردَّه، فقال: أريد القميص الذي يلي جسده فأرسله إليه فلامه عمر لشـركه، فقال ﷺ: «**ما يغني عنه قميصي مع شركه، وأرجو**

(1) رواه **الربيع** في مسنده، كِتَاب الصلاة ووجوبها، باب [35] في الإمامة والخلافة في الصلاة، رقم 776، بلفظ: «الصلاة جائـزة خلف كلِّ بارٍّ وفاجـر ما لم يدخل فيها ما يفسـدها» من حديث ابن عَبَّاس.

(2) أورده **ابن كثير** في كتاب البداية والنهاية، ج14، ص124.

أن يسلم به ألف»[1]. وروي أنَّه لَمَّا مات جاء ابنه عبد الله فقال: يا رسول الله، إن لم تصلِّ عليه لم يصلِّ عليه مسلم، فجاء ﷺ ليصلِّي عليه فقام عمر بينهما لئلَّا يصلِّي عليه، فنزل جبريل فأخذ بثوبه، وأوحى عليه الآية فلم يصلِّ عليه.

والمشهور أنَّه صلَّى عليه، وذلك لظاهر حاله من التوحيد، ويروى أنَّ عمر جذبه فوافق جذب جبريل والآية. وذكرت في «شرح نونيَّة المديح» ما وافق به عمر الوحي. وروي أنَّه قال عمر رضي الله عنه له ﷺ: أتصلِّي عليه وقد قال كذا؟ فقال: «**أخِّر عنِّي يا عمر**» وتبسَّم وقال أيضا: أتصلِّي عليه وقد نهاك الله عن الصلاة عليه؟ وقال: «**أخِّر فإنِّي خيِّرت ولو علمت أنَّه يغفر له إن زدت على السبعين لزدت**»، قال: ولم ألبث إلَّا يسيرا فنزلت الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ قال ﷺ: «**ولو لم أبعث نبيئا لبعثت يا عمر نبيئا**». وقيل: الذي ردَّ قميصه وطلب الذي يلي جسده هو ابنه عبد الله الجاري على طلب أبيه.

وسبب إعطاء القميص رجاء إسلام قومه، وتطييب خاطر ابنه، فإنَّه حسن الإسلام عالم مجتهد في العبادة وإعلاء الدين، وإنَّه كافأه على إعطائه العبَّاس قميصه حين أسر ببدر، وكان لطوله لا يكفيه إلَّا قميصه، أو أوحي إليه بإعطائه ليسلموا، أو لأنَّه عليه أن يعطيه وقت مشارفة الموت وهو وقت توبة الكافر وإيمان الفاجر، وأنَّ الله عز وجل أمره أن لا يردَّ سائلا، قيل: أو لغفلة اقتضتها غلبة الرأفة عليه، أو تعمَّد لإظهارها، وأيضا منع القميص داع إلى نسبته إلى الإخلال بالكرم، وليس في شيء من ذلك إعزاز الكافر، وكذلك صلَّى عليه، أو أراد الصلاة عليه مع أنَّه لا يصلِّي على مشرك لظنِّه أنَّه تاب، كما مرَّ، وروي أنَّه صلَّى عليه ثمَّ نزلت، وروي أنَّه بعدما أدخل قبره كشف عن بعضه فنفث عليه وستره ونزلت الآية بعد، وروي أنَّه قال: «**ما يغني عنه قميصي وصلاتي وإنَّني أرجو أن يسلم به ألف من قومه**».

(1) أورده **السيوطي** في الدر المنثور، ج4، ص259. من حديث قتادة.

وعلَّل النهي بقولـــه: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُـــولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِـــقُونَ﴾ مشركون، أي ماتوا ولم يتوبوا من الشـــرك، أو المراد فسق الجارحة، فإنَّه قد يكون الكافر بالله ورسوله غير فاعل بجارحته زنى أو سرقة أو غصبا أو ظلما، وغير مـــا ذكر، ولو كان لا يخلو مـــن ترك الصلاة وغيرهـــا، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنَّ هؤلاء المنافقين جمعوا بين الشرك وأفعال الفسق التي دون الشرك.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُم﴾ قـــدَّم الأموال لتقدُّمها وجودا، ولعموم مســـيس الحاجة إليها، والأولاد أعزُّ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُّعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُـــهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ مـــرَّ هذا وأعاده للتأكيـــد، لأنَّ الناس مائلون بالطبع إلى إعجاب ذلك إيَّاهُم، أو نزلت في غير من نزلت فيه الأولى.

[بلاغة] وهنا: ﴿لَا تُعْجِبْكَ﴾ بالواو، وهناك بالفاء [الآية 55] لأنَّ المراد التفريع على كونهـــم لا ينفقون إلَّا وهم كارهون، وهنالـــك: ﴿وَلَآ أَوْلَادُهُمْ﴾ بـ «لَا» لأنَّ إعجابهم بأولادهم أكثر منه بأموالهم، وأسقطها هنا بيانا لكون كُلٍّ من الأمرين سواء في إيجاب الإهلاك، وســـواء في الإعجاب بكلٍّ على حدة، والإعجاب بمجموعهما، وهنـــا: ﴿أَنْ يُّعَذِّبَهُمْ﴾ بيانا لكون التعليل هناك ليس على حقيقته من الغرض، وأيضا المراد هنا نفس التعذيب، وهناك جعله علَّة، وإن جعلنا اللام زائدا كان المعنى واحدا، وأسقط الحياة هنا بيانا لكون الحياة الدُّنيَوِيَّة كالعـــدم، وأمَّا ما قيل من أنهَّا ذكرت هناك لبيـــان أنَّ الدنيا وصف لا اســـم ليأخذ بالوصفيَّة حيث ذكرت، فيردُّه أنَّ القرآن لبيان الشـــرع لا لبيان ما يتعلَّق باللغة.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٨٩﴾

تخاذل المنافقين عن الجهاد وإقدام المؤمنين عليه

وقوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى ﴿...مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ عطف على ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ فهو أيضا تعليل لقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم...﴾ كما علَّل بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ والمراد بالسورة طائفة مجموعة من القرآن، كما هو المعنى المجمل لغة، ولو لم تتمَّ فيها السورة، كما يطلق القرآن على ما يقرأ ولو بعضه فقط، وكذا الكتاب لِمَا كتب ولو لم يتمَّ، وقيل: السورة للبعض المجموع دون التمام مجازا، ويجوز تقدير مضاف، أي بعض سورة. ونكِّرت للتعظيم، وقيل: لعموم السورة، أي كلُّ سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد، والنكرة في سياق الشرط للعموم، وأجاز البعض أنَّ السورة براءة، والمراد بعضها لا كلُّها، لأنَّ الآية بعضها وفيها الأمر بالإيمان والجهاد كما قال:

﴿أَنَ ـ امِنُواْ بِاللهِ وَجَاهِدُواْ﴾ أخلصوا الإيمان والجهاد، فشمل خطاب من لم يجاهد ومن جاهد ولم يخلص، لجواز الخطاب بالقيد استتباعا للمقيَّد ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي بأن آمنوا وجاهدوا، فـ«أَنْ» مَصدَرِيَّة، والباء مقدَّرة متعلِّقة

بـ«أُنزِلَتْ». [قلـت:] والأولى عندي أنَّ حرف المصـدر لا يدخل على الأمر والنهي، لأنَّ المصدر لا يدلُّ عليهما إلَّا نيابة، نحو: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [سورة محمَّد: 4] وشـكرا لا كفرا، فـ«أَنْ» مفسِّـرة، لأنَّ إنزال السـورة متضمِّن للأمر بالإيمان والجهاد.

﴿اِسْـتَاذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ﴾ الغنى ﴿مِنْهُمْ﴾ وهم أهل القدرة على الجهاد بمالهم وصحَّة أبدانهم، من رؤسـائهم وغيرهم، فإنَّ القادر أحقُّ بالذمِّ إن لم يخرج، وأمَّا العاجز فغير محتاج إلى الاسـتئذان إلَّا أن ينفي التهمة عن نفسه، أو يطلـب مـا يحتـاج إن كان عجزه بعـدم المـال. ولا التفات فـي قوله: ﴿اسْـتَاذَنَكَ﴾ إلى الخطاب من غيبة قوله: ﴿مَعَ رَسُـولِهِ﴾ كما قيل، لأنَّ هذا الخطاب منظور فيـه إلى الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْـكَ﴾، وإنَّما هذا مثل قولك لزيد: إنَّ عمرا يقول: إذا جاء زيد أكرمتُه ثمَّ لا يكرمك إذا جئتَ.

﴿وَقَالُواْ﴾ عطف تفسـير؛ لأنَّه يجوز بالواو كما يجوز بالفاء ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أصحاب الأعذار ﴿رَضُواْ بِأَنْ يَّكُونُواْ مَعَ اَلْخَوَالِفِ﴾ النساء الخوالف، والمفرد: «خالفة» لأنَّها تتخلَّف في البيت، أو جمع «خالفة» وهو من هو فاسـد، ذكرا أو أنثى، ومـا بالتاء يجمـع على فواعل ولو كان لمذكَّر، فشـمل النسـاء والصبيان ونحوهم مِمَّـن ذكر، وأمَّا بلا تاء فلا إلَّا شـذوذا. ويُروى أنَّ المنافقين يصعب عليهم التسمية لهم بالخوالف فسمَّاهم الله به ذمًّا وتعييرا وإغاظة لهم.

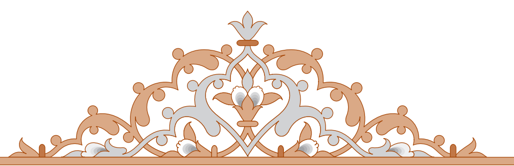
﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُـمْ﴾ علَّةٌ ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما فـي الجهاد وموافقة الرسول ﷺ من الخير، وما في تركهما من الخسران الدائم، وذكر: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ دون «يعلمـون» لأنَّ الوصول إلى ما في الجهـاد والموافقة يحتاج إلى تدرُّب وفكر عميق.

﴿لَكِنِ اِلرَّسُـولُ﴾ ﷺ ﴿وَالذِينَ ءامَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ﴾ إيضاح للاسـتدراك أنَّ المعنى لا يتوهَّـم أحد أنَّه لَمَّا لـم يجاهد هؤلاء بقي

الدين بلا جهاد، وكسل المؤمنون والرســول، فقد جاهد الرسول والمؤمنون، ولم يختلَّ نشــاطهم بتخلُّف هؤلاء، وهم خير من هؤلاء، وقال ابن عصفور: «لَكِنِ» للتأكيد أبدا لا تلزم الاســتدراك. و«مَعَهُ» متعلِّق بـ«ءَامَنُوا» أو حال من واو «جَاهَدُوا» لا متعلِّق بـ«جَاهَدُوا»، لأنَّ واو «جَاهَدُوا» لهم وللرســول، لأنَّ «جَاهَدُوا» خبر «الرَّسُولُ» و«الذِينَ».

﴿**وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ**﴾ الدُّنيَوِيَّة كالنصر والغنيمة والعزِّ، وَالأُخرَوِيَّة من الجنَّة وما فيها من الحــور والأجنَّة والأنهار والقصــور والملك الكبير، ومن الجائز أن يقال: الخيرات هنا هو الخيرات في قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَــانٌ﴾ [سورة الرحمن: 70] وهنَّ الحــور، قال المبــرِّد: يطلق الخيرات علــى الجواري الحســان على أنَّه جمع خَيْرة ـ بإســكان الياء وأصله الشــدُّ ـ ﴿**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ المدركون لمطلوبهم الناجون مــن محذورهم، وذكر ﴿أُوْلَئِكَ﴾ مرَّتين فــي موضع الضمير ليشــير إلى أنَّهم اســتحقُّوا الخيــرات والإفلاح، لصفتهم من الجهاد، فإنَّ مقتضى الظاهر: وهم لهم الخيرات وهم المفلحون.

وزاد الإيضــاح لفلاحهم بقوله: ﴿**أَعَــدَّ اَللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْــرِي مِن تَحْتِهَا اَلاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ اَلْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.



﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٠ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٩٣﴾

أصحاب الأعذار المقبولة وغير المقبولة

﴿**وَجَآءَ**﴾ إلى الرسول ﴿**ٱلْمُعَذِّرُونَ**﴾ من الاعتذار، أصله: المعتذرون، أبدلت التاء بعد نقل فتحتها إلى العين ذالاً، وأدغمت في الذال، كقوله تعالى: ﴿لَا يَهِدِّي إِلَّآ أَنْ يُّهْدَىٰ﴾ [سورة يونس: 35] أي لا يهتدي، أي الذين يطلبون الأعذار في القعود؛ أو من التعذير بمعنى التقصير، عذَّر في الأمر ـ بشدِّ الذال ـ: قصَّر فيه، وذلك بيان لمنافقي الصحراء بعد بيان منافقي المدينة كما قال: ﴿**مِنَ الاَعْرَابِ**﴾ أي سكَّان البدو من العرب؛ والعرب أعمُّ، لأنَّه يطلق على أهل الحضر مِمَّن لغته عَرَبِيَّة وعلى سكَّان البدو، وقيل: العرب خاصٌّ بالحضر كالأعراب بالبدو.

واختلف في اعتذارهم أبحقٍّ أم بباطل، وعلى أنَّه بحقٍّ فنفاق البدو في قوله: ﴿وَقَعَدَ الذِينَ كَذَبُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهؤلاء المعذِّرون أسد وغطفان،

طلبوا القعود للجوع وقلَّة المال وكثرة العيال، وقيل: رهط عامر بن الطفيل، اعتذروا بأنَّهم إن غزوا معه أغارت طيء على أهلهم ومواشيهم، فقال ﷺ: «**قد أنبأني الله من أخباركم وسيغنيني الله عنكم**» وقيل: رهط من غفار رهط خفاف بن إيماء بن رحضة.

وعن ابن عبَّاس: هم الذين تخلَّفوا لِعذر فأذن لهم رسول الله ﷺ فهم صادقون، لأنَّه لَمَّا ذكرهم قال بعده: ﴿وَقَعَدَ اَلذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ وقال أبو عمرو بن العلا: تكلَّف قوم عارًا بباطل وهم في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ اَلْمُعَذِّرُونَ...﴾ وتخلَّف قوم لا لعذر ولا شبهة وهم في قوله: ﴿وَقَعَدَ اَلذِينَ...﴾.

﴿**لِيُوذَنَ لَهُمْ**﴾ ليأذن لهم الرسول في القعود فأذن لهم لِمَا ذكروه من العذر ﴿**وَقَعَدَ**﴾ عن المجيء للاعتذار ﴿**اَلذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ خالفوا الله ورسوله في ادِّعائهم الإيمان، وهم منافقو الأعراب، وإن كانوا هم الأوَّلين، وكذبهم بالاعتذار لا في ادِّعاء الإيمان، وإن كانوا كاذبين في ادِّعاء الإيمان أيضا، لكن ليس مرادًا هنا فالكلام من وضع المظهر موضع المضمر لبيان كذبهم في اعتذارهم، ولَمَّا كان كذبهم للرسول كذبا لله ذُكِرَ الله مع الرسول.

﴿**سَيُصِيبُ الذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ**﴾ من الأعراب أو من المعذِّرين، فإنَّ منهم من اعتذر لكسله والمراد بـ﴿الأَعْرَابِ﴾ مطلق الأعراب، و﴿الذِينَ كَفَرُواْ﴾ منافقوهم الذين كذَبُوا في ادِّعاء الإيمان. و«مِن» للتبعيض، لأنَّ بعضهم آمن ولم يصبه العذاب المذكور بقوله: ﴿**عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ بالقتل والنار والذلِّ.

﴿**لَّيْسَ عَلَى اَلضُّعَفَآءِ**﴾ بكبر السنِّ أو بصغرها، أو بالخلقة كخلقه نحيفا أو ضعيف الصدر، أو مقعدا أو بقطع عضو، أو عمى أو عرج أو بالأنوثة ﴿**وَلَا عَلَى اَلْمَرْضَى**﴾ مرضا لازما أو يرجى زواله كالحمَّى والرمد، ويجوز إدخال العمى والعرج والقعود في المرضى.

[سبب النزول] كما قال زيد بن ثابت: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فنزلت براءة، فإنّي لم أضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاءه أعمى، فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿**لَيْسَ عَلَى اَلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى اَلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى اَلذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ**﴾ في الجهاد من طعام وما يحتاج إليه من دابَّة ونفقتها، وآلة القتال ونحو ذلك، وهم جهينة ومُزَينة وعذرة ونحوهم ـ بضمِّ الميم وفتح الزاي ـ ﴿**حَرَجٌ**﴾ ضيق بالنسبة للإثم في التخلُّف ﴿**إِذَا نَصَحُواْ لِلهِ وَرَسُولِهِ**﴾ بالطاعة وإخلاصها توحيدا وسائر لوازمه، من فعل وترك كما ينصح العبد الكريم سيِّده سرًّا وعلنا.

[فقه] فهم لا يخبرون بخبر السوء عن الجند ولو صحَّ، ولا يفترونه ويخبرون بما يسرُّ المؤمنين ويحيون الشريعة ويعلِّمونها مَن جهِلَ، ويحبُّون الإسلام وأهله، ويبغضون الكفر وأهله، ويحبُّون آل النبيء خصوصا ويوقِّرونهم، ويعلنون بما هو صلاح للإسلام، ويقومون بمصالح عيال الغائب في الجهاد، وإن لم ينصحوا بذلك أثموا بما لم ينصحوا فيه، ولو من غير عدم الخروج، ولا يأثمون بما لم يلزمهم، لكن من شأن المسلم أن يهتمَّ بأمر الإسلام، ولو عذر في التخلُّف، حتَّى إِنَّهُ إذا لم يهتمَّ به فإنَّه لم ينصح لله ورسوله.

و«سَبِيلٍ» مبتدأ أو فاعل «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ»، أو فاعل لثابت أغنى عن خبره. ﴿**مَا عَلَى اَلْمُحْسِنِينَ**﴾ بفعل ذلك ﴿**مِن سَبِيلٍ**﴾ إلى عتابهم عن التخلُّف، وهذا جار مجرى المثل، ومقتضى الظاهر: وما عليهم، ولكن ذكرهم باسم المحسن تلويحا بأنَّه كيف يكون سبيل على من انخرط في سلك المحسنين؟ أو أراد بالمحسنين العموم.

[فقه] واحتجَّ بعض بالآية على أن لا ضمان على قاتل البهيمة الصائلة.

﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ**﴾ في التخلُّف لهم ﴿**رَّحِيمٌ**﴾ بهم في التوسعة، وفي ذلك تغليظ ظاهري، كأنَّه يشير إلى أنَّ الأصل المؤاخذة ولو كان العذر غير حقيقي، كما قيل: «إنَّ الذنب مهلك بحسب الأصل ولو نسيانا أو خطأً في الأصل، كالسمِّ يقتل من لم يتعمَّده كمن تعمَّده» لَكِنَّ هذا أظهر منه في الآية، أو ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ للمسيء ﴿رَحِيمٌ﴾ به إذا تاب، فكيف هؤلاء الذين ليس التخلُّف منهم ذنبا؟.

﴿**وَلَا عَلَى اَلذِينَ**﴾ عطف على قوله: ﴿عَلَى الضُّعَفَآءِ﴾ كأنَّه قيل: وليس على الذين، وقد انسحب عليهم قوله: ﴿حَرَجٌ﴾ نفيا، لأنَّه وما بعده في نية التقديم على «حَرَجٌ» أُخِّر لطول الكلام فيه، وهذا أولى مِن تقدير «حرج» بعد قوله: ﴿اَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ أو قبله هكذا: أي «ولا حرج على الذين»، ومِن عطفِه على «الْمُحْسِنِينَ» لأنَّ المقام سيق للعذر لا للكلام على المحسنين.

﴿**إِذَا مَا**﴾ صلة للتأكيد ﴿**أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ**﴾ معك إلى الغزو على ما تيسَّر من الدوابِّ.

[سيرة] وهم السبعة البكَّاؤون: معقل بن يسار، وصخراء بن خنساء، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن عنمه، وعبد الله بن مغفل المزني، وعُلْبة بن زيد الأنصاري ـ بضمِّ العين المهملة وإسكان اللام ـ أخو بني حارثة، وقيل: معقل وسويد والنعمان أولاد مقرن، وهو قول مجاهد، ولمقرن أولاد أربعة غير هؤلاء، وقيل: سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف، وعلبة بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمر بن الجموح أخو بني سلمة، وعبد الله بن مغفل المزني، وهرمى بن عبد الله أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري، وذكر بعض عبد الرحمن بن زيد من بني حارثة وهو الذي تصدَّق بعَرَضِه



فقبل الله تعالى منه، وينسب هذا التصدُّق لأبي ضمضم، وقيل: أبو موسى وأصحابه، وهو قول الحسن.

﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ من الدوابِّ، ومطلوبهم الدوابُّ ذوات الحافر أو الإبل، وقيل: سألوه النعال كما قالوا لمن أدركهم وسألهم من جهينة عَمَّا طلبوا، فقالوا: ما سألنا إلا الحمل على النعال المخصوفة، والخفاف المرقوعة، ولم يجد فلم يغزوا معه، وقيل: أعانهم المسلمون فخرجوا، وقيل: إن ابن يامين بن عمير بن كعب لقي أبا ليلى وابن معقل يبكيان لذلك، فأعطاهما ناضحا وزوَّدهما بتمر فخرجا.

[نحو] والجملة بدل اشتمال من قوله: ﴿أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾، فإنَّ قوله: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ من ملائمات إتيانهم ليحملهم، لا حال من كاف «أَتَوْكَ»، لأنَّ قوله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ متأخِّر عن إتيانهم، اللهمَّ إلَّا أن يقال: حال مقدَّرة لأنَّه لمجرَّد إتيانهم للحمل يقدَّر أن لا يحملهم، لعدم ما يحملهم، وقد عرف أنَّهم أتوا للحمل، أو يعرف بأوَّل كلامهم، والإتيان غير قارٍّ فلا يقال: إنَّ زمان الإتيان واسع، فيصحُّ أنَّها حال مقدَّرة، لا يجوز هذا، وأيضا في جعلها حالا إضمار «قَدْ» على المشهور.

[نحو] ويجوز أن يكون جوابَ «إِذَا»، فيكون قوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾ جواب سؤال مقدَّر، والأولى أنَّه جواب «إِذَا»، و«قُلْتَ» بدل كما مرَّ، ويجوز أن يكون «قُلْتَ لَآ أَجِدُ...» حال مقدَّرة من هاء «تَحْمِلَهُمْ»، لأنَّهم يحضر في قلوبهم أنَّه لا يحملهم لقلَّة الإبل والدوابِّ الحاملة، وزعم السمين[1] تلميذ أبي حيَّان أنَّه يجوز عطفه بواو محذوف، أي: «أتوك لتحملهم وقلتَ». ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ الواو للحال. و«مِنْ» بمعنى الباء، أي تفيض بالدمع، أي يحصل

---

(1) تقدَّم التعريف به في ج5، ص285.

الفيض منها بالدمع، والدمع: الماء من العين، أو مصدر، وأمَّا أن يُجعل الجارُّ والمجرور في محلِّ التمييز، أي «يفيض دمعـا» أي «يفيض دمعها» فلا يعرف هذا في العَرَبِيَّة، وأمَّا أن يُجعل «مِنْ» صلة و«الدَّمْـع» تمييزا ففيه زيادة «مِنْ» في الإثبات وتعريف التمييز، وهو قول الكوفيِّين فلا يجوز.

[بلاغة] وفـي الآية إسـناد الفيض للأعيـن مبالغة في كثـرة دموعها، وامتلائها بالدموع، حتَّى كأنَّها نفس الدموع السائلة، والتجوُّز في المسند، لأنَّ الفيض بمعنى الامتلاء الذي هو سبب الفيض، أو الفيض حقيقة والتجوُّز في إسـناده إلى العين من الإسـناد إلى المحلِّ، وأجاز الكوفيُّون زيادة «مِنْ» في الإثبات والتعريف، فيجوز عندهم كون «الدَّمْعِ» تمييزا.

[نحو] ﴿**حَزَنًا**﴾ مفعول من أجله مع اختـلاف الفاعل، لأنَّ فاعل الفيض العيون، وفاعل الحزن أصحابها، ولكن اتَّحَـدَ معه لأنَّ المعنى: يبكون حزنا، أو يفيضون الدموع حزنا، ويجـوز جعله حالا، تقديره: ذوي حزن، أو حزنين، أو المبالغة بأنَّهم نفس الحزن؛ وأجيز كونه مفعولا مطلقا لـ«يحزنون» محذوفا مؤكِّدا لغيره وهو الجملة قبله، وجملة «يحزنون» حال من ضمير «تَوَلَّوْا».

[نحو] ﴿**أَلَّا يَجِـدُواْ مَا يُنفِقُـونَ**﴾ تعليل لـ«حَزَنًـا»، أي لأجل أنَّهم لا يجدون، أو يقـدَّر الباء، أي حزنا بـأن لا يجدوا، أو يتعلَّـق بـ«تَفِيضُ»، أو تعليل للفعل قبله وعاملـه، أي فيضها حزنا هو لأجـل أن لا يجدوا، وإنَّما الممنوع تعدُّد المفعول له بـلا تبعيَّة إذا كان تعليلا له ولـلأوَّل، لا إذا كان تعليلا له ولعامله. والمضارع للاسـتقبال كما لا يخفـى، لأنَّهم ظنُّوا أن لا يجدوا بعد ردِّ النبيء لهم.

وفي الآية إخبـار بالغيب أنَّهم سـيأتونك يطلبون الحمـل، وتقول: «لَا أَجِدُ...» ويتولَّون حزنين لذلك، وليست الآية على التجدُّد، لأنَّه لم يُرْوَ تجدُّد مجيئهم وردِّهم، إلَّا أن يراد مجيء عدد بعد عدد.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ أي الذمُّ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـٔذِنُونَكَ﴾ في القعود ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ أي والحال أنَّ لهم ما ينفقون ذهابا ورجوعا عليهم وعلى عيالهم ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ رضوا بحالة خسيسة، وهي كونهم مع الخوالف، جواب لقول القائلين: ما بالهم يستأذنون في القعود؟ أو حال من واو «يَسْتَـٔذِنُونَكَ». ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتَّى غفلوا عن سوء العاقبة ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تلك العاقبة.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96)﴾

اعتذار المنافقين المتخلِّفين عن غزوة تبوك وحلفهم الأيمان الكاذبة

﴿**يَعْتَذِرُونَ**﴾ في القعود، والمضارع لحكاية الحال الماضية، وإن نزلت الآية قبل دخول المدينة فالمضارع للاستقبال ﴿**إِلَيْكُم**﴾ إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة ﴿**إِذَا رَجَعْتُم**﴾ من غزوة تبوك ﴿**إِلَيْهِمْ**﴾ وهم بضعة وثمانون رجلا، اعتذروا حين رجع رسول الله ﷺ وأصحابه في المدينة أو قبلها، أو بعض فيها وبعض قبلها، وقيل: نزلت في عبد الله بن أُبي وله شيعة، حَلَفَ أن لا يتخلَّف أبدا عن غزوة ونقض فلم يرض ﷺ بعد.

﴿**قُل**﴾ لم يقل: قولوا كما قال: ﴿إِلَيْكُم﴾ لأنَّه ﷺ هو الذي يقول لهم ﴿**لَا تَعْتَذِرُواْ**﴾ بالأعذار الكاذبة، وليس عندكم عذر صادق، فإنَّ هذا ذنب آخر لا نفع لكم فيه ﴿**لَن نُّومِنَ لَكُمْ**﴾ لن نذعن ولن نصغى لكم في

اعتذاركم، وبيَّن موجب ذلك وعلَّته بقوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اَللهُ مِنَ اَخْبارِكُمْ﴾ أعلمنا بعضا من أخباركم المحرَّمة، كالتكذيب بالنبوءة وما ستره الله أكثر، **وما استقصى كريم قطُّ.**

[نحو] وأجاز الأخفش زيادة «مِنْ» في الإثبات والتعريف، فيكون المعنى: قد نبَّأنا الله أخباركم، ويجوز أن يكون «نَبَّأ» تعدَّى لثالث تقديره: «كذبا» أو نحوه من أعمال الجارحة واعتقاد الباطل.

﴿وَسَيَرَى اَللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ سيعلم الله عملكم المستقبل أهو التوبة أم الإصرار، وهو عالم به بلا أوَّلٍ لعلمه، لكن ساق لهم الكلام مساق الإمهال والاستتابة، أو المراد: عملهم السوء وأنَّه سوف يعلمه عِلْمًا يتعلَّق به الجزاء، ويجوز أن يكون المعنى: سيعذِّبكم في الدنيا، لأنَّ العلم بالشيء سبب للعقاب عليه وملزوم له.

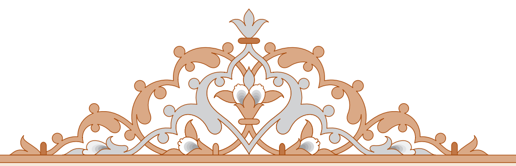
وذكر عذاب الآخرة في قوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ اِلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعاقبكم بعملكم أو بما كنتم تعملونه، والإخبار بما يوجب العقاب كناية عن العقاب بالتوبيخ والعذاب، وإنَّما قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ مع أنَّهم عالمون بما عملوا لأنَّهم قد ينسونه أو بعضه، أو ذلك من لازم الفائدة، كما تقول لمن علم بقيام زيد: قام زيد، ليعلم أنَّك عالم بقيامه، وهذا كما وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿عَالِمِ اِلْغَيْبِ﴾ ومقتضى الظاهر: «ثمَّ تردُّون إليه فينبِّئكم بما كنتم تعملون»، ليعلموا أنَّه تعالى عالم بسرِّهم كعلنهم، فلا يفوت عذابهم، وهذا أشدُّ عليهم.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من سفركم إلى تبوك قائلين: والله ما قعدنا عنكم إلَّا لعذر، كالفقر وكثرة العيال، وخوف إغارة العدوِّ على أهلهم ومالهم ﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ بترك التوبيخ ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ إعراض

بغض وعدم اكتراث بهم، وعدم أهليتهم للخطاب، بدل إعراض الصفح الذي طلبوه، فكانوا لا يتكلَّم لهم أحد ﴿**إِنَّهُمْ رِجْسٌ**﴾ باطنهم خبيث باعتقاد الباطل، كخبث العذرة وسائر ما نجس بذاته، لا يؤثِّر فيهم العتاب ﴿**وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ**﴾ والمعنى: لأنَّهم رجس، ولأنَّهم من أهل النار أشقياء لا يؤثِّر فيهم وعظ، فهذا تعليل ثان أو هو تتميم للتعليل الذي هو قوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾. ﴿**جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ جزاء بكونهم يكسبون ما لا يجوز، أو بأشياء كانوا يكسبونها، أو بالأشياء التي كانوا يكسبونها، والمعنى: فعلنا بهم ذلك لأجل الجزاء، أو فَأَعْرِضُوا عنهم لأجل الجزاء، أو مصدر مؤكِّد لغيره، أي جزيناهم جزاء بما كانوا، وإنَّما عمل المصدر المؤكِّد لأنَّ الجملة التي أكَّدها مشتملة على معنى معموله.

﴿**يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ**﴾ مستأنف لزيادة البيان، أو بدل من «سيحلفون بالله...» ﴿**فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اَللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ اِلْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ الجواب محذوف نابت عنه العلَّة، أي لم ينفعهم رضاكم، لأنَّ الله لا يرضى. ومقتضى الظاهر: فإنَّ الله لا يرضى عنهم، لكن ذكرهم باسم الفسق استحضارا لسبب عدم الرضا عنهم، وليُشِيرَ إلى كلِّ فاسق بالعلَّة، ويجوز أن يفسَّر ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ عموما فيدخلوا فيهم، ويجوز أن يراد بالفاسقين المؤمنين على تقدير رضاهم عنهم، فإنَّهم يفسقون بالرضا عنهم.





﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾

كفر الأعراب ونفاقهم وإيمان بعض منهم

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ من عرب الحضر ومن كفَّار العجم الحضريِّين، لغلظ قلوبهم وجفائهم، وإبائهم عن الانقياد، وعدم مخالطتهم أهل الأدب والمعرفة والشرع وتوحُّشهم، وقويت قسوتهم باستيلاء الهواء اليابس الحارِّ عليهم.

وأهل الحضر يحتقرون أهل البدو لجفائهم وجهلهم، حتَّى إنَّهُ يأنف الحضريُّ من العرب أن يقال له: أعرابيٌّ، وَلَكِنَّ كثيرا ما يترفَّع البدويُّ بإبائه عن الانقياد على الحضريِّ، وبمزيد شجاعة وكرم، ومن ذلك قوله:

هذا أبو الصَّقر فردا في محاسنه   من نسل شيبان بين الضال والسَّلم[1]

[لغة] وهما شــجر في البدو. والمفرد بياء النسب وهو عربيٌّ كروميٍّ وروم،

(1) البيت لابن الرومي، «وشيبان بن ذهل وشــيبان بن ثعلبة قبيلتان، والضال والسلم شجرتان من شــجر البادية. وفردًا منصوب على المدح أو الحال». عبد الرحيم بن أحمد العباســي: معاهدة التنصيص على شواهد التلخيص، ج1 ص107.

وبربريٍّ وبربر، وأهل البدو من العجم لا يقال لهم أعراب ولا عرب، كما لا يقال لأهل الحضر منهم عرب، والعرب: سـكَّان الحضر من أهـل العَرَبِيَّة، والأعراب سـكَّان البدو، وقيل: العرب أعمُّ. والكفر هنا: الشـرك الصريح، والنفاق: الشرك المضمر. ﴿وَأَجْـدَرُ﴾ أحقُّ، وأصله من الجدار وهو الحائـط، والجدير: المنتهى لانتهاء الأمر إليه انتهاء الشيء إلى الجدار، واختار السمين من تلامذة أبي حيَّان أنَّ اشتقاقه من الجَذْر بمعنى أصل الشجرة، كأنَّه ثبت كثبوت أصلها.

﴿أَلَّا يَعْلَمُـواْ﴾ أي بأن لا يعلموا ﴿حُـدُودَ مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُـولِهِ﴾ من الفرائض فعلا وتركا وما دونها. الإضافة للبيان، أي حـدودا هي ما أنزل الله، أو على ظاهره بمعنى: مقادير ما أنـزل الله وأعيانه، أي لا يضبطونه ولو فرضنا أنَّهم علموا، وذلك أنَّهم لا يجاورون أهل الحضر النـازل فيهم الوحي، الحافظين له والعلماء، ولا نبوءة في البدو، وعنه ﷺ: «**من سكن البادية جفا ومن اتَّبَعَ الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن**»[1]، وعنه ﷺ: «**من الكبائر التعرُّب بعد الهجرة**»[2]، أي ينتقل من الحضر إلى سكنى البدو، وذلك لجهل أهله وقسوة قلوبهم.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو يعلم حال أهل الحضـر والبدو، ويجازيهم بما هو العدل من عقاب وثواب، وما ذكر في أهل البدو ليس على عمومهم، فقد قال: ﴿وَمِنَ اَلاعْرَابِ مَنْ يُّومِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ اِلَاخِرِ...﴾ الآية.

﴿وَمِنَ اَلاعْرَابِ مَنْ يَّتَّخِذُ﴾ يَعُدُّ ويصيِّر ﴿مَا يُنفِقُ﴾ يصرفه في سـبيل الله من نفقة وعلف ودَابَّة وآلة القتال، ومـن زكاة وصدقة ﴿مَغْرَمًا﴾ مصدر ميميٌّ أي غَرْمًا، أي خسـرانا لا يرجو له ثوابا، لأنَّه لا يؤمـن بالبعث، ولو آمن لم

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الصيد، باب في اتِّبَاع الصيد، رقم 2859، من حديث سـفيان. ورواه **الترمذي** في كتاب الفتن، رقم 2256، من حديث ابن عَبَّاس.

(2) ورواه **النسـائي** في كتاب الزينة، رقـم 5013، عن الحارث بن عبد الله بلفـظ: «... والمرتدُّ أعرابيًّا بعد الهجرة...» في حديث طويل. ورواه **أحمد** عن ابن مسعود.

يطمئنَّ قلبه بالثواب لضعف إيمانه، فما ينفق إلَّا رياء أو خوفا من النبيء ﷺ والمؤمنين أن يفعلوا بهم ما يفعلون بالمشركين، ويذمُّوهم، وهم بنو أسد وغطفان، وذلك في الآية مشعر بعدم الإيمان فاكتفى عن ذكره، وكأنَّه قيل: ومن الأعراب من لا يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ويتَّخذ ما ينفق مغرما، وقيل: «مَغْرَمًا» من الغرم، وهو نزول نائبة بالمال من غير جناية، كما قيل لكلٍّ من المتداينين: غريم.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَآئِرَ﴾ المصيبات التي تحيط بالشخص ولا يجد خلاصا عنها، كموت عامٍّ، وغلبة سلطان، كقيصر وهرقل يستريحون من الإنفاق والأسفار في الغزو، ومن الذلِّ والخوف.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ﴾ إخبار من الله ﷻ بأنَّه يصيبهم من السوء ما تمنَّوه على المؤمنين أو نحوه، وينجو المؤمنون منه، أو دعاء بمعنى: ادعوا عليهم بذلك، أو تمنٍّ أي: اِرغبوا في حصول ذلك عليهم. والله لا يدعو إنَّما يدعو العاجز المحتاج الذي الأمر بيد غيره، والله بخلاف ذلك. والدائرة: اسم فاعل، تغلَّبت عليه الاِسميَّة، أو مصدر بوزن فاعل، أي يتربَّص بكم دوران المصايب عليكم، والدائرة تختصُّ بالشرِّ، فإضافتها للسوء مبالغة.

﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ بما يقولون عند الإنفاق سرًّا بينهم، أو في انفراد، مثل أن يقولوا: هذه غرامة أوردها الله إلينا من المؤمنين ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أضمروه، أو سميع لأقوال الخلق، عليم بما يضمرونه عموما، فيدخل فيهم هؤلاء أوَّلاً.

قال ابن سيرين: من قرأ: ﴿وَمِنَ الَاعْرَابِ مَنْ يَّتَّخِذُ...﴾ فليقرأ معها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَاعْرَابِ مَنْ يُّومِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ اِلَاخِرِ﴾ كمزينة وجهينة، وعبد الله ذي البجادين هو من مزينة. قيل: نزلت في أسلم وغفار وجهينة، وقيل: التي قبلها في أسد وغطفان وبني تميم وهذه في ذي البجادين، وعن مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة، وقال الكلبي: أسلم وغفار وجهينة.

وفي البخاري ومسـلم عن رسـول الله ﷺ: «**أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيرا من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة؟**» فقال رجل: خابوا وخسروا، قال: «**نعم، هم خير من بني تميم وبني أسد، وبني عبد الله بن غطفان، ومن بني عامر بن صعصعة**»[(1)].

وفي روايـة أنَّ الأقرع بن حابـس قال للنبـيء ﷺ: إنَّما تابعك سُـرَّاق الحجيج من أسـلم وغفار ومزينة ـ وأحسـبه قال: وجهينة ـ فقال النبيء ﷺ: «**أرأيت إن كان أسـلم وغفار ومزينة** ـ وأحسـبه قال: **وجهينة ـ خيرًا من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان**» قال: خابوا وخسروا، قال: «**نعم**»[(2)].

وفيهما عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**أسلم سـالمها الله، وغفار غفر الله لها**» وفي رواية مسـلم: «**أما أنا لم أقلها لَكِنَّ الله قالهـا**»[(3)] وفيهما عن أبي هريرة عن رسـول الله ﷺ: «**قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسـلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله**»[(4)].

﴿**وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ**﴾ أي سبب قربات عند الله ﴿**وَصَلَوَٰتِ الرَّسُـولِ**﴾ عطف على «قُرُبَاتٍ»، أي وسـبب صلوات الرسول، أي دعاؤه لهم، فإنَّه كان ﷺ يدعو للمنفق في سبيل الله، وللمنفق على المحتاجين، أو لبيت المال، ولمؤدِّي الزكاة، **فالدعاء لهؤلاء سـنَّة مستمرَّة بعده** لكن بغير مَادَّة صلاة.

(1) رواه **البخاري** فـي كتاب المناقب (6) باب ذكر أسـلم وغفار ومزينـة... رقم 3515. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل (47) باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة... رقم (159) 2519. من حديث أبي بكرة عن أبيه.

(2) رواه **البخاري** في كتاب المناقب (6) باب ذكر أسلم وغفار... رقم 3512، من حديث أبي هريرة.

(3) رواه **البخاري** في كتاب المناقب (6) باب ذكر أسلم وغفار ومزينة... رقم 3514. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل (47) باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة... رقم 132. من حديث أبي هريرة.

(4) رواه **البخاري** في كتاب المناقب (6) باب ذكر أسلم وغفار... رقم 3512، من حديث أبي هريرة.

[فقه] والدعاء بها لغير نبيء مختصٌّ بالنبــيء ﷺ، يتفضَّل بها على من شاء كما قال: «**اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى**»[1] ويسلَّم على الأحياء الحاضرين وعلى أهل القبور إذا زُورُوا، كما ورد: «**ســلام عليكم دار قوم مؤمنين**»[2]، ولا يجوز: «قال فــلان عليه السلام» ونحو هذا لإيهــام النبوءة، ولا ســيما أنَّ طائفة من الشيعة يقصدون الإمام عليًّا بالنبوءة، بل يُدْعَى على الغائب بالرضا والمغفرة، ولا خلاف في الســلام على الأنبيــاء والملائكة ولو بطريــق الغيبة، وأجازه الحنابلة على الغائب مطلقا، كالمخاطب، ويجوز «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» بلا إشــكال لوروده. وقيل: يجوز لنا أن نصلِّي على غير الأنبياء، وقيل: مكروه، وقيل: يجوز بالعطــف: «اللهمَّ صلِّ على ســيِّدنا محمَّد وأبي بكر»، ولا خلاف في جواز عطف الآل، وقيل: تجوز على الملائكة، وقيل: لا تجوز على الأنبياء بل تختصُّ بالنبيء ﷺ.

و«عِندَ» نعت لـ«قُرُبَــاتٍ»، أو متعلِّــق بـ«يَتَّخِذُ» أو بـ«قُرُبَــة»، ومعناها التقرُّب، وليس هنا مفرده «قُرْبَة» بإسكان الرَّاء ولو أمكن في الجملة لأنَّه ذكر بعدُ بالضمِّ في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرُبَةٌ لَّهُمْ﴾ بضمِّ الراء، ومن قرأ بإســكان رائه أمكن أن يكون «قُرُبَات» جمعه، اتَّبَعَــت عينه فاءَه في الضمِّ، وأن يكون جمع «قُرُبَة» بالضمِّ وهو الأصل لكون الضمِّ فيه أصلا.

وأكَّد الله تقرَّبهم بـ«أَلَا» الاســتِفْتَاحِية وإنَّ والجملة الِاســمِيَّة التي الخبر فيها غير وصف ولا فعلي، وأمَّا زيد قام فلا فرق بينــه وبين قام زيد في عدم التأكيد فلا تهم.

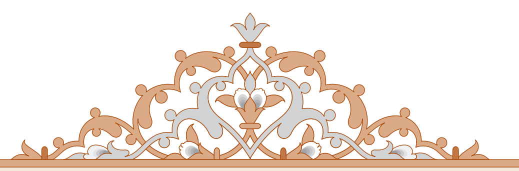
(1) رواه **البخاري** في كتاب الزكاة (64) باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة... رقم 1497. ورواه **أبو داود** في كتاب الزكاة، باب دعاء المصــدِّق لأهل الصدقة، رقم 1590. من حديث ابن أبي أوفى.

(2) رواه **الربيع بن حبيب** في مسنده، باب [6] في الأمَّة أمَّة محمَّد ﷺ، رقم 43.

قال ﷺ: «**اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى**» أخرجه أصحاب السنن غير الترمذي، وأبو أوفى هو عقبة الأسلمي من أصحاب بيعة الرضوان، وهو آخر من بقي من الصحابة بالكوفة، مات سنة سبع وثمانين، وفي رواية نسبت للبخاري ومسلم وأبي داود عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان أبي من أصحاب الشجرة، وكان النبيء ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «**اللهمَّ صلِّ على آل فلان**» فأتاه أبي بصدقته فقال: «**اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى**».

وفي الكلام حذف تقديره: «ألا إنَّها قربة لهم، وصلاة الرسول» يدلُّ عليه ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾. والضمير في «إِنَّهَا» عائد إلى «مَا» لأنَّه تضمَّن معنى نفقات، أو كأنَّه قيل: يتَّخذ النفقات التي ينفق، أو إلى النفقة المعلومة من «يُنفِقُ»، وقيل: الضمير للقربات، وقيل: للصلوات، وذلك تصديق لرجائهم، وبيَّنه بقوله: ﴿**سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ**﴾ في موضع رحمته التَّامَّة الدائمة، وقرَّر ذلك بقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ لهم، أو المراد العموم فيدخلون أوَّلاً وبالذات.

ومنهم عبد الله ذو البجادين ـ بكسر الباء ـ لقِّب به لأنَّه قطعت أمُّه بجادًا أي ثوبا فاتَّزر بنصف وارتدى بنصف، ومات في عصره ﷺ، ودفنه بنفسه، وقال: «**اللهمَّ إنِّي أمسيت راضيا عنه فارض عنه**» فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ليتني كنت صاحب الحفيرة.



﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)﴾

أصناف الناس في المدينة وما حولها

ولَمَّا بيَّن فضيلة طائفة من المؤمنين وثوابهم بيَّن فضائل أشراف المسلمين الذين فوقهم بقوله: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الاَوَّلُونَ مِنَ اَلْمُهَاجِرِينَ وَالاَنصارِ وَاَلذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا اَلاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ اَلْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ «السَّابِقُونَ» مبتدأ، خبره «رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ»، وهو إخبار لا دعاء، لأنَّ الله لا يدعو، كما أنَّ ﴿رَضُواْ عَنْهُ﴾ إخبار لا دعاء فلا تهم، وليس تعليما للدعاء على معنى قولوا: رضي الله عنهم، على الدعاء، لأنَّه خلاف الأصل بلا داع إليه، ولأنَّه لا يليق بـ«رَضُوا عَنْهُ»؛ أو الخبر هو «الاَوَّلُونَ» و«رَضِيَ...» مستأنف أو خبر ثان، أو الخبر «مِنَ الْمُهَاجِرِينَ»، و«رَضِيَ...» خبر ثان، أو مستأنف.

والمراد: السابقون إلى الجنَّة العالون درجة، هم الأوَّلون في الهجرة أو في الإسلام، لأنَّ في الأنصار مؤمنين بالنبيء ﷺ قبل الهجرة، وهذا على أنَّ

«اَلاوَّلُونَ» خبـر، وإمَّا على أن الخبر «مِـنَ الْمُهَاجِرِينَ» وأنَّ السـابقين بعض المهاجرين والأنصار، والبعض الآخر سابقون بالنسبة إلى من بعدهم، وبعض الأنصار أيضا سبق بعضا في النصرة، والباقون تابعون بإحسان إلى قيام الساعة.

[سيرة] أو «السَّـابِقُونَ»: من صلَّوْا إلى الكعبة وبيت المقدس، فإمَّا على أنَّه ﷺ قبل الهجرة يجعل الكعبة بينـه وبين المقدس فقد وحَّدُوا قبل الهجرة، وإمَّا أنَّه أريد من صلَّى إلى القدس بعد الهجرة ثمَّ نسـخ بالكعبة سـتَّة عشر شهرا، فيكونون أوَّلين بالنسبة لمن بعدُ.

[سيرة] أو «السَّابِقُونَ»: أهل بدر سـبقوا في الفضل، أو من شهدوا بيعة الرضوان، و«اَلذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـانٍ»: على العمـوم، وبيعة الرضوان كانت بالحديبيَّـة، وقيل: من الصحابـة، وعن محمَّد بن كعـب القرظي: هم جميع الصحابة، غفر الله لمحسنهم ومسيئهم.

[سيرة] وأوَّل من أسـلم خديجة، وبعدها عليٌّ وهو ابن ثمان سـنين، أو عشر. وإسـلام الصغير إذعانه، أو كان التكليف بالتمييز ثمَّ نسخ بالبلوغ، أو هو بالـغ حينئذ، والصحيـح الأوَّل، وقال ابن عَبَّاس: بعدهـا الصدِّيق، وعن عروة: بعدها زيد بن حارثة مولى رسـول الله ﷺ، ويجمع بأنَّ أوَّل من أسـلم من النسـاء خديجة، ومن الرجال الصديِّق، ومن الأطفال عليٌّ، ومن الموالي زيد، وأسلم على يد الصدِّيق عثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقَّاص، وطلحة بن عبيد الله.

[سيرة] وفي الأنصار مراتب ثلاث: أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سـبعة: سعد بن زرارة، وعوف بن مالك، ورافع بن مالك بن العجلان، وخطبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رباب؛ وأهل العقبة الثانية وكانوا اثني عشـر، وأهل العقبة الثالثة وكانوا سـبعين رجـلا وامرأتين، ومنهـم البراء بن معـرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة.



[سيرة] وأمَّا الذين أسـلموا حين جاءهم منه ﷺ أبـو زرارة مصعب بن عمير بن هاشـم بن عبد مناف، فجاءوا مع أهل العقبة الثانية، يقرئهم القرآن ويفقِّههم في الدين، **ورضى الله قبول طاعتهـم ورضاهم عنه عبادته** أو فرحهم بما نالوا من خير الدارين.

ومعنى ﴿تَحْتَهَا﴾ و﴿مِن تَحْتِهَا﴾ [سورة البقرة: 25] واحد، فإنَّ الماء الآتي إلى جنَّتهم يجـري تحتها ويجري من تحتها إلى مـا بعدها، ويجوز أن يكون الأكثر ينبع من تحتها ويجري لِمَا بعدها، والأقلُّ يجري تحتها آتيا ممَّا قبلها، ولذلك كان مرَّة واحدة في القرآن، والعلم عند الله ﷻ، ولكلِّ واحد من أهل الجنَّة النوعان معا.

[سيرة] وخصَّ بتسـميتهم الأوس والخزرج ومن معهـم أنصارا مع أنَّ المهاجرين أيضا نصروا رسول الله ﷺ **لأنَّهم** لَمَّا هاجروا نصروهم، فسمِّي كلٌّ بما عامل به أخاه، هاجروا إلى أهل المدينة ونصرهم أهل المدينة.

وروي أنَّه ﷺ قسَّـم فيء حنين في أهل مكَّة من قريش وغيرهم، فغضب الأنصار فقال لهم ـ كما مرَّ ـ: «**إنَّما أعطيتهم لأولِفَهم، يا معشـر الأنصار ألم يمُنَّ الله عليكم بالإسلام؟ وسـمَّاكم أنصارا لله وأنصار رسوله، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس واديا غير واديكم لسلكت واديكم، يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله**»، فقالوا: رضينا يا رسول الله، قال: «**أجيبوا كلامي هذا**» فقالوا: أخرجنا الله بك من الظلمة إلى النور، أنقذتنا من شـفا حفرة من النار، وهديتنا من ضلال، رضينا بالله ربًّا وبالإسـلام دينا وبمحمَّد ﷺ نبيئا، فقال لو قلتم: «**طردت فآويناك، وكذِّبت فصدَّقناك وخذلت فنصرناك لصدقتم**» فقالوا: لله ورسوله المنَّة علينا.

والآية كلُّها فـي الصحابة ولا يصحُّ ما قيـل: إنَّ الذين اتَّبَعوهم بإحسـان هم التابعون الذيـن هم غير صحابة في زمانـه وبعده، لأنَّ غير الصحابي لا يسـاوي

الصحابي، ولا يزيد عليه، وجاء في الأثر عنه ﷺ تفضيل من تمسَّك بدينه في آخر الزمان على الصحابة، لأنَّه لا يجد على الخير أعوانا، وأمَّا حديث: «**لا تسبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه**»[1] فلا دليل فيه لأنَّه في منافقين مع الصحابة، أو في صحابة مع الصحابة الكبار، وأمَّا قوله: «**أمَّتي كالمطر لا يدرى أوَّله خير أم آخره**»[2] فمحمول على الأوَّلين بعد الصحابة، وقيل: مبالغة. وفي البخاري ومسلم عن عمران بن حصين عنه ﷺ: «**خير الناس قرني، ثمَّ الذين يلونهم ثمَّ الذين يلونهم**»[3] قال عمران: لا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أم ثلاثة، والقرن من عشر إلى عشرين أو من مائة إلى مائة وعشرين.

﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُم**﴾ جهات بلدتكم يا أهل المدينة ﴿**مِنَ اَلاَعْرَابِ مُنَافِقُونَ**﴾ كبعض أسلم وغفار وجهينة وأشجع ومزينة، وأكثر كلِّ قبيلة من هذه القبائل مسلمون، دعا لهم رسول الله ﷺ بالخير ومدحهم، فالمراد في الآية قليلهم كما دلَّت عليه «مِنْ» التبعيضيَّة، قال ﷺ كما مرَّ: «**أسلم سالمها الله تعالى، وغفار غفر لها الله، أما أنا لم أقلها قالها الله تعالى**»[4] رواه أبو هريرة، وعنه مرفوعا كما مرَّ: «**قريش والأنصار وجهينة ومزينة، وأشجع وأسلم وغفار موالي الله تعالى ورسوله لا موالي لهم غيره**»[5] والمراد الغالب فلا ينافي ما ورد من السوء. ﴿**وَمِنَ اَهْلِ اَلْمَدِينَةِ**﴾ خبر مقدَّم ومبتدأ محذوف تقديره: قوم ﴿**مَرَدُواْ**﴾ نعت لقوم، أو يقدَّر: منافقون، أي منافقون آخرون مردوا ﴿**عَلَى اَلنِّفَاقِ**﴾ كقولهم: مِنَّا ظعن ومِنَّا أقام، أي مِنَّا فريق ظعن ومِنَّا فريق أقام.

---

(1) أورده **ابن حجر** في الفتح، ج7، ص21.
(2) أورده **ابن عبد ربه** في الاستذكار، ج1، ص239، **والقرطبي** في تفسيره، ج4، ص174.
(3) رواه **مسلم** في كتاب فضائل الصحابة، رقم 4601. **والترمذي** في كتاب الفتن، رقم 2147، من حديث عمران بن حصين. (م.ح).
(4) تقدَّم تخريجه، انظر: ج6، ص126.
(5) تقدَّم تخريجه، انظر: ج6، ص126.

[نحو] وهو مقيس، يحذف المبتـدأ ويبقى نعته الجملي، كالنعت المفرد. أو «مِنَ اَهْلِ الْمَدِينَةِ» عطف على «مِمَّنْ حَوْلَكُمْ»، و«مَرَدُوا» مسـتأنف للبيان، أو نعـت لـ«مُنَافِقُونَ»، وفي العطـف يكون الفصل بيـن الموصوف وصفته بالمعطوف وهو لا يحسـن، كقولك: في الدار زيد، وفي القصر العاقل، على أنَّ العاقل نعت لزيد، فالحقُّ الإعراب الأوَّل.

فبيَّن الله أنَّ حول المدينة منافقين ربَّما علمتهم، وفي داخلها قوم منافقون استمرُّوا وتشدَّدوا في ستر نفاقهم، حتَّى لا يتفطَّن له رسول الله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿**لَا تَعْلَمُهُمْ**﴾ يا محمَّد ما ذلك لأنَّهم أشـدُّ بلاغة منه فإنَّه أشدُّ منهم، ولكن لشـدَّة محافظتهم على السـتر، والمعنى لا تعرفهـم بالتعيين ﴿**نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**﴾ نعرفهم.

[نحو] وقد أجاز غير واحد إسـناد المعرفة لله واختاره السـعد، وعلى المنع يقدَّر: نعلمهم من هم، أو نعلمهم منافقين، ولا حاجة إلى تقدير الأوَّل كذلك، أي لا تعلمهم منافقين نحن نعلمهم منافقيـن، لأنَّ فيه الحذف بلا داع، نعم فيه إبقاء العلم على أصله ولا ينافي هذا قولـه ﷻ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [سـورة محمـد: 30] لأنَّا نصرف معرفتهم في لحن القول على قولـه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الَاعْـرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ أو أنَّـه لا يعرفهم أوَّلاً ثمَّ عرفهم، لكنَّ «القتال» نزلت قبل «براءة» فيدَّعـى أنَّ آية «القتال» نزلت قبل تمام «براءة».

﴿**سَـنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ**﴾ مرَّة بالفضيحة ومرَّة بعذاب الموت، يشدَّد عليهم، أو بها وبعذاب القبر، أو بعذابه وعذاب الموت، أو بنهك الأبدان بالأمراض والإذلال، والثاني نهكها بالزكاة، وعن الحسـن: بأخذ الزكاة وعذاب القبر، وقيل: بالجوع مرَّتين، وقيل: غيظهم بأهل الإسـلام وعذاب القبر، وعن ابن عَبَّاس: الأولى بالحدود والثانية عذاب القبر، وعـن مجاهد: المراد تعذيبهم

بالجـوع مرَّتين، وقيل: ضـربُ الملائكـة وجوههم وأدبارهـم عند الموت وعذابُ القبر، وقيل: إحراقُ مسـجد الضرار وعذابُ جهنَّم. أو المراد بمرَّتين التكثير كـ«لبَّيك» و«كرَّتين»، فيشمل العذاب المذكور في الأقوال كلِّها، وقد قيل: المراد ما يصيبهم فـي الدنيا وما في القبر وما بعـد البعث، وأمَّا القتل والسـبي أو القتل والجوع كما قيل فلا نعلم أنَّه قتل المنافقين ولا سـباهم، والمرويُّ أنَّه قام ﷺ خطيبا يـوم الجمعة فقال: قم يا فـلان فإنَّك منافق، قم يا فلان فإنَّك منافق حتَّى أخرج من المسجد ناسا وفضحهم؛ وروى أحمد بن حنبل عن ابن مسـعود: خطبنا رسـول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: «**إنَّ منكم منافقين، فمن سـمَّيته فليقم**» ثمَّ قال: «**قم يا فـلان فإنَّك منافق**»[(1)] حتَّى سمَّى سِتَّة وثلاثين. ﴿**ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾ هو العذاب في النار بعد الحشر، وأسند التعذيب مرَّتين إلى نفسه تعالى دون هذا قيل لاختلافهما حالا، وإنَّ الأوَّل خـاصٌّ بهم وقوعا وزمانا يتولَّاه الله تعالى، والثاني شـامل لعامَّـة المنافقين وغيرهم وقوعـا وزمانا، ولو اختلفت طبقـات عذابهم فإنَّ المنافقين في الدرك الأسفل.

﴿**وَءَاخَرُونَ اَعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ**﴾ بعد رجوع رسول الله ﷺ من تبوك، ولم يعتذروا بأعـذار كاذبة قبل خروجـه ولا بعد رجوعه، كما أنَّـه لا عذر لهم صادق يعتذرون به، وهم طائفة من المتخلِّفين، و«ءَاخَرُونَ» مبتدأ و«اعْتَرَفُوا» نعته والخبر «خَلَطُـوا»، أو هما خبران. ﴿**خَلَطُواْ عَمَـلاً صَالِحًا**﴾ كاعترافهم بالذنب خصوصا، وجهادهم السـابق وأعمالهم السـابقة ﴿**وَءَاخَرَ سَـيِّئًا**﴾ كتخلُّفهم عن غزوة تبوك، وكونه يوافق المنافقيـن، وهم مؤمنون مخلصون في توحيدهـم لكن كسـلوا، وقيل: نافقـوا وتابوا، وقيل: الآيـة في جميع المؤمنين وجميع أعمال البرِّ والسوء.

---

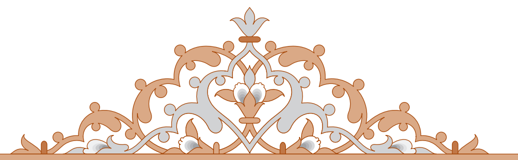
(1) رواه **أحمد** في مسنده، ج5، ص273. وأورده **الهيثمي** في المجمع، ج1، ص306، رقم 429، من حديث أبي مسعود.

والـــواو عاطفة، فيصدق الخلط علـــى خَلْطِ هذا بـــذاك، وعلى خلط ذاك بهذا، أو علـــى خلطهما دفعة، ولو جعلـــت معيَّة لم يصـــحَّ إلَّا لمعنى واحد، والأصل في الواو العطف، وأيضا لا حاجة للمعيَّـــة مع قوله: ﴿خَلَطُواْ﴾ العامِّ لمعان. وهذه الواو كالباء التي للإلصاق، وخلطت الماء واللبن، وخلطت الماء باللبن سواء، إلَّا أنَّ مدخول الباء يعتبر مقصودا ثانيا، تقصد الماء أوَّلاً ويجعل مخلوطا باللبن كذا قيل، وحقَّق بعض أنَّ الكلَّ سواء، وقال السكَّاكي: التقدير خلطوا عملا صالحا بسيِّـئ، وآخر سيِّئا بصالح، ويقال: في الآية احتباك.

﴿عَسَـــى اَللَّهُ أَنْ يَّتُـــوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي يقبـــل توبتهم التي وفَّقهـــم الله إليها فاعترفوا بذنوبهم، و«عَسَى» من الله إثبات ووعد إجماعا، ونكتة التعبير بها أو بـ«لعلَّ» التلويح بأنَّه لا واجب عليه ﷻ، والتحذير أن يتَّكل عامل على عمله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بالجنَّة وأسبابها.

[سيرة] وهؤلاء المعترفون أوثقوا أنفســـهم على ســـواري المســـجد لَمَّا بلغهم ما نزل في المنافقين، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد على عادته في الرجوع من السفر فصلَّى ركعتين، فرآهم فسأل عنهم فذكر له أنَّهم أقسموا أن لا يحلُّوا أنفســـهم حتَّى تحلَّهم، فقال: «**وأنا أقســـم أن لا أحلَّهم ولا أعذرهم حتَّى أومر فيهـــم، رغبوا عنِّي وعن الغزو مع المســـلمين**» فنـــزل قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ اَعْتَرَفُواْ...﴾ فأطلقهم. وهم أبو لبابـــة رفاعة بن المنذر، وجماعة معه وهم من أهل الصفَّة، والجملة عشـــرة أو ثمانية أو خمســـة أو ثلاثة، أبو لبابة وأوس بن ثعلبة ووديعة بن حزام، أقوال، وفي جميعها أبو لبابة معهم.

ويقال: لَمَّا قرب في رجوعه من تبوك ندموا وربطوا أنفســـهم في سواري المسجد، وقيل: ربط نفسه اثنتي عشرة ليلة في سلسلة ثقيلة تحلُّه بنته أوقات الصلاة وقضاء الحاجة، ثمَّ تربطه، وربط نفســـه مرَّة أخرى سبعة أيَّام، وحلف لا يأكل ولا يشرب حتَّى يحلَّه ﷺ فصار يُغشـــى عليه من الجوع، ولَمَّا نزلت توبته حلَّه بيده ﷺ.



﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105)﴾

أخذ الصدقة وقبول التوبة والأمر بالعمل الصالح

[سبب النزول] وَلَمَّا تاب الله عليهم قالوا: «هذه أموالنا التي تخلَّفنا بسببها فتصدَّق بها وطهِّرنا»، فقال: «**ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا**»، فنزل قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنَ اَمْوَالِهِمْ**﴾ بيدك أو يد مأمورك، أو اقبلها أو اعتبر بها لا تلغها، وأخذه وقبولُه أخذ من الله تعالى وقبول منه عز وجل: ﴿إنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [سورة الفتح: 10]. ﴿**صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ**﴾ ادع بالخير ﴿**عَلَيْهِمُ إِنَّ صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ وقولهم: «التي تخلَّفنا بسببها» صريح بأنَّ تخلُّفهم لميلهم إلى أجنَّتهم الظليلة وإصلاحها وإصلاح باقي أموالهم، وذلك مع شدَّة الحرِّ.

والصدقة هذه نفل كما يتبادر من إعطائها كلِّها، ما يزكَّى وما لا يزكَّى، ولو احتمل أنَّهم تبرَّعُوا بها على الزكاة إذ منعوها، وهذا بعيد بل ممنوع بقوله ﷺ: «**ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا**» ولو كانت زكاة لأخذ قدرها، وروي أنَّه أخذ ثلث أموالهم.

وقال جمهور الفقهاء: قوله: ﴿خُذْ مِنَ اَمْوَالِهِمْ﴾ كلام مستأنف في إيجاب الزكاة ألا ترى إلى قوله: ﴿مِنَ اَمْوَالِهِمْ﴾ بـ«مِنْ» التبعيضيَّة وهذا البعض مقدار الزكاة، والصدقة غسَّالة أوساخ أموال الناس تزول بها عن الأموال والقلوب الأوساخ.

[قلت:] والصحيح أنَّ قوله: ﴿خُذْ مِنَ اَمْوَالِهِمْ﴾ متَّصل بتوبة المعترفين بذنوبهم، وأنَّها فيهم كما روي أنَّها فيهم، فيسنُّ لمن أذنب بسبب مال أن يتصدَّق به، أو بثلثه لذلك. وضمير «تُطَهِّرُ» للصدقة، أو له ﷺ كضمير «تُزَكِّي» أي تطهِّرهم بها، أو هو من باب التنازع. والجملة مستأنفة، أو نعت لـ«صَدَقَةً»، والأوَّل أولى لأنَّه لا يعلم الصدقة الموصوفة المقيَّدة بالقبول إلَّا أن يجزي على الظاهر.

و المراد: التطهُّر من الذنوب وحبِّ المال، والتزكيةُ للحسنات، والرفع إلى منازل المخلصين الخارجين إلى الجهاد، وصلاته عليهم دعاء لهم واستغفار.

[فقه] ويسنُّ للإمام أن يدعو للمتصدِّق أو يجب أو يستحبُّ، أو يجب في الفرض ويستحبُّ في التطوُّع، أقوال، وعلى الأوَّل الشافعيُّ قال: يقول: «آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت». ويستحبُّ للفقير أن يدعو للمعطي ومن تحت الإمام العدل حتَّى تعلم منه كبيرة.

ومعنى كونها سَكَنًا لَهُمْ أنَّهم يطمئنُّون إليها، فإنَّ سكن الشيء ما تطمئنُّ إليه نفسه، ويرتاح إليه، والله سميع باعترافهم، عليم بندمهم، أشار إلى قبول توبتهم بـ«عَسَى»، وصرَّح أو كاد في قوله: ﴿خُذْ﴾ وزاد في قوله:

﴿اَلَمْ يَعْلَمُواْ﴾ أي هؤلاء التائبون المعترفون **﴿أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَاخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ اَلتَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** فإنَّه لو لم يقبل توبتهم لم يأمره بأخذ صدقاتهم النافلة، في معرض الذنب والتوبة مع وصفها بأنَّهم يطهَّرون ويزكَّوْن بها، ولولا القبول لم يقل: ﴿صَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ولولا القبول لم يُزلْ توحُّشَهم بالذنب، بأن مكَّن في قلوبهم بالاستفهام التقريري أنَّه يقبل

التوبة والصدقات، فكيف لا يقبلها عنهم؟ وبأنَّه هو التوَّاب الرحيم، وذكَّرهم بما فعلوا فعلم أنَّهم المراد بالـذات في عموم عباده، أو هـم المراد بالعباد، وهذا أشدُّ رحمة لهم، إذ ذكَّرهم بالعبوديَّة له.

ومعنى أخْذِه الصدقـات قبولها ليجازي عليها، فهو مجاز مرسـل لعلاقة اللزوم والتسبُّب، أو استعارة لأنَّ الآخذ حقيقة هو الرسول ﷺ، كما قال: ﴿خُذْ مِنَ اَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ فهم تصدَّقوا تكفيرا لذنوبهم وقَبِلَها ليغفرها لهم ويتفضَّل عليهم، كما قال: ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ اَلتَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وقيل: الصدقة الزكاة، أمره الله تعالى أن يقبلهـا منهم فيمتازوا عمن ردَّها عليهم، ويبعد أن يردَّ الضمير في «يَعْلَمُوا» للناس مطلقا، نعم في الآية ترغيب للعصاة مطلقا في التوبة، كما أنَّ فـي التعبير بالأخذ تلويحا إلى إعطاء الفقراء فيأخذون. وروي أنَّه لَمَّا تيب عليهم قال الذين لـم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلَّمون ولا يجالسون فما لهم اليوم؟ فنزل: ﴿اَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَـلُ التَّوْبَةَ...﴾ ولهذا قيل برجـوع واو «يَعْلَمُوا» للناس كلِّهم، أو لقائلي: «ما لهم اليوم؟».

قال أبو عثمان الهندي: ما في القرآن أرجى آية عندي لهذه الأمَّة من قوله تعالى: ﴿وءَاخَرُونَ اعْتَرَفُـواْ...﴾. قال مطرف: إنِّي لأسـتلقي من الليل على فراشـي وأتدبَّر القرآن، فأعرض أعمالي على أعمال أهل الجنَّة فأجد أعمالهم شديدة: ﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [سـورة الذاريات: 17] ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُـجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [سـورة الفرقان: 64] ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ ـ انَآءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [سـورة الزمر: 9] فلا أراني منهم، فأعرض نفسي على هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَـقَرَ﴾ [سـورة المدثر: 42] فأرى القوم مكذِّبين فلا أراني منهم، فأمرُّ بهذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ﴾ فأرجُو أن أكون منهم، وأنتم يا إخوتاه منهم. والمشهور في ذلك قوله: ﴿قلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ...﴾ [سورة الزمر: 53] لَكِنَّ آية السورة



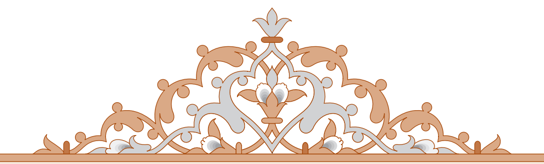
تدلُّ على التوبة، وهي من الذنــوب، وقبول الله التوبة يقتضي صدورها منهم، والمعنى: اعترفوا بذنوبهم وتابــوا منها، والاعتراف بالذنب مع الندم توبة منه مع عزم على عدم العود. و«عسى» من الله وعْدٌ وهو تعالى لا يخلفه.

﴿**وَقُلِ اِعْمَلُواْ**﴾ الخطاب للناس أو لهؤلاء التائبين المقبولة توبتهم، ردعًا لهم عن الأمن من مكر الله، وعن أن ييأســوا من قبــول التوبة من ذنب آخر، اعملوا ما شئتم من خير أو شرٍّ ﴿**فَسَــيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ**﴾ يجازيكم عليه، أي لا يخفى عنــه، وعدم خفائه ســبب للجزاء وملــزوم له، ولذلــك كان بمضارع الاســتقبال، وإلَّا فالله يرى الأعمــال أي يعلمها بــلا أول لعلمه ﴿**وَرَسُــولُهُ وَالْمُومِنُونَ**﴾ عطف على لفظ الجلالة، ومجازاة الرسول والمؤمنين لأصحاب الأعمالِ الثناءُ عليهم والدعاءُ لهم.

قال أبو هريرة: «إنَّ الله يقبل الصدقة من حــلال فيربي اللقمة حتَّى تكون كأحد». وعنه ﷺ: «**تقع الصدقة في يد الله قبل يد السائل** ـ ومعنى يده تعالى: عنده ـ **ولا يقبل الله إلَّا حلالا، ولا يصعد إلى الســماء إلَّا حلال**» أي لا يصعد إليهــا فيدخلهــا، لأنَّ الحرام يصعــد فيــردُّ دُونهــا. وروى أبو ســعيد عن رســول الله ﷺ: «**لو أنَّ أحدكم يعمل في صخرة صمَّاء لا باب ولا كوة لخرج عمله وظهر**»[1]. وفي الشــرِّ الذمُّ لهم والدعاء عليهم، وذلك بإخبار الله تعالى لهم، وأكَّد ذلك بقوله: ﴿**وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ اِلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ فذكر الجزاء مرَّتين: مرَّة بقوله: ﴿سَــيَرَى﴾ وثانيا بقوله: ﴿يُنَبِّئُكُم﴾ وزاد تأكيدا في الثاني بالإسناد إلى عالم الغيب والشهادة، أي سيجازيكم على أعمالكم من لا يخفــى عنه منها أقلُّ مــن ذرَّة، أو الأوَّل المجــازاة، والثاني الإخبار لهم بها أنَّها كذا وكذا.

---

(1) رواه **أحمد** في مسنده، ج3، ص28. **والهندي** في الكنز، ج3، ص25، رقم 5274. من حديث أبي سعيد.



﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾

الثلاثة الذين خلِّفوا عن الغزوة والتوبة عليهم

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ الأصل: «مرجيون» بالياء لغة من قال: أرجاه بالألف يرجيه بالياء، أو أصله: «مُرجَؤون» بالهمزة لغة من قال: أرجاه يرجئه بالهمزة بعد الجيم، حذفت تخفيفا، أو قلبت ياء فحذفت الياء، والإرجاء: التأخير ﴿لأَمْرِ اللهِ﴾ إلى أمر الله، أو اللام للتعدية أو التعليل، أخَّر الله أمرهم لأنَّهم لم يسارعوا إلى التوبة كما سارع غيرهم عند رجوع رسول الله ﷺ من تبوك.

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بأن لا يقبل توبتهم فيعذِّبهم ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ يوفِّقهم إليها، وهذا تردُّد مصروف إلى العباد، والله عالـم بما قضى به في الأزل وهو أنَّهم تابوا، وأنَّه يقبل توبتهم، فذلك ترديد من الله للعباد لا تردُّد، كما يذكر «إِنْ» تشكيكا لهم، و«لعلَّ» و«عسى» ترجية لهم لا شكًّا منه، أو ترجِّيا منه، والناس ما بين قائل: لا تنزل لهم توبة، وقائل: عسى أن تنزل، فهذا تردُّدهم، وذلك أنَّه تأخَّر نزول توبتهم خمسين يوما من حين رجع ﷺ من تبوك إذ غاب خمسين يوما ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه وأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل، ودخل هؤلاء المرجون بالأولى والذات، أو هم المراد.

[سيرة] وهم ثلاثة: مرارة بن الربيع وكعب بن مالك، وهلال بن أُميَّة بضمِّ الهمزة، تخلَّفوا كسلا وميلا إلى الراحة لا نفاقا، ولم يعتذروا كغيرهم، تمتَّعوا في التخلُّف فشُدِّد عليهم، تابوا لَمَّا رجع من تبوك وعلم بتوبتهم،

وقيل: اعتذروا ولم يبالغوا في الاعتذار كما بالغ غيرهم. وكانوا أصحاب أموال موسرين، وروي أنَّهم قالوا: نحن موسورون متى شئنا لحقنا إلى رسول الله ﷺ، فتمادوا حتَّى يئسوا من اللحوق فندموا، ولكن لم يعتذروا بشدَّة كأصحاب السواري، كأنَّهم لم يطمعوا في قبول التوبة.

[سيرة] وروي أنَّه لَمَّا قدم رسول الله ﷺ قيل لكعب: اعتذر إلى رسول الله ﷺ، فقال: لا والله حتَّى تنزل توبتي، وكأنَّه أيس من قبوله ﷺ اعتذاره، وأمَّا صاحباه فاعتذرا، فقال: «**ما خلَّفكما عنِّي**» قالا: لا عذر لنا إلَّا الخطيئة، ونزلت الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجُونَ لأَمْرِ اللهِ﴾ فنهى الناس عن مجالستهم والتكلُّم معهم ومن السلام عليهم، وأمرهم باعتزال نسائهم، وإرسالهنَّ إلى أهليهنَّ، فسألته امرأة هلال أن تأتيه بطعامه لأنَّه شيخ كبير، وأذن لها في الطعام خاصَّة، وجاء رجل من الشام بكتاب إلى كعب يرغِّبونه في اللحاق إلى الشام وأنَّه لم يخلقه الله بدار مهينة فسجر به التنُّور، وقال: طمع المشركون فيَّ لخطيئتي، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وبكى هلال حتَّى غشي على بصره، وقد أخلصوا نياتهم، ونصحوا في توبتهم، فرحمهم الله بقوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةَ الذِينَ خُلِّفُواْ...﴾ [سورة التوبة: 118] فقال ﷺ: «**أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك**».

وعن ابن بطَّال: شُدِّد عليهم لأنَّ الجهاد فرض عين على أهل المدينة، لأنَّهم بايعوا رسول ﷺ على القتال، وقيل: الآية في قوم منافقين يعذِّبهم إن أصرُّوا ويتوب عليهم إن تابوا، وهو مخالف لِمَا في الحديث.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)﴾

مسجد الضرار (مسجد المنافقين) مسجد التقوى (مسجد قباء)

﴿الذِينَ اَتَّخَذُواْ مَسْجِدًا﴾ في من وصفنا بالنفاق الذين اتَّخذوا، كما قال سيبويه في ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [سورة المائدة: 38]، و﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [سورة النور: 2]،: فيما يتلى عليكم السارق... أو حكم السارق...؛ أو خبره: «أَفَمَنُ اسِّسَ» والرابط محذوف، أي أفمن أسِّس بنيانه منهم وليس منهم، أو منهم نسبا، وفيه بعدٌ لفظًا ومعنًى، أو خبره: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ﴾ وفيه بعدٌ لفظا أعني طول الفصل، أو خبره: «لا تَقُمْ» فيقدَّر مضاف أَوَّل، أي مسجد الذين اتَّخذوا، أو يكتفى بهاء فيه لأنَّها عائدة إلى «مَسْجِد» مضاف إليهم، كأنَّه قيل: لا تقم في مسجدهم، أو الخبر يعذَّبون يقدَّر بعد «لَكَاذِبُونَ» أو بعد «مِنْ قَبْلُ» أو منصوب بـ«أخصُّ» محذوفا، أي أخصُّهم بالذكر لمزيد شرِّهم، أي بالنظر إلى من لم يذكر، أو بأذمُّ لا بدل من «ءَاخَرُونَ» لأنَّهم غير مرجَيْن والآخرين مرجون.

ومعنى ﴿اتَّخَـذُوا﴾: حصَّلوا أو صيَّـروا، فقوله: ﴿ضِـرَارًا﴾ على الثاني مفعول ثان، وعلى الأوَّل تعليل، أي لأجل الضـرار، أو حال، أي مضارِّين أو ذوي ضرار، أو مفعول مطلـق أي يضارُّون ضرارا، والمـراد: المضارَّة لأهل مسجد قباء بإبطال مسجدهم حسـدا ونقصا من حظِّه، أو المضارَّة للنبيء ﷺ والمؤمنين. وعن عطاء: لَمَّا فتح الله الأمصار على عمر ﵁ أمر المسلمين أن يبنوا المسـاجد، وأن لا يتَّخذوا في مدينة مسـجدين يضارُّ أحدهما صاحبه، وروي عن عمر بن الخطَّاب ﵁ أنَّه كتب إلـى عمَّاله وأمرهم أن يهدموا كلَّ مسجد ضارٍّ آخر، يعني هدم المسجد الحادث الضارِّ لسابقه.

﴿وَكُفْرًا﴾ صيَّروه موضع كفر، أو حصلوه لأجـل الكفر، أو حال كونهم كافرين أو ذوي كفر وكذا في قولـه: ﴿وَتَفْرِيقاَۢ بَيْنَ الْمُومِنِيـنَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل أن يتخلَّف هؤلاء المنافقون عن تبوك.

[أخبار] بنوه وهم اثنا عشر وهم لعنهم الله: خدام بن خالد من بني عبيد بن زيد من بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسـجد الضرار، وعباد بن حنيف من بني عمرو بن عـوف أيضا، وثعلبة بن حاطـب، ووديعة بن ثابت وهما من بني أميَّة بن زيد رهط أبي لبابة بن عبد المنذر، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وحارثة بن عامـر، وابناه مجمع وزيد، ونبيل بـن الحارث، ونجاد بن عثمان، وبحجد من بني ضبيعة، بأمر أبي عامر الراهب المشرك ليكون ملجأ له يقيم فيه من يأتي من عنده، وقـد ذهب ليأتي بجنود من قيصر لقتال النبيء ﷺ، وأرادوا تفريق جماعة قباء المصلِّين في مسـجدهم بإمام منهم، ويرصدون ـ أي يترقَّبون ـ مجيء من حارب الله ورسوله من قبل بنائه وهو أبو عامر المذكور لعنه الله، والد حنظلة الغسيل الذي استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة.

[سيرة] وكان أبـو عامر قـد تنصَّر فـي الجاهلية ولبس المسـوح، ولَمَّا بعث ﷺ حسـده لزوال رئاسـته به، وقال يوم أحد: لا أجد قومـا يقاتلونك إلَّا

قاتلتك معهم، ولم يزل يقاتله إلى أن هزمت هوازن ففرَّ إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين استعدُّوا ما استطعتم للقتال فإنِّي آتي بجنود من قيصر لأخرج محَمَّدًا وأصحابه من المدينة، ومات بقِنَّسْرِينَ ـ بكسر القاف وشدِّ النون مفتوحة ومكسورة: بلد بالشام ـ وحيدا لم يحضر جنازته لعنه الله أحد، لم يقبله النصارى استجابة لدعائه ﷺ إذ قال له إذ قدم المدينة: بم جئت؟ قال ﷺ: «**بالحنيفيَّة السمحة البيضاء دين إبراهيم**» قال: فأنا عليها، فقال: «**لست عليها**»، فقال لعنه الله: بلى ولكنَّك أدخلت ما ليس منها فيها، فقال: لا، فقال لعنه الله: أمات الله الكاذب طريدا فريدا، فقال ﷺ: «**آمين**»، فأماته الله كذلك، وقيل: كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب ولَمَّا هزمهم الله ﷻ فرَّ إلى الشام، ويقال: لَمَّا بنى بنو عمرو بن عوف مسجد قباء سألوه أن يأتيهم ليصلِّي فيه ففعل، فحسدهم بنو غنم بن عوف، إخوانهم فبنوا مسجدا ليصلِّي فيه أبو عامر الراهب إذا جاء من الشام، وسمَّاه رسول الله ﷺ بالفاسق، وسمَّاه الناس: الكذَّاب.

و«من» مُتَعَلِّق بـ«حَارَبَ» أو «اتَّخَذُوا». ﴿**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنَ اَرَدْنَآ**﴾ بالمسجد ﴿**إِلَّا اَلْحُسْنَىٰ**﴾ إلَّا الخصلة الحسنى، أو الإرادة الحسنى، وفسَّرها بعض بالصلاة. وروي أنَّهم قالوا: بنيناه للصلاة والرفق بالمسكين والضعيف في المطر والبرد والحرِّ والتوسعة على المسلمين، والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد المدينة ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ في حلفهم. ﴿**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**﴾ للصلاة ولا لغيرها، أي: لا تمكث فيه ولا تدخله؛ وعن ابن عبَّاس: ﴿**لَا تَقُمْ**﴾: لا تصلِّ، وأنَّ القيام بمعنى الصلاة.

[سيرة] بني قبل غزوة تبوك فقالوا: صل لنا فيه ليكون مسجدا كما كُنَّا نصلِّي في قباء، فقال: «**أنا على سفر وإذا قدمت صلَّيت فيه إن شاء الله**»، ولَمَّا قدم كرَّروا الطلب، فأراد إتيانه، فنزلت الآية: ﴿الذِينَ اتَّخَذُواْ﴾ وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فدعا بمالك بن الذخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن

ووحشـــي، فقال: انطلقوا إلـــى هذا المســـجد الظالم أهله فأهدمـــوه وحرِّقوه فخرجوا مسرعين حتَّى أتوا بني سالم بن عوف رهط مالك بن الدخشم فقال مالـــك: انظروني حتَّى أخرج لكم بنار فخرج من أهله بشـــعلة من ســـعف، وأسرعوا بها حتَّى دخلوا المســـجد وفيه أهله فأحرقوه وهدَّموه، وتفرَّق أهله عنه، وأمر ﷺ أن يتَّخذ كُناســـة تلقى فيه الجيف والنتن والقمامة. وروي أنَّه لَمَّا نزل بـــذي أوان ـ موضع قريب مـــن المدينة بينه وبين المدينة ســـاعة ـ راجعا من تبوك ســـألوه أن يأتيه، فدعا بقميصه ليلبسه فيأتيهم، فنزلت الآية. وقيل: قال له جبريل: لا تقم فيه أبدا فأمر بهدمه وإحراقه. قال عطاء: لَمَّا فتح الله ﷻ الأمصار على عمر أمر المســـلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يبنوا في موضع واحد مســـجدين يضارُّ أحدهما الآخـــر، وأمر أن يهدم كلُّ مســـجد حادث ضارٍّ للآخر.

﴿**لَمَسْـــجِدٌ اسِّـــسَ عَلَى التَّقْوَىٰ**﴾ بنى رســـول الله ﷺ أسَّـــه أي أصله مع التقوى، أي شـــبَّه التقوى بنحو صخرة في تمسُّـــك ما وضع عليه، و«أُسِّسَ» تخييل، و«عَلَى» للاستعلاء المجازيِّ الاستعاريِّ التبعيِّ، أو للتعليل، والثاني أولى، واللام للابتداء لا غيره.

[نحو] ومن العجيب أنَّ بعض المحقِّقين كلَّمـــا رأى لام ابتداء أجاز أنَّها لام في جواب قســـم مقدَّر، ولو لم يكن دليل على تقديره ســـوى أنَّ المعنى قابل له.

[سيرة] ورُوي أنَّ بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية أن يؤمَّهم فيه، فقال: لا، أوليس هو إمام مسجد الضرار؟ قال: يا أمير المؤمنين لا تعجل فوالله لقد صلَّيت فيه وأنا لا أعلم ما أضمـــروا، ولو علمت ما صلَّيـــت فيه، وكنت غلامـــا قارئا للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرؤون فعذره عمر، فأباح له الإمامة في مسجد قباء.

﴿مِنَ اَوَّلِ يَوْمٍ اَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ من يوم أوَّل، أو من أوَّل وقت.

[نحو] والآيـة حجَّة على مجيء «مِـنْ» لابتداء الزمان، ولـه أدلَّة كثيرة، وأخطأ البصريُّون في منع ذلك، وتأويل كلِّ ما ورد من ذلك بغير الزمان، مثل أن يقدَّر من تأسـيس أوَّل يوم، مع أنَّه لو صحَّ بتأسيس لكان الزمان به أولى، لكثرة المصدر بمعنـى الزمان، كجئت طلوع الشـمس، وقِلَّتـه في المكان، كجلست قرب زيد.

[سيرة] قال أبو سعيد الخدري: سألت رسول الله ﷺ عن هذا المسجد، فأخذ كفًّا من حصباء فضرب به الأرض فقال: «**مسجدكم هذا، مسجد المدينة**». واختلف رجلان فسألاه ﷺ أهذا أو مسجد قباء؟ فقال: «**مسـجدي هذا**»، وقيل: مسجد قباء وعليه البخاري[1]، لأنَّه ذكر في جنب ذكر مسـجد الضرار، بناه ﷺ وصلَّى فيه أيَّام إقامته بقباء من الاثنين إلى الجمعة في طريق هجرته، خرج صبيحة الجمعة وصلَّى الجمعة في الوادي ودخل المدينة، وقيل: أقام أربعة عشـر، وقيل: اثنين وعشرين، ولَمَّا بناه قالوا: صلِّ لنا فيه، وهـذا نفس ما قيل: بنوه فقالوا صـلِّ لنا فيه، فإنَّهم يبنون معه بل معظم بنائه منهم، وبعد وصول المدينة كان يأتيهم راكبا وماشيا يوما في الأسـبوع أحيانا يصلِّي فيه، وقد يقال: أراد بـ«**مسجدي هذا**»: الإشارة إلى كلِّ ما بني للإسلام تحرُّزا عن مسجد الضرار خاصَّة.

وَأَمَّا أن يراد بمسجد أسِّس على التقوى العموم فخلاف الأصل لأنَّه نكرة في الإثبـات، ولقوله ﷻ: ﴿**فِيـهِ رِجَـالٌ يُحِبُّـونَ أَنْ يَّتَطَهَّـرُواْ وَاللّٰهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ يجازيهم فإنَّه في رجال قباء وفي استنجائهم بالحجارة ثمَّ بالماء.

وفي هـذا أحاديث لأحمـد والبخـاري وابـن أبي شـيبة والطبري والطبرانـي وعبد الرزَّاق وابـن مردويه والبغوي وابـن خزيمة والحاكم،

---

(1) انظر: كتاب فضائل الصحابة، باب 74، الحديث رقم 3694، عن حديث عروة بن الزبير.



وكلام من جماعة من الصحابة كابن عمر وسهل الأنصاري وهو الصحيح، وعن أبي سعيد الخدري أنَّه مسجد المدينة وأنَّه أخبره النبيء ﷺ وأحاديث تفسيره بمسجد قباء أكثر وأصحُّ، فنقول: نزلت في شأن مسجد قباء ولا تختصُّ به.

و ﴿أَحَقُّ﴾: بمعنى حقيق، أو على ظاهره على زعم أهل مسجد الضرار أنَّ مسجدهم حقيق بالقيام فيه، أو باعتبار أنَّه لو جاز القيام فيه، وأمَّا أن يقال بالنظر إليه في ذاته لأنَّ المحظور قصدهم به ونيتهم فلا يصحُّ، لأنَّه مع نيتهم في بنائه لا حظَّ له في الخير، فإنَّه شرٌّ من الكنيف. والرجال: قوم من الأنصار من بني عمرو بن عوف. وتطهُّرهم: استنجاؤهم المذكور.

[سبب النزول] لَمَّا نزلت مضى رسول الله ﷺ والمهاجرون إلى باب مسجدهم فقال: «**أمؤمنون؟**» فسكتوا، فأعادها فسكتوا، فقال عمر إزالة لاستحيائهم: إنَّهم مؤمنون وأنا معهم، فقال ﷺ: «**أترضون بالقضاء؟**» قالوا: نعم، قال: «**أتصبرون على البلاء؟**» قالوا: نعم، قال: «**أتشكرون في الرخاء؟**» قالوا: نعم، قال ﷺ: «**مؤمنون وربِّ الكعبة**» فجلس، ثمَّ قال: «**يا معشر الأنصار إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟**» قالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثمَّ نتبع الأحجار الماء، فتلا: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَّتَطَهَّرُواْ﴾ وأراد بالغائط ما يشمل البول لأنَّ كلًّا من فضلة الطعام والماء [يُقضَى] في الأرض المطمئنَّة، واختصاص الغائط بفضلة الطعام عرف للفقهاء للبيان. ولفظ البزار كذلك.

[فقه] نتبع الحجارة بالماء، فقال: «**هو ذاكم فعليكموه**» ولفظ ابن خزيمة: «**إنَّ الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصَّة مسجدكم، فما هو؟**» قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئا، إلا أنَّه كان لنا جيران من اليهود يغسلون أدبارهم، أي وأقبالهم، فغسلنا كما غسلوا.

وفسَّر بعض التطهُّر بغسل الجنابة لا ينامون عليها، وبعض بالتطهُّر من المعاصي ومساوئ الأخلاق طلبا لرضا الله ﷻ، ويجمع بأنَّ سبب النزول التطهر المذكور للصلاة وعموم اللفظ باقي المعنى، والمدح على عدم النوم بالجنابة لا على غسلها لأنَّه لا بدَّ منه لكلِّ أحد قادر، وفسَّره بعض بطهارة الباطن والظاهر. وفي المسألة بيت مشهور:

وإن سألت وضوًا ليس ينقضه   إلَّا الجماع وضوء النوم للجنب[1]

أبدلته بقولي:

إنَّ الوضوء الذي ليس بناقضه   غير الجماع وضوء النوم للجنب

لسلامة قولي هذا من الركَّة، وأكَّدت ردًّا على من ينكر أو يشكُّ، بل يجوز التأكيد قصدا للتقرير ولو لم يكن شكٌّ ولا إنكار، بحذف فاء الجواب، وبابتداء الكلام بالواو، وإثبات واو الاستئناف لا يحسن، ودعوى أنَّ هذه الواو أوَّل البيت عاطفة على محذوف خلاف الأصل.

﴿**أَفَمَنُ اسِّسَ**﴾ هم أهل قباء، الهمزة مِمَّا بعد الفاء العاطفة، أو داخلة على معطوف عليه محذوف، أمستوٍ عندهم الفريقان؟ من أسَّس...، أو أبعد ما علم حالهم تكون الجهالة؟ ﴿**بُنْيَانُهُ**﴾ أي مَبنيُّه، وهو مسجد قباء، مصدر بمعنى مفعول، وهو المسجد لتقدُّم الكلام فيه ﴿**عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ**﴾ متعلِّق بـ«تَقْوَى» لتضمُّنه معنى خوف، أو بنعت محذوف، أي آتية من الله ﴿**وَرِضْوَانٍ**﴾ أي وعلى رجاء رضوان، أو على نفس الرضوان لأنَّه العمدة الموصلة إلى بنائه، وهو توفيقه، أو علمه، أو طلب رضاه بالطاعة، والتقدير: ورضوان منه أي من الله، كما قال: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ﴾. ﴿**خَيْرٌ اَم مَّن**﴾ هم أهل مسجد الضرار ﴿**اسِّسَ بُنْيَانُهُ**﴾ مسجد الضرار، عطف على «مَنُ اسِّسَ بُنْيَانُهُ» عطف مفرد، ففي «خَيْرٌ» ضمير «مَنْ» في

(1) أنشده الخرَشي نقلا عن التتائي. ينظر: **بلغة السالك لأقرب المسالك**، لأحمد الصاوي، ج1، ص121.

الموضعين، أو يقدَّر: أو من أسّس بنيانه؟ ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ خبر، فيكون عطف جملة، وفي «خَيْرٌ» ضمير «مَنْ» الأولى فقط.

و«خَيْرٌ» مقابل السوء، أو اسم تفضيل خارج عنه، أو باق على حدِّ ما مرَّ في «أَحَقُّ». و﴿شَفَا﴾ طرف، والمراد الضلال مقابلة لقوله: ﴿عَلَى تَقْوَى﴾ وهو متعلِّق بـ«اسَّسَ».

[صرف] والجُرُف: الجانب، أي جانب ما ذهب به السيل أو غيره وبقي ضعيفا مائلا للسقوط، ويقال: جرفه السيل، وشفى المريض كان على طرف من البرء. و﴿هَارٍ﴾: ألفه عن واو، أو عن ياء لغتان، أصله: هور، أو هير (بكسر الواو والياء) قلبت ألفا وآخره الراء، بدليل قوله: ﴿فانْهَارَ﴾، لا كما قيل: أصله هارِوٌ أو هارِيٌ أُعِلَّ كقاضٍ فأعْرِبَ على العين كَيَدٍ وأخٍ، ولا كما قيل: قدِّمت لامه وهي واو أو ياء على عينه، ثمَّ حذفَتْ فأعْرِبَ على العين، لأنَّ ذلك كلَّه خلاف الأصل.

ومعنى ﴿هَارٍ﴾: مشرف على السقوط، وضمير «انْهَارَ» للبنيان و«بِهِ» لـ«مَنْ»، أو ضمير «انْهَارَ» للجرف أو الشفا، و«بِهِ» للبنيان، أو لـ«مَنْ». و«انْهَارَ» انفعل، بمعنى سقط؛ والباء للتعدية، أي فأهاره في نار جهنَّم، أو للمصاحبة فتعلَّق بـ«انْهَارَ»، أو بحال، واختير عود ضمير «انْهَارَ» لـ«جُرُفٍ» لأنَّه يلزم من انهياره انهيار الشفا والبنيان ومن فيه بلا عكس.

ومسجد الضرار بني على طرف هوَّة توصل لنار جهنَّم، وقد ورد أنَّ الدخان يخرج من أساسه حين حفروه يرونه وبعد هدمه ما زال الدخان يخرج منه، وحفرت بقعة منه فرئي الدخان يخرج منه، وعن قتادة: «والله ما تناهى بناؤُهم حتَّى وقع في النار» قال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار.

[بلاغة] وشهر أنَّ البنيان في **الموضعين الدين**، شبَّه النفاق بشفا جرف في سرعة الذهاب، واستعار له اسم الشفا، والقرينة مقابلة التقوى، و«انْهَارَ» ترشيح، لأنَّه يلائم المشبَّه به، وهو الشفا، وشبه التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء

ورمز إليه بلازمه وهو التأسيس، باقيا على حقيقته مستلحقا، أو استعارة للإثبات، أو البنيان استعارة للدين والتأسيس ترشيح، أو شبَّه حال من اتَّقى المحارم وداوم على العبادة بحال من بنى بنيانا مقوِّيا به، فتكون الاستعارة تمثيليَّة وهي أولى.

﴿**وَاللهُ لَا يَهْدِي**﴾ هداية توفيق بعد هداية البيان ﴿**الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ الذين سبقت شقاوتهم.

﴿**لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذِي بَنَوْاْ**﴾ هو مسجد الضرار كما هو الظاهر، ويبعد أن يكون المراد به نفاقهم، ويجوز بقاء «بُنْيَانُ» على المعنى المصدري، فهاء «بَنَوْهُ» المقدَّرة مفعول مطلق على هذا. ﴿**رِيبَةً فِي قُلُوبِهِم**﴾ سبب ريبة، أو موجب ريبة، بنوه شكًّا في دين الله وردًّا عليه، ولَمَّا هدم لم يزالوا مغتاظين بهدمه لافتضاحهم به، إذ لم يؤخِّر أمرهم ويمهل، وربَّما خيَّل لهم الشيطان وأنفسهم أنَّه حقٌّ وأنَّه هدم حسدا، وأنَّه لا أقلَّ من جواز إبقائه، وتضاعف حقدهم لذلك، ولمجيء الشرِّ في حال توقُّعهم الخير في بنائه، وقد يكون في قلب بعضهم ما ليس في آخر؛ وقيل: الريبة الشكُّ في سبب تخريبه، وقيل: كانوا يحسبون أنَّهم محسنون في بنائه كما حبِّب العجل إلى بني إسرائيل فارتابوا في سبب تخريبه، وقيل: الشكُّ أيقتلون بعده أم يبقون.

﴿**إِلآ أَن تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**﴾ أي في كلِّ وقت إلَّا وقت تقطيع قلوبهم بالقتل أو الموت، والشدُّ للمبالغة في القطع وفي دوام الريبة تدوم دواما عظيما، حتَّى تبقى مع مبدأ القطع إلى أن يكون القلب قطعا متعدِّدة، ولو كان هذا لا يوجد، أو يتصوَّر بإيلام القلب شيئا فشيئا عند الموت أو القتل، وقد قيل تقطيعها تفريق أجزائها في القبر أو النار، فهم مغتاظون ولو بعد الموت، وقيل: إلَّا أن تقطَّع قلوبهم بالتوبة النصوح، فإنَّه لا يبقى لهم اغتياظ وارتياب، فيكون التقطيع مجازا، كما أنَّه مجاز في صورة حمله على الإيلام. ﴿**وَاللهُ عَلِيمٌ**﴾ بسوء اعتقادهم وبكلِّ شيء ﴿**حَكِيمٌ**﴾ في أمره بهدمه وفي كلِّ فعل له وقول.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (111) ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (112)﴾

صفات المؤمنين الصادقين الكمَّل

[بلاغة] ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ شبَّه بذلهم أنفسهم وأموالهم في الجهاد على رجاء الثواب ببيع الشيء وقبوله، وإعطاء الجنَّة على ذلك بالشراء، على الاستعارة التمثيليَّة لا المفردة التبعيَّة، إلَّا أنَّه قال: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ ولم يقل: بالجنَّة، لأنَّه أبلغ في وصول الثمن واختصاصه بهم، ولم يقل: باع لهم الجنَّة بأنفسهم وأموالهم لأنَّ المقصود في العقد الجنَّة والأنفس، والأموال وسيلة إليها، ففي ذلك كمال العناية بأنفسهم وأموالهم، وذلك كناية للإقراض لله فإنَّ كلَّ شيء مملوك لله ﷻ، وفي الآية استعارة تمثيليَّة.

[سبب النزول وسيرة] قال عبد الله بن رواحة في العقبة من سبعين رجلا: اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت، قال ﷺ: «**أشترط لربِّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مِمَّا تمنعون منه أنفسكم**

وأموالكم» قال: إذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «**الجنَّة**» قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزل: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ...﴾ الآية. والعقبة الثانية لقيه فيها اثنا عشر بايعوه بيعة النساء: «لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي بهتانا، ولا نعصي في معروف». وبايعه في العقبة الأولى ستَّة حضروا بأنفسهم مع ستَّة أخرى في الثانية، إلَّا جابر بن عبد الله بن رباب رضي الله عنه لم يحضر في الثانية، وقال ابن إسحاق: في الثالثة ثلاثة وسبعون. وبسطت هذا في «الهميان» وغيره.

وبيَّن البيع بقوله: ﴿**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾ لأَنَّ بذل أنفسهم لله هو البيع لا الشراء، وإن شئت فقل: بيان للشراء أيضا، لأنَّ بيان البيع بيان للشراء وبالعكس، وفي ذكر القتال ذكر لإنفاق المال، لأنَّه بالمال ذهابا ومباشرة ورجوعا، وفي ذلك شمول من لم يتَّفق له القتال لغيره، وقد قصده، وشمول من لم يتَّفق أنَّه مقتول، فإنَّ القتال المدافعة، وقعت القتالية أو المقتوليَّة أو لا.

وقيل: ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ أمرٌ في صورة الإخبار، ولا دليل عليه ولا يناسبه ما بعده، بخلاف «تُجَاهِدُونَ» فإنَّ جزم «يَغْفِرْ»[1] في جوابه يدلُّ أنَّه أمر، والمقتوليَّة إن كانت إخبارا نافرته، وإن كانت أمرا فإنَّه لا يعتاد أن يأمرهم الله بأن يكونوا مقتولين، ثمَّ إنَّ بعضا قاتل مقتول بعد أو غير مقتول، وبعض مقتول غير قاتل، والآية على التوزيع، وأيضا فعل البعض أو صفته قد يسند إلى الكلِّ، قال رسول الله ﷺ: «**ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون**

(1) يشير إلى لفظتي «تُجَاهِدُونَ» و«يَغْفِرْ» من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ تُومِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمُوٓ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الَانْهَارُ﴾ (سورة الصف: 10 ـ 12).

الغنيمة إلَّا تعجَّلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تمَّ لهم أجرهم»[1] وفي رواية: «**إن مات في الغزو تمَّ أجره**» أي ولو غنم أو مات بلا قتل، قلت: إنَّما ينقص ثلثا الأجر إن نوى الجهاد للتقرُّب إلى الله تعالى وللغنيمة، وإن لم ينو الغنيمة تمَّ له الأجر، وإن نواها وحدها فلا شيء له في الآخرة، وفي صحيح البخاري ومسلم: «**إنَّ المجاهد يرجع بما نال من غنيمة وأجر**»[2] وظاهره رجوعه بالأجر التام.

﴿**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا**﴾ مصدران مؤكِّدان لغيرهما، لأنَّ معنى الشراء بأنَّ لهم الجنَّة وَعْدٌ لهم بها، أي وعد الله ذلك على نفسه وعدًا، وحقَّه حقًّا، أو حقَّ أي ثبت ذلك حقًّا، كقولك: أنت ابني حقًّا، ويجوز كونُ «حَقًّا» نعت «وَعْدًا»، والأوَّل آكد، وكونُ «عَلَيْهِ» نعتا لـ«وَعْدًا» أو حالا من «حَقًّا». وزعم بعض المحقِّقين أنَّ «وَعْدًا» منصوب مضمون اشترى من الوعد، وفيه أنَّ هذا المضمون هو الذي دلَّ على تعدِّي الناصب، لأنَّ الآية ليست من باب: «قمت وقوفا».

﴿**فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ**﴾ فالوعد بالجنَّة لهذه الأمَّة مذكور في كتب الله السابقة ﴿**وَالْقُرْءَانِ**﴾ من غير هذه الآية من كلِّ آية ذكر فيها ثواب الجهاد، أو أشير فيها إليه، ويجوز دخول هذه الآية كشاة الأربعين أثَّرت في نفسها وغيرها، وهو متعلِّق بـ«حَقًّا» أو بـ«وَعْدًا»، أو نعت لأحدهما، وإن علِّق بـ«اشْتَرَى» شملت الآية أمر أهل التوراة والإنجيل بالقتال والثواب لهم،

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الإمارة (44) باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم، رقم 153 (1906). ورواه **الحاكم** في كتاب الجهاد، ج2، ص88، رقم (39). من حديث عبد الله بن عمرو.

(2) نصه عند الشيخين: «تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله لا يُخرجه إلَّا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته بأن يُدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة». **البخاري**: كتاب الخُمس، باب قول النبي ﷺ، أحلت لكم الغنائم، رقم: 2955. **مسلم**: كتاب الإمارة. باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم: 1876. من حديث أبي هريرة.

وشـــملت الأمَّة. قيل: في الآية دليل على أنَّ الأمر بالجهاد مشروع في جميع الشرائع، وليس كذلك، فإنَّ كثيرا من الأنبياء لم يؤمر بالقتال كعيسى عليه السلام.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ اســتفهام إنكار، أي لا أوفى به منه، والوفاء بالعهد هو الأصل طبعا وشرعا ولا سيما من الأكابر، فكيف من الخالق، وهذا في غاية التأكيد للوعد، وزاد التأكيد بأن سمَّاه عهدا، فقد أكَّد الشراء بكونه من الله الغنيِّ الذي لا يحتاج، وبـ«وَعْدًا» وبـ«حَقًّا» وبـ«عَلَى»، وبذكره في الكتب وبـ«مَنَ أَوْفَى»، وبتسميته عهدا.

﴿فَاسْتَبْشِــرُواْ بِبَيْعِكُمُ الــذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ إذا كان الأمر كذلك فاستبشــروا، أي افرحوا به لأنَّ لكم النجاة من النار دار الغضب، والفوز بالجنَّة دار الرضا، وجوار الله.

[لغة] والاستبشار: إظهار الفرح على البشــرة، أي جلدة الوجه؛ والسين والتاء للتأكيد، أو للمطاوعة بمعنى: عالجوا الفرح فيحصل، وأولى من هذا أن يقال: لموافقة ما ليستا فيه، كأنَّه قيل: أبشــروا، وليس هذا مطاوعة، ولعلَّ من عبَّر بالمطاوعة أراد بها الموافقة لا المطاوعة المعهودة في النحو والصرف، ثمَّ إنَّ الاستبشـــار إمَّا أن يكون ممَّا لا يكســب، فالأمر به مجاز عن وقوعه بعد العلم بالوعد، وإمَّا أن يراد به ما يكســب بنطق وبتشديد الوجه إلى الجوانب وبسطه، فهو أمر على ظاهره.

وفـــي «اسْتَبْشِــرُوا» التفات من الغيبــة إلى الخطاب، ومقتضـــى الظاهر: فليستبشروا بشراء الله، وَلَكِنَّ المراد: أبشروا بأنَّ فعلكم الذي هو البيع أصاب المقصود الأعظم وهو الجنَّة، فليرغب الراغــب في مثل ذلك الفعل، والرابط ضمير «بِهِ» وهو في الأصل مفعول مطلق، أي بايعتمــوه، والمراد: بايعتم الله به، وليست الآية التفاتا إلى الخطاب من الغيبة لأنَّ المراد بالمؤمنين في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْــتَرَىٰ...﴾ أنَّه على طريق العموم ولو صدق بالمخاطبين في قوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُواْ﴾. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البيع، ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿التَّآئِبُـونَ﴾ خبر لمحذوف، أي أولئـك المؤمنون هم التائبون من الشـرك والمعاصي ومسـاوئ الأخلاق، على طريق قطع النعت، ويدلُّ لـه قراءة عبد الله وأُبـي: «التَّآئِبِينَ» بالياء على أنَّـه نعت للمؤمنين، ولا دليل علـى أنَّه مقطوع إلى النصب؛ أو مبتدأ خبره محذوف، أي التائبون لهم الجنَّة أو من أهل الجنَّة، وإن لم يجاهدوا حيث أبيح لهم ترك الجهاد، قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْـنَىٰ﴾ [سورة النسـاء: 95] أو خبره قوله: ﴿اَلْعَابِدُونَ﴾ وما بعد هذا نعوت، أو أخبار متعدِّدة، أو الخبر «الآمِرُونَ»، والمراد: العابدون لله بإخلاص عبادتهم على وجهها ودوامها في مدَّة حياتهم، ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: 31].

﴿اَلْحَامِدُونَ﴾ لله في السـرَّاء والضرَّاء، قال ﷺ: «**أوَّل من يدعى إلى الجنَّة يوم القيامة الذين يحمدون الله على كلِّ حال في السرَّاء والضرَّاء**»[(1)]. والحمد: الوصـف بالجميـل، وقيل: المـراد هنا الشـكر فـي مقابلة النعمـة، وعن عائشة ﵂: كان النبيء ﷺ إذا أتاه الأمر يسرُّه قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات**» وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «**الحمد لله على كلِّ حال**»[(2)].

﴿اَلسَّـآئِحُونَ﴾ الصائمون، قال ابن عبَّاس: كلُّ سـياحة في القرآن صوم، قال ﷺ: «**سياحة أمَّتي الصيام**»[(3)] وذلك أنَّ السائح يكتفي بما وجد من قوت، والصائم يمتنع عَمَّا حلَّ له قبلُ وعمَّا حرم، على الاستعارة، ومن حقَّق الصوم لم يحتفـل بما يلتذُّ به وقـت الإفطار. أو السـائحون في عالـم الروحانيَّات بالانتقال في المعارف على مراكب الفكر، أو بترك ما يعوق من اللذَّات. وعن عليٍّ: هم الغزاة يقطعون الأرض إلى العدوِّ. وعن عكرمة: طلَّاب العلم من بلد

---

(1) رواه **الحاكم** في كتاب الدعاء والتهليل والتسـبيح والذكـر، ج1، ص681، رقم 1851 (51). ورواه **المنذري** في الترغيب في التسبيح، ج2، ص437، رقم 48. من حديث ابن عَبَّاس.

(2) رواه **ابن ماجه** في كتاب الأدب (55) باب فضـل الحامدين (40) رقم 3803. ورواه **الحاكم** في كتاب الدعاء...، ج1، ص677، رقم 1840 (40). من حديث عائشة ﵂.

(3) أورده **القرطبي** في تفسيره، ج8، ص270.

إلى بلد، [قلت:] ولا مانع من تفسيره بالسير في الأرض للعبادة كطلب العلم والزيارة والغزو والحجِّ. وسئل ﷺ عن السياحة في الآية ففسَّرها بالصوم، وكذا عن عائشة وعنه ﷺ الجهاد.

﴿**اَلرَّاكِعُونَ اَلسَّاجِدُونَ**﴾ في الصلاة أو كأنَّه قيل والمصلُّون، وخصَّهما لامتياز المصلِّي بهما عن غيره، ولذمِّ من لا يركع في صلاته أو لا يسجد، وهم أهل الكتاب، والقرآن [في الصلاة] ولو كان أعظم لكن هما أدلُّ على الخضوع، والآية في الفرض والنفل، فالمراد: أكثروا الصلاة، وفسَّرها بعض بصلاة الفرض. ولم يعطف فيما مرَّ لأنَّه صفات للشخص في نفسه ولا بدَّ لكلِّ شخص منها، فترك العطف لشدَّة الاتِّصال، بخلاف الأمر والنهي والحدِّ كالرجم والجلد، فيجوز اختلاف فاعلها. وقدَّم التوبة والعبادة والحمد والسياحة والركوع والسجود، لأنَّ الإنسان يكمُل بها فلا يكون مكمِّلا لغيره بالأمر والنهي وإقامة الحدود حتَّى يكون كاملا في نفسه. ولا يقال: الصحيح في الحدود أن لا تفسَّر بنحو الجلد والرجم لأنَّا نقول: نفسِّرها بالعموم، فهو يعمُّها ونحوها من الفرائض.

﴿**اَلَامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ من واجبٍ وما دونه، ومكارمِ الأخلاق ﴿**وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ من شركٍ وما دونه، ومساوئ الأخلاق ﴿**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ**﴾ أي لحدوده الشَّرعِيَّة التي لم تذكر من القلب والجارحة، أو عطف عامٍّ على خاصٍّ، فقيل: العطف تنبيه على أنَّ ما قبله مفصَّل الفضائل وهذا مجملها، نحو: زيد وعمرو وسائر قبيلته كرماء، وقيل: عطف على ما قبله من الأمر والنهي، لأنَّ من لم يصدِّق قولَه فعلُه لا يفيد أمره نفعا ولا نهيه منعا، وقيل: الحدود القصاص والرجم والجلد والأدب، وعطف «النَّاهُونَ» يتبادر أنَّه موصول بما يناسبه وهو «الَامِرُونَ» كلاهما طلب، الأوَّل طلب فعل والثاني طلب ترك، فهو معطوف على «الآمِرُونَ»، وما شهر من أنَّ العطف على الأوَّل إذا كان العاطف لا يترتَّب إنَّما هو إذا لم يقم دليل على غيره.

[نحو] وعطف «الْحَافِظُونَ» لأنَّه ثامن، والعدد تمَّ بالسبعة، وهي واو الثمانية كما قيل في: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [سورة الكهف: 22] فالعطف لمغايرة ما بعد التمام لِمَا قبله، قال بعض النحويِّين: واو الثمانية لغة فصيحة، قال القرطبي: لغة قريش، وإنَّما جعلنا هذه واو الثمانية لأنَّا جعلنا الآمرين والناهين قسما واحدا، ولا سيما أنَّ الآمر بالمعروف ناه عن المنكر وهو ترك المعروف، والناهي عن المنكر ناه أيضا عن ترك المعروف آمر بالمعروف، وإلَّا فواو الثمانية واو قوله: ﴿وَالنَّاهُونَ﴾. ولم يرض أكثر النحويِّين بواو الثمانية، [قلت:] والحقُّ عندي جواز واو الثمانية، مع أنَّها للعطف أو غيره من معاني الواو، لا على أنَّ معناها الثمانية، ولعلَّ من قال بها أراد ما ذكرت.

[بلاغة] وقد قيل: العطف في ﴿وَالنَّاهُونَ...﴾ لِمَا بين الأمر والنهي من التقابل، فإنَّ الأمر والنهي من حيث هما أمر ونهي متقابلان، بخلاف الصفات الباقية فإنَّ الآمر ناه والناهي آمر، فأشير إلى الاعتداد بكلٍّ من الوصفين، وأنَّه لا يكفي عن واحد ما في ضمن الآخر، ولأنَّ بينهما تلازما في الذهن والخارج، لأنَّ الأوامر تتضمَّن النواهي وبالعكس، وتنافرًا بحسب الظاهر، لأنَّ الأمر طلب فعل والنهي طلب ترك، فكانا بين كمال الاتِّصَال والانقطاع المقتضي للعطف، وقيل: العطف فيهما للدلالة على أنَّهما في حكم خصلة واحدة، كأنَّه قيل: الجامعون بين الأمر والنهي، واعترض بأنَّ الركوع والسجود في حكم خصلة واحدة أي الجامعون بين الركوع والسجود، ويدفع بأنَّ كلًّا غير الآخر بخلاف الأمر والنهي كما مرَّ.

﴿وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ﴾ بالجنَّة، وَحَذَفَه للتعظيم، كأنَّه قال: بشِّرهم بما لا يطيق الخلق تفصيله، واختصاره: الجنَّة، أو رضا الله، و«ال» للعهد، وهم من ذكر، فمقتضى الظاهر: بشِّرهم، لكن أظهر للفاصلة، ولبيان أنَّ إيمانهم كامل حتَّى استحقَّ ذلك الفضل، وليؤذن بعلَّة التبشير وهي الإيمان.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿113﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿114﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿115﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿116﴾﴾

النهي عن الاستغفار للمشركين وإقامة الحجَّة عليهم

﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ**﴾ أيِّ نبيء كان، فـ«ال» للجنس كما يدلُّ له: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ...﴾ فإنَّه ردٌّ للنقض بمن تقدَّم، فيدخل النبيء محمَّد ﷺ بالأولى، أو هو المراد ولو كان من قبله كذلك.

[سبب النزول] ويدلُّ له ما روى كثيرٌ منهم البخاري ومسلم، أنَّه لَمَّا احتضر أبو طالب قال ﷺ: «**أي عمُّ قل كلمة أحاجُّ لك بها عند الله**» فأبى وقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أميَّة: يا أبا طالب أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟ فأعاد ﷺ وأعاد أبو جهل وعبد الله، فقال: إنَّه على ملَّة الأشياخ، فقال ﷺ: «**لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه**» فنزلت الآية أي والتي بعدها، وفي رواية: «**قل لا إله إلَّا الله كلمة أحاجُّ لك**» والمراد مع قول «محمَّد رسول الله»، وسبب الاختصار أنَّهم أهل أصنام إذا قالوا لا إله إلَّا الله فقد صدَّقوا بأنَّه رسول الله آت لرفض الأصنام.

[سيرة] وروي أنَّه مات فأخبر عليٌّ رســول الله ﷺ فبكى، فقال: «**اذهب فاغسله واكفنه وواره غفر الله له ورحمه**»، وفعلت وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أيَّاما ولا يخرج من بيته حتَّى نزل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيءِ﴾.

وروي أنَّه لَمَّــا احتضر وألحَّ عليه رســول الله بالإيمان قــال: لولا خوف السبِّ عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تتَّهمني قريش بالجزع من الموت لقلتها، ولا أقولها إلَّا لأسرَّك بها. وضعِّف ما روي عن العَبَّاس أنَّه أصغى إلى أبي طالب بأذنه وهو يحرِّك شــفتيه فقال يا ابن أخي لقد قالها، فقال ﷺ: «**لم أســمع**» ولَمَّا كان ﷺ يســتغفر لأبي طالب اســتغفر المؤمنون لموتاهم حتَّى نزلت الآية.

[سيرة] وروي أنَّــه زار أمَّه بالأبواء حين رجع من فتــح مَكَّة وقام باكيا، فقال: «إني اســتأذنت ربِّي في زيارة قبر أمِّي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يــأذن لي، وأنزل علــيَّ: ﴿مَــا كَانَ لِلنَّبِيءِ...﴾ حتَّى قــرأ: ﴿...لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾» والأبواء جبل بيــن مَكَّة والمدينة وعنده بلدة بفتــح الهمزة وبالمدِّ، وعن أبي هريرة أتى ﷺ قبر أمِّه فبكى وأبكى مــن حوله، فقال: «**أذن لي ربِّي في زيارة قبر أمِّي هذا ولم يأذن لي في الاســتغفار لها**». وعن ابن مســعود أنَّ رسول الله ﷺ أتى المقابر فناجى قبرا مدَّة طويلة ثمَّ بكى فبكينا لبكائه، فصلَّى ركعتين، فدعا عمر ودعانا فقال: «**ما أبكاكم؟**» فقلنا بكينا لبكائك، فقال: «**هذا قبر أمِّي آمنة أذن لي ربِّي في زيارتها ومنعني من الاســتغفار لها**». وفي رواية لمسلم: «**استأذنت ربِّي أن أستغفر لأمِّي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي**» قال بعض شرَّاحه: رأى قبرها عام الحديبيَّة فبكى وأبكى من حوله، وروي: زار قبرها حين الفتح في ألف مقنَّع.

زارت أخوالها بالمدينة ومعها رســول الله ﷺ ابن ستِّ سنين وَلَمَّا رجعت ماتت بالأبواء، ثمَّ إنَّ السورة مَدَنِيَّة ولعلَّها آخر سورة نزلت، وأبو طالب مات

قبل الهجرة بثلاث سنين فكيف يكون سبب نزول الآية قوله: «**لا أزال أستغفر لك...**» فلعلَّه كان يستغفر له من ذلك إلى أن نزلت الآية بالمدينة. وكان المؤمنون كذلك كما قال: ﴿**وَالذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ وذلك بعيد، وكلُّ ما جاز لنبيء يجوز لأمَّته حَتَّى يقوم دليل التخصيص، وكذا التحريم.

﴿**أَنْ يَّسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَىٰ**﴾ أي لو لم يكونوا ذوي قربى ولو كانوا أولي قربى، فالعطف على محذوف، وبعض يجعل الواو للحال في مثل هذا، فيكون ما يقدر بالعطف في الإعراب الأَوَّل مفهوما بالأولى.

[أصول الدين] ومعنى الاستغفار أن يطلبوا لهم مغفرة الذنوب، وفي قولك: اللهم أهد المشرك أو الفاسق مشهور المذهب المنع لأَنَّهُ ولاية، وفيه قول بالجواز لأنَّه ﷺ يقول: «**اللهمَّ اهد قومي**» ولا دليل على الخصوصيَّة، وقد يبحث بأنَّ معنى: «**لأستغفرنَّ لك ما لَمْ أُنْهَ**» لأطلبنَّ توفيقك، فتفسَّر الآية بطلب التوفيق فإذا نهي عنه بالآية فقد نهي عن طلب الهداية إذ طلب الهداية هو طلب التوفيق، ويبحث بأنَّه لا يتصوَّر طلب توفيق من مات على غير توفيق، وأمَّا الحيُّ فيتصوَّر ما لم ينزل من الله ﷻ أنَّه شقيٌّ كما قال: ﴿**مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم**﴾ بالموت على الكفر، أو بالوحي، مثل ﴿إِنَّهُ لَنْ يُّومِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَ ـ امَنَ﴾ [سورة هود: 36] ﴿**أَنَّهُمُۥٓ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ فما داموا أحياء لم يمنع طلب الاستغفار أو التوفيق، وهذا ظاهر الآية وقواعد المذهب لم توافقه[1]، الجواب أنَّ التبيُّن لا يختصُّ بالموت أو الوحي بل بالجزم بأنَّه كافر ولو كان حيًّا، فإذا تحقَّق الكفر لم يجز الاستغفار له.

﴿**وَمَا كَانَ اَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ**﴾ إذ قال: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [سورة الممتحنة: 4] ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [سورة مريم: 47] ﴿**إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ**﴾ إبراهيم ﴿**إِيَّاهُ**﴾ أباه، فهي مخصوصة بإبراهيم، لا يجوز ذلك لغيره، ولم يعده

---

(1) ذلك لأنَّ الاستغفار له يوجب ولايتك إيَّاهُ وولاية غير الموفِّي بدين الله لا تجوز.

الله لغيره فذلك نفس مذهبنا، وزعم بعض أنَّه يجوز عود ضمير «وَعَدَ» لأبي إبراهيم، و«إِيَّاهُ» ضمير إبراهيم، وأنَّه وعد لابنه إبراهيم أن يسلم فاستغفر له لوعده، وهذا لا يجوز الآن.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ بالوحي بأنَّه لا يؤمن، أو بالموت على الكفر، وأمَّا بدونهما فالتوبة محتملة ﴿أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قطع عنه الاستغفار، وأمَّا غير إبراهيم فيبرأ من الكافر عند الجزم بكفره، لا ينتظر موتا ولا غيره، فكن أنت يا محمَّد [كذلك] لا تستغفر لكافر بعد الجزم بكفره ولا تنتظر موتا ولا غيره، والتقييد بالموت ونحوه مخصوص بإبراهيم، والعِدَة مخصوصة به.

[أصول الدين] وذلك نفس مذهبنا، وسائر الآيات الآمرة ببغض الكافر وإقصائه وبراءته أدلَّة لنا، كيف يجتمع بغضنا له وإقصاؤه والاستغفار له؟ لا والله، فإنَّه تناقض وبقي طلب الهداية فأجيزت في قول، وقد تقاس على الاستغفار فتكون الآية نهيا له ﷺ عنها أيضا.

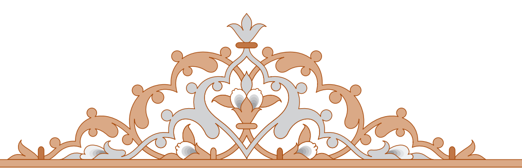
﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ﴾ كثير التأوُّه، وهو قول أوَّه أوَّه تضرُّعا ودعاء، لفرط ترحُّمه ورقَّة قلبه، كلَّما ذكر أمرا من الآخرة أو تقصيرا مَّا أشفق، وفي الحديث: «**هود الأوَّاه الخاشع المتضرِّع**»[1]، فالتأوُّه شامل للخشوع وكثرة الدعاء، والتوبة والرحمة والإيقان وكثرة الذكر والتسبيح والتعليم والرجوع عمَّا يكره، وتعلُّق القلب بالله تعالى ﴿حَلِيمٌ﴾ صبور على الأذى لا ينقم ولا يحقد بل يجازي السوء بالخير كما قال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [سورة مريم: 47] إذ قال: ﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾ [سورة مريم: 46] وإذا آذاه أحد قال: هداك الله، وبتلك السيرة فسِّر الحلم، وهذه الآية بيان لِمَا حمله على الاستغفار له، وليس فيكم ما فيه من الرأفة حَتَّى يباح لكم ما أبيح له مِمَّا وعد له وعدا فقط.

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج3، ص285. **والطبري** في تفسيره، ج11، ص37، **والهندي** في الكنز، ج2، ص26، رقم 2998. من حديث ابن جرير عن عبد الله بن شدَّاد بن الهاد مرسلا.

والنبيء ﷺ ولو كان أرأف منه لكن حمله الله وأمَّته على طريق واحد.

وكانوا يستغفرون لموتاهم المشركين، وَلَمَّا نزل المنع خافوا العقاب عَمَّا صدر منهم قبل المنع أو بعده وقبل وصول الخبـــر فنزل: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا**﴾ أي لينسبهم إلى الضلال فيعاقبهم، أو ما كان الله ليعاقبهم عقاب الذين ضلُّوا ﴿**بَعْدَ إِذْ هَدَاٰيهُمْ**﴾ بعد وقت هدايتهم إلى الإسلام، لا ما قيل إنَّ ﴿**إِذْ**﴾ بمعنى «أَن» المصدرية، ﴿**حَتَّىٰ يُبَيِّـــنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ**﴾ فإذا بيَّنه لهم فلم يتركوه سمَّاهم ضالِّين وعاقبهم، والمعتبر عموم معنى اللفظ، ولو خصَّ سببه فشملت الآية من شـــرب الخمر ومات قبل تحريمها، ومن شـــربها بعد تحريمها وقبل وصول الخبر إليه، ومن صَلَّى إلى المقدس ومات قبـــل التحوُّل، ومن صلَّى إليه بعد التحوُّل وقبل وصول الخبر إليه، وفي كلِّ مرتكب محرَّم قبل نزوله أو بعده وقبل وصول الخبر، وقد قيل: نزلت في هذه الأشـــياء كلِّها ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ فهو عالم بأنَّكم غافلون لم يبلغكم الوحي نزل أو لم ينزل. ﴿**اِنَّ اللَّهَ لَه مُلْكُ السَّـــمَاوَاتِ وَالَارْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُـــم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ فتبرَّؤوا من كلِّ مـــا يخالفه فهو وليُّكم بالحفـــظ ونصيركم بدفع الضرِّ ومَالِكُكم ورازقكم ومالك حياتكم وموتكم فانقطعوا ولا يتعلَّقْ قلوبكم إلى سواه، ويجوز أن يراد بالسماوات جميع العلويَّات حتَّى العرش والكرسيِّ، وبالأرض جميع الأرضين وما تحتهنَّ.



﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (117) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)﴾

التوبة على أهل تبوك وعلى الثلاثة المخلَّفين

﴿**لَّقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيءِ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالَانصَارِ**﴾ أدام توبته عليهم في غزوة العسرة إذ لا ذنب لهم فيها، أو قَبِلها منهم أو وفَّقهم إليها في مطلق أحوالهم لا في خصوص هذه الغزوة، ومن ذلك إذنه في التخلُّف، فيعدُّ ذنبا عليه ﷺ ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: 43] وأسند إليهم لأنَّهم تبعوه فيه، أو حُكمٌ على المجموع وذكر[1] تبرُّكا كقوله: ﴿فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ﴾ [سورة الأنفال: 41] وأيضا يعدُّ ترك الأَولى ذنبا في حقِّ الأخيار، **ولا يخلو الإنسان من زلَّة.**

ولَمَّا كثر الافتضاح في السورة ظنَّ المسلمون أن لا يبقى أحد إلَّا نزل فيه قرآن إلى أن نزلت هذه الآية في صبرهم على الشدائد المكفِّرة لزلَّاتهم، وسمِّيت سورة التوبة لهذه الآية: ﴿وَتُوبُواْ إِلَى اللهِ جَمِيعًا﴾ [سورة النور: 31] وفي

(1) أي ذكر النبيء معهم.

الحديث: «**إنَّه ليغان**[1] **على قلبي فأستغفر الله كلَّ يوم مائة مرَّة**»[2] فبنحْوِ هذا تكون التوبة على ظاهرها من قبولها، أو الآية إنشاءٌ لإظهار فضلها، ولفظها إخبار، وقد زعم قوم أنَّ ذلك كلام للتبرُّك كما قيل في: ﴿فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ﴾ [سورة الأنفال: 41] إذ ضمَّ توبتهم إلى توبته ﷺ تعظيما لهم، وقد يكون ذنبهم ميلهم إلى الراحة من شدَّة الحرِّ وشدَّة السفر والخوف من قتال الروم، أو الاهتمام بالانصراف ولكن تصمِّموا على الثبات.

[سيرة] ﴿**الذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**﴾ شدَّة وقحط، حتَّى إنَّ الاثنين يقتسمان التمرة، ويعتقب العشرة على بعير، مع شدَّة الحرِّ وهم سبعون ألفا بين راكب وماش من المهاجرين والأنصار وسائر القبائل، وذلك مع قلَّة الماء، ويخرج النفر وما معهم إلَّا تمرات مسوَّسة وشعير متغيِّر، ويتعاقبون على لوك تمرة ويشربون عليها الماء حتَّى تبقى النواة، وأصابهم عطش في منزل حتَّى ظنُّوا أنَّ رقابهم ستقطع، وكان الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه يشربه ويجعل باقيه على كبده، فقال الصدِّيق رضي الله عنه: يا رسول الله إنَّ الله قد عوَّدك في الدعاء خيرا فادع الله قال: «**أتُحِبُّ ذلك؟**» قال نعم، فرفع يديه ولم ترجعا حتَّى غامت السماء فأمطرت وملَؤُوا أوعيتهم ولم يجدوها جاوزت العسكر، وفي هذه الغزوة دعا بتمر قليل وجعله في وعاء وبرَّك فيه، فأخذ أهل العسكر زادهم وبقي كما هو، ونبع الماء من بين أصابعه إذ وَضَعَهَا في إناء ماء حتَّى شربوا وسقوا دوابَّهم وحملوا، وهذا مبسوط في كتب المغاربة كمواهب القسطلاني، ودلائل الثعالبي، وشرحي على نونية المديح والسهيلي والقاضي عياض.

[نحو] ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ**﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر من فِعْلٍ من معنى كاد لأنَّها جامدة، وقيل: من لفظها على أنَّها لها

---

(1) غين على قلبه غَيْنًا: تغشَّته الهوة، راجع: ابن منظور: اللسان، ج10، ص162، مادة «غَيَنَ».

(2) رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم 4870. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، رقم 1294. من حديث الأغر المزني. (م.ح).

مصدر، واسم «كَادَ» ضمير الشأن، أو «قُلُوبُ» وعليه ففي «تَزِيغُ» ضمير «قُلُوبُ» وتوالي الأفعال دليل فلا لبس، أو اسمه ضمير القوم المدلول عليه بالمهاجرين والأنصار، والمشهور في خبر أفعال المقاربة أن يكون فِعلِيًّا مضارعيًّا رافعا لضمير اسمها.

وهذا الزيغ اهتمام بعض بالانصراف حين وقعت الشدَّة لكن ندموا، أو خطورٌ بالبال وحسبوا خطوره ذنبا للميل إليه، أو المراد: عظم الوسوسة أو الشرف على الردَّة مِمَّن هو حديث عهد بالإسلام، أو ضعيف الإيمان، ومن ذلك أن يوسوس لهم الشيطان أنَّه لو كان نبيئا لم يقع في هذه الشدَّة.

﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم**﴾ أعاد ذكر التوبة لبيان أنَّ التوبة عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة، وليس تكريرا محضا، لأنَّه عطف على «كَادَ» لا على تاب الأَوَّل، وإن أريد أنَّه تاب بالثبات على المشقَّة أو من كونهم كادوا يزيغون فلا تأكيد، وكذا قيل: ذكر التوبة أوَّلاً قبل ذكر الذنب تطييبا لقلوبهم وتفضُّلا، ثمَّ ذكر الذنب وأردفه التوبة مرَّة أخرى تعظيما لهم وتصريحا بالتوبة عن ذنبهم، وأتبعه بقوله: ﴿**إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ تأكيدا لذلك.

[لغة] وشهر أنَّ الرأفة أخصُّ من الرحمة فكيف قدِّمت؟ فيجاب بأنَّ الرأفة هنا: العمل في إزالة الضرِّ والرحمة: الإنعام، أو أريد بالرأفة ضدُّ القسوة ونفيها، وبالرحمة إيقاع الإنعام، أو الرأفة: عدم تحمُّل ما لا يطاق، أو أريد بالرحمة تأكيد معناها الموجود في الرأفة، فكأنَّها تتمَّة لها، فكأنَّها ليست شيئا زائدا عليها انتقل منها إليه، فحينئذ يقال إذًا: يجوز لنا «زيد فصيح متكلِّم»، قلنا: نعم إذا كان المقام للتأكيد، ولا يجزي أن يقال: قدِّم للفاصلة.

[نحو] ﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ**﴾ عطف على قوله: ﴿عَلَى النَّبِيءِ﴾ لأنَّه ذكر أوَّلاً وغيره مثله وتبع له، أو على «الَانصَارِ» لأنَّه آخر ومن جنسهم. والقسَم منسحب على الثلاثة كأنَّه قيل: لقد تاب الله على النبيء والمهاجرين والأنصار

وعلى الثلاثة، ولكن إذا عطف على الأنصار كان من باب العطف على المعنى المقول له في غير القرآن: «عطف توهُّم»، لأنَّ «عَلَى» في المعطوف لا في المعطوف عليه وهي فيه بمعنىً، وكأنَّه قيل: وعلى الأنصار وعلى الثلاثة، ولا يصحُّ العطف على «عَلَيْهِمْ» لأنَّ الثلاثة لم يتَّصفوا بكيد زيغ قلوبهم فلا تهم.

﴿الذِينَ خُلِّفُواْ﴾ خلَّفهم رسول الله والغزاة تركوهم ولو لم يقولوا: اقعدوا خلفنا، تقول: خلَّفت عمرا خلفي، ولو لم تقل: اقعد خلفي ولا تسرع لأجل أن يكون خلفك؛ أو خلَّفوا أنفسهم؛ أو خلَّفهم الشيطان عن الغزو؛ أو خلَّفهم الله عن قبول التوبة، لأنَّهم المرجون؛ أو خلَّف أمرهم عَمَّن قبلت توبته من أبي لبابة ونحوه.

والثلاثة: كعب بن مالك، وهو من بني سلمة، وهلال بن أميَّة من بني واقف، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف، ويقال فيه: ابن ربيعة، وفي مسلم: مرارة بن الربيع العامري، والواضح أن يقول: العَمْري بفتح العين وإسكان الميم نسبا إلى بني عَمْرو بن عوف. قال كعب: معنى ﴿خُلِّفُوا﴾ أرجي أمرنا، لا على معنى تخلُّفنا عن الغزو؛ أو خلَّفوا أنفسهم عن الاعتذار والتوبة كما اعتذر أبو لبابة وأصحابه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ خرجت عن الشرط ونصب الظرفيَّة إلى الجرِّ بـ«حَتَّى»، أو «ثُمَّ» زائدة في جوابها بعدُ وهو ضعيف؛ أو جوابها يقدَّر بعد «لِيَتُوبُوا» هكذا: تنشرح أنفسهم. ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الَارْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها أي مع رحبها، وذلك لضيق قلوبهم حتَّى لا تسكن إلى شيء منها ولا إلى شيء من أحوال أهلها، والرحب: السعة، ندما عن فراق رسول الله ﷺ وعدم مرافقته في الغزو، وخوفا من أن يموتوا فلا يُصَلِّي عليهم، أو يموت ﷺ فلا يُصَلِّي عليهم، ولا يكلِّمون دائما.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُۥٓ أَنفُسُهُمْ﴾ قلوبهم لذلك ولإعراض الناس عنهم بالكلِّيَّة وفرط الغمِّ والوحشة، وضيق نفس الإنسان عليه أشدُّ من ضيق الأرض عليه،



فذلك ترقٍّ. وضيق الأرض كناية عن الوحشة، ولكن تكون بكلٍّ ما أمكن، ويجوز أن يكون فسَّرها بضيق الأنفس وذلك بسط للكلام، وإن شئت فضيق الأرض انقباض الناس وضيق الأنفس همُّها به، وبمخالفة الرسول.

[سيرة] قال كعب: نهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامنا أيَّتها الثلاثة، فاجتنبنا الناس حتَّى تنكَّرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، ولزم صاحباي بيوتهما يبكيان، قال: لقد شهدت ليلة العقبة وما أحبُّ أنَّ لي بها بدرا، ولو كان بدرا شهر في الناس ولم أشهده لأنَّه ﷺ لم يعزم على الناس فيه، لأنَّه خرج للعير فوفَّقه الله تعالى إلى القتال، ولم يعاتب أحدا على عدم مشهده، ولم أتخلَّف إلَّا في غزوة تبوك، وكنت كلَّ يوم أقصد التجهُّز لألحق به وأكسل، حتَّى بعُدُوا واشتدَّ هَمِّي لأنِّي لا أرى في المدينة إلَّا معذورا أو منافقا، لَمَّا بلغ تبوك قال: «**ما فعل كعب بن مالك؟**» فقال رجل: يا رسول الله حبسه برْداه والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا فيه إلَّا خيرا، ولَمَّا سمع ملكُ غسَّان بهجرنا أرسل إليَّ كتابا: «الحق بنا نواسك لم يخلقك الله بدار مضيعة»، فقلت: هذه بليَّة أخرى، فألقيت كتابه في التنُّور، وقلت: يا رسول الله، ما كنت أيسر قطُّ مِنِّي حين سافرت، وإنِّي ذو لسان واحتجاج لكن إن كذبت أخبرك الله، وإن صدقت رجوت العفو، وقد اعتذر ثمانون رجلا منافقون ففضحهم الله ﷻ، وكنت أشبَّ القوم وأجلدهم أشهد الصلاة مع رسول الله ﷺ وأطوف في الأسواق ولا يكلِّمني أحد، وأسلِّم على رسول الله ﷺ في مجلسه بعد الصلاة، وأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بالردِّ وأسارقه النظر، وإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ وأنا قريب منه، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنِّي، وتسوَّرت على أبي قتادة جدار حائطه وهو ابن عمِّي وأحبُّ الناس إليَّ، فسلَّمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ، فقلت: أنشدك الله هل تعلمني أُحبُّ الله ورسوله؟ وسكت، وأعدت له وفي الثالثة قال: الله ورسوله أعلم، ولَمَّا مضت أربعون ليلة أرسل إلينا رسول الله ﷺ: اعتزلوا أزواجكم

فأمرتها أن تذهب إلى أهلها حَتَّى يقضي الله، ولَمَّا تَمَّت خمسون ـ وقيل: أكثر ـ قعدت على ظهر بيتي عقب صلاة الفجر، ونزلت توبتنا فسعى ساع وركض فارس للتبشير، وافى على سلع رجل من أسلم وهو جبل، ونادى يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجدا والصوت أسرع من الفرس، فأعطيته ثوبين ما لي سواهما فاستعرت ثوبين ولبستهما وانطلقت إليه ﷺ والناس يهنِّئونني حتَّى سلَّمت عليه ﷺ في المسجد، والناس حوله فقال: «**أبشر بِخَيْرِ يوم مرَّ عليك من حين وُلدت**» فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من الله؟ قال: «**لا بل من الله**» ووجهه يبرق في حينه، وكان إذا سرَّ برق وجهه كأنَّه قطعة قمر، وقام إليَّ طلحة يهرول حتَّى صافحني وهنَّأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، ونزل: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ...﴾ إلى: ﴿...الصَّادِقِينَ﴾ وحصته من ذلك هو الصدق إذ لم يعتذر بكذب وإلَّا فإنَّه لم يغز العسرة.

﴿**وَظَنُّواْ**﴾ أيقنوا مبدأ العلم، واليقين الظنُّ، فالظنُّ كالباب فتحوه ووصلوا المطلوب، أو حكمة التعبير بالظنِّ التلويح إلى الظنِّ ـ الذي هو العلم ـ ولو لم يبلغ اليقين كَافٍ ﴿**أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّآ إِلَيْهِ**﴾ من سخط الله إلى شيء إلَّا إلى استغفاره والتضرُّع إليه ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ**﴾ أنزل قبول توبتهم في القرآن في نفس هذه الآية، وبإيحائها إلى رسول الله ﷺ، أو أظهرها ليعدُّوا من جملة التوَّابين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة بعد ما وقعا ليستقيموا على توبتهم، أو وفَّقهم للتوبة ليوقعوها، وفي هذا تكون «ثُمَّ» بمعنى الواو لأنَّه وفَّقهم للتوبة حين قدم رسول الله ﷺ من تبوك، أو على ظاهرها بمعنى إتمامها وإكمالها، وذلك تحقَّق بعد الخمسين، وقيل: المعنى قبل توبتهم ليتوبوا بعدُ من كلِّ ما صدر منهم ولا يقنطوا. ﴿**إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ المتفضِّل ولو عاد في اليوم مائة مرَّة، ألا ترى إلى صفتي المبالغة فعَّال وفعيل؟

[سيرة] قال كعب: غزو العسرة حين كانت الثمار والظلال ولم أخرج

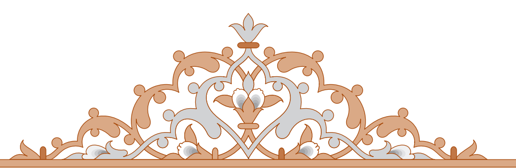
وليتني خرجت وما تخلَّفــت عن غزوة إلَّا هذه، ولَمَّــا جلس ﷺ في تبوك قال: «**ما فعل كعب بن مالك؟**» وما ذكرني قبل، فقال رجل من بني ســلمة: يا رســول الله حبســه برداه ونظره في عطفيــه، فقال معاذ بــن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلَّا خيرا، فسكت ﷺ، ولَمَّا بلغني قفوله من تبوك جعلت أنظر كذبا أعتذر به وأشــاور أهل الرأي والحيل، ثمَّ انشــرح صدري إلى الصدق حين قرب وصوله، فجاء فدخل المسجد على عادته إذا قــدم وصلَّى ركعتين وجلــس للناس، فجــاء المخلَّفون يعتذرون ويحلفون وهم بضعة وثمانون رجلا فقبل منهم على ظاهرهم واستغفر لهم، ولَمَّــا ســلَّمت عليه تبسَّــم تبسُّــم المغضب وجلســت بين يديــه، فقال: «**ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت مركوبك؟**» فقلت: بلى والله يا رســول الله، لو جلست عند غيرك لاعتذرت ولقد أوتيت جَدَلاً، لكن إن كذبت فضحني الله وأسخطك عليَّ، وإن صدقت تغضب عليَّ وأرجوا عفو الله، لا عذر لي، تخلَّفت وأنا موســر قادر، فقــال: «**أمَّا هذا فقد صدق فقــم حتَّى يقضي الله فيك**» فقمــت، واتَّبَعَني رجال من بني ســلمة يقولون: مــا أذنبت قبل هذا فاعتذر كمــا اعتذروا يســتغفر لك رســول الله ﷺ، وما زالــوا حتَّى كدت أطاوعهم، ثمَّ قلت: هل معي مثلي؟ قالوا هلال ومــرارة، فذكروا صالحين شهدا بدرا ولي فيهما أسوة فلم أعتذر.

قال: في هذا الصدق نزل قوله: ﴿**يَآ أَيُّهَا الذِيــنَ ءَامَنُوا اتَّقُواْ اللَّهَ**﴾ خطاب عامٌّ، وقيل: لمن أســلموا من أهل الكتاب ﴿**وَكُونُواْ مَــعَ الصَّادِقِين**﴾ كما مرَّ عنه، ولا يعارضه ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُــوا اتَّقُواْ اللَّهَ﴾ ولا الأمر بالمعيَّة فلا مانع من أن يقــول الله للمؤمنين: اتقــوا الكذب والمعاصي وكونــوا مع من صدق ككعب بن مالك ومرارة وهلال في الصدق مع التوبة، في أخباركم وأيمانكم وعهودكم وأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم دينا ودنيا، هكذا بحسب الإمكان لا في خصوص الصدق في التخلُّف، ولا يتوهَّم ذلك فلا إشكال فلا تهم.

وقد قيل: المراد بالصادقين هؤلاء الثلاثة، وقيل: محمَّد وأصحابه، وقيل: أبو بكر وعمر وأصحابهما، **وقيل: الصادقون كلُّ الصادقين لا خصوص الثلاثة**، وهو المشهور، وأكذب الخلق إبليس والعياذ بالله منه، وإنَّما لم يكذب بترك ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الحجر: 40] لأنَّه تكلَّم مع الله ولا يخفى عنه شيء، لا لكونه استقبح الكذب فلا تهم.

قال ابن مسعود: **لا يصلح الكذب في جدٍّ ولا هزل** ولا يعد أحدكم صبيته شيئا ثمَّ لا ينجزه وتلا الآية، وعنه ﷺ: «**كلُّ الكذب يكتب على ابن آدم إلَّا رجلا كذب خدعة في حرب أو إصلاح بين اثنين أو ليرضي امرأته**»[1] قال رجل: يا رسول الله أريد الإسلام ومنعني أنَّك تحرِّم الخمر والزنى والكذب والسرقة، فقال: «**اُترك الكذب**» فأسلم فعرض له الثلاثة فقال: «**إن فعلت وقلت لم أفعل كذبت، وإن أقررت حددت**» فقال: يا رسول الله ما أحسن ما فعلت لَمَّا منعتني من الكذب انسدَّ عَنِّي أبواب المعاصي.

(1) أورده **العراقي** في إتحافه، ج9، ص591، مع اختلاف في اللفظ.



﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121)﴾

فرضية الجهاد على أهل المدينة والأعراب وثوابه

﴿**مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الاَعْرَابِ**﴾ كمزينة وأشجع وأسلم وغفار وجهينة ﴿**أَنْ يَّتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ**﴾ إذا غزا بنفسه وإن لم يخرج بقي بعض لخدمته ﷺ ولتلقِّي الوحي عنه ولتعليمه لمن خرج، والجملة خبر لفظا ومعنى، تفيد ما أفاده النهي، فإنَّك إذا قلت: لا يجوز كذا في الشرع أو لا يحلُّ كذا فكأنَّك قلت: لا تفعله، فلا تهم، بل نفي الجواز أبلغ من النهي، إذ قد ينهى عن جائز تنزيها أو لعلَّة مَّا، بخلاف قولك: لا يحلُّ كذا.

﴿**وَلَا يَرْغَبُواْ**﴾ نهي بـ«لَا» فالفعل مجزوم والعطف على ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾، لأنَّ المعنى واحد، أو «لَا» نافية فالفعل منصوب والعطف على «يَتَخَلَّفُوا» ﴿**بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ**﴾ الباء للتعدية، كأنَّه قيل: لا يجعلوا أنفسهم راغبة عنه فيصونوها عمَّا لم يصن نفسه، من نحو شدَّة السفر للقتال في الحرِّ والبعد والجوع، أمروا أن يتلقَّوا الشدائد بأنفسهم كما يتلقَّاها.

[سيرة] روى البيهقي أنَّ أبا خيثمة وهو رجل من الأنصار أحد بني سالم بن الخزرج شهد أحدا ومات في أَيَّام يزيد بن معاوية، أتى إلى بستانه ورشَّت له امرأته الأرض بالماء في الظلِّ وفرشت عليها الحصير، وقرَّبت إليه الرطب والماء البارد، فقال: ظلٌّ ظليل ورطب يانعة وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الريح والضح! ـ أي حرُّ الشمس ـ ما هذا بخير، فرحَّل ناقته وأخذ سيفه ورمحه، ومرَّ كالريح ومدَّ ﷺ عينه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب، أي كأنَّه يرفعه السراب لسرعته، فقال: كن أبا خيثمة، ففرح واستغفر له، وأبطأ أبو ذرٍّ في الطريق لبعيره فأخذ متاعه وحمله وترك البعير، فرأى رسول الله ﷺ شخصا فقال: «**كن أبا ذرٍّ**».

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من النهي عن التخلُّف والرغبة ﴿**بِأَنَّهُمْ**﴾ لأنَّهم ﴿**لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ**﴾ عطش مَّا ولو قلَّ ﴿**وَلَا نَصَبٌ**﴾ تعب مَّا ولو قلَّ ﴿**وَلَا مَخْمَصَةٌ**﴾ مجاعة ما ولو قلَّت ﴿**فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا**﴾ لا يدوسون بأقدامهم أو دوابِّهم موضعا صالحا للدوس فهو اسم مكان ميميٌّ مفعول به لا ظرف ولا مصدر ميمي بمعنى الوطء أي الدوس، لأنَّ الكُفَّار يغتاظون بنفس وصول المسلمين موضعا ليس لهم من قبل، لا بنفس دوسه إلَّا على التوسُّع في العبارة ﴿**يَغِيظُ الْكُفَّارَ**﴾ نعت لـ«مَوْطِئًا»، والمعنى: يجعلون الحزن والشدَّة في قلوبهم أو يغيظهم، والإسناد مجاز عقليٌّ لعلاقة السَّببيَّة، لأنَّ الغائظ المسلمون، أو وطؤهم على تقدير مضاف، أي يغيظ وطؤه، والضمير لـ«مَوْطِئًا» أو للوطء المعلوم من قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَطَئُونَ﴾ وليس الغائظ موضع وطئهم، ولو كان مرتَّبا عن سبب مرتَّبٍ عن سبب فإنَّه يغيظهم الموضع الموطوء من حيث ترتُّبه على الوطء المرتَّب عن الوصول إليه.

﴿**وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً**﴾ مصدر بمعنى اسم مفعول أي شيئا ينال كالقتل والأسر والغنيمة والسبي، وجزية إن عقدت وشيء يصالح به، وهو مفعول به، ولو

أبقي على المعنى المصدريِّ لكان مفعولا مطلقا، فيقدَّر المفعول به: لا ينالون قتلا ولا أسرا ولا غنما ولا سبيا ولا جزية إن عقدت ولا ما يصالح به نيلا، وياؤه عن واو على خلاف القياس فالأصل: نال ينول نولا، وقيل: نال ينيل نيلا.

﴿**إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ**﴾ شيء مِمَّا ذكر استوجب لهم به أو كتب في ديوانهم، والاستيجاب سبب للكتب وملزومه، والكتب مسبّبه ولازمه ﴿**عَمَلٌ صَالِحٌ**﴾ ثواب صالح فسمِّي الثواب عملا لأنَّ العمل سبب الثواب وملزومه، أو يقدَّر مضاف أي ثواب عمل صالح، أو المعنى: كتب لهم بأحدهنَّ أنَّهم عملوا عملا صالحا، والعمل الصالح يثاب عليه.

[فقه] والآية في أنَّه من قصد خيرا كان سعيه فيه مشكورا من قيام وقعود ومشي وكلام وغير ذلك، وتدلُّ على أنَّ للمدد سهما في الغنيمة ولو وصل بعد الحرب لأنَّ وطأهم الأرض يغيظ الكفَّار، وقد أسهم ﷺ لابني عامر، وقد قدما بعد انقضاء الحرب، وذلك حثٌّ على الجهاد.

وزاد الحثَّ بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ عموما، فيدخل هؤلاء أوَّلاً، أو هم المراد عبَّر عنهم بالمحسنين مدحا، وذكر الإحسان الذي هو علَّة للفاصلة وتلويحا بأنَّ الجهاد إحسان إلى الكفَّار لزجرهم عن النار إلى الجنَّة، كما يضرب المجنون مداواة له والكفر أقبح من الجنون، وإحسان إلى المسلمين لاستكمالهم به وينجوا ويفوزوا، ولصيانتهم به عن سطوة الكُفَّار واستيلائهم.

﴿**وَلَا يُنفِقُونَ**﴾ على أنفسهم أو غيرهم في سبيل الله ﴿**نَفَقَةً صَغِيرَةً**﴾ كتمرة وشسع نعل وعِلاقة سيف وعلاقة سوط وسهم ﴿**وَلَا كَبِيرَةً**﴾ كما أنفق عثمان ألف دينار وألف بعير وغير ذلك في غزوة العسرة ﴿**وَلَا يَقْطَعُونَ**﴾ بالسير ﴿**وَادِيًا**﴾ مَّا من الأودية.

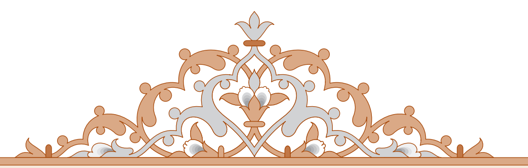
[لغة] وهو ما بين الجبلين تمرُّ فيه السيول، وما حفره السيل هو بطن الوادي وما لم يحفره هو ظاهر الوادي، وهو في الأصل اسم فاعل ودى الشيء

بمعنى سال، أو وداه أي أوصله، والمراد هنا مطلق الأرض حقيقة عرفيَّة أو اصطلاحيَّة.

[صرف] ولا «فاعل» يجمع على «أفعلة» إلَّا واد وناج ونادٍ.

﴿**إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ**﴾ ما ذكر من الإنفاق والقطع ﴿**لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ**﴾ بذلك ﴿**أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ أي جزاء مثل جزاء أحسن أعمالهم، أو أحسن جزاء أعمالهم سبعمائة فصاعدا.

فـ«أَحْسَن» في الآية إِمَّا نفس العمل، ويقدَّر مضاف قبله أي جزاء العمل الذي هو أحسن الأعمال، وأمَّا الجزاء فيقدَّر مضاف بعده أي أحسن جزاء أعمالهم، والعمل الأحسن هو الواجب المؤدَّى تأدية مجوَّدة.



﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ١٢٢﴾

الجهاد فرض كفاية وطلب العلم فريضة

[سبب النزول] ولَمَّا بالغ في كشف عيوب المنافقين وقال: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ المَدِينَةِ...﴾ قال المسلمون: والله لا نتخلَّف عن غزوة ولا عن سريَّة يبعثها فنزل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُومِنُونَ لِيَنفِرُواْ﴾ إلى الجهاد ﴿كَآفَّةً﴾ فيبقى رسول الله ﷺ أو يخرج معهم فلا يبقى إلَّا من هو ضعيف، فتبقى المدينة بلا حرس، وذلك إخبار بمعنى النهي أي لا ينفروا كَافَّة، أو إخبار باق، أي ما كان في دين الله؛ أو «كَانَ» بمعنى يستقيم مجاز، أو ألَّا ينفروا كَافَّة ولا يقعدوا كَافَّة، وهكذا الإسلام بين إفراط وتفريط.

﴿فَلَوْلَا﴾ حرف تحضيض ﴿نَفَرَ﴾ بمعنى ينفر، أو حرف توبيخ، فالماضي على ظاهره، وهذا على أنَّه قد صدر منهم النفار جميعا في كلِّ سريَّة، كما حلفوا ولو ردَّهم عن النفار ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ قبيلة ﴿مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ جماعة فقط، اثنان أو ثلاثة فصاعدا، وقد تطلق طائفة على واحد، ويليق هذا أيضا في بعض الأحيان إذا أراد القلَّة، وربَّما بعث أربعة فصاعدا، ومرَّ كلام في ذلك.

وفي بعض القول: السَّرِيَّةُ ما زاد على المائة إلى خمس مائة، وما زاد عليها إلى ثمانمائة «مَنسِر» بكسر السين، وما زاد إلى أربعة آلاف «جيش»،

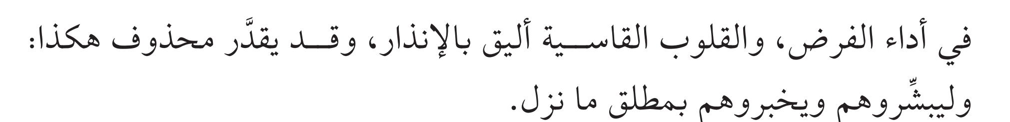
وما زاد «جحفل». وسـرايـاه بلا خروج منه سبع وأربعون، وغزواته التي خرج فيها سبع وعشرون، قاتل في ثمان منها.

﴿**لِيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ**﴾ من قعد لسماعه ومن خرج لأنَّه يعلِّمه القاعد ما سمع، والمعنى: ليعالجوا معرفة مسائل الدين والعمل بها، ولا شكَّ أنَّ المراد ما يشمل المواعظ ونحو الصلاة والزكاة والحجِّ والصوم، ونحو النكاح والبيوع والطلاق واللعان والإيجارات والقضاء ﴿**وَلِيُنذِرُواْ**﴾ بمعنى: لينذر من قعد ﴿**قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ**﴾ أي القوم الخارجون ﴿**إِلَيْهِمْ**﴾ إلى القاعدين، وفي ذلك تفكيك الضمائر إذ رجعنا واو «يَتَفَقَّهُواْ» إلى الكلِّ، وواو «لِيُنذِرُوا» للقاعدين كهاء «إِلَيْهِمْ».

وإن أرجعنا ضمير «لِيَتَفَقَّهُوا» للقاعدين وضمير «لِيُنذِرُوا» لهم أيضا لم يكن تفكيك، وفي هذا مخالفة ما يتبادر من أنَّ النفار إلى الغزو بأن نجعل النفار إلى التعلُّم، والسياق وسبب النزول أنَّه إلى الجهاد، فنقول: وما كان المؤمنون لينفروا إلى التعلُّم كَافَّة، وقدَّر بعض: لولا نفر من كلِّ فرقة طائفة وأقام طائفة ليتفقَّهوا.

ولم يقل: وليعلِّموا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلَّهم يفقهون كما هو مناسب لِمَا قبله، **لأنَّه يلزم المعلِّم الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلِّم اكتساب الخشية لا التبسُّط والاستكبار** وطلب العلم لذات العلم، فالآية كالنصِّ في أنَّه يجوز التعلُّم لأجل التعليم إذا كان إخلاص، فإنَّ الصحابة لَمَّا سمعوا الآية تعلَّموا ليعلِّموا من خرج، وقد يجعل ﴿لِيَنفِرُواْ﴾ بمعنى لينفروا إلى أمر الدين مطلقا: الغزو والتعلُّم، ولا سيما أنَّ التعلُّم والتعليم باللسان كجهاد السيف، فلولا نفر من كلِّ فرقة إلى ما يليق بها، من تعلُّم أو غزو ليكون في المجموع التفقُّه في الدين والإنذار، ولا تفكيك على هذا.

وفي التعبير بالنفر التحضيض على الغزو ونحوه بسرعة، ولم يذكر التبشير لأنَّ الأهمَّ الإنذار، وعدم التبشير لا يُخلُّ بالتكليف ولا يفرِّط بعدمه



في أداء الفرض، والقلوب القاسية أليق بالإنذار، وقد يقدَّر محذوف هكذا: وليبشِّروهم ويخبروهم بمطلق ما نزل.

فيقدَّر على هذا في قوله: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ محذوف أيضا، أي يحذرون ويتباشرون ويسمعون مطلق ما نزل، لأنَّ الوحي لا ينحصر في إنذار وتبشير.

[سبب النزول] روي أنَّ ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا في البوادي فأصابوا معروفا من الناس وما ينفعهم من الخصب، ودعوا من لقوه إلى الهدى فقيل لهم: تركتم أصحابكم وجئتمونا! فتحرَّجوا فرجعوا كلُّهم، ودخلوا على النبيء ﷺ، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُومِنُونَ﴾ أي لولا خرج بعض وقعد بعض.

[أصول الفقه] وفي الآية أنَّ خبر الواحد الأمين حجَّة، فإنَّ كلَّ واحد ينذر غيره لا يشرط أن يكون معه آخر أو اثنان، والآحاد يطلق في عرف الأصول على مادون التواتر، ولو اثنين أو ثلاثة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127)﴾

وجوب قتال الكفار وموقف المنافقين من القرآن

﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ قَاتِلُواْ الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ**﴾ في الأرض أجانب أو أقارب في النسب، نزلت الآية بعدما قاتل أهل اليمن لأنَّهم أبعد، وبعدما قاتل قريظة والنضير وخيبر وفدك والعرب في بدر وأحد والأحزاب، وقاتل الروم في تبوك بعض قتالٍ، فلم يبق من يليه بعد في قرب إلَّا الروم في الشام وتبوك منها، فقاتلهم الصحابة والتابعون بعد رسول الله ﷺ، وبعد ذلك انتقلوا إلى العراق وهو أبعد، وإلى خراسان ومصر وإلى المغرب وكلُّ ذلك بعضه أبعد من بعض، وقلَّت الصحابة في فتح أندلس حتَّى قيل لا صحابيَّ في قتالها، وفي كتاب «الاستقصاء» أنَّه دخلها صحابيٌّ واحد وقد ذكرت اسمه في غير هذه السورة وهو المنيار، وَسمِّيَ المغرب الأقصى باعتبار أنَّه أبعد ما بلغ الإيمان، وإلَّا فليس آخر الغرب وإنَّما فتحها بعد فتح المغرب.

وكلَّما قاتلــوا أهل موضع وغلبوهم فهم في ذلــك الموضع يليهم الكُفَّار بعده، وذلك قتال للمشــركين حيث وجدوهم، فلا ينافي: ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [ســورة التوبة: 5]، وإنَّما يقال: نُسِــخت هذه الآية بقوله ﷻ: ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْــرِكِينَ﴾ لو صحَّ أنَّه قاتل بعد نزولها مَن هــو أبعد قَبلَ من هو أقرب، ولم يثبت ذلك فلا نسخ.

وقتالهم دفعة لا يتصــوَّر وفيه مضرَّة، وإذا قاتلــوا الأقرب فالأقرب تقوَّوا بالغنيمة ونجوا من شرِّ عدوٍّ بينهم وبين العدوِّ الآخر، فلو تركوا عدوًّا وراءهم خافوه على أهلهم ومالهم، وخافوه أن يرجعوا عليهم مع من قصدوه.

وزعم قوم أنَّ المراد الأقرب نســبا وهو وإن كان أنســب لقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقرَبِينَ﴾ [سورة الشــعراء: 214] ولأنَّهم أحقُّ بالبيان، ولأنَّه هو الواقع إذ قاتل قومه ثمَّ ســائر العرب، لكن ذلك قبل نزول هذه الآية، إلَّا أن يدَّعى أنَّها نزلت قبل ذلك وجعلت بعد في «براءة» وهذا بعيد.

﴿**وَلْيَجِدُواْ فِيكُــمْ غِلْظَةً**﴾ أي ولتغلظوا عليهم فيجــدوا غلظتكم، فجعل الأمر بالمســبَّب واللازم مكان الأمر بالســبب والملزوم، كقولك: لا أرينَّك هاهنا، والغلظــة: الجرأة عليهــم والقســوة، والعنف، والصبر وعــدم الرأفة ﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ بالنصــر والحفظ وذلك عموم، ويجوز أن يراد المخاطبون، وعليه فمقتضى الظاهر أنَّ الله معكم.

﴿**وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ**﴾ ما بعد «إِذَا» الظرفيَّة لتأكيد الربط لا لتزيين اللفظ كما توهَّم بعض، وإنَّما ذلك في الفــاء قبل «إِذَا» الفجائيَّــة و«قَطُّ» في قول، والمراد بالسورة هنا بعض آيات السورة أي وإذا ما أنزلت بعض الآيات تمَّت الســورة أو لم تتمَّ، وليــس المنافقون حاضريــن لنزولها وليس في الســورة فضيحة لهم لأنَّ هذا مقابل لقولــه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُــورَةٌ نَّظَرَ...﴾ فإنَّه في حضورهم النزول وفضيحتهم، ولكن لا بأس بحمل هذه على العموم.

﴿فَمِنْهُم﴾ مـن المنافقين ﴿مَّنْ يَّقُـولُ﴾ على الاسـتهزاء لأصحابه، أو لضعفاء المؤمنين ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ هذه السورة أي هذه الآيات، أو الآية أو الآيتان، وزيادة إيمان المنافقين باعتبـار أنَّ ظاهرهم إيمان وإلَّا فلا إيمان لهم ﴿إِيمَانًا﴾ تصديقا، وذلك اسـتهزاء أو نفي لأن تكـون زادت إيمانا، وردَّ الله عليهم بقوله: ﴿فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولم ينافقوا.

[أصول الدين] ﴿فَزَادَتْهُمُۥ إِيمَانًا﴾ الإيمان يزداد وينقص إجماعا إذا كان بمعنى الأعمال الصالحـات وبزيادة النـزول، [قلت:] وأمَّـا إذا كان بمعنى التصديق فالصحيـح أنَّه يزداد بازدياد أدلَّته والتفكُّر فيها، ولا شـكَّ أنَّ معرفة الشيء بدليلين أقوى منها بدليل، وينقص بالإعراض.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لموافقة ما قبلها وموافقة اعتقادهم السابق في غيرها، ولزيادة كَمَال قُواهـم النَّظَرِيَّة، وزيادة القوة العَمَلِيَّـة بالعلم، وارتفاع درجاتهم.

﴿وَأَمَّا الذِينَ فِـي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق، ومقتضـى الظاهر: وأمَّا هم، أو وأمَّا هـؤلاء، أعني القائليـن: «أَيُّكُمْ زَادَتْـهُ»، ولكن ذكر مـا يصرِّح بكفرهم ويعمُّهم ويعمُّ غيرهم ليدلَّ على العلَّة، فإنَّ الكفـر يجلب كفرا آخر، وليكون الكلام كالبرهان بأنَّـه قد زادت غيرهم ومن هـو مثلهم رجسـا[1] ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ كفرا منضمًّا ﴿اِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفرهم السـابق بغيرها، كلَّما نزلت آية وسـمعوها كفروا بها فذلك زيادة كفر، ويزداد قلوبهم قسـوة بالكفر المزداد فكانوا يسـتهزئون، وسمِّي الكفر رجسا تشبيها بالشـيء المستقذر ﴿وَمَاتُواْ﴾ برهان بمن مات، وإن أريد الأحياء هؤلاء خصوصا فمعناه يموتون بعدُ ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ لا غير كافرين، وكأنَّهم قد ماتوا كافرين لتحقُّق أنَّهم يموتون كافرين.

---

(1) في نسخة (أ): مِمَّن هو مثلهم رجسا.

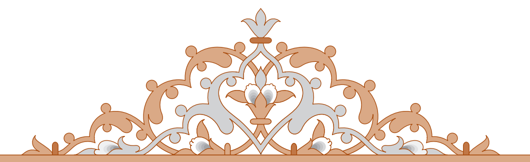


﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بقلوبهم أو أبصارهم، أعمــوا أو أتعاموا، أو ألم يفتنوا ولا يرون، أو الهمزة مِمَّا بعد الواو، والاستفهام توبيخ أو تعجيب ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بالأسواء، كالقحط والأمراض لكفرهم والمعجزات والجهاد فيظهر لهم المعجزات، أو ألم يختبروا بالجهاد؟ فيعاينوا ما ينزل على رســول الله ﷺ من الآيات، ولا سيما الآيات الكاشفة لأسرارهم ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً اَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ فلا يتَّعظون، وكان عليهم أن يتَّعظوا كما قال: ﴿ثُــمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتَّعظون، والمراد بالعدد التمثيــل لا خصوصه، أو للتنويع، أو بمعنى بل، قيل: والجملة الِاسمِيَّة لاستمرار عدم تذكُّرهم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ﴾ حال حضورهم ﴿سُــورَةٌ﴾ بعض القرآن تَمَّت السورة أو لم تتمَّ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمُوَ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ نظر تغامزٍ إنكارًا وســخرية وغيظا لعيوبهم التي فيها، وربَّمــا ضحكوا بإخفاء أو تبسَّــموا، وإذا لم يذكــر فيها عيوبهم لم يغتاظوا. ويجــوز أن يكون المــراد: وإذا ما أنزلت في معايبهم، والســورة غير الأولى لأنَّها نكرة، وذلك على الأصل ﴿هَــلْ يَرَايكُم مِّنَ اَحَدٍ﴾ مفعول به على الحكاية لـ«نَظَرَ»، أو تفســير لبعض ما يضمَّنه، لأنَّ نظرهــم معتاد عندهم في الاستفهام عن رؤية أحد لهم، أو مفعول لـ«يقولون» محذوف، حالا أو مستأنفا، ويجوز تقدير: «قائلين هل...» إلخ، وكانوا يخافون أن يراهم المسلمون خارجين عن محلِّ النزول ﴿ثُمَّ انصَرَفُواْ﴾ على كفرهم، إن لم يكن أحد يراهم خوفا من تمام الافتضاح واستراحة عن المجلس، لأنَّهم كارهون له، وإلَّا أقاموا.

وجزاهم الله ﷻ عن انصرافهــم عن مجلس الوحي بصــرف قلوبهم عن الهدى صرفا بعد الصرف الأوَّل جزاء وفاقا، فــي قوله: ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾ وهو إخبار من الله ﷻ لا دعاء، لأنَّ الله لا يدعو، لأنَّه المالك لكلِّ شــيء، إلَّا أن يقال: أمرٌ للمســلمين بالدعاء عليهم، أو جاء على طريق الدعاء عليهم من الله تعالى على طريق مجيء «لعلَّ» و«عسى» لا على التحقيق.

﴿**بِأَنَّهُـمْ**﴾ لأنَّهم ﴿**قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ**﴾ عادتهم الإعراض عن التدبُّر وسـوء الفهم، ومن أين يدركون الحقَّ أو يعلمون به وقد سـبقت لهم الشقوة؟ حتَّى إنَّهم يريدون الضحك عند تلاوة رسـول الله ﷺ ما نزل مـن القرآن فيعالجون تركه لئلَّا يفتضحـوا، وقد يغلبهـم الضحك فيفتضحون، ويزعمـون أنَّهم لا يقدرون على استماع القرآن فيريدون الخروج من المسجد.



﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾

صفات الرسول ﷺ ذات الصلة بأمَّته

والسورة نزلت في التشديد والتكاليف الشاقَّة فختمها بما يسهِّل تلك التكاليف فقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ﴾ يا معشر العرب من الله ﴿رَسُولٞ﴾ عظيم لم يرسل مثله، ويبعد ما روي عن سعد بن أبي وقَّاص: لَمَّا قدم ﷺ المدينة قالت جهينة: نَزلتَ بين أظهرنا فأوثقْ لنا نأمَنْكَ وتأمنَّا، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لم؟**» قالوا: نطلب الأمن، فنزل: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ معشر العرب لا من العجم ولا من الملائكة ولا من الجنِّ، تعرفون أحواله وصدقه ولغته، وعزُّه عزٌّ لكم، رؤوف رحيم، فكيف لا تحبُّونه ولا تسارعون في اتِّبَاعه ونصره وأنتم تعرفون أنَّ نسبه أفضل أنسابكم؟ كما قرئ بفتح الفاء، بمعنى: من أشرفكم، وأنَّه وإيَّاكم من ولد إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن.

[سيرة] قال ابن عَبَّاس: لا قبيلة من العرب إلَّا ولدت سيِّدنا محَمَّدًا ﷺ، ولعلَّه أراد مضر وربيعة واليمنيَّة، فإنَّه قيل: لم ينل نسبه جديمة وغسان ولخم وثقيف، والله أعلم بحقيقة الحال، فأمَّا ربيعة ومضر فمن ولد معد بن عدنان وقريش منهم، وأمُّه آمنة لها نسب في الأنصار، وهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبأ.

[سيرة] صعد ﷺ المنبر فقال بعد حمد الله والإثناء عليه: «**من أنا؟**» فقالوا أنت رسول الله، قال «**نعم، أنا محمَّد بن عبد الله بن عبد المطَّلب إنَّ الله تعالى خلق الخلق فجعلني فـي خير خلقه وجعلهم فرقتيـن فجعلني في خير فرقة، وجعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلـة، وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا**»[1] رواه المطلب بن ربيعة.

[سيرة] وقال ﷺ: «**إنَّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسـماعيل كنانة، واصطفى من ولد كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[2] رواه واثلة بن الأسقع. ويروى: «**اصطفى من بني هاشـم عبد المطلب، واصطفى من بني عبد المطلب أبي واصطفاني من أبي**». وعن أنس عنه ﷺ: «**لم يصبني من عهر الجَاهِلِيَّة شـيء، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سـفاح، من لدن آدم حتَّى انتهيت إلى أبي وأمِّي فأنا خيركم نفسا وخيركم أبا**»[3].

والمراد بأنفسهم الجنس والأمثال، وهو مجاز مرسل، أو استعارة، لأنَّهم كنفس واحدة، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُومِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنَ اَنفُسِهِمْ﴾ [سورة آل عمران: 164] والمراد: مؤمنو العرب.

﴿**عَزِيزٌ**﴾ شديد صعب، نعتٌ لـ«رَسُول» سببيٌّ ﴿**عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر فاعل «عَزِيزٌ»، والعنت: المشقَّة كسوء العاقبة والوقوع في العـذاب، أو «عَزِيزٌ» خبر والعنت مبتـدأ والجملة نعت لـ«رَسُولٌ»، والأوَّل

---

(1) رواه **أحمد** في مسند بني هاشم، رقم 1694. ورواه **الترمذي** في كتاب الدعوات، رقم 3532. من حديث المطَّلب بن أبي وداعة.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب المناقب (1) باب فضل النبيء ﷺ، رقم 3605. و**السيوطي** في الدر، ج3، ص294. من حديث واثلة بن الأسقع.

(3) رواه **البيهقي** في دلائل النبوة، ج1، ص174.

أولى. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على خيركم الدنيويّ والأخرويّ، ومنه الإيمان ﴿بِالْمُومِنِينَ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿رَءُوفٌ﴾، أو بقوله: ﴿رَحِيمٌ﴾ فيقدَّر للآخر لا على التنازع بل مجرَّد حذف لدليل، وتعليقه بالأوَّل أولى.

قال ابن عَبَّاس والحسن بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من أنبيائه اسمين من أسمائه إلَّا لسيِّدنا محمَّد ﷺ: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومرَّ كلام في تقديم الرأفة على الرحمة، قدِّمت مع أنَّها أشدُّ من الرحمة للفاصلة، أو لأنَّها الشفقة، والرحمة: الإحسان، أو لأنَّ أثرها رفع المضارِّ وهو تخلية، والرحمة جلب النفع وهو تحلية، والتخلية لأنَّها أهمُّ تقدَّم على التحلية، كما قدِّمت في قوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ [سورة الحديد: 27] وقدِّم «بِالْمُؤمِنِينَ» على طريق الاهتمام بهم في مقام الخير، وللحصر وللفاصلة، ولا رحمة للكافر، وما صعب على المؤمن رحمة له ينال بها المراتب الأُخرَوِيَّة وَالدُّنيَوِيَّة.

ويقال: «رَؤُوفٌ» بالمطيعين «رَحِيمٌ» بالمذنبين، و«رَؤُوفٌ» بأقربائه «رَحِيمٌ» بأوليائه، و«رَؤُوفٌ» بمن يراه و«رَحِيمٌ» بمن لم يره، ولا حديث في ذلك.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن الإيمان بك وبما جئت به ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ﴾ كافيَّ أو يكفيني ﴿اللهُ﴾ مكروهَهُم ويعينني عليهم، أو مكروهكم ويعينني عليكم ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل على ما قبله، لأنَّ من لا يستحقُّ الأُلُوهِيَّة إلَّا هو يكون كافيا لا محالة ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ وثقت به لا بغيره، فلا أرجو ولا أخاف إلَّا إيَّاهُ ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الجسم العظيم، ولأنَّه أعظم المخلوقات خصَّه بالذكر، والكرسيُّ دونه، وقيل: الكرسي، والعرش شيء أعظم المخلوقات، أو العرش: الملك، والأرض كحلقة في السماء الدنيا، وكلُّ سماء كحلقة في التي فوقها، والعليا كحلقة في الكرسيِّ، والكرسيُّ كحلقة في العرش.

وعن أبي هريرة: آخر ما نزل هاتان الآيتان، وروى الحاكم عن أُبي بن كعب: آخر آية نزلت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة، وأراد بالآيتين الأولى من: ﴿لَقَدْ...﴾ إلى ﴿...رَحِيمٌ﴾ والثانية من: ﴿فإنْ تَوَلَّوْاْ...﴾ إلى ﴿...الْعَظِيمِ﴾. وروى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم فِي الْكَلَالَةِ...﴾ الآية [سورة النساء: 176]. وآخر سورة نزلت سورة براءة، وعن ابن عَبَّاس: آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ [سورة البقرة: 281] وروي أنَّه ﷺ عاش بعدها أحدا وعشرين يوما، وقيل: أحدا وثمانين يوما، وقيل: سبعة أَيَّام، وقيل: ثلاث ساعات، وعنه ﷺ: «**المائدة آخر القرآن نزولا فأحلُّوا حلالها وحرِّموا حرامها**»[1]، وقد مرَّ الجمع بين ذلك.

وعنه ﷺ: «**من قال حين يصبح وحين يمسي: ﴿حَسْبِيَ اللهُ لآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ سبعا كفاه الله ما أهمَّه من أمر الدنيا والآخرة**»[2]. وعن الحسين بن علي: لا ينكب ولا يغرق ولا يكرب. وعن محمَّد بن كعب القرظي[3]: سقط رجل من فرسه في سريَّة ذهبت إلى الروم، فانكسر فخذه ولم يمكنهم حمله وربطوا فرسه عنده، ووضعوا عنده ماء وطعاما وتركوه، وأتاه آت فقال له: ضع يدك حيث الألم واقرأ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ...﴾ فصحَّ ولحقهم، والله أعلم.

ولا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليما.

---

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج5، ص356.

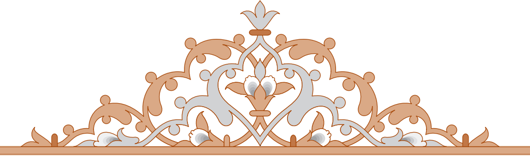
(2) أورده **السيوطي** في الدر، ج3، ص297. و**البغوي** في شرح السنَّة، ج5، ص205.

(3) هو محمَّد بن كعب بن سليم بن عمرو القرظي، تابعيٌّ من كبار العلماء ولد في حياة النبيء ﷺ ونزل الكوفة سنة 40هـ، ثمَّ رجع إلى المدينة، استخدم الثعلبي تفسيره في كتابه: «الكشف والبيان» وكذلك الطبري، قال عون بن عبد الله: «ما رأيت أحدا أعلم بتأويل القرآن من القرظي». قيل: مات سنة 108هـ، وقيل: 118هـ.

10

تفسير سورة يونس عليه السلام

مكِّيَّة إلَّا الآيات 40 و 94 ـ 96 فمدنيَّة، وآياتها 109 ـ نزلت بعد سورة الإسراء



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿1﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿2﴾﴾

قضية إنزال الوحي للنبيء صلى الله عليه وسلم

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَر**﴾ قال ابن عبَّاس رضي الله عنه: أنا الله أرى، وقيل: أنا الربُّ لا ربَّ غيري، وقيل: ﴿أَلَر﴾ و﴿حَم﴾ و﴿نُ﴾ اسم الرحمن، وقيل: ﴿أَلَر﴾ اسم للسورة، وعليه الجمهور، وقيل: ﴿أَلَر﴾ حروف تهجٍّ مسرودة. وفي إمالة الراء دفع توهُّم أنَّ «ر» حرف وحده، لا ثنائي، لأنَّ الحروف تمتنع فيها الإمالة، وكذا قراءتها بين بين، وذلك إجراء لألفها مجرى الألف المنقلب عن الياء.

﴿**تِلْكَ**﴾ ما يأتي من آيات السورة أشير إليها قبل مجيئها لأنَّها في حكم الحاضر لقرب ذكرها بعد، كما يقول الكاتب: هذا ما اشترى فلان، يشير إلى ما حضر في الذهن، ويقال هنا: أشار إلى ما حضر في العلم؛ أو الإشارة إلى

القرآن كلِّه لتعيُّنه في علم الله تعالى، أو اللوح المحفــوظ، أو باعتبار أنَّه نزل جملة إلى الســـماء الدنيا؛ أو إلى ما نزل منه دون ما لم ينزل؛ أو إلى السورة، ولا سيما إن قلنا: ﴿أَلَرَ﴾ اسم للســـورة؛ أو لِمَا أشير إليها في ضمن سرد هذه الحروف على التحدِّي كانت مذكورة ضمنا.

﴿ءَايَــاتُ الْكِتَابِ﴾ أي آيات مــن الكتاب بـ«مِــنْ» التبعيضية، وإذا كانت الإشــارة إلى القرآن كُلِّه فــلا تقدَّر «من» التبعيضيــة، فالكتاب إمَّا السورة وَإمَّا القرآن، ومحطُّ الفائدة: ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي المشتمل على الحِكم ـ بكســر الحاء وفتح الكاف ـ والحكمة هي وضع الأشياء في مواضعها اللائقة؛ أو علم الأشــياء على ما هي عليه، وقال الراغــب: إصابة الحقِّ بالعلم والعمل.

[بلاغة] وإسناد ذلك إلى السورة أو القرآن مجاز عقليٌّ، كما في: «نهارُهُ صائــمٌ وليلُه قائــمٌ»؛ أو مجــاز بالحذف، أي حكيــم قائله؛ أو ذلك نســب كَـ «لَابِنٌ»؛ أو تشــبيه بإنســان ناطق بالحكمة على طريق الاستعارة بالكناية، ورمز إلى ذلك بإثبات الحكمة.

أو المعنى: محكَــم ـ بفتح الكاف ـ أي متقن لا خلل فيه، أو لا ينســخه كتاب آخر فهو حقيق؛ أو بكســر الكاف فمجاز كما مــرَّ، لكن «فعيل» بمعنى «مفعل» أو «مفعل» ضعيف.

﴿أَكَانَ﴾ اســتفهام تعجيب، أو إنكار للياقة تعجُّبهم منــه تعجُّبَ إنكارٍ، فإنَّهم تعجَّبوا منه منكرين له. ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلِّق بـ«كَانَ»، لأنَّ التحقيق أنَّ كان وأخواتها دَوَالٌّ على الحــدث؛ أو حال من قوله: ﴿عَجَبًــا﴾ وهو خبر «كَانَ»، واسمها: ﴿اَنَ اَوْحَيْنَآ﴾ أي أكان للناس إيحاؤنا عجبا؟. والعجب: استعظام أمر خفي سببه؛ أو حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة؛ أو حالة تعتري الإنسان عند الجهل بسبب شيء.



﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُم﴾ وهو محمَّد ﷺ، يقولون: العجب أنَّ الله سبحانه لم يجد رسولا يرسله إلَّا يتيم أبي طالب، لا مال له ولا جاه، لجهلهم أو لعنادهم، فإنَّ خفَّة المال أليق بالاشتغال بأداء الرسالة، ولم يثبت عندهم أنَّ كلَّ نبيء له مال واسع، ولا أنَّ كلَّ نبيء له جاه، وإن وقع لبعضهم مال كإبراهيم وسليمان وأيُّوب. ويحتمل أن يكون المعنى: إلى رجل لا إلى ملك ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [سورة الإسراء: 94] ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلَآئِكَةً﴾ [سورة فصلت: 14] وهذا أكثر في القرآن، ويناسبه قوله: ﴿مِنْهُم﴾ فإنَّه ليسَ لو كان من سائر العرب لرضوا، **وأما عزَّة نسبه وبلاغته وعفَّته وأمانته فلا ينكرونها.**

﴿أَنَ اَنذِرِ النَّاسَ﴾ تفسير لـ«أَوْحَيْنَا»، إذ فيه معنى القول دون حروفه، فـ«أَنْ» تفسيريَّة، أو مفعول به، أي أوحينا إليه إنذار الناس، فـ«أن» مخفَّفة، [قلت:] والذي عندي أنَّ حرف المصدر لا يدخل على الطلب أو الإنشاء، اللهمَّ إلَّا على تقدير القول، أي أنَّه قيل له: أنذر الناس، ثمَّ رأيت للجمهور والإمام أبي حيَّان أنَّه لا يدخل على الإنشاء لأنَّ المصدر لا يدلُّ عليه، واعترض بِأَنَّهُ يفوت معنى المضيّ والاستقبال أيضا إذَا دخلت على الإخبار، قلت: اعتراض باطل لأنَّ المصدر صالح في المعنى للمضيّ والاستقبال استعمالا، وأيضا يدلُّ على الحدثِ، والزمانُ لازمٌ للحدث.

﴿وَبَشِّرِ الذِينَ ءَامَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي بأنَّ لهم قدم صدق، وإنَّما عمَّم الإنذار وخصَّ التبشير بالذين آمنوا لأَنَّهُ لا يخلو مكلَّف عن شيء ينذر فيه، وليس في الكفار ما يبشَّرون به، فخصَّ التبشير بهم، ويجوز أن يراد بـ«النَّاس» الكُفَّار المعهودون في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾، وعلى الأوَّل يدخلون بالأولى. وقَدَمُ الصّدق: المنزلة الرفيعة، سمِّيت باسم قدم المشي لأنَّ السبق بها فهو سبق إليها، كما يُسَمِّي النعمة يدا لأنَّها تُكسب بها وتُعطَى بها، وذلك من باب التسمية بالآلة والسبب، والمراد: **الأعمال الصالحة.**

وأضافها للصدِّق تنبيها على تحقيقهــا وإخلاصها لله ﷻ، ويجوز أن يراد الثــواب، وقيل: الســعادة في علــم الله أو في اللوح، وقيل: شــفاعة ســيِّدنا محمَّد ﷺ، وقدم في هذه الأقوال بمعنى أَنَّهُ يقدَّم على تلك الأشــياء. وحذف المنذر به للتهويل وشمول كلِّ ما يصلح، وذكر المبشَّــر به ترغيبا في الطاعة وثوابها، وقدَّم الإنذار لأنَّ التخلِّي قبل التحلِّي.

وفسَّر قدم بسابقة سبق لهم خير عند الله، وهو عملهم المخزون عنده، أو ثوابهــم؛ أو الأصل: القــدم الصادقة، وأضيــف المنعــوت للنعت، وجعل المصدر ـ وهو الصدق ـ موضع اســم الفاعل فَيُؤَوَّل: لقدمٍ هي الصدق؛ أو قدم الأمر الصادق.

ويقال: القدم مجاز مرسل عن الســبق لكونه سببا وآلة، والسبق مجاز عن الفضل والتقدُّم المعنويِّ إلى المنازل الرفيعة، فهو مجاز بمرتبتين، وإن جعلنا الســبق عامًّا للمعنويِّ والحسِّــيِّ فالمجاز بمرتبة. وقيل: المــراد تقدُّمهم في دخول الجنَّة، قال ﷺ: «**نحن الآخرون الســابقون يوم القيامــة**»[1]. وقال ﷺ: «**الجَنَّة محرَّمة على الأنبياء حتَّى أدخلهــا، وعلى الأمم حتَّى تدخلها أمَّتي**»[2]، وقيل: القدم محمَّد ﷺ.

﴿**قَالَ الْكَافِرُونَ**﴾ هؤلاء المتعجِّبون، عبَّر عنهم باســم الكفر إيذانا بأنَّ تعجُّبهــم صدر عــن كفرهم؛ أو مطلــق الكافريــن ﴿**إِنَّ هَــذَا**﴾ أي القرآن المشــتمل على رســالة محمَّد؛ أو ما جاء به محمَّد قرآنا أو غيره، والأوَّل أولى لأنَّ الســياق جاء بالكتاب ـ وهو القرآن ـ لا بعمــوم الوحي، إلَّا أن يُتكلَّف أَنَّهُ ذكر إشارتهم العَامَّة في غير المحلِّ. ﴿**لَسِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ ظاهر، وفي

---

(1) رواه **الربيع** في كتاب الصــلاة (46) باب في صلاة الجمعة وفضل يومهــا رقم 278. ورواه **البخاري** في كتاب الأنبياء (54) رقم 3486 مع زيادة في آخره. من حديث أبي هريرة.

(2) أورده **الهندي** في الكنز: ج11، ص416، رقم 31953. من حديث ابن عمر.



وصفهم القرآن بالسحر إقرار بأنَّهم رأوا من القرآن أمرا خارقا للعادة، من البلاغة والإخبار بالغيوب مع عجزهم عن معارضته، ولو لم يخرق العادة لم يسمُّوه سحرا، والمراد بالسحر ما حصل من معالجة السحر لا نفس المعنى المصدريِّ، وقيل: «هَذَا» إشارة إلى رسول الله ﷺ، و«سِحْرٌ» مبالغة؛ أو بمعنى ذو سِحر أو ساحر.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿3﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿4﴾﴾

الله خالق الكون قادر على البعث والجزاء فعلى الخلق عبادته

﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾ أوقات؛ أو مقدار سِتَّة أَيَّام من أيَّام الدنيا بلياليها، واليوم في اللغة يطلق على الوجهين وعلى النهار لا حقيقتها، لأَنَّهُ لا شمس قبل خلقهنَّ، ويروى عن ابن عباس أنَّ كلَّ يوم من الستَّة ألف سنة فالستَّة من أَيَّام الآخرة.

وهو قادر أن يخلقهنَّ وأضعافهنَّ في أقلَّ من لحظة ولكن تعليم لخلقه أن يتمهَّلوا للتثبُّت، والله يختصُّ بعلم حكمة الستَّة الخَاصَّة مع أنَّ التثبُّت يمكن بأقلَّ وبأكثر أيضا. ويقال: السماوات والأرض هنَّ أصول الحوادث اليوميَّة، لأنَّ السماء كالفاعل والأرض كالقابل، ولا يحتاج إلى هذا مع إيهامه أنَّ للنجوم تأثيرا في الحوادث وهو قول الكفرة.

[أصول الدين] ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ خَلَقَهُ وكان في حكمه لا يتخلَّف عَمَّا أراد فيه، ودعْ متبرئا من القول بأنَّ الاستواء على ظاهره مع القول

بلا كيف فإنَّه دخول في الظلمة بعد وجود النــور، ومن كان غنيًّا عن الأمكنة والأزمنة فهو غنيٌّ عنها لا يحلُّ فيها، تعالى عن صفات الخلق.

والعرش قبــل الســماوات لقوله تعالــى: ﴿وَكَانَ عَرْشُــهُ عَلَــى الْمَآءِ﴾ [سورة هود:7]، فـ«ثُمَّ» بمعنى الواو؛ أو للترتيب الذكريِّ بلا مهلة، ومرَّ كلام في الأعــراف[1]؛ ويجوز أن يــراد بالعرش المُلك، واســتواؤه عليــه تصرُّفه فيه، بالإحداث والإعدام، والتحريك والإسكان، وجميع الأحوال، وقيل: الاستواء علــى العرش بســط الســماوات والأرض وتشــكيلهما بالأشــكال الموافقة لمصالحها وما خُلقنَ لأجله وغير ذلك.

﴿يُدَبِّرُ﴾ يقدِّر وحده بحسب الحكمة والمراتب، وفسَّره مجاهد بالقضاء، ولا يحتــاج إلى فكر، ولاعتبــار الحكمة ناســب لفظ «يُدَبِّــرُ»، فهو مجازيٌّ باللزوم والتسبُّب، ومعنى «يُدَبِّرُ»: دبَّر، فهو بمعنى الماضي، وليس للتجدُّد إلَّا على معنى متعلَّق تدبيره الأزليِّ فإنَّه يتعلَّق بالحادث إذا حدث. ﴿الَامْرَ﴾ بين الخلائق، أو الأمر: العرش والســماوات والأرض وكلُّ شــيء، والجملة خبر ثان؛ أو حال من ضمير «اسْتَوَى»؛ أو مستأنف.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ لأحد في وقت من الأوقات ﴿اِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ دفع لأن يســاوى أو يفاق، وردٌّ على من زعم أنَّ الأصنام تشــفع فَإِنَّهَا ليســت أهلا أن تشفع بدليل ضعفها وعدم تكليفها، وإثبات للشــفاعة لمن أذن له فيها لفضله بالعمل بالتكليف، والأصنام لا تنطق ولا تدرك فكيف تشفع؟ فليس من شأنها أن يؤذن لها، وإنَّما الإذن لطالبه المدرك، فالآيــة تتضمَّن نفي إدراكها ونطقها، ونفي شفاعتها، والجملة خبر آخر؛ أو حال من ضمير «يُدَبِّرُ»؛ أو مستأنف.

(1) انظر سورة الأعراف ج5، ص69، تفسير الآية رقم 54.

﴿**ذَالِكُم**﴾ أي الخالق المستوي على العرش المدبِّر للأمر، الذي لا يخرج شـــيء عن إذنه ﴿**اللهُ**﴾ خبر؛ أو بيان ﴿**رَبُّكُمْ**﴾ خبر ثان؛ أو خبر [ذَلِكُم] وهذا تأكيد لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذِي خَلَــقَ...﴾. ﴿**فَاعْبُدُوهُ**﴾ وحِّدوه؛ أو اعبدوه وحده، عطف إنشاء على إخبار، وإن شئت فـ«ذَالِكُمُ...» بمعنى وحِّدوه، فهو في معنى الأمر، واعبدوه أطيعوه. ﴿**أَفَــلَا تَذَّكَّرُونَ**﴾ ألا تعلمون أنَّ الأمر ذلك فلا تذَّكَّرون أَنَّهُ لا شــريك له في الأُلُوهِيَّة ولا في العبادة، كما أَنَّهُ لا يشـــاركه شيء في الخلق والتدبير، ولا يستقلُّ بهما غيره، وأنَّه لا يعبث ولا يترك الخلق ســـدى، فلا بدَّ أن يكـــون للعالم خالقـــا مخالفا لها قـــادرا، كما قـــال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ...﴾ وأن يتحقَّق البعث للجزاء المرتَّب على الإنذار والتبشير، كما قال:

﴿**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُــمْ جَمِيعًا**﴾ فلا بدَّ من بعث الرســـول لإقامة الحجَّة، ومن الرجوع إلى الله لا إلى غيـــره، ولا مع غيره بالبعث للجزاء فاســـتعدُّوا لذلك ﴿**وَعْدَ اللهِ حَقًّا**﴾ مثل ما تقدَّم.

﴿**إِنَّهُ يَبْــدَؤُاْ الْخَلْقَ**﴾ بالإنشـــاء ﴿**ثُمَّ يُعِيدُهُ**﴾ بالبعـــث بعد موته، تعليل جملي؛ أو مســـتأنف، كأنَّه قيل: كيف يكون المرجع إلـــى الوعد؟ فقال: إنَّه يبدأ الخلق، فإذا قدر على بدئـــه فكيف لا يقدر على إعادته في بادئ الرأي؟ **وَأَمَّا عند الله فســـواء**. والمضارع للتجـــدُّد والتكرير أولى مـــن كونه بمعنى الماضي. والخلـــق بمعنى المخلـــوق. ﴿**لِيَجْــزِيَ الذِيــنَ ءَامَنُــواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَـــاتِ**﴾ [ومن الصالحات تـــرك المحرَّمات] وتـــرك المحرَّمات عمل صالح؛ أو يقدَّر: واتَّقوا [المحرَّمات]. ﴿**بِالْقِسْطِ**﴾ بعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أو بعدلهم في الاعتقاد والقول والعمل؛ أو بالتوحيد التامِّ المســـتتبع للعمل، كما أَنَّهُ سمَّى الشـــرك بضدِّ العـــدل: ﴿إِنَّ الشِّــرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيــمٌ﴾ [ســـورة لقمـــان: 13] متعلّق بـ«يَجْزِي»؛ أو حال من «الذِينَ»؛ أو ضمير «يَجْــزِي» كما رأيت، والوجهان الأخيران أولى لمناسبتهما قوله تعالى:

﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ اَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ إذ جزى الكفار بكفرهم، فيكون جزى المؤمنين بكسبهم، وجزى الكُفَّار بكسبهم، والباء عليهما بدليَّة؛ أو سَبَبِيَّة. والحميم: بالغ النهاية في الحرارة.

والأنسب بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ...﴾ أن يقال: وليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم؛ أو ويجزي الذين كفروا... إلخ؛ أو والذين كفروا بشراب... إلخ، لكن لم يذكر الجزاء. وعبَّر بالجملة الِاسمِيَّة مبالغة في استحقاقهم العذاب، والتنبيه على أنَّ المقصود من البدء والإعادة بالذات هو الثواب، وأنَّ العقاب واقع بالعرض، إذ لم يجعل العقاب علَّة للبدء، والإعادة كالإثابة، ولو كان أيضا علَّة لكن ترك ذكره لذلك، والتنبيه على أَنَّهُ يتولَّى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه، ولذلك لم يعيِّنه، فهو لا يدخل تحت ضبط، ولذلك أضاف الجزاء لنفسه.

وأمَّا عقاب الكفرة فكأنَّه داء ساقه إليهم اعتقادهم، فكان سوء الاعتقاد فاعل العقاب، ولم يسند إليه تعالى ولو كان مقصودا. وقوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ...﴾ تعليل لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فإنَّه لَمَّا كان المقصودُ بالذات ـ وهو الإثابة ـ وبالعرض ـ وهو العقاب ـ من البدءِ والبعثِ مجازاةَ المكلَّفين على اعتقادهم وأفعالهم كان مرجع الجميع إليه خاصَّة. وللتأكيد قال: ﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ...﴾ بإسنادين، ولم يقل: للذين كفروا بإسناد واحد.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿5﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿6﴾﴾

في ظواهر الكون إثبات للقدرة الإلهيَّة

﴿**هُوَ الذِي جَعَلَ الشَّمْسَ**﴾ أنشأها، وإن فسَّرناه بصيَّرنا فهو على معنى قولك: وسِّع الدار، بمعنى ابنها من أَوَّل الأمر واسعة، وَالأَوَّل مستغن عن هذا التأويل. ﴿**ضِيَآءً**﴾ نفس الضوء مبالغة؛ أو بمعنى: ذات ضياء؛ أو مضيئة، وهو مفرد، أو جمع ضوء، كسوط وسياط، والأوَّل أنسب بالإفراد في قوله: ﴿**وَالْقَمَرَ نُورًا**﴾ نفس النور مبالغة؛ أو ذا نور.

[لغة] وسمِّيت شمسا ـ قيل ـ من شمسة القلادة للخرزة الكبيرة وسطها، فإنَّها أعظم الكواكب كما يشهد به الحسُّ، وجاء به الأثر، قلت: لا دليل في ذلك، لاحتمال أنَّ الخرزة الكبيرة سمِّيت بشمس السماء لكبرها على الكواكب وكبر الخرزة على سائر الخرز. ولعلَّها سمِّيت لنفور العين عن النظر إليها لقوة ضوئها؛ أو نفورها عن العين مجازا في هذا، وسمِّي القمر لبياضه لكن إلى صفرة، وهو قمر بعد ثلاث، وفيها هلال.

والضياء والنور عرضان. والضياء: اسم لكَيفِيَّة الشعاع الفائض من الشمس مثلا، إذا كانت الكَيفِيَّة تامَّة قَوِيَّة، والنور اسم لأصل هذه الكَيفِيَّة، ولذلك خصَّ الشمس بالضياء إذ كان أقوى، وخصَّ القمر بالنور لأَنَّهُ ضعيف بالنسبة

إلى الضياء، ولو تساويا لم يعرفا فكانت الزيادة الباقية في الشمس، والضوء ما بالذَّات كالكَيفِيَّة التي على الشمس، والنور ما بالعرض كالكَيفِيَّة التي على وجه الأرض، وما بالذات أقوى. وقيل: النور أعمُّ من الضوء، لأنَّ النور: اسم لأصل الكَيفِيَّة الظاهرة في نفسها المظهرة لغيرها، والضياء: اسم لهذه الكَيفِيَّة إذا كانت تامَّة قويَّة، ولا يخفى أَنَّهُ شاع نور الشمس ونور النهار. وياء ضياء عن واوٍ لكسر ما قبلها.

وضياء الشمس ذاتيٌّ لها، وقيل: من نور العرش، وعلى كلِّ حال لا يزول عنها ما دامت الدنيا، ونور القمر عرضيٌّ له من مقابلة الشمس، يزول ويتجدَّد، يزداد ببعده عنها وينقص بقربه، يضيء ما قابلها منه دون ما لم يقابلها، ولا مانع من أنَّ نوره ذاتيٌّ، له وجه مضيء ووجه غير مضيء فيتحرَّك، فيظهر منه المضيء شيئا فشيئا ويتحرَّك وينقص شيئا فشيئا.

﴿**وَقَدَّرَهُ**﴾ أي قدَّر كلَّ واحد من الشمس والقمر؛ أو قدَّر ما ذكر منهما؛ أو قدَّر القمر، وهو أولى لصورة إفراد الضمير، ولأنَّ العرب تعرف الشهور والسنين به لا بالشمس، لمعاينة منازله ولتعلُّق أحكام الشرع به، قيل: ولسرعة سيره لأَنَّهُ يقطع المنازل شهرا والشمس سنة، ومنازلها منازله تبطئ فيها ﴿**مَنَازِلَ**﴾ ظرف لسير مقدَّر، مضاف للهاء في «قدَّره»، أي وقدَّر سيره في منازل؛ أو مفعول ثان لـ«قَدَّرَ» على معنى صيَّره منازل، أي ذا منازل، وسواء في إعراب «مَنَازِلَ» بالوجهين رددنا الهاء للقمر؛ أو للشمس والقمر.

[فلك] ويستتر القمر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وليلة إن كان تسعة وعشرين هذا غالب، وتحقَّقت مرَّتين أَنَّهُ رُئِيَ بعد الفجر، وكان من تسعة وعشرين. والمنازل ثمانية وعشرون: الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرفة والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك الأعزل والغفر والزباني والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع

وسعد السعود وسعد الأخبية، وفرغ الدلو المقدَّم، والفرغ المؤخَّر وبطن الحوت، مقسومة على البروج الاثني عشــر لكلِّ برج منزلان وثلث، والبرج ثلاثون درجة، من قسمة ثلاثمائة وســتِّين أجزاء دائرة البروج على اثني عشــر، والدرجة ستون دقيقة، والدقيقة منقسمة بستين ثانية، والثانية بستين ثالثة وهكذا...

[فلك] ويقطع القمر كلَّ يوم وليلة ثلاث عشرة درجة وثلاث دقائق وثلاثا وخمسين ثانية وستا وخمسين ثالثة. وتســمية ما ذكر منازل مجاز لأنَّها عبارة عن كواكب ثوابت قريبة من منطقة البروج، والبروج شبيهة بما يربط الإنسان على وســطه، والمنزل الحقيق للقمر الجو الذي يشغله جرم القمر، والشَّرَطَان هو النطح [والناطــح، وهما قرنَا الحمل] وكذلك يعتبــر نحو الحمل، والثور والجوزاء بالمســامتة للمؤخَّر والرشا، ولثلث الشــرطين برج الحمل ولثلثي الشــرطين والبطين، وثلثي الثريا برج الثور، ولثلث الثريــا والدبران والهقعة برج الجوزاء، وللهنعــة والذراع وثلــث النثرة برج الســرطان، ولثلث النثرة والطرفاء وثلثي الجبهة برج الأســد، ولثلث الجبهــة والخرثان والصرفة برج الســنبلة، وللعواء والســماك الأعزل وثلث الغفر برج الميزان، ولثلثي الغفر والزبنان وثلثي الإكليل برج العقرب، ولثلث الإكليل والقلب والشــولة برج القوس، وللنعائم والبلدة وثلث سعد الذابح برج الجدي، ولثلثي الذابح وبلع وثلثي السعد برج الدلو، ولثلث السعد والأخبية والفرغ المقدم برج الحوت.

﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّــنِينَ وَالْحِسَــابَ﴾ حســاب الأوقات من الأشهر بسير القمر، والأَيَّام بسير الشمس، في عبادتكم ومعاملتكم وسائر تصرُّفاتكم.

[فلك] والمعتبر في التاريخ العربي الإســلامي السنة القمريَّة، والتفاوت بعشرة أَيَّام وإحدى عشرة ساعة ودقيقة واحدة في سنة الشمس، وهي ثلاثمائة وخمسة وَسِــتُّونَ يوما وخمس ســاعات وتســع وأربعون دقيقة، وسنة القمر ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وثمان ساعات وثمان وأربعون دقيقة.

﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الشمس والقمر وجعلهما ضياء ونورا وتقديرهما منازل. وذكر «خَلَقَ» هنا يرجِّح أنَّ الجعل في قوله: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ﴾ بمعنى الخلق، و«ضِيَاءً» حالٌ، وإلَّا فمفعول ثان. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لم نخلقه عبثا بل مراعاة لمقتضى الحكمة البالغة.

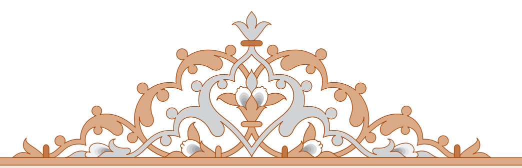
﴿نُفَصِّلُ الَايَاتِ﴾ المتلوَّة، أورَدْنَا الدلائل واحدا بعد آخر مع البيان؛ أو الآيات التكوينيَّة؛ أو كلَّ ذلك، وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلُّم. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتدبَّرون ما الحكمة في إيجاد المصنوعات فيدركونها، ولا سيما الشمس والقمر؛ أو يعلمون معاني الآيات فيعملون بها؛ أو مَنْ شأنهم الاتِّصاف بالعلم بخلاف هؤلاء فإنَّها ولو فصِّلت لهم فإنَّهم لم ينتفعوا بها كأنَّهم بهائم وكأنَّها لم تنزل عليهم.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تخالفهما، كاجْتَوَرُوا بمعنى تجاوَروا بالقصر والطول، والذهاب والمجيء.

[جغرافيا] وأيَّام البلاد القريبة من القطب الشمالي أطول في الصيف ولياليها أقصر من أيَّام البلاد البعيدة منه ولياليها، ومقتضى كرويَّة الأرض أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن نهارا وفي بعضها ليلا.

﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ من العقلاء وغيرهم وأحوال ذلك وما يقع عليهم؛ أو منهم، فـ«مَا» تغليب لغير العقلاء؛ أو أطلق «مَا» متناولاً للأجناس، فهو أولى بإرادة العموم، وعلى كلِّ حال شملت الآيات الملائكة والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، والحيوان والجبال والبحار والعيون والأشجار وسائر الأجسام كلِّها والأعراض كلِّها.

﴿ءَالَايَاتٍ﴾ دلائل على وجوده تعالى وقدرته وعلمه وتنزُّهه عن صفات الخلق ووحدته. ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ وغيرهم، وخصَّهم بالذكر لأنَّهم المنتفعون بها إذ يتدبَّرون فيدركون.



﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ⁧7⁩ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ⁧8⁩ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ النَّعِيمِ ⁧9⁩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ⁧10⁩﴾

المؤمنون والكافرون وجزاء كلٍّ

﴿**إِنَّ الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا**﴾ لا يطمعون في خير الآخرة، لأنَّهم لم يعملوا لها فضلا عن أن يرجوه، لإنكارهم البعث؛ أو لا يتوقَّعون، بمعنى ينتظرون، بحيث يشمل الخير والشر؛ أو لا يخافون لقاءنا لإنكارهم البعث فضلا عن أن يحذروا العذاب. والرجاء بمعنى الخوف؛ أو التوقُّع مجاز، وما ذكرته بمعنى الطمع أولى لبقائه على ظاهره مع صحَّة المعنى ومناسبته لقوله: ﴿**وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا**﴾ لأنَّ الحاصل أنَّهم لم يطمعوا في أجر الآخرة واستبدلوه بلذَّة الدنيا، وسكنوا إليها وذهلوا عنه بها، وليس التوقُّع أشدَّ مناسبة للمقام كما يتوهَّم، وإطلاق الاطمئنان على السكون إليها إطلاق للمقيَّد على المطلق، فإنَّ حقيقة الاطمئنان السكون بعد الانزعاج. والواو بمعنى إلى، واختير لفظ الباء للرسوخ، ولفظ إلى لمجرَّد الوصول؛ أو الباء بمعنى في. وأجاز بعض أن يكون المعنى: سكنوا فيها سكنى من لا يخاف انتقالا.

﴿**وَالذِينَ هُمْ عَنَ ـ ايَاتِنَا**﴾ أي المتلوَّة والمخلوقة، مثل الجبال والسماوات والأرض، والمتلوَّة أيضا مخلوقة ﴿**غَافِلُونَ**﴾ معرضون لا يتفكَّرون فيها، لأنَّ قلوبهم مشتغلة بضدِّها فشغلهم بالكفر مانعهم هُدًى وهؤلاء الغافلون هم هؤلاء الذين لا يرجون، وإنَّما عطف لتغاير الصفات إذ كان عدم الرجاء والرضا بالدنيا والاطمئنان بها غير الغفلة، بل مسبّبها ولازمها، وكأنَّه قيل: الجامعون بين انتفاء الرجاء والرضا بالدنيا والاطمئنان بها والغفلة، فالوعيد على تلك الصفات كلِّها، ويجوز أن يراد بالغافلين من لم ينكر الآخرة ولكن لم يستعدَّ لها كأهل الكتاب وفسقة الموحِّدين. ﴿**أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ بكونهم يكسبون الكفر؛ أو الكفر الذي كانوا يكسبونه وواظبوا عليه حتَّى ماتوا.

﴿**إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم**﴾ يرشدهم ﴿**بِإِيمَانِهِمْ**﴾ بسبب إيمانهم، أي توحيدهم، إلى زيادة الإيمان والعمل الصالح والتقوى، وإلى إدراك الحقائق، كما قال ﷺ: «**اتَّقوا فراسة المؤمن فإنَّه بنور الله يبصر**»[1] وقال ﷺ: «**من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم**»[2].

أو يهديهم ربهم لِمَا يريدونه من الجنَّة وأنواع نعمها، ومرافقة الأنبياء؛ أو يهديهم إلى مأواهم ومقعدهم وهو الجَنَّة، إذا خرج المؤمن من قبره أضاء له عمله، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيقوده إلى الجَنَّة ماكثا معه في المحشر، ﴿يَسْعَىٰ نُورَهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة الحديد: 12] والكافر يكون عمله ظلمة تصاحبه حَتَّى تدخله النار.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (16) باب: ومن سورة الحجر، رقم 3127، من حديث أبي سعيد. ورواه **أبو نعيم** في الحلية: ج4، ص94 من حديث ابن عمر.

(2) رواه **أبو نعيم** في الحلية: ج10، ص15. وأورده **السيوطي** في الدر: ج1، ص372. من حديث أنس.

أو يهديهم بعملهم بعد دخول الجنَّة إلــى منازلهم بعينها كأنَّهم يعرفونها. والتوحيد هــو الأصل، والعمــل الصالح والتقــوى مرتَّبان عليــه، ولا ينفع بدونهما. ﴿**تَجْــرِي مِن تَحْتِهِمُ الاَنْهَــارُ**﴾ أي قريبا منهم، وهــم عالون عليها بأجســامهم وقصورهم، وهذه الأنهار تجري من تحت؛ أو تحت أشــجارهم وقصورهم ﴿**فِــي جَنَّاتِ النَّعِيــمِ دَعْوَاهُمْ فِيهَا**﴾ دعاؤهــم، أي منطوقهم فيها: ﴿**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ**﴾ أي الذي يقولونه بدل ما يلغى به في الدنيا هو: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي هذا اللفظ؛ أو عبادتهم فيها هذا اللفــظ، يقولونه تلذُّذا لا تكليفا، كما جاء فــي الحديــث: «**إنَّهم يلهمــون التســبيح والتحميد كمــا يلهمون النفَس**»[1]. رواه مسلم.

أو عبادتهم مضمون ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ من أنواع الأذكار لا خصوص هذا اللفظ، بلا مشــقَّة؛ أو دعاؤهم: طلبهم إذا أرادوا شــيئا قالوا فــي قلوبهم، أو بألســنتهم: ﴿ســبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فيحضر ما خطر في قلوبهم؛ أو يقولونه كلَّما رأوا أمرا عجيبا من قدرة الله تعالى في طعامهم وشــرابهم وسائر منافعهم؛ أو نداؤهم، فإنَّ لفظ «اللَّهُمَّ» نداء.

ويجوز ـ على بعــدٍ ـ أن يكون ذلك نفيًا للتكليف بالعبــادة، كأنَّه قيل إن كان عليهم تكليف فهو قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وليس تكليفا لأنَّهم يقولونه سهلا كخروج النفَس من الحلقوم؛ أو غير ذلك من المعاني السابقة.

اشتغلت الملائكة بالتسبيح قبل خلق آدم إذ قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ...﴾ [ســورة البقــرة: 30] فجعله الله قبل الإحرام وفي دار السلام لبني آدم، قال ﷺ: «**أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات: لا إله إلَّا الله وحده لا شــريك**

---

(1) رواه **مســلم** في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها (7) باب في صفات الجنَّــة وأهلها... رقم 2835 ج4. ص2180، من حديث جابر بن عبد الله.

له، لــه الملك وله الحمــد وهو على كلِّ شــيء قديــر»[1]، وفي الحديث القدسيِّ: «**إذا شغل عبدي ثناؤه عليَّ عن مســألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»[2].

﴿**وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا**﴾ بينهم؛ أو تحيَّــة الله؛ أو الملائكة لهم، أو التَّحِيَّة التي لهم سواء من بعض لبعض، أو من الملائكة لهم، أو من الله لهم: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [ســورة يس: 58] ﴿وَالْمَلَآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية [سورة الرعد: 23ـ24]. ﴿**سَــلَامٌ**﴾ عليكم ﴿**وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ**﴾ أي كلامهم المُتَأَخِّر عن الأكل والشــراب؛ أو عن دخولهم الجنَّة ومعاينة عظمة الله ﷻ، وتحيَّة الملائكة لهم بالســلامة من الآفــات والفوز بالكرامات على هذا الترتيب.

﴿**أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أي أَنَّهُ، أي الشأن، لا مفسِّرة، لعدم تقدُّم الجملة، ولو تقدَّم لفظٌ فيه معنى القول دون حروفه.

ويقال: «سُــبْحَانَكَ اللَّهُمَّ» علامة بين أهل الجنَّة وخدمتهم، في إحضار الطعام أو الشــراب، إذا أرادوه يأتونهم في الوقت بذلك، على حســب ما يشــتهون على موائد، كلُّ مائدة ميل طولا وعرضا على كلِّ مائدة ســبعون ألف صحفــة، في كلِّ صحفــة لون ليس فــي الأخرى، وإذا فرغــوا قالوا: «الحمد لله» فترفــع الموائد، ويقــال تأتيهم الملائكة فــي الصحف بذلك فيريدون أن يَرُدُّوا الصحف فتضحك الملائكة، ويقولون: إنَّكم تظنُّون أنَّكم تردُّون الأوعية كما في الدنيــا، أي ترفع بلا ردٍّ، أو تفنــى وتتجدَّد الأُخر؛

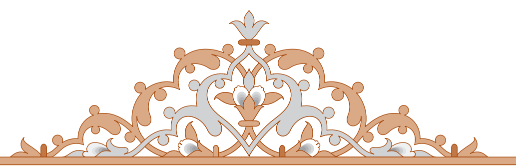
(1) رواه **البيهقي** في كتاب الحجِّ (187) باب أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة رقم 9475، من حديث علي بن أبي طالب مع زيادة في آخره. وأورده **السيوطي** أيضا في الدر: ج1، ص228.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب فضائل القرآن (25) باب رقم 2926، من حديث أبي ســعيد. وأورده **المناوي** في الإتحافات السنيَّة: ص66، رقم 148، من حديث ابن عمر.

ويمرُّ طائر فيشـــتهونه فيقع في وعاء مشويًّا أو قديرا[1] كما اشتهوا؛ أو يأتيهم به ملك كذلك. ويقال: إذا رأوه قالوا: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ» فيكون ذلك. ويقال عوامُّ أهل الجنَّة فيها من حيث المعرفة كعلماء في الدنيا، والعلماء كالأنبياء، والأنبياء كالنبيء ﷺ، وله ﷺ ما ليس لبشر ولا ملك.

(1) أي مطبوخا في قدر كما قال امرؤ القيس في المعلَّقة:

فظل طهاة اللحم من بين مُنضِجٍ صفيفَ شِـــوَاءٍ أو قَدِيـــرٍ مُعَجَّلِ



﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿11﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿12﴾﴾

استعجال الإنسان الخير دائما والشرَّ حال الغضب

وَلَمَّا نزل: ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ استعجلوا، فنزل قوله ﷻ: ﴿**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ**﴾ مثل [قوله:] ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ [سورة الأنفال: 32] و﴿سَالَ سَائِلٌ﴾ [سورة المعارج: 01] و﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِهَا﴾ [سورة الشورى: 18] و﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [سورة العنكبوت: 53] و﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ﴾ [سورة الإسراء: 92]، و﴿مَتَىٰ هَذَا الوَعْدُ﴾ [سورة يونس: 48] الآيات ونحوهن؛ وقيل: نزلت في قول النضر: «فأمطر»، وقيل: في دعاء الإنسان على نفسه وأهله وأولاده وماله، أو بعض ذلك عند الغضب بلعنة الله، أو بانتفاء البركة، أو بالموت، أو الفقر، أو نحو ذلك، يستعجله كما يستعجل الخير. واختار المضارع لقصد الاستمرار فيما مضى، وقتا فوقتا.

والمعنى أَنَّ امتناع إهلاكهم استئصالا بسبب امتناع استمرار التعجيل، وأنسب من ذلك أن يكون المعنى: امتناع الإهلاك بسبب استمرار امتناع التعجيل. و«ال» في «النَّاسِ» للجنس؛ أو للعهد بقوله: ﴿الذِينَ لَا يَرْجُونَ...﴾ الخ، وعليه فوضع موضع المضمر تسجيلا على عيوبهم، وتصريحا على

اســـتدراجهم، والتعجيل فعل الله والاســـتعجال فعلهم، فالمعنى: لو يعجِّل الله الشرَّ تعجيلا مثل استعجالهم الخير في السرعة وهو طلب العجل.

[قلت:] وهذا أولى من تقدير: استعجالا مثل استعجالهم، لأنَّ مصدر عَجَّلَ تعجيلٌ لا استعجال؛ أو استعجال بمعنى تعجيل، فكأنَّه قيل: فلو يعجِّل الله الشرَّ كما يعجِّل الخير، وهذا إشعار بســـرعة الإجابة حتَّى إِنَّ استعجالهم الخير عينُ تعجيل الله الخير. ولا حاجة إلى تكلُّف أنَّ الأصل: ولو يعجِّل الله للناس الشـــرَّ تعجيله للخير حين اســـتعجلوه استعجالا كاســـتعجالهم بالخير لكثرة الحذف. وعلى كلِّ حال المراد بالشر الشرُّ الذي يطلبونه، ويجوز أن يراد: جزاء الذنوب، كقوله ﷻ: ﴿ولَوْ يُوَاخِذُ اللهُ النَّاسَ...﴾ [سورة النحل: 61] والباء للإلصاق؛ أو صلة. ﴿**لَقُضِيَ إِلَيْهِمُۥٓ أَجَلُهُمْ**﴾ أي استحضر مؤجَّلهم استئصالا، فالأجل بمعنى شرُّهم المؤجَّل، وهو المـــوت، أو العذاب. وعُـــدِّيَ «قُضِيَ» بـ«إِلَـــى» لتضمُّنه معنى الإيصال والإبلاغ، والمراد: لَكِنَّ الله يؤخِّر الشرَّ ويعجِّل الخير.

﴿**فَنَذَرُ الذِيـــنَ لَا يَرْجُـــونَ لِقَآءَنَا فِـــي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُـــونَ**﴾ عطف على محذوف دلَّت عليه الشـــرطيَّة دلالـــة اِلْتِزَامِيَّة، أي لا نعجل بالنـــون أو بالياء ﴿فَنَذَرُ الذِينَ﴾ على الالتفات من غيبـــة «لا يُعَجِّلُ» ـ بالياء ـ أو تبع الالتفات في «نُعَجِّلُ» ـ بالنون ـ لا عطف على «يُعَجِّلُ» ولا على «قُضِيَ» لأنَّهما منفيَّان بـ«لَوْ»، وتركهم يعمهون مثبت، ولا على «لَوْ» وما بعدها لعدم وجود ما يتفرَّع بالفاء. و«النَّاس» أعمُّ من «الذِينَ لَا يَرْجُونَ»، ولو حملنا الناس على الأشقياء لكانوا قوما واحدا، ذكرهم بالظاهر ليصِفَهُم بإنكار البعث، وبإبقائهم متردِّدين في الطغيان، من إنكار البعث والجزاء وأنواع الشرك والمعاصي، تركهم يوفُّون أجلهم لأَنَّهُ لا يخلف الوعد، ولأنَّ منهم من قضى الله أن يلد مؤمنا؛ أو شـــقيا مثله، ويجوز أن يراد بـ«الذِينَ لَا يَرْجُونَ» ما يشـــمل من يتوب، فيكون تردُّده قبل توبته، وهو بعيد.

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ﴾ الكافر؛ أوِ الإنسان المطلق، لأنَّ من شأنه ـ ولو مؤمنا ـ القلق بالضرِّ. ﴿الضُّرُّ﴾ المرض، أو الفقر، أو الذلُّ، أو غير ذلك مِمَّا يسوؤه. وعبَّر بالمسِّ تلويحا بِأَنَّهُ يقلق من أوَّل الأمر، وتكذيبا لِمَا يوهمه طلبهم الشرَّ من القدرة عليه كيف تطلبونه وأنتم لا تطيقونه ولا تصبرون عليه؟ وبيانا لكونه لو قضي إليهم لم يؤخِّروه ولم يطيقوه لعجزهم وضعفهم، ﴿دَعَانَا﴾ في إزالته على أيِّ حال كان من قيام أو قعود أو اضطجاع ملحًّا، كما قال: ﴿لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا اَوْ قَآئِمًا﴾ بالنصب على الحال أي ثابتا؛ أو مضطجعا على جنبه الأيمن أو الأيسر؛ فاللام بمعنى على؛ أو ملقيا لجنبه على الأرض، فتكون على أصلها إلَّا أنَّها للتقوية، و«أَوْ» لتنويع الأحوال فهي كالواو، ويجوز أن تكون لتنويع أصناف المضارِّ، أي لمرض لا يطيق معه القعود ولا القيام؛ أو لمرض يطيق معه القيام كالقعود؛ أو يطيق معه القعود كالاضطجاع لا القيام، والأوَّل أولى لعمومه وخصوص الثاني بالأمراض.

وعلى كلِّ حال ذلك غالب لا حصر، لأَنَّهُ بقي الركوع والسجود، والميل جانبا دون استواء قعود أو اضطجاع، والاستلقاء، والانكباب على الوجه، وهو منهيٌّ عنه، فذلك تمثيل، وقد يدخل الركوع في القيام والميل، والسجود في القعود، على معنى أنَّ القعود ما عدا الاضطجاع والقيام، وكم مريض لا يطيق الاضطجاع ولا القعود بل الميل.

ولعلَّ ذلك الترتيب في الذكر أنَّ الاضطجاع أولى بالتسلِّي، لأَنَّهُ مظنَّة سكون، وبعده القيام فإنَّه مظنَّة اشتغال بعمل، ومع ذلك لا يترك الدعاء والقعود بينهما فإنَّ فيه انتصابا غير تامٍّ فأخِّر، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ دام على حاله من التقصير والغفلة ولو كان موحِّدا، وعلى حاله من الكفر إن كان كافرا؛ أو ذهب عن موضع الدعاء؛ أو عن الدعاء لا يرجع إليه، وهذا كثير في أهل التوحيد، فلا يختصّ الإنسان

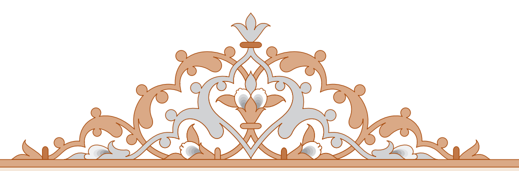
المذكور بالمشرك، ولا يتعيَّن اختصاصه به، لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، لصحَّة أن يكون المعنى: تلك خصلة سوء فيمن كانت، موحِّدا أو مشركا، كما زيِّن للمشركين مطلق ما يعملونه من شرك؛ أو أراد بالإسراف: الفسق بالشرك أو بما دونه، كلٌّ يلحُّ في الحاجة، فإذا حصلت قَصَّرَ.

﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ أي كأنَّه أي الشأن؛ أو الإنسان الداعي. جوَّز سيبويه في مثل ذلك أن يرجع الضمير إلى ما يصلح بالمقام، لا إلى خصوص الشأن. والجملة حال من ضمير «مَرَّ»، والمعنى: مشْبِهًا من لم يدعنا إلى إزالة ضرٍّ مَسَّه أو في شأن ضرٍّ بالدفع، على أن تكون «إِلَى» بمعنى «في»، والأصل الأوَّل، وهو بعد الكشف كحاله قبل الابتلاء والتضرُّع والقسوة وعدم الضرِّ. و«مَسَّهُ» نعت «ضُرٍّ». قال أبو الدرداء: «أدع الله يوم سرَّاتك يستجب لك يوم ضرَّاتك». وعن أبي هريرة وسلمان: «**من سرَّه أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائد والكروب فليكثر الدعاء في الرخاء**»(1).

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الاستغراق في الشهوات وفي ترك العبادة، واستعمال الجوارح في المعاصي وقد خلقت للطاعة إسراف، كاستعمال المال فيما يضيع أو يضرُّ، أي مثل ذلك المرور على حاله من الدعاء عند الضرِّ والإعراض عند الرخاء قبل الابتلاء. ولم أقل مثل ذلك التزيين لأَنَّهُ لم يتقدَّم لفظ «زُيِّنَ» ولو كان في ضمن ما ذكر، ويجوز أن يكون الكلام كناية، كقولك: مثلك لا يبخل، ولا حاجة إلى جعل الكاف زائدة على أَنَّهُ معنى ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذلك التزيين.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الدعاء (9) باب ما جاء: إنَّ دعوة المسلم مستجابة رقم 3382، ورواه **التبريزي** في كتاب الدعوات، الفصل الثاني رقم 2240 (18). من حديث أبي هريرة.



﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾

سنَّة الله في إهلاك الأمم الظالمة واستخلاف خلائف بعدهم

﴿**وَلَقَدْ اَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ يا أهل مَكَّة كقوم نوح وعاد وثمود. والقرن هنا: أهل كلِّ زمان، مأخوذ من الاقتران، فكلُّ أهل زمان مقترنون في أعمالهم وأحوالهم. ﴿**لَمَّا ظَلَمُواْ**﴾ أنفسهم بالإشراك والفجور، وأصرُّوا إلى أجلهم فلم يبق وجه لتأخيرهم.

[نحو] و«لَمَّا» ظرف متعلِّق بـ«أَهْلَكْنَا» خارج عن الصَّدر استغنى بما قبله عَمَّا يكون جوابا له لو قدِّم؛ أو حرف استغنى كذلك كما يستغنى عن جواب إنْ بما تقدَّمها، والظرف المضاف للحدث مشعر بأنَّ ذلك الحدث علَّة لمتعلّقِهِ كتعليق الحكم بالمشتقِّ، وليست «لَمَّا» نفسها للتعليل، والمعنى: إنَّ إهلاكهم بسبب ظلمهم، كما نقول في «إذا» التعليلية: إنَّها ظرف، والتعليل مستفاد بمدخولها لا حرف تعليل كما شهر.

﴿**وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ الدلائل على صدقهم فلا عذر لهم، عطف على «أَهْلَكْنَا» عطف سابق على لاحق؛ أو حال من واو «ظَلَمُوا» بتقدير قد لأَنَّهُ ماض مثبت متصرِّف، وقيل: أو بدون تقديرها.

﴿وَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ﴾ حال من هاء «جَاءَتْهُمْ»؛ أو عطف على «جَاءَتْهُمْ» واللام لتأكيد النفي، بمعنى أنَّهم أشقياء لا يتركون الإصرار، وليست الجملة تأكيدا للجملة قبلها لأنَّ الأُولى تكذيب وهذه إصرار عليه، والضمير للقرون، وأجاز مقاتل كونه لأهل مَكَّة، وهو ضعيف.

﴿كَذَالِكَ﴾ أي مثل ذلك الإهلاك للإصرار على ترك الإيمان ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ سائر المجرمين الذين بعدُ، كأهل مَكَّة؛ أو هم المراد فالأصل: نجزيهم، فوضع الظاهر موضع المضمر ليصفهم بالإجرام الذي هو علَّة للإهلاك، وللفاصلة، وعليه فـ«ال» للعهد.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ يا أهل مَكَّة ﴿خَلَآئِفَ فِي الَارْضِ مِنم بَعْدِهِمْ﴾ العطف على «أَهْلَكْنَا»، والهاء لـ«القُرُونِ» والمراد: الإيجاد لهم في الأرض وإسكانهم فيها بعد إذهاب من قبلهم، سواء من اتَّفقت أرضهم ومن لم تتَّفق. ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لنعلم كيف تعملون أي لنظهر متعلِّق علمنا للناس من إيمان مَن يؤمن منكم، للاعتبار بإهلاك من قبلكم؛ أو لغيره كمعجزات الرسول، ومِن كُفر من يكفر منكم. و«كَيْفَ» حال من الواو، والمعنى: لننظر على أيِّ حال تعملون، فإنَّ المعتبر جهة الفعل لا نفسه، ألا ترى أنَّ الفعل الواحد يقبح تارة ويحسن أخرى، كضرب اليتيم يحسن تأديبا ويقبح ظُلما له واحتقارا.

[نحو] لا مفعول مطلق أي أيَّ عمل تعملون كما قيل، ولا مفعول به، لأنَّ كيف للسؤال عن الأحوال لا عن الذوات، نعم يجوز السؤال بها عن الذوات على التجوُّز. وإن جاء عن العرب: «كيف ظننت زيدا» فهي فيه مفعول به، والأولى أنَّها حال وعاملها محذوف، والمجموع مفعول ثان، أي كيف يفعل، وإذا لم يجعل مفعولا به قدِّر المفعول به أي لننظر كيف تعملون ما يعرض لكم.

[بلاغة] وفي الآية استعارة تمثيليَّة، شبَّه تمكينه العباد من الطاعة والمعصية والأمر بالطاعة ورضاها والنهي عن المعاصي وبغضها باختبار الإنسان مع تمكينه مِمَّا يعمل أو يترك، والجامع ظهور ما يترتَّب على ذلك، وهي مبنيَّة على استعارة مفردة تبعيَّة، فإنَّ النظر موضوع للنظر بالعين واستعمل في العلم، أي ليظهر معلومنا خارجا فيجازى عليه.

وفي الحديث: «**إنَّ الدنيا حُلوة خضرة ـ أو خضرة نضرة ـ وإنَّ الله مستخلفُكم فيها فناظر كيف تعملون**»[1]. وعن قتادة: «صدق الله ربُّنا ما جعلنا خلفاء إلَّا لينظر إلى أعمالنا فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل وبالنهار».

(1) رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، (26) باب أكثر أهل الجنَّة الفقراء... رقم 99 (2742). رواه **الترمذي** في كتاب الفتن (26) باب ما أخبر به النبيء ﷺ وأصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة رقم 2191. من حديث أبي سعيد الخدري.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝15 قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝16 فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝17 وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝18 وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝19﴾

مطالبة المشركين بقرآن آخر أو بتبديل بعض آياته

﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ**﴾ أي عليكم يا أهل مكَّـــة، فجاء على طريق الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾ إلى الغيبة. ﴿**ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ**﴾ القرآن مطلقا، وقيـــل: آيات التوحيد. ﴿**قَـــالَ الذينَ لَا يَرْجُـــونَ لِقَآءَنَا**﴾ منهم كالخمسة المستهزئين بالرســـول ﷺ وبالقرآن ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [سورة الحجـر: 95] ﴿الذِينَ جَعَلُـــوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [ســورة الحجــر: 91] عبد الله بن أميَّة المخزومـــي، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفـــص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري، والعاصي بن عامر بن هشام.

وإســـناد القول إلى الكلِّ إســـناد إلى المجموع إذ لم يقولوا كلُّهم: «ايتِ بِقُرْآنٍ غيْرِ هَذَآ...»؛ أو لرضا من لم يقل بقول القائل. واللقاء يكون بالبعث، لا يخافون البعث ولا يرجون ثوابا لإنكارهم إِيَّـاهُ، وفي «تُتْلَىٰ» قيل التفات إلى الغيبة، أي سـكَّاكيٌّ لا جمهوريٌّ، ومقتضى الظاهر: «وإذا تتلو عليهم» لقوله: ﴿**ايتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَآ**﴾ لأَنَّهُ خطاب له ﷺ، أي بقرآن مغاير لهذا بنفي البعث وبعدم عيب آلهتنا اللات والعزى ومناة، والقائل بعضٌ والباقون راضون.

﴿**أَوْ بَدِّلْــهُ**﴾ أي أوقع التبديل في بعضه، بأن تجعــل مقام البعث انتفاءه، ومقام عيب الآلهة مدحها، ومكان العذاب الرحمــة، ومكان الحرام الحلال، قالوا ذلك اســتهزاء، أو ليقولوا إن طاوعهم بغير هذا القرآن أو بالتبديل: إنَّك كاذب، إذ لو كان من الله لم تبدِّلْه، لكن قد يقولــون لجهلهم: إنَّ الله بدَّله؛ أو أتى بغيره؛ أو كنَّوْا بذلك عن أَنَّهُ منك فات بغيره من الله.

وَلَمَّا كان ماصدق غير هذا وماصدق التبديــل واحدا وهو التغيير، وأيضا امتناع التبديل يســتلزم امتناع الإتيــان بغير هذا، إذ عدم القــدرة على تبديل البعض يَســتلزم عدم القدرة على تبديله كُلِّــه، أجاب بواحد فقــال: ﴿**قُلْ مَا يَكُونُ**﴾ يصحُّ ﴿**لِيَ أَنُ اُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِــيَ**﴾ ولم يقل: أو آتي بغيره، ولكن لا مانع من تقديره.

[لغة] و«تِلْقَاء» مصدر لقي، اســتعمل ظَرف مكانٍ بمعنى الجهة المقابلة، والمراد هنا: من قبل نفسي، ويفسَّر أيضا بالجانب. ومن المصادر التي جاءت على تِفعال بالكسر: تبيان وتهدار وتلعاب كتلقاء، وَأَمَّا تمساح فاسم.

﴿**إِنَ اَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ**﴾ تعليــل لقوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾ أي ما يكون لي أن أبدِّله من تلقاء نفسي لأنِّي لا أَتَّبع إِلَّا ما يوحى إليَّ، فإذا أوحي بإسقاط آية أو بعضها حكما أو تلاوة أو تبديلها أو بعضها فعلت، وذلك نســخ من الله لا من تلقاء نفسي، فلا تتوهموا أنَّ ما أذكر من النسخ من عندي بل من عند الله،

فلا تقولوا: بدِّل كما بدَّلت من قبل، أو أسقط كما فعلت من قبل، وقد ذمَّ الله من فعل ذلك ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: 79] وقال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [سورة النساء: 46] وقال: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتغيير أو التبديل أو الكتم، فإنَّه إسقاط؛ أو غير ذلك من مخالفة الله ﷻ. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة فقد استوجبتم العذاب العظيم بطلب ذلك منِّي.

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يكون قرآن غيره أو أن يبدِّله ثمَّ ينزله، فاكتفى عن هذا بقوله: ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم﴾ أعلمكم الله ﴿بِهِ﴾ على لساني، فإنَّ عدم التلاوة وعدم الإدراء به سببان وملزومان لعدم إنزاله.

[نحو] والمشهور أن مفعول المشيئة يحذف مذكورا في الجواب إلَّا إن كان غريبا، والتقدير: لو شاء الله عدم تِلاوَتِيهِ عليكم وعدم إدرائه إِيَّاكُم به ما تلوته عليكم، ولا أدراكم به، والباء للإلصاق، مِن دَرَى المتعدِّي بها كما تقول: عرفت بكذا، ولا معمول له إلَّا ما دخلت عليه الباء، كَأَنَّهُ قيل: اتَّصل علي به فتعدَّى لآخر بالهمزة؛ أو صلة في المفعول الثاني لأدري المتعدِّي لاثنين، من درى المتعدِّية لواحد. و«لَا» صِلَةٌ للتأكيد نَصًّا على الكُلِّيَّة، ولذلك ساغت في المعطوف على جواب «لَوْ»، مع أَنَّهُ لا يكون بـ«لا» النافية إلَّا أن يقال: إنَّ هذا مِمَّا يغتفر في ثوانيه ما لا يغتفر في أوائله. وضمير «أَدْرَى» عائد إلى الله، وقرئ: «أَدْرَأَكُمْ» بهمزة بعد الراء على لغة عقيل من قلب الألف المبدلة من ياء آخرا همزة، ولو كان أصل تلك الياء واوا كأعطيتك، فيقولون: أعطأتك، بهمزة ساكنة بدلا من ألف أعطى المبدلة عن الياء المبدلة عن الواو؛ أو معنى قراءة الهمزة: لأجعلنَّكم خصماء بتلاوته تدرؤونني بالجدال، من الدرء بمعنى الدفع.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مدَّة ـ قيل ـ أو مقدار عمر ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ قبل مجيئي بما قلت إِنَّهُ قرآن، مكثت فيكم أربعين سنة تشاهدونني لا أقرأ

كتابة ولا أكتب، فلا أجالس من يقرأها أو يكتب، ولا أجالس أصحاب الأخبار والقصص أو الكهانة، ولا أدَّعي شيئا، وشاهدتم صدقي، ولا أنشئ شعرا ولا أقرأه ولا خطبة، وجئتكم بكلام بليغ لا تطيقون مثله مخبر بالغيوب، مشتمل على الآداب ومكارم الأخلاق، والأحكام المقبولة في قلوب من تدبَّروا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أتلاحظون ذلك ولا تعقلون بذلك أَنَّهُ من الله لا مِنِّي؟ وبأنِّي مع بلاغتي الزائدة على بلاغتكم لا آتي بمثله في سائر كلامي.

وإذا كان ذلك ﴿فَمَنَ اَظْلَمُ﴾ لا أظلم ﴿مِمَّنِ اِفْتَـرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ فلو كان مِنِّي ونسبته إلى الله لم يكن أحد أظلم مِنِّي، فكيف يحِبُّ عاقل أن يكون أظلم الخلق؟. أو أنتم افتريتم على الله بادِّعاء الولد له والصاحبة والشريك فلا أظلم منكم ﴿اَوْ كَذَّبَ بِئَايَاتِهِ﴾ هي القرآن، لا ما نصبه من الأدلَّة العَقلِيَّة كخلق السماوات والأرض والجبال وغير ذلك، وأحوال كلِّ الخلق، لأنَّهم لم يكذِّبوا بها إلَّا بتكلف أنَّ عدم الاعتبار بها تكذيب، فتشمل الآيات القرآن وَالأَدِلَّة العَقلِيَّة لَكِنَّ تسمية عدم الاعتبار تكذيبا مجاز، فيجمع بين الحقيقة والمجاز، إلَّا إن اعتبرنا عموم المجاز فنقول: معنى التكذيب عدم العمل بالقرآن والأدلَّة العَقلِيَّة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون وأصحاب الكبائر مطلقا؛ أو هؤلاء المشركون كما مَرَّ مثله.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ كما يعبدون الله في زعمهم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوه، أو عبدوه ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه أو لم يعبدوه، وكان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مَكَّة العزَّى ومناة وإسافا ونائلة وهبلا. والجملتان تعليل لـ«مَنَ اَظْلَمُ» أي لا أظلم مِمَّن ذكر لأَنَّهُ لا يفلح المجرمون، ولأنَّهم يعبدون من لا يخلق ولا يرزق ولا يجلب ولا يدفع. وقدِّم نفي الضرِّ لأنَّ التخلِّي قبل التحلِّي ونفي الضرِّ أهمُّ، والمعبود مُثيب ومعاقب وليست

الأصنام تعاقب أو تثيب فليســت بآلهة، وكذا الملائكة وكلُّ معبود غير الله لا قدرة لــه ولو كان حيوانــا إلَّا ما أقــدره الله، وقد قيل: الآية شــاملة للملائكة وعيسى، والظاهر أنَّ المراد: الأصنام.

﴿**وَيَقُولُونَ هَؤُلَآءِ**﴾ الأصنام التي نعبدها ﴿**شُــفَعَآؤُنَا عِندَ اللهِ**﴾ فيما يهمُّنا من جدب ومرض وســائر المضارِّ، وفي إحضار ما نطلبه، وفي الآخرة إن كان ما يقول مُحَمَّد من البعث حقًّا تقرِّبنا إلى الله زلفى ﴿وَلَئِنْ رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة فصلت: 50] ولســنا أهلا لخدمة الله بالعبادة فإنَّه أعظم شأنا أن نكون له خدما، بل نتوسَّل إليه بعبادة الأصنام، وذلك سَفَهٌ ظاهر، فإنَّ العاقل أحقُّ بأن يكون خادما من الجماد، وأيضا الأصنام تحتاج في شــفاعتها لهم يوم القيامة على فرض ثبوتها إلى أن يخلق الله لسانا تشفع به، وإنَّما الحقُّ عبادة مــن يُحتاج إليه لا من يَحتــاج، ومن تُيقِّن نفعه وضــرُّه كما أقرُّوا به لا الجماد المحتاج المتيقَّن عدم نفعه في الدنيــا، وأولى أن لا ينفع في الآخرة، والذي يتيقَّن أَنَّهُ النافع الضارُّ المثيب المعاقب، لا الجماد الذي ليســوا على يقين من نفعه في الآخرة لشكِّهم فيه. وقوله: ﴿عِندَ اللهِ﴾ يشمل الدنيا ويشمل الآخرة على فرض ثبوتها [حسب زعمهم].

وكان النضر يقول: إذا كان يوم القيامة شفعت لي العُزَّى واللات، ويروى أنَّ الآية نزلت فيه، يعني إن صحَّ البعث، وذلك لا يقولون به ﴿وَأَقْسَــمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَّمُوتُ﴾ [ســورة النحل: 38] وبعضهم يقول: تشــفع الأصنام في الدنيــا بمنافع ودفع مضارّ، وبعض يقول: يشــفع لنا ما هي على صورته من الصالحين يعبدونها ليشفع لهم هؤلاء الصالحون.

﴿**قُلَ اَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّــمَاوَاتِ وَلَا فِي الَارْضِ**﴾ «ما» اســم موصول للجنس عَامَّة لكلِّ شيء يتوهَّمون أَنَّهُ لا يعلمه **حاشاه**؛ أو واقعة على الآلهة؛ أو على شفاعتها؛ أو نكرة موصوفة واقعة على آلهة أو شفاعة.

[أصول الدين] والمعنى: كلُّ شيء معلوم لله، فلا يتصوَّر إخباركم له بالآلهة والشفاعة، لأنَّها لا تثبت عنده، وما لا يثبت لا يقال علمه الله ثابتا؛ أو لا يعلم بمعنى لا يثبت، فلزم من انتفاء علمه أَنَّهُ غير موجود، إذ لو وجد لكان عنده معلوما لا يخفى عنه شيء.

[نحو] و«فِي السَّمَاوَاتِ» حال من الضمير العائد المحذوف، أي لا يعلمه، كذا قالوا، ويُعطِّله قوله: ﴿وَلَا فِي الَارْضِ﴾ إلَّا بتقدير: وما لا يعلمه في الأرض، وَأَمَّا على جعله حالا من «مَا» فلا حاجة إلى تقدير، ولا يتعلَّق بـ«يَعْلَمُ» لأنَّ علمه تعالى لا يقع في موضع، لأَنَّهُ لا يحلُّ في موضع، ولك جعله مفعولا ثانيا، أي لا يعلمه ثابتا في السماوات ولا في الأرض.

وما في الهواء فوق السماء هو من السماء، وما في الهواء فوق الأرض من الأرض، بل السماوات والأرض تمثيل، لأَنَّهُ قد وجد غيرهما كالعرش والكرسيِّ وما تحت الأرض من الأرضين وما تحتهنَّ، ويجوز أن يكون الأرض جنسا لَهُنَّ كلّهنَّ، وكلُّ ما في السماوات والأرضين وغيرهنَّ مملوك لله عاجز لا يكون إلها.

﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ به، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي عن إشراكهم؛ أو اسم موصول، أي عن الشركاء التي يشركونها؛ أو نكرة للتحقير موصوفة، أي عن أشياء يشركونها، **وَالأَوَّل أولى** لأنَّ التنزيه عن الفعل أولى من التنزيه عن نفس ما يشرك، مع أنَّ التنزيه عن نفس ذلك راجع إلى التنزيه عن الفعل تنازع [قوله:] ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فأعمل الثاني وأضمر للأوَّل، أي سبحانه عنه، أي سبحانه عَمَّا يشركون، ومعنى «سُبحَانَهُ» تنزيهه عَمَّا يشركون، أي نزِّهوه يا معشر الناس أو المكلَّفين أو الخلق؛ أو أُنزِّه نفسي؛ أو نزَّهت نفسي عَمَّا يشركون، وهكذا في سائر القرآن، ومعنى ﴿تَعَالَىٰ﴾: تعاظم وبَعُد عَمَّا يشركون، وأصله علاج العلوِّ من سفل حاشاه.

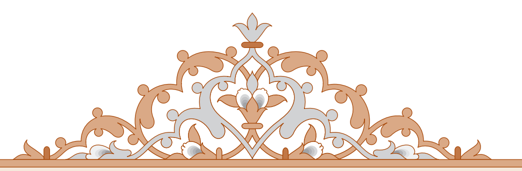
﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل وأوصله ذلك وأولادَه إلى الإشراك، وهو الصحيح لصحَّة الإشراك المذكور، وقيل: إلى إدريس، وكانت الملائكة تصافحه إلى أن رُفعَ، وقيل: إلى زمان نوح وفي زمانه وقع الإشراك، وقيل: من حيث الطوفان إلى أن أشركت ثمود، لأنَّ الله ﷻ لم يذَرْ على الأرض من الكافرين ديَّارا، وقيل: من بعثة إبراهيم عليه السلام إلى أن غيَّره نمرود، وقيل: من بعد قتل نمرود إلى أن أظهر عمرو بن لحي عبادة الحجر، وهو من أهل مَكَّة، وعليه فـ«النَّاسُ»: العرب، وهو أنسب بذكر الآية بعد ذكر أحوالهم من عبادة الأصنام، وقيل: إلَّا أُمَّة واحدة على الكفر في زمان الفترة قبل بعثة رسول الله ﷺ، [قلت:] وهذا لاتِّصاله إليه ﷺ أولى من قول من قال: في زمان قبل بعثة إبراهيم عليه السلام، وقول من قال: في زمان قبل بعثة نوح عليه السلام.

والمراد: الأكثر، لِمَا ثبت أَنَّهُ ما خلت أمَّة إلَّا وفيها مؤمن، وَأَنَّ الأرض لا تخلو عَمَّن يعبد الله وعن قوم بهم يمطرون وبهم يرزقون كالأوتاد والغوث والقطب، وعلى هذه الأقوال في الِاتِّفَاق على الشرك تكون فائدة ذكره تسليته عن شرك قومه وعنادهم، وقيل: الِاتِّفَاق في الخلق على الإسلام: «**كلُّ مولود يولد على الفطرة**»[1]. ﴿**فَاخْتَلَفُواْ**﴾ بعضٌ مسلم وبعض كافر، وبعض بقي على الفطرة وبعض خرج عنها.

﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ**﴾ الجملة نعتٌ لا خبر، والكلمة: قضاؤه بتأخير العذاب والثواب إلى يوم القيامة، وهو يوم الجزاء؛ أو تأخير الميز بينهم بإنجاء المؤمنين وإهلاك الكافر؛ أو بإنزال آية مُلجئة إلى اتِّبَاع الحقِّ، وهذا ضعيف. ﴿**لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**﴾ في الدنيا بإهلاك الكافر وإنجاء المؤمن ﴿**فِيمَا**﴾ أي في شأن أو سبب ما ﴿**فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ من الدين، ولم يقل: اختلفوا لحكاية الحال الماضية.

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج3، ص311.





﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿20﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿21﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿22﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿23﴾﴾

عادة الكفار المكر واللجاج والعناد وعدم الإنصاف

﴿**وَيَقُولُونَ**﴾ كفَّار مكَّة، والعطف على «يَعْبُدُونَ»؛ أو هو بمعنى: قالوا، عطف على «قَالَ الذِينَ»، وجيء بالمضارع ليدلَّ على الاستمرار. ﴿**لَوْلَآ**﴾ توبيخ على عدم الإنزال بفرض أنَّهُ نبيء كما يزعم؛ أو تحضيض، وعليه فقوله: ﴿**أُنزِلَ عَلَيْهِ**﴾ بمعنى ينزل، ﴿**ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ**﴾ محسوسة كاليد والعصا والناقة والمائدة كالأنبياء قبله، وتفجير الأرض ينبوعا، وإسقاط السماء كسفا، وبعث جدِّه قصي، وتسيير الجبال، وفي ذلك تلويح إلى أنَّ القرآن وغيره من معجزاته غير آية عندهم.

﴿**فَقُلِ اِنَّمَا الْغَيْبُ**﴾ ما غاب عن العباد ﴿**لِلهِ**﴾ والآيات مِمَّا غاب إن كانت فإنَّما يأتي بها الله ﷻ، ولعلَّ في إنزالها إهلاكا لكم إن لم تؤمنوا كما أهلك من قبلكم لَمَّا طلبوها وأنزلت ولم يؤمنوا.

﴿فَانتَظِرُواْ﴾ نزول الآية للعذاب؛ أو انتظـروا العذاب، وهو أمر للتهديد. ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ ما يفعل الله بكم، لعنادكم واستهزائكم بالقرآن الذي لا آية تساويه فضلا عن أن تفوقه.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ كُفَّار مكَّة؛ أو الكُفَّار مطلقا، ففيهم اللجاج والمكر مطلقا ﴿رَحْمَةً﴾ كالصحَّة والشفاء والخصب وصلاح الثمار والأنعام وأحوالها ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ كمرض وقحط. ووصف الضرَّاء بالمسِّ إشارة إلى أنَّها قليلة بالنسبة إلى الرحمة ﴿إِذَا﴾ للمفاجأة ﴿لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا﴾ احتيال في دفعها.

[فلك] كما روي أنَّهم أقحطوا سبع سنين وكادوا يهلكون، وَلَمَّا أرسل الله إليهم المطر نسبوه إلى الأصنام أو الأنواء والكواكب، ويقولون مطرنا بنوء كذا، أي بسقوط نجم كذا في المغرب، من المنازل الثمانية والعشرين وطلوع مقابله من المشرق في الفجر، ويضيفون البرد والرياح والأمطار إلى الساقط، وقال الأصمعي: إلى الطالع، وذلك في كلِّ ثلاثة عشر يوما إلَّا الجبهة فأربعة عشر.

وليس غرضهم من طلب الآيات طلب الحقِّ والتأمُّل بل غرضهم العناد والعنَت، فلو نزلت كلُّ آية لم يؤمنوا، والمراد بالآيات غير المتلوَّة، قال زيد بن خالد: قال رسول الله ﷺ: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالنجم، وكافر بي ومؤمن بالنجم، فأمَّا من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالنجم، وأمَّا من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالنجم**»[1]، وإنَّما كفر لاعتقاده أنَّ النجم مستقلٌّ بالمطر، ولا كفر بقول: مطرنا عندها مع نية أنَّ الإمطار بإذن الله ولا تأثير في النجم لذلك، [قلت:] ولا يجوز [أن نقول] للنجم تأثير بِقُوَّةٍ أودعها الله فيه استقلالا فإنَّ هذا إشراك، وأمَّا بِقُوَّةٍ أودعها الله تعالى فيه تؤثِّر بإذنه وعلمه وخلقه الأثر فلا بأس، وشهر المنع، وهكذا سائر الأسباب.

(1) حديث قدسي، تقدَّم تخريجه، انظر: ج4، ص369.

﴿قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ منكم أي أسرع مجازاة منكم في سرعة مكركم، وسرعتهم معبَّر عنها بـ«إِذَا» الفجائيَّة، سمَّى المجازاة مكرا لأنَّ المكر سببها وملزومها، وذلك مشاكلة، ويجوز أن يكون المكر مستعارا للاستدراج، فإنَّ معاملة الله معهم بما يحبُّون مع إقامتهم على المعصية في صورة المكر والخديعة، وعلَّل الأسرعيَّة بقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ يعني الحفظة يكتبونه لئلَّا تنكروه، فلم يخف عنهم فكيف عن الله، فلا بدَّ من الانتقام، لأنَّ الحفظة والكتابة إنَّما هما للجزاء.

وسمَّى الملائكة رسلا هنا كما في سورة فاطر [آية: 01] لأنَّهم يبلِّغون أعمالهم إلى الله ﷻ، وهو أعلم بها منهم، والتكلُّم هنا مناسب له في قوله: ﴿أَذَقْنَا﴾ فلا التفات، فلا تهم، فإنَّ قوله: ﴿قُلِ اللّهُ﴾ لا يقابل ذلك، لأَنَّهُ أمر، فكيف يكون مدخول «قُلْ» وهو لفظ الجلالة مقابلا للتكلُّم حتَّى يقال: التفات من الغيبة، إلَّا إن كان هذا من مقول القول، فيكون الأصل: إنَّ رسله، ولا حاجة إلى ذلك، بل أخبر الله تعالى رسوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ...﴾ كما أمره بالقول. و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي يكتبون مكركم؛ أو اسم، أي ما تمكرونه على تضمين «تَمْكُرُ» معنى تعمل في خفاء.

﴿هُوَ الذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يصيِّركم سائرين في البرِّ مشاة وركبانا وفي البحر في السفن. ﴿حَتَّى﴾ ابتدائيَّة تفريعيَّة لا للغاية، ولو تضمَّن التفريع معنى الغاية كأنَّه قيل: فإذا كنتم في البحر واشتدَّ أمره عليكم وظننتم أنَّكم هلكى دعوتم الله، فإذا فرَّج عليكم الله رجعتم إلى الشرك، ووجه الغاية ـ إن قيل بها ـ أَنَّ المعنى: يسيِّركم في البرِّ والبحر إلى وقت حصول شدَّة البحر والظنِّ والدعاء والرجوع إلى الكفر، فإنَّ بعضا يجرُّ «إِذَا» بـ«حَتَّى»؛ أو يمكِّنكم من السير حتَّى يحصل ذلك المذكور في قوله: ﴿إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ الضمُّ والسكون فيه دالَّان على الجمع بواسطة قرينة كبُدْن وأُسْد، ومفرده مثله كقُرب

وقُفل، بدون أن يدلَّا على شـيء فيه، والقرينة أَنَّ ضمَّه وسكونه للجمع قوله: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ بنون الإناث كمـا دلَّ النعت بالمفرد على الإفـراد في قوله ﷻ: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [سورة الشعراء: 119]. ﴿بِهِم﴾ الباء للمصاحبة، ويضعف كونها للتعدية، أي وأجريناهم، لأنَّ إطلاق الجري عليهم مجاز، لأنَّها الجارية. ومقتضـى الظاهر: «بِكُـمْ» للخطاب في «كُنتُـمْ»، وجاء بالغيبـة إعراضا عن خطابهم لعدم لياقتهم بعزِّ الخطاب، إذ هم رجس لائقون بالحجاب.

وحكى لغيرهم عيوبهم ليتعجَّب منها أولوا الألباب. [قلت:] وأمَّا قول أبي حيان: إنَّ مضمون الخطاب في قوله: ﴿يُسَيِّرُكُمْ...﴾ نعمة للمؤمن والكافر حتَّى وصل ذكر السوء وما يتمهَّد له قبله صرف الخطاب إلى الكفَّار فقريب من ذلك، لكن يوهـم أنَّ الخطاب للمؤمنيـن والكافرين وليس ذلك مـراده، فإنَّه للكافر خَاصَّةً، وإنَّما أراد أن يذكر لك أنَّ ما أنعم عليهم به يكون لهم وللمؤمنين.

﴿بِرِيحٍ﴾ الباء للآلة، وعلى فرض الأولى للتعدية فهذه للمصاحبة ﴿طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ ليِّنـة الهبوب إلى جهة المقصـد، ﴿جَآءَتْهَا﴾ الضمير عائد إلى الريح أي عارضتها ريح مضادَّة لها فذهبت هي ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ فإنَّ العاصفة ضدُّها الليِّنـة، لأنَّها ضدُّ الليِّنة، وهـذا أولى من عوده للفلـك لقرب الريح، ولتقدُّم الإضمار لـه في قولـه: ﴿بِهَا﴾، ولأنَّه لـم يقل: جاءتهـنَّ كما قال: ﴿وَجَرَيْنَ﴾. و«عَاصِفٌ» للنَّسـب كتَامِر ولَابِن، لا اسـم فاعل، لأَنَّهُ لا يقال: عصفت الريح، ولذلك ذكِّر مع أنَّ الريح مؤنَّث، كذا قيل، ولا أقول بذلك، بل يقال: عصفت الريح تعصف بمعنى اشتدَّت، فهي عاصفة وعاصف.

﴿وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ تأهَّل المجيء منه كقوله تعالى: ﴿تُدَمِّر كُلَ شَـيْءٍ﴾ [سورة الأحقاف: 25] أي كلَّ شـيء أتت عليه لا كلَّ شـيء مطلقا. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمُۥٓ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي حُبسوا عن النجاة كما يحيط العدوُّ أو الحريق، فيترجَّح فيه الهلاك.

[بلاغة] أو هو استعارة تبعيَّة شبَّه شــدَّة الموج بإحاطة العدوِّ مثلا بهم، واشــتقَّ منها «أُحِيطَ» علــى التبعيَّة، وهــذا ضعيف لصحَّة بقائــه على معناه الأصلي بلا ضعف، ولا داع إلى غيره، وبعد أن صير إلى الاســتعارة، فكلَّما أمكنت الاســتعارة التمثيليَّة بــلا ضعف صير إليهــا، فتقول: شُــبِّهت الهيئة المنتزعةُ من شــدَّةِ هبوبِ الريح وظهورِ الموج من كلِّ مكان وحركةِ السفينةِ الحركةَ الشــديدةَ بالهيئة المنتزعة من العدوِّ من إحاطته بشــخص من جميع جهاته بحيث لا يرجى خلاصه.

﴿**دَعَــوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ اســتئناف بياني، كأنَّــه قيل: فما فعلوا؟ فقال: ﴿دَعَوُاْ اللهَ...﴾؛ أو بدل اشــتمال، لأنَّ بين ظنِّ الإحاطة والدعاء ملابسة بغير الكلِّيَّة والجزئيَّة واســتدعاء، ولا يقال: الثاني أولى لعــدم الحذف، لأَنَّا نقول الحــذف في الاســتئناف البياني كلاحــذف، إذ لا حظَّ له فــي التقدير اللفظيِّ، وإنَّما هو اعتبار. و«الدِّينَ» الأُلُوهيَّة، أي خصُّوه بالأُلُوهِيَّة رجوعا إلى الفطرة التي خلقوا عليها، لَمَّا زال عنهم عوارضها من شدَّة الخوف من الغرق، وزعم بعض أنَّ دعاءهم: «أهَيَا شَــرُ هْيَا»، وأنَّ معناه: يــا حي يا قيُّوم، وفيه أنَّ ذلك لغة عجم من كلام اليهود، ولعلَّه اتَّصَلَ إليهم من اليهود.

وقوله: ﴿**لَئِنَ اَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ**﴾ أي هذه الريح الداهية؛ أو هذه الأهوال ﴿**لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ هذا مع ما قبله مفعول لحال محذوفة، أي قائلين والله: لئــن أنجيتنــا؛ أو لِـ «دَعَــوا» لتضمُّنه معنــى القول، والشــاكرون: الموحِّدون المطيعون.

ركب عكرمة بن أبي جهل البحر فهاج بهم وتضرَّعوا إلى الله وحده، فقال ما لكم؟ فقالوا: هذا لا ينفع فيه إلَّا الله، فقال: هذا هــو إله مُحَمَّد فاتَّبعوه ولا تخالفوه، إن الــذي ينجي في البحر هو الذي ينجي فــي البرِّ لئن خلَّصني الله لآتينَّ محَمَّدًا فأومن به، ففعل وصَدَقَ.

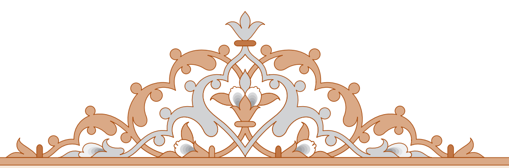
﴿فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ﴾ إلى البرِّ كما دعوا إجابة لدعائهم ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الَارْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بالإشراك وسائر المعاصي بلا بطء، فإنَّ «إِذَا» للمفاجأة، والبغي بمعنى مجاوزة الحدِّ، قد يكون بالحقِّ كقتل المشركين وهدم دورهم وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم، كما فعل ﷺ بقريظة، وكقتل الخضر الغلام وخرق السفينة، فاحترز عنه بقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وهذا كما قال: ﴿طَغَى الْمَآءُ﴾ [سورة الحاقَّة: 11]، وأولى من هذا أن يكون «بِغَيْرِ الْحَقِّ» تأكيد لـ«يَبْغُونَ»؛ أو بغير الحقِّ عندهم، ولا سيما عند غيرهم.

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هو على عمومه لا على خصوص أهل مَكَّة ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ فلا تَحُومُوا حوله، والعاقل لا يسعى في إهلاك نفسه، فإنَّ عاقبته عليكم ولو أوقعتموه على غيركم.

يا صاحب البغي إنَّ البغي مصْرَعَةٌ فَارْبَعْ، فخير فعال المرء أَعْدَلُه
فلو بغى جبلٌ يومًا على جبل لانـدكَّ منه أعاليه وأسفله

[بلاغة] وسمَّى الإثم بغيا لأنَّ البغي سببه وملزومه؛ أو يقدَّر مضاف، أي إثم بَغْيِكم؛ أو وبالُ بغيكم؛ أو شبَّه على طريق الاستعارة بغيه على غيره بإيقاعه على نفسه، لأنَّ العقاب عليه، كما قال: ﴿وَمَنَ اَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [سورة الجاثية: 15]؛ أو «أَنفُسِكُمْ»: أمثالكم على العموم، وهذا أولى؛ أو أبناء جنسكم على الخصوص، لأَنَّهُ كنفس واحدة، وهو استعارة، و«عَلَى أَنفُسِكُمْ» خبر، وقوله: ﴿مَّتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ خبر ثان؛ أو خبر لمحذوف، أي هو متاع؛ أو متعلِّق بـ«بَغْيُ»، و«مَتَاعُ» خَبَرٌ، أي تتمتَّعون به قليلا، لأنَّ الدنيا كلَّها قليلة فكيف عمر الإنسان منها.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ...﴾ عطف قصَّة على أخرى؛ أو على محذوف أي تتمتَّعون قليلا ثمَّ إلينا، وفي هذا عطف للاسميَّة على الفِعلِيَّة، لقصد الثبات والحصر بتقديم الظرف ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ نجازيكم.



﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ اَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْاَرْضِ مِمَّا يَاكُلُ النَّاسُ وَالْاَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْاَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَيٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا اَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْاَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْاٰيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿24﴾﴾

مثل الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها

﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ أي صفتها العجيبة الشبيهة بالمثل السائر في الغرابة، ووجه الشبه الاغترار وسرعة الزوال ﴿**كَمَآءٍ اَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْاَرْضِ**﴾ «نَبَاتُ» فاعل «اخْتَلَطَ»، أي نبت بالماء ما لم يكن ونما هو وما كان من قبل حتَّى اتَّصَلَ بعضه ببعض، ويجوز أن يكون فاعل «اخْتَلَطَ» ضمير الماء، و«بِهِ» خبر «نَبَاتُ»، أي كثر الماء وَاتَّصَلَ بعضه ببعض، والحال أنَّ «بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ» وما تقدَّم أولى ﴿**مِمَّا يَاكُلُ النَّاسُ**﴾ حال من النبات، وذلك كالبرِّ والشعير والذرة والسلت، وغير ذلك مِمَّا يزرع، والبقول ﴿**وَالَانْعَامُ**﴾ من العشب الرطب واليابس، وسوقُ الزرع وقشره وورقُه. ﴿**حَتَّىٰٓ**﴾ تفريعيَّة، وعلى قول الغاية يقدَّر: ما زال ينمو حتَّى ﴿**إِذَآ أَخَذَتِ الْاَرْضُ زُخْرُفَهَا**﴾ ذهبها مجازا؛ أو زينتها من أنواع النبات. شبَّه الأرض بعروس ورمز لذلك بأخذ الزينة كما تتناول العروس حُليَّها وتلبسه، ورشَّح ذلك بقوله: ﴿**وَازَّيَّنَتْ**﴾ أصله: «تَزَيَّنَتْ» كما قرأ به الأعرج والشعبيُّ وأبو العالية ونصر بن عاصم والحسن، أبدل التاء زايا وأدغمها فسكَّن الأوَّل فجاءت همزة الوصل، وذلك بأزهارها: أبيض وأخضر وأصفر وأحمر وأسود.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ أهل الأرض؛ أو أهل الزروع؛ أو أهل الثمرة؛ أو أهل الزينة، والأوّل أولى للتصريح بالأرض، وأمّا غيره فيفهم من الألفاظ، والضمائر بعدُ تابعة لهذه الأوجه، وعود الضمائر للأرض مع الحذف كما ترى بعدُ أولى. ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ متمكّنون من تحصيل ثمارها وبقولها ومنافعها ﴿أَتَاهَا﴾ أي أتى نباتها ﴿أَمْرُنَا﴾ قضاؤنا أو قدرنا، ببرد، أو حرٍّ، أو ريح، أو حبّ الغمام، أو نحو ذلك ﴿لَيْلاً اَوْ نَهَارًا﴾ تارة ليلا وتارة نهارا، وسواء زمان غفلتهم كليل، وزمان عدم غفلتهم، إذ لا قدرة لهم على دفع أمر الله تعالى، وفي ذكر الليل والنهار تلويح إلى ذلك ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ جعلنا نباتها ﴿حَصِيدًا﴾ أي مثل حصيد كزرع محصود بالمناجل، وحذف المضاف في قوله: ﴿أَتَاهَا﴾ و﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ كما رأيت للمبالغة كأنّه أتى القضاء أو القدر نفسه، وجعل الأرض نفسها حصيدا. وكذا حذَفَ [المضاف] مُبالغة في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالَامْسِ﴾ أي كأنّه أي الشأن؛ أو كأنّها أي القصّة؛ أو كأنّ الأرض أي نباتها، لم يلبث أي لم يلبث نباتها بالأمس، وهو اليوم الذي قبل يومه، وهذا لكونه أبلغ في التوضيح والتمثيل، وأقرب لأنّه واقع على ظاهره أولى من تفسيره بمطلق الزمان الماضي.

[بلاغة] شبّه الهيئة المنتزعة من مجموع الحياة الدنيا وسرعة انقضائها وذهاب نعيمها بعد حصولها بالهيئة المنتزعة من مجموع خضرة النبات والزروع وبهجتها وزوالها فجْأَةً وكونها حطاما بعد ما كان غَضًّا طريًّا، ووجه الشبه الهيئة الِاجتِمَاعِيّة من مطلق سرعة الانقضاء بعد الإقبال والاغترار، وإن شئت فقل في ﴿أَخَذَتِ الَارْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ استعارة تمثيليّة، شبّهت الهيئة المنتزعة من الأرض وأصناف النبات وألوانها، بالهيئة المجتمعة من العروس وتلبُّسها بأنواع الثياب ذوات ألوان والتحلّي بما هو زينة؛ أو شبّه نباتها بالهالك، أي جعلنا نباتها هالكا، فشبّه الهالك بالحصيد، وأقيم اسم المشبّه به مقامه.

﴿كَذَالِكَ نُفَصِّلُ﴾ نُبَيِّنُ ﴿الْآيَاتِ﴾ آيات القرآن ومنها هذه الآية، أو الدلائل من إنزال الماء والإنبات به وإذهاب نباتها بعد كماله، إلَّا أنَّ التفصيل في قوله ﷻ: ﴿نُفَصِّلُ﴾ لا يتبادر إلى ذلك، ويحتاج إلى تفسير بالتصريف على الترتيب المذكور، من الإيجاد والإعدام وتقديم السبب وهو الماء، إلَّا أنَّ فيه حكمة هي التنبيه على أحوال الدنيا عموما حالا ومآلا. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وغيْرِهم، وخَصَّهم لأنَّهم المنتفعون بها، وعن أبي مجلز[1] كان مكتوبا إلى جنب هذه الآية فنسخ: «ولو أَنَّ لابن آدم واديين من ذهب لتمنَّى ثالثا، ولا يشبع نفس ابن آدم إلَّا التراب، ويتوب الله على من تاب».

(1) تقدَّم التعريف به في ج5، ص62.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٢٥ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧﴾

الترغيب في الجَنَّة ووصف حال المحسنين والمسيئين في الآخرة

﴿**وَاللّهُ يَدْعُواْ**﴾ كلَّ أحد بأمره بالإيمان والتقوى، وهو دعاء يشمل السعداء والأشقياء ﴿**إِلَىٰ دَارِ السَّلاَمِ**﴾ هي الجَنَّة، دار السلام من الفناء والآفات، وسلام الله والملائكة على من يدخلها ﴿والْمَلآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الرعد: 23ـ24]، ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [سورة يس: 58].

رغَّب الله الناس بما تبقى زينته بعد تنفيرهم عن الدنيا التي لا تبقى، وعنه ﷺ: «**ما من يوم تطلع فيه الشمس إلَّا وبجنبها ملكان يناديان يسمعهما كلُّ شيء إلَّا الثقلين، يا أَيُّهَا الناس هلمُّوا إلى ربِّكم، والله يدعو إلى دار السلام**»(1).

ويجوز أن يكون السلام الله ﷻ: ﴿السَّلاَمُ الْمُومِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [سورة الحشر: 23]. وخصَّ من أسمائه ليدلَّهم على السلامة مِمَّا ذكره من الآفات.

(1) تقدَّم تخريجه في ج2، ص150.



[أصول الدين] ﴿وَيَهْدِي﴾ هداية توفيق، والشقيُّ لم يرد الله اهتداءه توفيقا، وأمر الله عَجَلَ كما في قوله: ﴿يَدْعُو﴾ غير الإرادة كما في قوله: ﴿يَهْدِي﴾، وإرادته لا تتخلَّف وأمره يتخلَّف، أعني أنَّه يأمر ويُعْصَى. ﴿مَنْ يَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾ يوصلهم إلى دار السلام ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين الإسلام، فعل الطاعة والتقوى، وهي أيضا طاعة وفعل.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ بالعمل والتقوى ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ بمعنى الجَنَّة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ دوام رضاء الله عليهم، أو غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، كما روي عن عليٍّ وجابر بن زيد، أو ما في الدنيا لا يحاسبهم عليه كما حاسب الكُفَّار، أو المغفرة، أو الحسنى مقابل الحسنة.

والزيادة التسع فصاعدا فإنَّ الحسنة بعشر إلى سبع مائة وأكثر، كقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [سورة ق: 35]، ويدلُّ له أنَّه قابله بقوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾. و«الْحُسْنَى» تأنيث الأحسن، كأنَّه قيل: الجنَّة الحسنة، أو المثوبة الحسنى. أو الزيادة: سحابة تمرُّ وتقول: يا أهل الجنَّة ما تريدون أن أمطركم؟ فكلُّ ما شاءوا أمطرته.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ لا يغشاها؛ أو يقربها، كقوله: غلام مراهق، أي قارب البلوغ ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد، أو دخان ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾[1] من الحزن وسوء الحال وما يظهر على الوجه، وذلك مجاز لعلاقة اللزوم والتسبُّب، وهذا أمدح، فإنَّ نفي التسبُّب واللزوم في السوء أبلغ من نفي السوء، وإنَّما أخَّر ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ عن قوله: ﴿لِلذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ مع أنَّ التخلِّي قبل التحلِّي، ومع أنَّ دخول الجَنَّة بعد النجاة من النار لأنَّ ذلك سيق مساق التذكير للنعمة التي فاتت

(1) في نسخة ج زيادة: «﴿وَلاَ ذِلَّةٌ﴾ انكسار وأثر هوان، وانكساف بال، أو لا يعرض لهم ما يوجب قترا ولا ذلَّة».

العدوَّ، فإنَّ انتفاء الرهق والذلَّة نعمة فاتت الأعداء وهم أهل النار، فكأنَّه قيل: أبشروا بالفوز والنجاة مِمَّا عليهم من الرهق والذلِّ، وخزيُ العدوِّ لذَّةٌ ومسرَّة لأهل الجَنَّة.

[أصول الدين] وفي الآية دليل على خلود الفاسق في النار، فلو كان يخرج لنافى هذه الآية، لأنَّه إذا دخلها يرهق بالقتر ويذلُّ، وكذلك إذا قلنا: المعنى لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال، وقولهم: المراد في الآية نفي الدوام حَتَّى لا تنافِيَ خروج الفاسق دعوى بلا دليل.

[نحو] وجملة «لَا يَرْهَقُ...» عطفت على «لِلذِينَ أَحْسَنُواْ...» عطف فِعلِيَّة على اسمِيَّة، ولا بأس بذلك، أو عطف مصدرها على «الْحُسْنَى» على حذف «أن» المَصدَرِيَّة ورفع الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ـ ايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ [سورة الروم: 24] في أحد أوجه، أي للذين أحسنوا الحسنى، وانتفاء رهق وجوههم قتر، وانتفاء ذلَّة. و«لَا» النافية من الجملة والمصدر من معناها مضاف للمصدر من «يَرْهَقُ».

﴿**أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ لا كالدنيا تخرج عن أهلها ويخرجون عنها، والعاقل يرغب في الدائم الخالص لا في سريع الفناء المتكدِّر.

﴿**وَالذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ**﴾ الشرك أو الكبائر، ومن الكبائر الصغائر المصَرُّ عليها، وكلُّ ذلك موجب للخلود في النار، وهو مبتدأ، ولا يخبر عنه بقوله: ﴿**جَزَآءُ سَيِّئَةٍ**﴾ لأنَّ الذَّات لا يخبر عنها بالمعاني، والأوائل تأخذ مكانها فيعتبر ما يلحق بها، فإن لم يوجد قُدِّر في الأواخر لأنَّها محلّ التغيير، والتقدير في الأوائل تقديرٌ قبل الحاجة إليه، فيقدَّر هنا: «ذَوُو جزاءٍ» أولى من أن يقدَّر: «وجزاء الذين كسبوا السيِّئات جزاء سيِّئة»، وقوله: ﴿**بِمِثْلِهَا**﴾ متعلِّق بـ«جَزَاءُ»؛ أو هو مبتدأ وخبره: «بِمِثْلِهَا» متعلِّق بمحذوف، أي مقدَّر بمثلها.

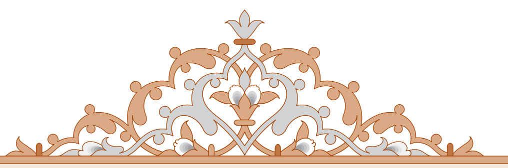
[نحو] أو «مِثْلِ» خبر والباء زائد والجملة خبر «الذِينَ» والرابط محذوف، أي جزاء سيِّئة منهم، أو سيِّئة لهم، وهذا المقدَّر نعت لـ«سَيِّئَة»؛ أو «جَزَاءُ» مبتدأ خبره محذوف، أي لهم جزاء سيِّئة بمثلها، والجملة خبر «الذِينَ» وهو أنسب بقوله: ﴿لِلذِينَ أَحْسَنُواْ...﴾ أي لهؤلاء الحسنى ولهؤلاء جزاء سيِّئة بمثلها، وهذا في معنى عطف «الذِينَ» على «الذِينَ» و«سَيِّئَة» على «الْحُسْنَى» عطف معمولين على معمولي عاملين مختلفين، منعه سيبويه مطلقا وأجازه الفرَّاء مطلقا، وأجازه الجمهور بشرط تقدُّم المجرور كما في الآية، فيجوز في الدار عمرو والحجرةِ زيدٌ، بجرِّ الحجرة، ولا يجوز عمرو في الدار والحجرة زيد، أو خبر «الذِينَ» «مَا لَهُم...»؛ أو «كَأَنَّمَا...»، وفيه الفصل بثلاث جمل، أو «أُوْلَئِكَ...» بالفصل بأربع.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ عطف على «كَسَبُوا» عطف مضارعيَّة على ماضويَّة، ولا ضعف في ذلك لأنَّ حاصله الإخبار بأنَّه كان كذا فيما مضى، ويكون كذا في المستقبل؛ أو عطف على ما قبله عطفا معنويًّا، كعطف التوهُّم، كأنَّه قيل: والذين كسبوا السيِّئات تجازى سيِّئاتُهم بمثلها وترهقهم ذلَّة.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ﴾ أي من عذاب الله، على حذف مضاف؛ ويجوز أن لا يقدَّر مضافا كما تقول: جاءني كتاب من زيد ويتعلَّق بمحذوف حال من ضمير الاستقرار، وَقِيلَ: حال من «عَاصِمٍ»، وفيه مجيء الحال من المبتدإ دون وجود شرطه، والمشهور منعه، لأنَّ عامله الابتداء، وكيف يعمل الابتداء في الحال، ويكون مقيَّدًا بالحال؟. ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ الجملة حال من هاء «تَرْهَقُهُمْ». ما لهم عاصم من عذابه إذا جاءهم، أي مانع، بخلاف المؤمنين فإنَّ عملهم عاصم برحمة الله من عذابه، والملائكة والأنبياء والعلماء والشهداء يشفعون.

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ فيه نيابة المفعول الثاني من باب أعطى لعدم اللبس، كقوله: أُعطي درهم زيدًا، فإنَّ «قِطَعًا» هو الأوَّل لأنَّه

الفاعل في المعنى فلا تهم، فإنَّ المُصَيَّرَ غاشيا هو قطعٌ تغشى الوجوه لا الوجوه تغشاها، اللهمَّ إلَّا مبالغة في استحقاق السوء، كأنَّ الوجوه هي الطالبة لأن تغشى القطع، والمفرد: قِطْعَةٌ ـ بكسر القاف ـ كسدرة وسدر. ﴿**مِّنَ اللَّيْلِ**﴾ نعت «قِطَعًا». و«مِن» للتبعيض؛ أو للبيان. ﴿**مُظْلِمًا**﴾ حال من «اللَّيْلِ» وناصبه «أُغْشِيَتْ» إن جعلنا «مِنَ اللَّيْلِ» متعلِّقا بـ«أُغْشِيَتْ» و«مِن» للابتداء أو متعلَّق الليل، أي ثابتة من الليل حال كونه مظلما. ﴿**أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.



﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30)﴾

حشر الخلائق وتبرُّؤ الشركاء من المشركين ومن عبادتهم

﴿وَيَوْمَ﴾ اذكر لهم، أو ذكِّرهم يوم ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ أي الخلق، وأخَّر ذكر يوم الحشر مع أنَّه متقدِّم على ما قبله من الخزي والعذاب والنار تلويحا بأنَّ كلًّا من السابق واللاحق مستقلٌّ بالاعتبار، ولو قُدِّمَ ذكره على ما ذكر قبله لكان مساق الآية أنَّ ذلك كلَّه معتبر واحد.

﴿جَمِيعًا﴾ المشركين والموحِّدين، وإن أريد المشركون فالإظهار في قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ للتشنيع بالشرك، فمقتضى الظاهر: ثمَّ نقول لهم، وإن أريد بهاء «نَحْشُرُهُمْ» الخلقُ المؤمنُ والكافرُ فالتقدير: للذين أشركوا منهم. و«شُرَكَاءُ» معطوف على المستتر في «مَكَانَكُمْ»، لأنَّ المعنى: اِلزموا مكثكم حتَّى تروا ما يفعل بكم، وقد فصِّل بتأكيده وهو «أَنتُمْ»، وقال الفارسي: «مَكَانَكُم» اسم فعل وفتحه بناءٌ، ومعناه: اثبتوا ولا تنتقلوا. ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ فرَّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وقطعنا الوصل الذي كان بينهم.

[صرف] والمفعول به محذوف تقديره الوصل، وبين ظرف، وأجاز بعض أن يكون مفعولا به ومعناه الوصل، وشُدَّ للمبالغة لأنَّه يقال: زال ضأنه من معزه

ويَزيلها بفتح الياء الأولى وعينه ياء، ولا يجوز أن يقال: من زال يزول وهو لازم شُدَّ للتعدية، وأنَّ أصله: «زوَّلنا» بشدِّ الواو، لأنَّه لو كان كذلك لم يكن بياء مشدَّدة، بل يكون بواو مشدَّدة إذ لا موجب للقلب، ولا أن يقال: أصله «زَيْوَلنا» قلبت الواو ياء وأدغمت فيها ياء الإلحاق بدحرج، لأَنَّ باب الإلحاق خلاف الأصل، فلا يرتكب بلا حجَّة، وعلى فرض الإلحاق يكون المصدر «فيعلة» كدحرجه، لا «تفعيل» كتقديس، إذا استعملناه، ومقتضى الظاهر: «فنُزيِّل» بينهم بشدِّ الياء. وصيغة المضارع كـ«نَقُولُ» و«نَحْشُرُ» لَكِنَّ الماضي لتحقُّق الوقوع كأنَّه وقع.

وكذا في قوله: ﴿**وَقَالَ**﴾ بلسان الحال؛ أو لسان القال ﴿**شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمُۥٓ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ**﴾ وأضاف الشركاء هناك وهنا إليهم، لأنَّهم هم المثبتون الشركة بين الله وبين أصنامهم، والإضافة تسوغ لأدنى ملابسة، أو لأنَّها شريكة لهم في مالهم باختيارهم إذ جعلوا لها، نصيبا في أموالهم، يُنطقها الله فتنفي أن تكون معبودة لأنَّها لا شعور لها. وعلى فرض أنَّ الله أعلم الشركاء يوم القيامة بأنَّ المشركين في الدنيا عبدوها يكون إنكارها دهشا، أو باعتبار نفي منفعة عبادتهم لها، فكأنَّهم لم يعبدوها؛ أو باعتبارهم عبدوا الشياطين والأهواء، لأنَّها الآمرة بالإشراك، وأمَّا الشركاء فلم تأمرهم بعبادتها ولا أرادت أن تعبد.

وَقِيلَ: الشركاء عيسى والملائكة، وَقِيلَ: الشياطين وفيه أنَّ الشياطين عالمون بعبادة المشركين لهم، وَقِيلَ: الملائكة، ولا يلزم علمهم بها، وقد لا تعلم الشياطين، لأنَّهم يوسوسون ويمضون في شأنهم، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَآئِكَةِ أَهَؤُلَآءِ اِيَّاكُم كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ [سورة سبأ: 40] ﴿ءَآنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ...﴾ [سورة المائدة: 116] ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [سورة إبراهيم: 22] والعرب ما عبدت عيسى بل النصارى عبدته، وخزاعة خَاصَّةً من العرب عبدت الملائكة.

ويدلُّ على أنَّ المراد الأصنام قيل قوله تعالى: ﴿**فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداَۢ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم**﴾ حيث استشهدوا به تعالى، وقوله تعالى: ﴿**إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ**

لَغَافِلِينَ﴾ ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ﴾ [سورة سبأ: 41] حيث أثبتوا لهم عبادة، إلَّا أنهم زعموا أنَّهم غافلون عنها، وقد يقال: نطقت الأصنام بذلك بعد إعلام الله تعالى لها، ولا علم لها حال العبادة إذ لا شعور للجماد، فالمشركون في الحقيقة عبدوا الشياطين وأهواءهم.

و«إِنْ» مخفَّفة، أي إنَّه، أي الشأن، أو إنَّنا، وقدَّم «إِيَّانَا» للاهتمام والفاصلة وقصر القلب. وفي الآية تلقِّي الشدَّة من الشركاء بالإنكار في مقام ترجِّي الشفاعة، وذلك من أعظم شيء أن يكون الشرُّ حيث يُرجى الخير. وإيضاح القلب أنَّهم يقولون: ما عبدنا إلَّا إيَّاكُم أَيُّهَا الأصنام، فتقول الأصنام: ما إيَّانا عبدتم كما قلتم، بل عبدتم الشياطين والأهواء، فصحَّ الحصر لا كما قيل لا يصحُّ، تنصبُ الأصنامُ فتقول: والله ما كُنَّا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنَّكم عبدتمونا، فيقولون: والله إيَّاكم كُنَّا نعبد ﴿فَكَفَىٰ بِاللهِ﴾ كما قاله مجاهد، فهو صريح في الحصر، والمراد بالغفلة عدم علمها بالعبادة وعدم الرضا بها.

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام المهول المدهش، أي المكان الحقيق وهو أرض الموقف، أو الشأن، وهو مكان مجازا، ويجوز أن تكون ظرف زمان أي في ذلك اليوم على الاستعارة، كقوله: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُومِنُونَ﴾ [سورة الأحزاب: 11][1] وقدَّم «هُنَالِكَ» لتعظيم المقام.

﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ تختبر كلُّ نفس مؤمنة أو كافرة ما قدَّمت من خير أو شرٍّ؛ ويجوز أن يراد المشركون خاصَّة. ووجه الاختبار أنَّ النفس قد تنسى فترتقب ما لها أو ما عليها، فذلك الترقُّب كالاختبار، أو «تَبْلُو» مجاز عن تعرف، لأنَّ الاختبار سبب للمعرفة وملزوم لها، ومعرفة ما أسلفت من العمل معرفة لجزائه من خير أو شرٍّ؛ أو يقدَّر مضاف أي جزاء ما أسلفت؛ أو ما أسلفت هو الجزاء، لأنَّ تقديم موجبه في الدنيا تقديم له.

---

(1) في نسخة ج زيادة: «مع جواز أن تكون فيه للمكان أي في ذلك المقام ابتلي المؤمنون».

﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُـمُ الْحَقِّ﴾ عطف على «تَبْلُـو»، والضميران لكلِّ نفس، والجمع باعتبار أنَّ الردَّ على طريـق الاجتماع لا كلُّ نفس على حدَة، رُدَّ الذين أشـركوا إلى جزاء الله، والردُّ معنويٌّ، أو رُدُّوا إلى موضع جزاء الله، فالردُّ حسِّـيٌّ، وأضيف المولى إليهم باعتبار أنَّه مَآلُهُم يُرَدُّون إليه للعقاب ردَّ العبدِ العاصي إلى مولاه ليضربه ويسجنه مثلا، وإذا قيل: ليس الله مولى لهم، فمعناه أنَّه لا ينصرهم، فلا منافاة بين قولـه: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِيـنَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [سـورة محمد: 11]، لأنَّ معنـى الولاية في كلِّ واحدة غيره في الأخرى.

ولا يصحُّ القول عن السـدِّي: إنَّ الأولى منسوخة بالثانية، لأنَّ الإخبار لا يدخله النسـخ، ولأنَّه لا بدَّ أنَّ الله مولى الذين آمنوا في نفعهم، وأنَّه لا بدَّ أنَّه غير مولى للذين كفروا في نفعهم في الآخـرة وأمر الدين، ووصفه بالحقِّ أي الثابت ردًّا عليهم في اتِّخَاذ الآلهة الباطلة التي ليسـت بحـقٍّ، التي لا تتولَّى أمرهم وإنَّما متولِّي أمرهم الله.

﴿وَضَلَّ﴾ غاب ﴿عَنْهُم﴾ الضمير للمشـركين خَاصَّةً فـي الموقف، فلا ينافي قوله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [سـورة الأنبياء: 98]. ولا وجه للتوقُّـف في الأصنام هل تبقى بعد إحضارهـا أو تفنى مع هذه الآية، ويظهر لي أنَّها تعقل في المحشـر وتنطق بإذن الله ﷻ، ثمَّ يزال عقلها ونطقها كحالها قبـل، وتدخل معهم النار يعذَّبون بها ويستحسـرون بها. ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ يُثبتونه آلهة على الكذب، ويجوز أن يراد بالضلال عدم النفع، أو المعنى: ضلَّ عنهم كونهم يفترون أنَّ آلهتهم تشفع لهم.



﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (32) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36)﴾

إثبات التوحيد والربوبية لله تعالى والبعث

﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالَارْضِ**﴾ أي من يجمع لكم الرزق منهما، يحصِّله منهما معا لا من واحد فقط، فإنَّ الطعام بالماء وبالأرض، فالإنسان يشرب الماء ويعمل الطعام به والطعام بالنبات بالماء والحيوان بالنبات والماء، وأيضا النبات باختلاف الفصول حرارة وبردًا وَتوسُّطا، وحرارة الشمس والقمر والأرض بحرارتها شتاء وبردها صيفا. ويجوز أن يكون أنَّ لكم رزقا من السماء وهو الماء ورزقا من الأرض. و«مِنْ» للابتداء.

ويجوز أن يكون المعنى: من يرزقكم من أهل السماء أو من أهل الأرض، فـ«مِنْ» للبيان، والمراد بأهل السماء والأرض غير الله، فإنَّه لا يجوز أن يكون

فيهما بل في كلِّ موضع بعلمه وقدرته وتصرُّفه. والاستفهام للتقرير، ويصحُّ للإنكار، أي لا رازق لكم من أهلهما، لأنَّ الرازق هو الله، ولا يتَّصف أنَّه من أهلهما، وعلى فرض وصف أنَّه من أهلهما باعتبار ملكه إيَّاهُما، فكأنَّهم قالوا يرزقنا الله لا غيره منهما.

[أصول الدين] والآية ردٌّ على القَدَرِيَّة [القائلين:] إنَّ الحلال رزق من الله تعالى والحرام يرزقه الإنسان نفسه، فإنَّ الحرام أيضا رزق من الله تعالى يعاقب الإنسان على تناوله.

﴿**أَمَّنْ يَّمْلِكُ السَّمْعَ وَالَابْصَارَ**﴾ أي محالَّ السمع وهي الأذن، ومحالَّ البصر وهي الأبصار أي العيون، والسمع بمعنى الأَسماع بفتح الهمزة، ويجوز أن يكون معناه إدراك الصوت فيقدَّر: وبَصَرَ الأبصار، أي من يملك إدراك الأصوات ونظر الأبصار، فيقدَّر مضاف، وكان عليٌّ يقول: «سبحان من أبصر بشحْمٍ وأسمع بعظم وانطق بلحم».

ويجوز تفسير الملك باستطاعة خلق السمع والبصر وتسويتهما؛ أو بالحفظ من الآفات مع سرعة تأثُّرهما بالفساد بأدْنى شيء، وملك الشيء سبب للتصرُّف فيه، فلا يعجز عن التصرُّف والحفظ له، وقوله: ﴿أَمَّنْ يَّمْلِكُ السَّمْعَ وَالَابْصَارَ﴾ أعمُّ معنًى من قولك: أم مَّن يملك خلق السمع والأبصار؟ أو حفظ السمع والأبصار؟. وإفراد السمع لفظا لانفراد متعلَّقه وهو الأصوات بخلاف البصر وأخواتهما، أو لأنَّه مصدر. و«أَمْ» منقطعة بمعنى الإضراب الانتقالي بلا استفهامٍ لوجوده بـ«مَنْ» بعدها.

﴿**وَمَنْ يُّخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ الحيوان من النطفة ومن البيضة ومن الماء ومن العفونة الميِّتات، والنطفة وما في البيضة وهما مَيِّتات من الحيِّ، وكذا الحيوان إذا مات فهو ميِّت خرج من حيٍّ هو نفسه قبل الموت، فلا يخرج عن ذلك ما مات بعد خروجه من ميِّت وهو

جميع الحيوانات، والملائكة من ميِّت وهو النور والتسبيح، وإبليس من ميِّت هو النار، بل الملائكة حيوان بلا طعام ولا شراب ولا منهما، والحيوانات خلقت من طعام وشراب، ويصدق الميِّت على الوسائط كالطعام والنطفة والعلقة والمضغة واللحم والعظم، فكلُّ ذلك ميِّتات.

وفسَّر بعضهم الآية بالمؤمن من الكافر والعكس، وليس بظاهر، لأنَّ الآية سيقت وعظا للمشركين وهم لا يعتبرون ذلك، والآية شاملة للميِّت بلا تقدُّم حياة كالمتعفِّن الذي هو من تراب أو وسخ إذا تولَّد منه شيء.

﴿وَمَنْ يُّدَبِّرُ الَامْرَ﴾ في كلِّ مخلوق، وبين الخلائق الأجسام والأعراض، ما مضى وما حضر في الدنيا وما قبلها، وفي الآخرة وما يأتي، وهذا تعميم بعد تخصيص، ومعنى تدبير الأمر تحصيله على حسن العاقبة، أو تحصيل أسبابه وإيجادها بلا تفكُّر منه، والقول به إشراك لأنَّه تضمَّن جهلا وعجزا حاشاه.

وهذه خمسة أسئلة جوابها منهم كما قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ ويأتي سؤال سادس وسابع، وجوابهما من رسول الله ﷺ بتعليم الله ﷻ له لعدم قدرتهم عليه، وجواب الثامن لم يذكر. وإن جعلنا من يخرج الحيَّ من الميِّت ويخرج الميِّت من الحيِّ واحدا كانت سبعة. و«اللهُ» خبر لمحذوف تقديره فاعل ذلك كلِّه الله، أو هو الله، أو نحو ذلك، إذ لا يتمكَّنون من أن يقولوا: فعل ذلك غيره لظهوره، وإقرارهم به قديما وحديثا. ﴿فَقُلَ اَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أتهملون أنفسكم فلا تتَّقون عقابه؟ إذ كان هو الفاعل لذلك، وتتركون عبادة من لا يقدر على شيء.

﴿فَذَالِكُمُ﴾ أي المتَّصف بتلك الأفعال ﴿اللَّهُ﴾ خبر ﴿رَبُّكُمُ﴾ خبر ثان؛ أو بدل ﴿الْحَقُّ﴾ نعت «رَبُّكُمْ»، والفاء للتفريع والسَّببيَّة، لأنَّ فعله ذلك سبب لأن تسمُّوه وحده باسم الأُلُوهِيَّة وَالرُّبُوبِيَّة، ويجوز كون «اللهُ» بدلا أو بيانا فيكون محطَّ الكلام في الرُّبُوبِيَّة، واقتصر المفسِّرون عليه وزدت الوجه الأوَّل لأَنَّهُم يسمُّون أصنامهم باسم الأُلُوهِيَّة فنفاها الله لأنَّها لا تفعل ما يفعل.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ﴾ المطلق، فهذا اللفظ أعمُّ من الأوَّل فيشـمل التوحيد والعبادة وما يعتقد حلَّه، وَقِيلَ: المراد التوحيد، وإذا حصر الحقَّ في ربِّكم فلا حقَّ في سـواه، وكلُّ شـيء **اختصَّ بالحقِّ فغيره باطل وضلال** فعبادة غير الله ضلال، كما قـال: ﴿إِلَّا الضَّلَالُ﴾ ما خالـف الحقَّ المذكور، وَقِيـلَ: المراد الشـرك، والاسـتفهام للتقرير كذا قيل، والأَولى أنَّه للإنكار بدليل الاستثناء، وكأنَّه أراد القائل بالتقرير التقرير بالإنكار ﴿فَأَنَّـى﴾ كيف؟ أو من أيِّ وجه؟ ﴿تُصْرَفُونَ﴾ عن الحقِّ إلى الضلال في أحوالكـم، فيدخل فيه انصرافكم من تخصيص الله بالعبادة إلى عبادة غيره بالأولـى، أو هذا هو المراد، والصارف الشـيطان والهوى والداعون إلى الكفر لا الله، إذ لا يقول الله كيف أو من أيِّ وجه أصرفكـم؟ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الذِينَ فَسَـقُواْ﴾ أشـركوا حقَّت حقًّا مثل ذلك المذكور من ثبوت الرُّبُوبِيَّـة وَالأُلُوهِيَّة لله وحده، أو من أنَّه مـا بعد الحـقِّ إلَّا الضلال، وهما لبعدهما أنسـب بإشـارة البعد، أو من اسـتبعاد الصرف، ووجه البعد مع أنَّه قريب أنَّ ما لم يحضر فهو بعيد وأنَّه إذا انقضى الكلام عن شيء فهو بعيد، ويترجَّح الأوَّل بذكر «حَقَّتْ» لأنَّ فيه لفظ الحـقِّ، و«حَقَّتْ» مثل ذلـك كلِّه، وقـدِّم كذلك على طريـق الاهتمام بتلك الأفعال، لأنَّها توجب التوحيد. وكلمات ربِّـك: قضاؤه، أو هي [قوله تعالى:] ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [سـورة الأعراف: 18]. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُومِنُونَ﴾ هذا تعليل، أي لأنَّهم لا يؤمنون، أو هو كلمة ربِّك، فيكون المصدر بـدلا أو بيانا لكلمة، كأنَّه قيل حقَّت كلمة ربِّك انتفاء إيمانهم، فانتفاء بدل أو بيان.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُـرَكَآئِكُم مَّنْ يَّبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ظاهر هذا الكلام إنَّما يخاطب به من يقرُّ لله بالبعث وهم لا يقرُّون، فكيف يقول لهم: شـركاؤكم لا تقدر على ما أقدر عليه مـن البعث، مع أنَّهم لا يقـرُّون بقدرته عليه؟ ولكن خاطبهم بذلك لظهور حجَّة البعث ببرهان البدء حتَّى كأنَّهم آمنوا بالبعث، فهو تعالى يخاطبهـم كيف تعبدون من لا يقـدر عليه؟ وليس كما قيـل: إنَّ الآية

برهان للبعث بأنَّه لا بدَّ من التمييز بين المحسن والمسيء، وهذا سؤال سادس أمر رسوله ﷺ بالجواب عنه، ولو يسكتون لجاجًا وكبرا ولا ينتظر أن يقولوا، لأنَّه هو الذي معهم لا يجدون إنكاره فقال:

﴿**قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**﴾ للجزاء، وجه كون هذا جوابا لقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم...﴾ أنَّهم يقولون: شركاؤنا لا تبدئ الخلق ولا تعيده، فيقول الله تعالى: (أنا الله، أنا الله وحدي، لأنِّي أبدأ الخلق وأعيده)، وما لا يبدأ الخلق ويعيده ليس إلها، والإعادة لا يقرُّون بها ولكن ذكرت اتِّباعا للإبداء ولتحقُّقها بدلائل كأنَّهم أقرُّوا بها ﴿**فَأَنَّىٰ تُوفَكُونَ**﴾ تصرفون عن الإقرار بذلك.

﴿**قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّنْ يَّهْدِي إِلَى الْحَقِّ**﴾ ضدّ الباطل، هذا سؤال سابع، هل من شركائكم من يعرف الحقَّ ويهدي إليه؟ بنصب الدلائل وإرسال الرسل والأنبياء وإنزال الكتب، فما يصحُّ أن يكون إلها من لا يهدي عباده إلى مصالحهم الدِّينِيَّة وَالدُّنيَوِيَّة، ولا يكون هو المحلِّل المحرِّم، ولا محيد لهم عن أن يقولوا: آلهتنا لا تقدر على ذلك، فليست أهلا لأن تكون متبوعة، وكأنَّهم أقرُّوا بأنَّ ما يقول رسول الله ﷺ حقٌّ من الله، لظهور برهانه، ولو يسكتون لجاجا وعنادا، فأمره ﷺ الله تعالى أن يقول عنهم ولا ينتظر أن يقولوا فقال:

﴿**قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ**﴾ والسؤال الثامن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ...﴾ فأمره بالجواب إذ قال: ﴿قُلْ فَاتُواْ...﴾. ويجوز أن يكون الهدى بمعنى التوفيق، وأن يكون أمره بالقول عنهم لجهلهم بما يقولون، وأمَّا «من يبدأ الخلق؟» فيبعد أن يجهلوا أنَّ آلهتهم لا تبدأ الخلق ولا تعيد. و«هَدَى» يتعدَّى باللام تارة وبـ«إلى» أخرى تفنُّنا.

﴿**أَفَمَنْ يَّهْدِي إِلَى الْحَقِّ**﴾ بالحجج ﴿**أَحَقُّ**﴾ مِمَّن لا يهدِي إليه ﴿**أَنْ يُّتَّبَعَ**﴾ فيما أمر أو نهى أو قال، **وهو الله** ﷻ. و«أَحَقُّ» اسم تفضيل على معناه، والباء مقدَّرة، أي أحقُّ بأن يُتَّبع، وذلك على فرض أنَّ للأصنام حقَّ اتِّباع على زعمهم، وأنَّها تأمر وتنهى، كأنَّه قيل: إذا كان لها حقُّ اتِّباع فالله أحقُّ منها

بالاِتِّبَاع، أو المراد بالاِتِّبَاع المراعاة بالعبادة؛ أو اسم تفضيل خارج عنه، أي حقيق بالاِتِّبَاع، وإنَّما نفى الاهتداء مع أنَّ ما قبله نفي للهداية مبالغة بأنَّ من لا يهتدي أبعد من أن يكون هاديا، فقد يكون الشيء مهتديا في شأنه لا يهدي غيره، فكيف من لا يهدي ولا يهتدي؛ أو لمراعاة كون من اهتدى لا يخلو من أن يصدر منه هداية بالنطق أو الإشارة أو ظهور يقتدى به مشاهدة بالاِتِّبَاع.

﴿**أَمَّن لَّا يَهِدِّي**﴾ لا يهتدي أبدلت التاء دالا وأدغمت في الدال بعد نقل فتحها للهاء ﴿**إِلَّآ أَنْ يُّهْدَىٰ**﴾ وهو الأصنام، والمراد باهتدائها موافقة ما يليق بها في ظاهر الأمر، كجعلها حيث لا تداس ولا يلحقها الوسخ، ولا تنتقل بنفسها؛ أو على فرض أنَّها تعقل وتهتدي بمن هداها. وعبَّر عن الأصنام بـ«مَنْ» ملاءمة لتعظيمهم إِيَّاهَا، ولاستحضارها في مقامات ما لا يتَّصف به الجماد.

وَقِيلَ: الشركاء شامل لعيسى والملائكة في الموضعين، وَقِيلَ: في الأخير فتكون «مَنْ» على أصلها، أو عمَّت العاقل وغيره، وأمَّا النجوم والشمس والقمر في شأن من يعبدهنَّ فإنَّهنَّ كالأصنام، أو المراد أو عاقل لا يهدي إلَّا أن يُهدى، بعموم العاقل عموما بدليًّا لا بقصد خصوص عيسى والملائكة، فكيف يكون الجماد مهتديا هاديا؟ ﴿**فَمَا لَكُمْ**﴾ إنكار للياقة، وتعجيب من اتِّخَاذ مَن عجزَ عن مصالح نفسه إلها، ومثل هذا لَا بُدَّ له من حال مذكورة مثل: ما لك لا تَتَكَلَّمُ؟ وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [سورة المدَّثِّر: 49]؛ أو مقدَّرة كهذه الآية أي ما لكم متَّخذين ما لا يملك ضرًّا ولا نفعا آلهة؟ أو متَّخذين ما لا يهدي إلها؟ أو متَّبعين ما لا يهتدي. وينبغي الوقف بين ﴿مَا لَكُمْ﴾ و﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، لأنَّ كلًّا استفهام مستقلٌّ. ﴿**كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ إنكار للياقة، وتعجيب من الحكم بما يَقضِي بادئ الرأي ببطلانه من اتِّخَاذ مَن ذُكر آلهة.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي كلُّهم، لأنَّهم كلَّهم لا يقين لهم، كما يستعمل القليل بمعنى العدم كقوله:

قليل التشكِّي للمصيبات حافظ من اليوم أعقاب الأحاديث في غد[1]

فإنَّه أراد نفي أنواع التشكِّي كلِّها، وحمل النقيض على النقيض حسن، وطريقة محمودة مسلوكة، ويجوز إبقاء الكثرة على ظاهرها باعتبار أنَّ منهم من لم يظنَّ بل جزم بالأُلُوهِيَّة للأصنام، أو باعتبار أنَّ منهم من قلَّد بلا ظنٍّ، والأكثر أعملوا فكرهم وما تحصَّلوا على غير الظنِّ، بأن قاسوا الله على الخلق، فأنكروا أن يقدر على البعث، أو باعتبار أنَّ أكثرهم ظنُّوا والقليل علم الحقَّ ولم يظنَّ، لكن عانَدَ. وأمَّا مَا قيل من أنَّ منهم قليلا يؤمنون بعدُ فنفى عنهم الظنَّ، لأنَّهم سَيَنْتَفِي عنهم الظنُّ تجوُّزا، باعتبار الأَوْل فهو بعيد. وَقِيلَ: الهاء للناس عموما فلا إشكال.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي﴾ لا يدفع ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ العلم وضدّ الباطل، و«مِنْ» تبعيضيَّة، وهو حال من قوله: ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به لـ«يُغْنِي»؛ أو ﴿لَا يُغْنِي﴾ بمعنى لا يكفي فيما لا يجوز فيه الشكُّ، فالحَقُّ: الاعتقاد الجازم الصحيح المطابق للواقع، و«شَيْئًا» مفعول مطلق، والمفعول محذوف، أي لا يغنيهم إغناء، فـ«مِنْ» بمعنى عَن، متعلِّق بـ«يُغْنِي».

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد لهم عن اتِّبَاع الظنِّ والإعراض عن الدلائل الظاهرة، وهو أعظم إرهابا وتهويلا من أن يقال: إنَّ الله سيجازيهم على ذلك.

---

(1) بيت من قصيدة لدريد بن الصمَّة يرثي أخاه عبد الله يصفه بأخلاق تعتبر مثل الرجولة الأعلى في الجَاهِلِيَّة. التعريف بالأدب العربي لرئيف خوري، ص40.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝37 أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝38 بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝39﴾

القرآن كلام الله وقد تحدَّى العرب به

﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُّفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللهِ**﴾ أي افتراء أي مفترًى، أو ذا افتراء، وذلك أولى من أن يقدَّر: ما كان شـأن هذا القرآن افتراء، لأنَّ الأنسب أن يثبت الأَوَّل كما هو فيطلب له من الثاني ما يناسـبه من التأويل. والافتراء: الكذب. نعم يجوز إبقاء الكلام هنا بلا تأويل لأنَّ القرآن كلام والكلام صدق أو كذب، فالمعنى وما كان هذا القرآن كذبـا؛ أو «كَانَ» بمعنى صحَّ، أو لاق، أي لأن يفترى، ومضيُّ «كَانَ» لا ينافي استقبال «يُفْتَرَى» لأنَّ المعنى: ما شأنه قبل نزوله أن ينزل بافتراء إذا نزل، وهذا أولى من أن يقال: اسـتعمل المضارع المنصوب لمطلـق الزمان مجـازا، وحقيقته أن لا يكون إلَّا مسـتقبلا، وقدَّر بعض: ممكنا أن يفترى، وهو بمعنى ما ذكـرت، أو قولهم: ﴿اِيتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَآ أو بَدِّلْهُ﴾ [سورة يونس: 15]، طلب للافتراء في المستقبل فنفاه الله.

﴿**وَلَكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ كان تصديق الذي بين يديه... إلخ، لأنَّ التكلُّم بالحقِّ عن الكتب تصديق لها، أو يقدَّر: مصدِّقا، أو ذا تصديق، و«الذِي بَيْـنَ يَدَيْهِ»: جنـس الكتب السـابقة: التـوراة والزبور والإنجيـل، أو الحقُّ

المتضمّنة له تلك الكتب، ومعنى كونها بين يديه أنّها حاضرة بنزولها، وليست شيئا معدوما. ويجوز نصبه تعليلا، أي أنزل تصديقا لِمَا بين يديه، وقدّر بعض: يصدِّق تصديق الذي، وقال بعض: ﴿الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أخبار الغيوب.

﴿وَتَفْصِيلَ﴾ تبيين ﴿الْكِتَابِ﴾ عطف على «تَصْدِيقَ»، و«الْكِتَابُ» بمعنى المكتوب، أي المفروض، والمراد: جنس الفرائض، يقال: كتب كذا بمعنى فرضه، أو ما في اللوح المحفوظ، أو الأحكام مطلقا فرض ونفل ومباح وحرام ونطق واعتقاد. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معترض إن علّق «مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ» بـ«تَفْصِيلَ» أو «تَصْدِيقَ» على التنازع، أو خبر ثالث بلا عطف، والخبر الثاني متعلِّق بالعطف، أو حال من «الْكِتَابِ» لأنَّه مفعول للمضاف إضافة مصدر لمفعوله، وجرِّد الخبر الثالث عن العطف إيذانا بأنَّه المقصود بالذات غير تابع لغيره، لأنَّ المقام لردِّ المرتابين. ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر رابع، أو متعلّق بـ«تَفْصِيلَ» أو «تَصْدِيقَ» على التنازع كما مرَّ؛ أو متعلِّق بإنزال المقدَّر الناصب لـ«تَصْدِيقًا» في أحد الأوجه، مبنيًّا للمفعول؛ أو حال من «الْكِتَابِ»، أو هاء «فِيهِ».

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰيهُ﴾ «أَمْ»: حرف استئناف، وهي المنقطعة للإضراب الانتقالي، أو للإضراب والاستفهام الإنكاري أو التعجيبي.

[لغة] وقدَّرها بعض حيث كانت بمعنى بل دون الهمزة، وَقِيلَ: في «أَم» المنقطعة أنَّها حرف عطف بمعنى الواو، وَقِيلَ: حرف استفهام، وزعم بعض أنَّها متَّصلة على تقدير الاستفهام، أي أيقرُّون به أم يقولون؟ وذلك كلُّه تكلُّف، ولا سيما دعوى أنَّها متَّصلة، لأنَّ المقام ليس لمعنى الاستفهام عن إقرارهم، اللهمَّ إلَّا أن يُدَّعى أنَّه لَمَّا كثر الكلام والتقريع قيل: أثَّر فيهم ذلك أم هم باقون على التكذيب؟. وضمير «افْتَرَى» عائد إلى رسول الله ﷺ.

﴿قُلْ فَاتُواْ بِسُورَةٍ﴾ قل لهم: إن افتريته فأتوا بسورة ﴿مِّثْلِهِ﴾ أي في الفصاحة والبلاغة فإنَّكم فصحاء بلغاء من جنسي في الفصاحة والبلاغة، فإذا

عجزتم كما أنا عاجز عن الإتيان به من عندي فاعلموا أنَّه من الله ﷻ لا منِّي، وهو ﷺ أفصح منهم وأبلغ، كما قال في الفصاحة: «**أنا أفصح من نطق بالضاد**»[1] مع أنَّهم أحرص على الفصاحة والبلاغة وأشدُّ تعرُّضا لها.

[قلت:] والحمد لله الرحمن الرحيم الذي منَّ عليَّ باطِّلاعي على تحقُّق بلاغته ومشاهدتي لطرقها وإدراكي لها، ولا كلام يفوقه ولا يقرب من مساواته، وكلام رسول الله ﷺ دون كلام الله في البلاغة. وإطلاق البلاغة في كلام الله ﷻ مجاز.

﴿**وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم**﴾ من أمكنكم أن تستعينوا به من الناس والأصنام ﴿**مِّن دُونِ اللّهِ**﴾ غير الله ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ في أنِّي افتريته، فلم تقدروا على ذلك.

﴿**بَلْ كَذَّبُواْ**﴾ أي سارعوا إلى التكذيب بدليل قوله: ﴿**بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَاتِهِمْ تَاوِيلُهُ**﴾ فإنَّهم كذَّبوا قبل أن يتعرَّفوه، وقبل انتظار تأويله، وذلك عجلة ومسارعة للهوى، أو للعناد فإنَّ لهم افتخار بالعناد، كما يسمُّون أولادهم بالعاصي بمعنى أنَّه قويٌّ لا يلين لأحد، وقال شاعر:

فعاند من تطيق له عنادا[2]

والعناد يكون قبل العلم وبعده. والمراد: القرآن، ويجوز أن يكون المراد مضمونه من البعث والجزاء وما يخالف دينهم. ومعنى الإضراب ذمُّهم على العناد، وأمره بالإعراض عن تحدِّيهم بأن يأتوا بسورة فإنَّهم ليسوا أهلا لذلك

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ص23. و**الفتني** في التذكرة، ص87. و**الشوكاني** في الفوائد، ص327، رقم 1020 (26). وقال: حديث لا أصل له ومعناه صحيح. وزاد د. محَمَّد بن لطفي الصباغ في تخريجه لهذا الحديث في كتاب اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة **للزركشي** ما نصُّه: «وفصاحته ﷺ أمر مقرَّر ثابت لا شكَّ فيه». **الزركشي**: اللآلئ، ص111، رقم 137 (الهامش).

(2) هذا عجز بيت لأبي العلاء المعري، وصدره: «أرى العنقاء تكبر أن تصادَا». ينظر: **الجاحظ**: حياة الحيوان الكبرى، ج2، ص26. (ترقيم الشاملة).

لكونهم مكبِّين على العناد. والــواو للحال، أو عاطفة على «لَــمْ يُحِيطُواْ...» و«تَاوِيلُهُ»: عاقبة ما فيه، من قولك أوَّلت الشيء بمعنى أرجعته، فالله ﷻ يرجع ألفاظ القرآن إلى حضور معانيه الذي من شأنه أن ينتظر وقوعه، وهو وقوع ما أخبر به من الغيوب، وقبول الأذهان بالتفكُّر فيه.

أو المراد: العــذاب، ولو جاءهم العــذاب لم ينتظروا بعــد ولم ينفعهم شــيء، والنفي بـ«لَمَّا» دليل على أنَّه ســيأتيهم تأويله، وقد أتاهم قبل نزول هذه الآية بعضه فأخبــر الله أنَّهم كذَّبوا قبــل التأويل، ولَمَّــا جاءهم التأويل استمرُّوا على الكفر.

﴿**كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ رســلهم وأنبياءهم بــلا تأمُّل أو عنادًا فأهلكوا، فليحــذروا أن يُهلكوا كما أهلك من قبلهم كما قــال: ﴿**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**﴾ من الهلاك كذلك تكون عاقبة قومك إن لم يؤمنوا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿40﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿41﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿42﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿43﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿44﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿45﴾﴾

موقف المشركين من الوحي

﴿**وَمِنْهُم**﴾ من أهل مَكَّة ﴿**مَّنْ يُّومِنُ بِهِ**﴾ بالقرآن بعد كفره به، لقضاء الله له بالإيمان، ثمَّ بعد الإيمان به لا يدري أيموت موفِّيا أم غير موفٍّ أم مرتدًّا ﴿**وَمِنْهُم مَّن لَّا يُومِنُ بِهِ**﴾ حتَّى يموت لقضاء الله ﷻ بذلك، ويجوز أن يكون المعنى: ومنهم من يؤمن به في قلبه ويكفر به عنادا ويموت على ذلك، أو يموت تائبا من الشرك موفِّيا أو غير موفٍّ، ومنهم من لا يؤمن به في قلبه لعدم تدبُّره، أو المراد: لا يؤمن في المستقبل كما لم يؤمن في الحال والماضي.

﴿**وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ**﴾ عنادا بعد الإيمان في القلب، أو إصرارا على جهل أو تقليد، وهذا في أهل مَكَّة بأنَّه لا يخفى عنه إفسادهم فهو يجازيهم عليه، و﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى عليم، أو باق على التفضيل، فإن علم الله يَعُمُّ كلَّ مفسد ولو ظهر لكم صلاحه، ولا إفساد أعظم من إفساد من خالف أفضل الكتب وأفضل الرسل، وقد تحدَّاهم بالقرآن: ﴿قُل لَّئِنِ اِجْتَمَعَتِ الِانسُ

وَالْجِنُّ﴾ [سورة الإسراء: 88] وبعشر سور: ﴿قُلْ فَاتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [سورة هود: 13] وبسورة: ﴿قُلْ فَاتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ [سورة يونس: 38] وبحديث مثله: ﴿فَلْيَاتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [سورة الطور: 34] الآيات... ويجوز أن تكون الآية في أهل مَكَّة وغيرهم، وعلى الأوَّل فالمقام للإضمار وأظهر ليصفهم بالإفساد، وهو موجب للانتقام.

﴿**وَإِن كَذَّبُوكَ**﴾ بعد التكذيبات السابقة وإلزام الحجج فتولَّ عنهم، ولا لوم عليك كما قال: ﴿**فَقُل لِّي عَمَلِي**﴾ أجازى به وحدي به لا بغيره ﴿**وَلَكُمْ عَمَلُكُم**﴾ تجازون به وحدكم لا بغيره ﴿**أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ**﴾ لا ضرر عليكم يلحقكم منه لو كان مضرًّا، والمقصود بالذات: إن لي وحدي ثوابه، وعبَّر بذلك ـ والله أعلم ـ مشاكلةً لقوله: ﴿**وَأَنَا۟ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ لا يلحقني منه ضرر، وقوله: ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ... تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿لِي عَمَلِي...﴾؛ أو الأوَّل في الخير على فرض أنَّ لِعَمَلِهِم ثوابا، والثاني في العقاب. والآية غير منسوخة بآية السيف لأنَّ كون المكلَّف له عمله باق دائما لا يقبل الرفع ولو بعد نزول القتال.

﴿**وَمِنْهُم مَّنْ يَّسْتَمِعُونَ**﴾ بآذانهم ﴿**إِلَيْكَ**﴾ إذا قرأت القرآن ولا تسمع قلوبهم بتدبُّر، وكأنَّهم لا يستمعون كما قال: ﴿**أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ**﴾ أي أيستمعون إليك فأنت تسمعهم ﴿**وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ انضمَّ إلى صممهم عدم العقل، يقول ﷺ: لا أسمعهم فيقول ﷻ: فكذلك هؤلاء لا يتأثرون بالقرآن، كأنَّهم لم يدخل آذانهم، وكأنَّهم مجانين، وذلك تمثيل بالصمِّ مطلقا.

ويجوز كون الصمِّ هؤلاء المكذِّبين، وأنَّ الأصل: أفأنت تسمعهم وهم لا يعقلون، بالإضمار، فأظهر ليصفهم بالصمم تشبيها؛ أو بصمم القلوب، أي كيف تهديهم وقد طبع على قلوبهم، والمقصود مِن سَمْعِ الآذان سمع القلب، فقد يُحْسِنُ سميعُ القلبِ ما لا يحسنه سميعُ الأذنِ الأحمقُ، فانسدَّ الهدى البتَّة عَمَّن فَقَدَ سمعَ الأذنِ وسمعَ القلبِ، وكذا الوجهان في: ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ يَّنظُرُ إِلَيْكَ**﴾ بعينيه حال قراءة القرآن والوحي، وكأنَّه لم ينظر، وكأنَّه غائب عنك، فكيف ينتفع؟!.

﴿**أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ**﴾ تجعلهم مبصرين ﴿**وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ**﴾ يقول: لا، فيقول الله: فكذلك هؤلاء عميت قلوبهم لا تتأثَّر بذلك، كما لا يبصر الأعمى، أو أفأنت تهديهم وهم عمي القلوب؟ لا تهديهم وقد طبع عليها، أو معنى ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: عدم البصيرة كالذي قبله، أي وقد انضمَّ إلى عماهم عدم البصيرة.

والمقصود من إبصار العين استبصار القلب، فقد يُحْسِنُ الأعمى المستبصر ما لا يُحْسِنُ البصير الأحمق، فقد انسدَّ باب الهدى البتَّة عَمَّن لا بصر له ولا بصيرة. والاستفهام إنكار، والواو ـ قيل ـ للحال، أو مقابل مدخولها محذوف، أي لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون، لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون.

والآية كالتعليل للتبرُّؤ منهم، إذ بلغوا في الكفر منزلة الأصمِّ المجنون وأعمى البَصَرِ والبصيرة، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ المعنى: إعراضٌ عنهم ليستوحشوا، كما يستوحش المريض الذي لا يقبل العلاج بإعراض الطبيب فيقبل.

وَقِيلَ: معنى الآيتين: أنت لا تقدر على إسماع الصمِّ ولا على إبصار العمي أنا القادر على ذلك، وفيه أنَّ المقام ليس لذكر الاحتجاج بالقدرة وإثباتها بل للتنديد على إصرارهم، اللهمَّ إلَّا أن يراد بذلك تسليته ﷺ في شدَّة رغبته في إيمانهم وإقناطه منه.

﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا**﴾ لا يجبرهم على عمى القلوب ولا يطبعهم عليه، والإجبار أو الطبع نقص لهم، والظلم بمعنى النقص، و«شَيْئًا» مفعول به ثان، فالمعنى: لا ينقصهم هدى اختاروه؛ أو مفعول مطلق، أي لا يظلمهم ظلما مَّا قليلا ولا كثيرا.

[أصول الدين] ﴿**وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ باختيارهم الضلال والخروج عن الفطرة، وذلك كسب لهم موافق للقضاء الأزليِّ، مع أنَّ كسبهم

خلق من الله وهم عبيده، لا يتصوَّر أن يكون شـــيء منه ظلم لهم مع أنَّهم لم يملكوا أنفسهم بل هو ملكها، وذلك الذي ظهر من القدرة على الفعل والترك هو الاختيار منك.

أو المعنى لا يظلم الناس بالعذاب يوم القيامة بل ظلموا بذلك العذاب الذي اســتوجبوه. وقدَّم «أَنفُسَــهُمْ» للفاصلة ولطريق الاهتمام لا للحصر، لأنَّه في مقابلة: ﴿لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَــيْئًا﴾ بالاستدراك، ولو صحَّ في نفس الأمر حصر القلب لقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَــيْئًا﴾ إذ زعموا أنَّ الله أجبرهم، وأنَّ مشــيئته إجبار، وأنَّ عقابهم مع الإجبــار ظلم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَــهُمْ﴾ [ســورة هود: 101] بلا صيغة حصر، أو هذا الظلم المنســوب إلى الله لا ينالــه وإنَّما نال الظلمُ أنفســهم، وهذا حصر المظلوميَّة، وحصر الظالميَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الزخرف: 76].

واختار هنا قصر المظلوميَّة للمبالغة في بطلان أفعالهم، وسخافة عقولهم إذ فعلوا الشرَّ في أنفسهم، كمن قتل نفســه، ويجوز أن يكون «أَنفُسَهُمْ» تأكيدا لـ«النَّاسَ»، كما يقال: ضربت عمرا نفســه عينه، فيكون حصرا للظالميَّة، كأنَّه قيل: الظالمون هم لا الله تعالى، فيقدَّر المفعول به، أي يظلمون أنفسهم.

[نحو] ﴿وَيَوْمَ نَحْشُــرُهُمْ﴾ الضمير للمشــركين المنكرين للبعث، إيَّاهُم وغيرهم من ســائر المنكرين للبعث. و«يَوْمَ» مفعول بــه لـ«اذكر»، أي واذكر لقومك يوم نحشر المنكرين للبعث، أو متعلِّق بـ«يَتَعَارَفُونَ» وقوله: ﴿**كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَــاعَةً مِّنَ النَّهَارِ**﴾ حال من الهاء، ولا يصحُّ أن يكون نعتا لـ«يَوْمَ» بتقدير الرابــط، أي كأن لم يلبثوا فيــه، لأنَّ يوما معرَّفــة بالإضافة إلى جملة مشــتملة على معرفة، لأنَّ المعنى: يوم حَشْــرِنَاهُمْ أو حَشْــرِنا إِيَّاهُم بإسكان الشين فيهما وكســر الراء. وَأَمَّا أن يقدر: ويوم حشْرٍ منَّا لهم فخطأ، ولا حاجة

إلى جعله نعتا لمصدر على تقدير الرابط أي حشـرا كأن لـم يلبثوا قبله، لأنَّ عدم الحذف أولى من الحذف، فكيف حذفان؟.

والمراد: اللبث في الدنيا؛ أو اللبث في القبور؛ أو كلاهما، يستقصرون كلَّ ذلك لهول الحشر، لأنَّ وقت الشدَّة طويل بها، ولو قصر وهذا في نفس وقت الحشـر وهو البعث من القبور خاصَّة وأمَّا اللبث في الحشر فهو في نفسه مع شدَّته طويل الزمان، والسعداء لا يستقلُّون لبثهم في الدنيا والقبر.

[قلـت:] والظاهر أنَّ الاسـتقلال يلحق الموتى مطلقا لعظـم الهول على الكلِّ، إلَّا أنَّهم يتفاوتون في ذلك، ثمَّ إِنَّهُ كيف يستقلُّ الكافر لبث القبر مع أنَّه معذَّب فيه حتَّى كأنَّه لبث ساعة؟ ولعلَّه لإفضائه بعد القبر إلى العذاب الدائم، وإن أريد باللبـث البرزخ العامُّ بعد قيام السـاعة فإنَّهـم لا يعذَّبون فيه، وهو أربعون عاما فالأمر ظاهر. والساعة: مطلق الوقت، وأضيفت للنهار لأنَّ الساعة في النهار أظهر منها في الليل.

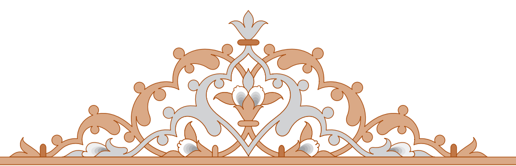
وربَّما تقوَّى بذكر النهار أنَّ المراد: اللبث في الدنيا، ولا يخفى أنَّ المسلم أيضا لا يدري كم لبث في القبر، فلا يتِمُّ ما قيل من ترجيح حمل اللبث على اللبث في الدنيا بأنَّ الكافر هو الذي لا يعرف كم لبث في قبره. واسـم «كَأَنْ» ضمير المحشورين، أي كأنَّهم لم يلبثوا؛ أو الشأن، أي كأنَّه لم يلبثوا.

ومن فوائد هذا التشبيه الإشارة إلى أنَّ طول مكثهم كأنَّه طول ساعة، فلم يتعاص عنه البعث لطوله وكونهم عظاما وترابا ورفاتا، وإلى أنَّه كوقت قريب جدًّا يسـهل معه البعث بلا تغيير، مع أنَّ الأمر كلَّه عنده سـواء طوله وقصره، ويناسـب هذا قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ فإنَّ التعارف أنسـب بالزمان القليل حتَّى لا ينكر بعض بعضا لطول العهد. والجملة حال من هاء «نَحْشُرُهُمْ»؛ أو مـن واو «يَلْبَثُواْ» مقدَّرة، لأنَّ التعارف غير مقترن بالحشـر وهو البعث، وغير مقترن باللبث بل بعدهما. وقد يكون الحشر بمعنى الجمع في الموقف، وقد

تجعل الحال مقارنة على التفسير بالبعث لقربه بالتعارف، وقد قيل: يتعارفون عند البعث ثمَّ ينقطع في الموقف، لشدَّة الهول حتَّى كأنَّه لا يعرف بعضٌ بعضا ولتغيُّر وجوههم وصفاتهم.

فذلك الوقت غير وقتِ قولِه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة المؤمنون: 101] و﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [سورة المعارج: 10] الآيتين... ولكن يرجع التعارف بعد انقطاعه لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّالِمُونَ...﴾ [سورة سبأ: 31] وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتُ امَّةٌ ...﴾ [سورة الأعراف: 38] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا...﴾ [سورة الأحزاب: 67] الآيات... ونحو ذلك، وللآثار الواردة في أنَّ الوالد يطلب من ولده الحسنة وبالعكس، ونحو هذا فالتعارف الأوَّل مطلق وما بعده توبيخ، أو طلب، أو نحو ذلك، ولهم مواطن يتعارفون في بعضها دون بعض؛ أو التعارف المنفيُّ تعارفُ تواصلٍ، والمثبَت تعارفُ التوبيخِ، وعن الحسن: يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه ولا يكلِّمه.

﴿**قَدْ خَسِرَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ اللهِ**﴾ مستأنف؛ أو حال من واو «يَتَعَارَفُونَ»؛ أو هاء «نَحْشُرُهُمْ» والرابط «الذِينَ»، لأنَّه ظاهر في موضع الضمير ليصفهم بمضمون الصلة، أو مفعول لحال، أي قائلين: «قَدْ خَسِرَ...». ولقاءُ الله: البعث. ﴿**وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾ إلى طرق النجاة؛ أو عارفين بأحوالها، عطف على «خَسِرَ الذِينَ...»؛ أو على «كَذَّبُواْ...».



﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿46﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿47﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿48﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿49﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿50﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿51﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿52﴾ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿53﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿54﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿55﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿56﴾﴾

عذاب المشركين في الدنيا والآخرة

﴿**وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ**﴾ «إنْ» الشرطيّة و«مَا» التي هي صلة لتأكيد التعليق ﴿**بَعْضَ الذِي نَعِدُهُم**﴾ من العذاب في حياتك، كما أراهم يوم بدر ويوم فتح مَكَّة، فإنَّه أشدُّ على من بقي على الكفر حتَّى فتحت من يوم بدر، لأنَّ فتحها إقناط لهم. والإراءة بصريَّة باعتبار أثر العذاب وأسبابه، لأنَّ نفس العذاب لا يرى.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم وإراءتك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب لـ«نُرِيَنَّكَ» محذوف، أي فذلك ما حقَّ لك، أو يسرُّك، أو فذلك ما تريد؛ أو ما تتمنَّى؛ أو حقٌّ؛ أو صواب.

[نحو] وجواب «نَتَوَفَّيَنَّكَ» لعطفه على الشرط فكأنَّه شرط هو قوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ لأنَّ معناه: نعذِّبهم بعد الرجوع إلينا، وقدَّره بعض: نُرِكَ في الآخرة، فيكون «إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ» سادًّا عنه، لأنَّه علَّة، وإنَّما لم أجعل «إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ» جوابا للكلِّ لأنَّ رجوعهم إلينا لا يتوقَّف على الإراءة ولا على التوفِّي، نعم يجوز على معنى عذَّبناهم في الدنيا أو لم نعذِّبهم لا بدَّ من رجوعهم إلينا.

﴿ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من التكذيب وأنواع الكفر. وشهادة الله: علمه؛ أو إخباره ونتيجة علمه، والترتيب بـ«ثُمَّ» ذكريٌّ، أو رتبيٌّ إذا فسَّرنا الشهادة بالعلم، أو إخباره مجازاته على أفعالهم وأقوالهم المحرَّمة، فهذا الجزاء لازم لعلمه أو إخباره، ومسبّب له.

وهذه المجازاة تكون يوم القيامة، ولذلك رتَّبها بـ«ثُمَّ» على قوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾. ويجوز أن يكون «شَهِيدٌ» بمعنى مودِّي علمه؛ أو خبره يوم القيامة، على أفعالهم، أو مظهر أثرها كتسويد الوجوه وإنطاق الجوارح، فذلك شهادته، وأمَّا إبقاء الشهادة على ظاهرها أو على معنى العلم بلا تأويل بما مرَّ فلا يصحُّ، لأنَّ علمه قديم سابق على رجوعهم إليه، وهو شهيد قبل رجوعهم أيضا، ومشاهد قبله أيضا.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿رَسُولٌ﴾ من الله يأمرهم وينهاهم، ويعظهم ويعلِّمهم، ويكون بعده خلائف يؤدُّون عنه. ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم بالبيِّنات فكذَّبوه؛ أو كذَّب بعض وآمن بعض. ومجيء الرسول بالبيِّنات تبليغه إِيَّاهَا إليهم، فيكفي عن تقدير: جاءهم رسولهم فبلَّغهم، فإنَّه لا يلزم من

الرسالة أن يكون الرسول ماشيا إلى أمَّته بل تتصوَّر بمشي وبلا مشي، كتبليغ الحاضرين وإرسالهم إلى غيرهم، وهكذا إلى الفترة إذا كانت، وأمَّا التكذيب فلا بدَّ من تقديـــره، لأنَّ هذا تخويف لقومه ﷺ واستشـــهاد على العقاب على الكفر، أو بيان أنَّ حال الرسل مع أممهم كحاله ﷺ مع أمَّته.

﴿**قُضِيَ بَيْنَهُم**﴾ بين الرسول ومكذِّبيه ﴿**بِالْقِسْطِ**﴾ بالعدل، تنجية الرسول ومن آمن وإهلاك مـــن كفر، كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُـــلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [ســورة يونــس: 103]، وَأَمَّا من آمن فلا قضـــاء بينه وبين الرســـول إلَّا على معنى التقرير والاستشهاد.

ويجوز أن يكون المعنى: لكلِّ أمَّة يوم القيامة رسول يحضر وهو رسولهم في الدنيا يشـــهد لهم وعليهم بالكفر والإيمان، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيئِينَ وَالشُّـــهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الزمر: 69] والتفسير الأوَّل أولى، والآية عليه لا على الثاني كالتعليل للتي قبلها.

﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ بزيادة ما لم يفعلوا من الذنوب ولم يتسـبَّبوا، ولا بنقص ثواب لم ينقصـــوه بأعمالهم، ولا بتكليف بلا إنزال كتاب وإرســـال رســـول وصحَّة عقل، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [سورة الإسراء: 15] ﴿رُسُـــلاً مُّبَشِّـــرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء: 165].

﴿**وَيَقُولُونَ**﴾ يقول الكفَّار اســـتهزاء وإنكارا للعـــذاب، لا طلبا لعلم وقته ﴿**مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ**﴾ الذي تعدنا به يا محَمَّد ويا أصحابه في إتيان العذاب ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ في أنَّ العذاب يكون، ويجوز أن يكون القول لرسول الله ﷺ، ولو كان قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ عامًّا، ولو قدَّرنا متى هذا الوعد يا محَمَّد، ولم يذكروا أصحابه لأنَّ قوله قول لهم وقولهم قول له، كما قال ﷻ: ﴿يآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَـــآءَ﴾ [ســورة الطلاق: 01] ولـم يقل: يا أَيُّهَا النبيء وأصحابه،

ولا يا أَيُّهَا النبيء إذا طلَّقت، ولــو قال أيضا ذلك لصحَّ، وهم مُبلّغون ما يقول محمَّد ﷺ. والجواب محذوف تقديره: إن كنتم صادقين فأتونا به.

قيل: هذا من الأسلوب الحكيم، لأنَّهم أرادوا بالسؤال استبعاد أنَّ الموعود من الله، وأنَّه ﷺ يدَّعي ذلك، فطلبوا تعيين الوقت تهكُّما، فأجاب بأنِّي لســت مالكا نفعا أو ضرًّا فكيف أدَّعي ما ليس لي؟.

﴿**قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِــي ضَرًّا**﴾ دفع ضُرٍّ، أخر الضرَّ في الأعراف للإشــعار بأهمِّيَّة النفع والمقام مقامه، وهذا المقام للوعيد كما قالوا: «متى هذا الوعد»؟. ﴿**وَلَا نَفْعًا**﴾ جلب نفع، فكيف أملكهما لكم، أو لا أملك لنفسي ضرًّا أجيئكم به ولا نفعا أنفعكم به، والكلام سيق للضرِّ المناسب لقوله: ﴿**مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ**﴾ وإنَّما ذكر نفعــا تتميما للفائدة ولإظهار كمال العجــز، ولدفع إيهام اختصاص ذلك بالضرِّ، والمراد: كيف أعجِّل العذاب إليكــم وليس في حكمي؟ ﴿**إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ**﴾ أن أملكه أو أقدر عليه، فالاستثناء متَّصل؛ أو لكن ما شاء الله كائن.

[أصول الدين] [ولا يخفى أنَّ الإنسان بحسب الظاهر ما ملَّكه الله إِيَّاهُ فله قدرة مؤثِّرة بإذن الله ﷻ، يخلق الله تأثيرها، ولا بأس بهذا، وقالت الأَشعَرِيَّة: لا تأثير لها، وقالت المعتزلة قبَّحهم الله: تؤثِّر ولم يشــأ الله][1]. أو لَكِنَّ مشيئة الله هي المعتبرة فهو منقطع، والمراد: ما شــاء الله على الإطلاق، أو ما شاء الله من النفع أو الضرِّ.

﴿**لِكُلِّ أُمَّةٍ**﴾ موعودة بالهلاك ﴿**أَجَلٌ**﴾ مدَّة مضروبة لهلاكهم لكفرهم من إنكار الحقِّ؛ أو لكلِّ هلاك أمَّة موعــودة بالهلاك أجل، وأمَّا التي لم يوعد لها في الدنيا فعذابها في الآخرة. ويضعف التفســير بأنَّ لــكلِّ أمَّة أجلا للموت، لأنَّه لم يقل: لكلِّ أحد أجل، ولو أمكن باعتبار آحاد الأمَّة، ولا يقدح في هذا

(1) ما بين معقوفتين إضافة غير موجودة في النسخة (د) مسودة المؤلف.

اتِّفَاق أجل اثنين فصاعدا ولو آلافا، والأجل يطلق على جملة ما حدَّ وعلى آخره، وهو أنسب بقوله: ﴿**إِذَا جَـآءَ اَجَلُهُمْ**﴾ أجل كلِّ أمَّة، أو أجل الأمم المعلومة من ذلك، والإضافة للعموم وكأنَّه قيل: آجالهم، بالجمع. ﴿**فَلَا يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ وأيضا هذا كلُّه داخل في مقول القول، وهو جواب لقوله: ﴿مَتَىٰ...﴾ فلا يذكر في الجواب مدَّة أعمارهم بل آخرها الذي يأتي عليه الهلاك أو الموت.

كيف تطلبون مجيء العذاب مع أنَّ لكلِّ أمَّة أجلاً لا يتأخَّر ولا يتقدَّم، أمَّا إذا أريد أجل الموت فالأمَّة هذه داخلة، وأمَّا إذا أريد الهلاك فلا، لمجيء الحديث: «**إنَّ أمَّتي لا تهلك كلُّها**»[1] ولو كان قد يخسف بطائفة وتقذف طائفة. والسين والتاء في الموضعين ليستا للطلب. والمعنى: لا يتأخَّرون ولا يتقدَّمون بل هما صلتان لتأكيد النفي، أي انتفى التقدُّم والتأخُّر انتفاء بليغا، أو لإفادة أنَّ التقدُّم والتأخُّر بلغا في الاستحالة إلى أنَّهما لا يطلبان، إذ المحال لا يطلبه العاقل؛ أو لإفادة أنَّ شدَّة الهول تمنع الطلب.

ويجوز إبقاؤهما على أصلهما من الطلب، أي لا يطلبون التأخُّر ولا التقدُّم، وقوله: ﴿لَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معطوف على مجموع «إِذَا» وشرطها وجوابها، لا على جوابها، لأنَّه لا يصحُّ أن يقال: إذا جاء أجلهم لا يستقدمون، لأنَّ الخاصَّ لا يمكن تقديمه، إلَّا أن يقال معنى مجيء الأجل مشارفة مجيئه، وأجيز العطف على «لَا يَسْتَاخِرُونَ» للمبالغة في انتفاء التأخير، لَمَّا نُظِّم في سلكه أشعر أنَّه بلغ في الاستحالة مرتبته، وتقدَّم كلام في ذلك. والمراد بالساعة أقلُّ قليل.

[بلاغة] وَإِنَّمَا لم يقرن «إِذَا» بالفاء وقرن به «لَا يَسْتَاخِرُونَ» عكس آية الأعراف لأنَّ ما هنا جواب لاستعجالهم الوعد، فأتي بالجملة على وجه الاستقلال من أنَّها ثابتة بنفسها بلا تفريع على شيء، وقوي لزوم جواب

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

الشرط للشــرط بالفاء، وليســت آية الأعراف كذلك، أو ما هنا تثبيت وشرح لصدره ﷺ فلا يضيق قلبه باستعجالهم، وتلقين له في الردِّ عليهم فناسب الردّ بلا تفريع تلويحا باســتقلال الجملة في المبالغة في الــردِّ، وما في الأعراف وعيد لهم فقرنت بالفاء تفريعا على شأنهم لأنَّها تفيد الربط.

﴿قُلَ اَرَآيْتُم﴾ أخبِروني، عبَّر عن الإخبار بالرؤية لأنَّها سببه، وعن الأمر بالاســتفهام لاتِّفاقهما في الطلب، ولأنَّ الاســتفهام أمر بالإفهام، ومفعوله جملة «مَاذَا يَسْــتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُون» بالتعليق بالاســتفهام، وعلى تعديته لاثنين يقدَّر أحدهمــا تقديره: أرأيتم عذاب الله؟ مــن مطلق الحذف لدليل، وهو هنا عذابه، أو تنازع مع «أَتَى» في «عَذَابُهُ». والاســتفهام تعجيب. ﴿إِنَ اَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ جوابه مستغنى عنه بقوله: أرأيتم ماذا يستعجل منه المجرمون، أو محذوف تقديره: تندمــوا، أو يُبَيِّنُ خطأكم، لا جملة «مَاذَا يَسْــتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» وإلَّا قُرن بالفاء لأنَّه جملة اِســمِيَّة وأيضا اســتفهاميَّة، وما أوهم خلاف ذلك قدِّر فيه الجواب، ولا ترض بما قال الشريف الرضيُّ وغيره من جواز ترك التاء.

والمراد بعذابه: العذاب المستعجل به في قولهم: «مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ» إنكارا واستبعادا له. و«إِنْ» للشكِّ بالنسبة إلى وقوع العذاب في نفس الأمر، لأنَّه غير واجب وجود، فقد لا يقع والله عالم أَيَقَعُ أم لا.

﴿بَيَاتًا﴾ كقــوم لوط، مصــدر نائب عن ظــرف الزمان، كجئــت طلوعَ الشمس، أي وقت بيات، وهو وقت الاشــتغال بالنوم، وهو الليل، كما قابله بقوله: ﴿اَوْ نَهَارًا﴾ كقوم شعيب. و«أَوْ» للتنويع كما رأيت، أو للترديد باعتبار الخلق وقت القيلولة من النهــار، أو مطلقا لأنَّ النهار كلَّــه وقت الغفلة بنحو المعاش، كما أنَّ الليل وقت الغفلة بالنوم، ويــدلُّ لإرادة وقت القيلولة قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 04].

ويجوز أن يكون «بَيَاتًا» اســم مصدر ظرفا، أي وقت تبييت، وهو الوقت الذي يُغار فيه على القوم، مثل قرب الفجر، أو عقب الفجر كوقت القيلولة من النهار في الغفلة ﴿مَّاذَا﴾ اســم مركَّب مفعول لقوله: ﴿يَسْــتَعْجِلُ﴾؛ أو مبتدأ وخبر؛ و«ذَا» بمعنى الذي، صلته قوله: ﴿يَسْــتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ والرابط محذوف، أي ما الذي يستعجله منه؟ أي من العذاب، وَقِيلَ: من الله.

[بلاغة] والمجرمون المشــركون، مــن وضع الظاهر موضــع المضمر ليصفهم بالإجرام، ففيه طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، والأصل: ماذا تســتعجلون؟ والاســتفهام تعجيب وإنكار لِلياقة، لا يليق بعاقل أن يستعجل نوعا من العذاب ولا فردا، ولا أن يتعرَّض لموجبها من تكذيب لكلام الله ومن سائر الكبائر، ثمَّ إِنَّهُ لا يخفى أنَّه لا يستعجل الشيء بعد حضوره لأنَّ تحصيل الحاصل غير ممكن عقلا، فمعنى الآيــة: إن أراد الله إتيانه بياتا أو نهارا لوقته فما وجه اســتعجاله قبل الوقت؟ أو نُزِّل استعجالهم قبل وقته منزلة استعجاله بعد مجيئه في الاســتحالة على أنَّ دنوَّه كوقوعه، كقولــك لغريمك زجرا عن تقاضيه: إذا قضيتك فماذا تطلب؟ نزَّلت تقاضيه قبل إعطائكه منزلته بعده. أو المراد: إن أتاكم أمارة استعجاله.

[نحو] وهاء يستعجله للبعض المعبَّر عنه بـ«مَاذَا»؟ و«مِنْهُ» حال من الهاء، أو من «مَاذَا»، إذا كان اسما واحدا؛ أو «مِنْ» للتبعيض، ولك جعلها للبيان على أنَّ المراد مطلــق العذاب لا بعضه، ومنــه حال لذلك، أو «مِــنْ» للابتداء بلا تجريد، أو به، كقولك: رأيت منه أسدا، جَرَّدَ من العذاب أمرا هائلا متولِّدا منه.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَــا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ﴾ الهمزة داخلــة على محذوف أي أتكفرون قبل وقوع العذاب ثمَّ إذا وقع آمنتم حين لا ينفعكم الإيمان؟ أو داخلة على «إِذَا». و«ثُمَّ» لتراخي الزمــان على الأوَّل، وللترتيب الذكــري على الثاني، والهاء للعذاب، ويجوز أن يكون لله ﷻ. ﴿ءَالآنَ﴾ يقــال لهم إن آمنوا بعد

وقوعه: أتؤمنون الآن وقد كفرتم به قبل؟ كما قال: ﴿**وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ تكذيبا واستهزاء، وهذه الجملة حال من واو «تؤمنون» المقدَّر، وكناية عن التكذيب، فإنَّه لَمَّا استعجلوا به علمنا أنَّه ليس ثابتا عندهم إذ لا يستعجل العاقل العقاب.

﴿**ثُمَّ قِيلَ**﴾ عطف على جملة «يقال لهم...» إلخ المقدَّرة، عطف ماضويَّة على مضارعيَّة وهو جائز، وإنَّما قـدَّرتُ المضارع لئلَّا يكثر، لأنَّ التقدير على فرض أنَّهم آمنوا ثمَّ على فرض أنَّ خطابهم قد وقع ونزل منزلة الواقع. ﴿**لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ**﴾ عموما، أو ثمَّ قيل لهم؛ وأظهر ليصفهم بالظلم لأنفسهم بالذنوب، وللخلق بالقحط والمصايب لذنوبهم، والقائل الملك، أو الملائكة، أو ملائكة العذاب.

﴿**ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ**﴾ الموجع على الدوام، والذوق استعارة تهكُّميَّة. ﴿**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ**﴾ من الشرك والكبائر والصغائر؟ فلا تلوموا إلَّا أنفسكم لا لوم على سعة رحمة الله فإنَّه خلقهم لها، ولا على الخلق لأنَّهم اختاروا ذلك لأنفسهم، لفرط اشتغالهم بموجبه، والإعراض عَمَّا ينافيه. ويجوز كون «مَا» مَصدَرِيَّة.

[أصول الدين] وإنَّما عذِّبوا على الصغائر لأنَّهم لم يجتنبوا الكبائر، ويعذَّبون على ما دون الشرك، لأنَّ الصحيح أنَّهم مخاطبون بفروع الشريعة، ويدوم عذابهم على ما دون الشرك كما يدوم عليه، وزعم بعض قومنا أنَّ عذابهم على ما دون الشرك ينقطع، كما يخرج الموحِّدون من النار على زعمهم، وأنَّه ما ورد من التخفيف عن بعض في بعض الأوقات إنَّما هو في شأن ما دون الشرك.

﴿**وَيَسْتَنبِئُونَكَ**﴾ يستخبرونك ﴿**أَحَقٌّ هُوَ**﴾ سألوا أوَّلا عن وقت العذاب، وهنا عن تحقُّقه في نفسه، ولفظ «هُوَ» للعذاب، و«حَقٌّ» مبتدأ و«هُوَ» فاعله

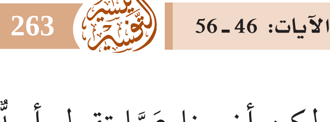
أغنى عن خبره، أو «حَقٌّ» خبر و«هُوَ» مبتدأ، وقدِّم للحصر وللاهتمام، أي أكان وحده حقًّا لا حقَّ معه؟ أو أهو الحقُّ لا الباطل؟ والجملة على كلٍّ مفعول ثان لـ«يَسْتَنبِئُ» علِّق هنا بالاستفهام. ﴿قُلْ إِي﴾ نعم.

[لغة] وإي بمعنى نعم تختصُّ بالقسم. وأجاز أبو حيَّان استعمالها في غير القسم، والغالب استعمالها فيه عنده، وما قاله ظاهر على أنَّ ورودها في القسم غير حجر عن استعمالها في غيره، لعدم فساد المعنى على حدٍّ ما من البحث في كافة، وأهل مضاب وأهل مصر ومن شايعهم يقولون: «إِي» بلا واو، ويقولون: «أَيْوَ» بالواو، و«أَيْوَهْ» بهاء السكت، ونقول: الواو بعض من القسم، فإن كان لأبي حيَّان حجَّة من كلام من يحتجُّ به قبل فساد اللسان فهو حجَّة.

﴿وَرَبِّيَ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ إنَّ العذاب لحقٌّ؛ أو إنَّ القرآن لحقٌّ، أو ما أدَّعيه من الرسالة لحقٌّ، قيل: الاستفهام في قوله: ﴿أَحَقٌّ﴾ على أصله لقوله: ﴿يَسْتَنبِئُونَكَ﴾.

[سبب النزول] سافر حيي بن أخطب من المدينة إلى مكَّة قبل الهجرة، فقال لرسول الله ﷺ: أحقٌّ ما تقول؟ فنزل: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ...﴾. والمضارع لحكاية الحال، على أنَّ الآية بعد قوله ذلك، وأمَّا قبل قوله فهو للاستقبال وإخبار بالغيب، وَقِيلَ: للإنكار، وهو أولى، لأنَّ السائل ـ وهو حيي بن أخطب ـ من رؤساء اليهود في العلم، وهو من أشدِّهم، فهو إمَّا عارف بِالحَقِّ معاند، أو خائف من زوال رئاسته، أو غير عارف وهو منكر.

وقد يقال: لعلَّ ذلك أوَّل أمره لعنه الله فيسأل استفهاما ويشتدُّ كفره بعد، وأمَّا الاستنباء فلا دليل فيه، لأنَّه يستعمل في الإنكار كما يستعمل في الاستفهام الحقيقي.



ويجوز أن يكون المعنى: إنَّا جازمون بكَذِبِكَ لكن أخبرنا عَمَّا تقول أجدٌّ منك أم هزل؟[1] أي أتعمدت على الله الكــذب أم هزلت؟ نظير: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا اَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [ســورة ســبأ: 08] فإنَّ «أَم بِهِ جِنَّةٌ» حاصله أنَّه لم يتعمَّد نفس الكذب، كما أنَّه قد يكذب الإنسان هزلا لا غرض له في نفس الكذب.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فائتين لله بالهروب عن عذابه، أو بقوَّة وقدرة على ردِّ أمره ﷻ، وهذا يقوِّي ردَّ الضمير قبل للعذاب، لأنَّه أنسب بنفي الفوت.

وأمَّا أن يقال لمنكر القرآن أو الرسالة: «مَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ» فلو كان جائزا لكان باستحضار أَنَّ منكري ذلك مستحقُّون لأن يقيض عليهم بالعذاب. و«مَا» حجازيَّة، لأنَّ القرآن نــزل بلغة قريــش، ولأنَّه إذا لم تكــن الباء في مثله مــن القرآن ظهر النصب، نحو: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [سورة يوسف: 31] ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِم﴾ [سورة المجادلة: 02].

﴿وَلَوَ اَنَّ لِــكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ نعــت «نَفْسٍ»؛ ظَلَمت ذاتَها بالشــرك، أو المعاصــي، أو غيرها، في مال أو بدن أو عرض، أي ظلمت نفســها أو غيرها

---

(1) في الطبعة العُمانية: «أجدٌّ منك أم هزل؟ فقل لهم: نعم، وأقسم لكم بِرَبِّي الذي لا إله إلَّا هو ولا معبود بِحَقٍّ سواه إِنَّهُ لحقٌّ وجدٌّ لا هزل فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فَإِنَّكم بعد أن تموتوا وتصيروا ترابا لن تعجزوا الله سُــبحَانَهُ وَتَعَالىَ عن إعادتكم كما بدأكم من العدم، فـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُوَ إِذَآ أَرَادَ شَــيْئًا اَن يَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: 82]، وَهَذِهِ الآيَة ليس لها نظير في القُرْآن إلَّا آيتان أخريان يأمر الله تَعَالىَ رســوله أن يقســم به عَلَى من أنكر المعاد، في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لَا تَاتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَاتِيَنَّكُمْ﴾ [الآية: 3]، وَفي التغابن: ﴿زَعَمَ الذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُّبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُــنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الآية: 7]. ثُمَّ أخبر الله تَعَالىَ أَنَّهُ إذا قامت القيامة يودُّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأَرض ذهبا: ﴿وَلَوَ اَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الَارْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ وكيف يكون لها ذَلِكَ وليس هناك درهم ولا دينار، فقد فنيت الدنيا، ولم يبق لإنســان غير عمله، عَلَيْهِ يبعث وبه يجازى إن خيرا فخير وإن شَرًّا فشــرٌّ، حَتَّى لو وجد الإِنسَان ما يمكن أن يفتدي فَإِنَّهُ لن يقبل منه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنَ اَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: 88 ـ 89]. انظر: ج5، ص278 ـ 279.

﴿**مَا فِي الَارْضِ**﴾ من الأموال؛ أو ما فيها من الأشـياء مطلقا، على فرض أنَّها أموال بأن يكون ذلك كلُّه لهذه النفس، ومثله لتلك النفس وهكذا. ﴿**لَافْتَدَتْ بِهِ**﴾ طلبت به الخلاص من هول القيامة وعذابها، يهون عليها ذلك في التخلُّص به ولا يقبل منها وكلُّ نفس ظالمة كذلك، لا تجد واحدة يعزُّ عليها ذلك فتمسكه وتسلِّم نفسها للعذاب، ولا تجد واحدة يقبل منها.

وافتدى «افتعل» للعلاج وهو لازم، ولا يختصُّ لزومه بالمطاوعة، ووجه جواز المطاوعة هنا أن يكون المعنى: لو أنَّ لها ذلك لأعطته فداء فيقبل منها، لكن لا يوجد لها ذلك فلا نجاة لها، وحاصله: فدت نفسها فافتدت، أي فحصل لها افتداء، كما تقول كسر نفسه فانكسر.

وقالوا: يجوز تعدِّيه غير مطاوع، أي لافتدت به نفسها لكن لا يوجد؛ أو لا يقبل لو وجد. وما فسَّرت به أوَّلا أولى، ويناسبه قوله: ﴿فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ﴾ [سورة آل عمران: 85][1].

﴿**وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ**﴾ عن فعل الشرك والمعاصي ﴿**لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ**﴾ والضميران لكلِّ نفس لا للرؤساء خاصَّة، بأن أخفوها عن الضعفاء مخافة التعيير كما قيل، بل وجه الإخفاء الفشل عن الإظهار لأجل إيَّاسهم، ولأجل أنَّه فاجأهم من الأمر الفظيع ما لم يحتسبوه، كأنَّهم بُكْمٌ كمن ذُهب به ليقتل.

[لغة] والندامة قلبيَّة لا ظهور لها، فذِكْرُ «أَسَرُّواْ» تأكيد، أو باعتبار أنَّ الندامة قد يعبِّر عنها اللفظ كالنطق بها والبكاء، أو ﴿أَسَرُّواْ النَّدَامَةَ﴾: أخلصوها لله حين لا تنفع، ويقال: أسرَّ الشيء بمعنى أخلصه، كما يحافظ على الشيء بستره، والإخفاء من لوازم صفاء الشيء؛ أو أسرَّ بمعنى أظهر، من الأضداد، كغبر بمعنى مضى، وغبر بمعنى بقي؛ أو الهمزة للسلب أي أزالوا

---

(1) الآية الأنسب بالسياق، هي قوله تعالى: ﴿... فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنَ اَحَدِهِم مِّلْءُ الاَرْضِ ذَهَبًا وَلوِ افْتَدَىٰ بِهِ...﴾ (سورة آل عمران: 91).

سـرَّها، أي خفاءها، كأقردت البعيـر: أزلت قراده، ففي موطن فشـلوا، وفي موطن أذن لهم بالنطق، وأقدروا عليه.

﴿**وَقُضِـيَ**﴾ العطف على «أَسَرُّوا»؛ أو على «رَأَوا»؛ أو على ما عطف عليه «أَسَـرُّوا» ﴿**بَيْنَهُم بِالْقِسْـطِ**﴾ بين الخلائق كلِّهم؛ أو كلِّ نفس ظالمة؛ أو بين المظلوميـن والظالميـن، أو بيـن المؤمنين والكافريـن؛ أو بين الرؤسـاء والضعفاء؛ والأوَّل أولى لعمومه قبل. ودخل في ذلك العدل العظيم أنَّه يعدل من الكافر الظالم للكافر الآخر المظلوم، فيسـقط بعـض العذاب عن الكافر المظلوم، ويزاد على ظالمه الكافر. وأمَّا عود الضمير إلى النفوس الظوالم فلو ناسب بالذكر والقرب لكن لا يتبادر إرادته ولو كان صحيحا أن يقضى بينهنَّ بأن يخفَّف عن هذه على تلك من جهة مظلمة، وعن تلك على هذه من جهة.

﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُـونَ**﴾ الأوَّل بين الأنبياء ومكذِّبيهـم، والثاني بين غيرهم مِمَّن مرَّ آنفا فلا تكرار، كما لا يخطر بالبال أنَّه تكرير.

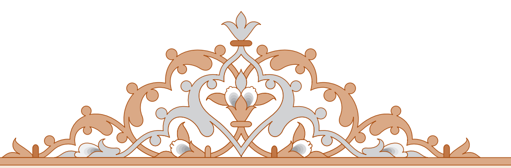
وقرَّر قدرته على العذاب والثواب والقضاء بينهم بقوله: ﴿**أَلَآ إِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ انتبهوا فإنَّ جميع ما سـوى الله ممكن لذاته، والممكن مستند للواجب لذاته، إمَّا ابتداء أو بواسطة، فثبَت أنَّ جميع ما سواه مملوك له تعالى، وما ينسـب من الإملاك لغير الله ليس على التحقيق، والكلُّ لله وليس للنفس الظالمة شيء.

والمراد بما في السـماوات والأرض: أجزاؤهما ومـا عليهما، وفي ذلك إشارة إلى مقدِّمة تصلح كبرى من الشكل الأوَّل هكذا: كلُّ موجود محدثٌ له تعالى ملكا وتصرُّفا، ومَن شأنه هذا يقدر على كلِّ ممكن، فيقدر على القضاء والثواب والعقاب.

﴿**أَلَآ إِنَّ وَعْدَ اللهِ**﴾ بالثواب والعقاب علـى المعنى المصدريِّ، أو بمعنى موعوده، ودخل ما كانوا به يسـتعجلون ﴿**حَقٌّ**﴾ لا خلـف في وعده ولا في

وعيده، لأنَّ الخلف شـأن من لا يعلم العواقب، أَمَّا من يعلمها سُـبحَانَهُ فإنَّ شأنه يستمرُّ ولا يتبدَّل ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ**﴾ كلَّهم الأشقياء ﴿**لَا يَعْلَمُونَ**﴾ فإنَّهم ولو علموا شيئا من أمر الدين يعاندون لقصر عقولهم على ظاهر من الدنيا؛ أو أراد أن بعض الكفَّار يعلمون ويتوبون، ويجوز عود الهاء للناس.

﴿**هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ في الدنيا بالقدرة والفعل، وفي الآخرة بالقدرة، إذ لا موت فيها، وأمَّا الحياة فهو الذي يوجدها ويديمها **وقدرته ذَاتِيَّة وما بالذات لا يتخلَّف**. ويروى أنَّ الطائر يؤتى به مطبوخا أو مشـويًّا أو مقليًّا بحسـب ما يشـتهي السـعيد، فإذا أكل منه أحياه الله فهذان إحياء وإماتـة متجدِّدان فيها. ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ بعد الموت بالبعث للجزاء بأعمالكم، فالآية احتجاج على قدرته على البعث، وذكر الإماتة وربَّما دلَّ على أنَّ القادر على نزع الشيء من مكانه قادر على ردِّه فهو قادر على ردِّ الحياة.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿57﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿58﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿59﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿60﴾﴾

فضل القرآن على الناس، والإنكار على المشركين في التحليل والتحريم

﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ أهل مَكَّة، أو الناس كلُّهم، وهذا استمالة لهم إلى الحقِّ، وطريق صحَّة النبوءة بعد ذكر طرق الدلالة على الوحدانية ﴿**قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ**﴾ هذه الأربعة كلُّها شيء واحد هو القرآن، ونكِّرت للتعظيم، نزلت ـ لتغايرها وصفا ـ منزلة تغاير الذوات، فساغ العطف، كما شهر أنَّ العطف يقتضي التغاير غالبا.

جاءكم من الله القرآن الجامع للوعظ والشفاء والهدى والرحمة. والموعظة: مصدر ميميٌّ بمعنى الوعظ وهو إرشاد المكلَّف ببيان ما ينفعه من محاسن الأعمال، وما يضرُّه من القبائح، وذكر الثواب والعقاب والترغيب في المحاسن والزجر عن القبائح. و«مِن» للابتداء، ولا حاجة إلى التبعيض على تقدير: من مواعظ ربِّكم.

والشــفاء: إزالة ما يشــبه المرض في الضــرر والإهلاك من ســوء الاعتقاد والشكوك، ويلتحق بذلك ذنوب الجوارح واللسان. والهدى: الإرشاد عن الضلال إلى اليقين وهــو الحقُّ. والرحمة: إنعــام الله على المؤمنين بإنــزال القرآن الذي ينجون به من النار ويفوزون بالجنَّة، وكذا للكفَّار، ولكن أعرضوا عنه فلم ينالوا.

والهدى: هدى بيان لا هــدى إيصال كما قيل، لأنَّ هــدى الإيصال لله لا للقرآن، ولا شكَّ أنَّ لقراءة القرآن عموما بركة يذهب بها أمراض البدن عموما بإذن الله تعالى على طريق الدعاء والتبرُّك، أو بلا قصد للشفاء به.

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو صدره فقال ﷺ: «**اِقرأ القرآن، يقول الله تعالى: ﴿شِــفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾**»[1] وليس على ظاهره مــن أنَّ معنى الآية أَنَّ القرآن دواء لوجع الصدر، بل معناه أَنَّــهُ دواء لدنس القلوب بنية المعاصي، بل قياس منه ﷺ للمرض الحِسّي على المرض المعقول من الذنب، وذلك كما أنَّه يقرأ ﷺ المعوَّذتين ويمسح على بدنه لوجع، وكذا شكا إليه رجل وجع الحلق، فقال: «**عليك بقراءة القرآن**»، بل قد يكون المرض المعنويُّ سببا للحسِّيِّ، فيقرأ القرآن ليزول المعنويُّ الذي هو سبب الحســيِّ. وجاء أحاديث في أنَّ الذنوب تجرُّ المصائب والأمراض، ويقال: «لله درُّ الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله».

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ متعلِّق بـ«جاء» محذوفا، قل جاء ذلك بفضل الله وبرحمتــه، دلَّ عليه «جَــاءَ» المذكــور، أو بـ«يفرحوا» محذوفــا دلَّ عليه «يَفْرَحُ» المذكور، أي قل: ليفرحوا بفضل الله وبرحمته.

والمراد بالفضــل والرحمة العموم. وعن مجاهد: همــا القرآن، وعنه ﷺ: «**الفضل: القرآن، والرحمــة: جعْلُكم من أهله**»[2]. وفي معناه قول أبي ســعيد

(1) أورده **السيوطي** في الدر، في تفســير الآية ذاتها وقال: أخرجه ابن المنذر وابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري.

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج4، ص141، وقال: أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس.

الخدري ﵁ وجماعة موقوفا: «فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام»، وهو قريب مِمَّا في الحديث. وعن ابن عَبَّاس ﵁: «الفضل: العلم، والرحمة: محمَّد ﷺ»[1]. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 107]. وقِيلَ الفضل: الجَنَّة، والرحمة: النجاة من النار.

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ كرَّر للتأكيد وحذف الأوَّل، ولا حصر فيه، والحصر في الثاني بالتقديم للمعمول، وإن قدِّم أفاد الحصر أيضا هكذا: «قل بفضل الله وبرحمته ليفرحوا» والفاءان عاطفتان هكذا: فليعجبوا بذلك، فليفرحوا به، أو صلتان، و«بِذَلِكَ» بدل من «بِفَضْلِ» و«بِرَحْمَتِهِ»، و«بِفَضْلِ» متعلِّق بـ«يَفْرَحُ» المذكور هكذا: قل بفضل الله وبرحمته بذلك، أي بهما ليفرحوا، أو الأولى عاطفة والثانية صلة يتعلَّق «بِذَلِكَ» بما بعدها هكذا: فليفرحوا بذلك، وقدِّم للحصر، لا تفرحوا بالدنيا بل بذلك، وإذا لم تجعل فاء صلة فهي عاطفة سَبَبِيَّة. والإشارة بذلك إلى القرآن.

وأجيز أن يكون ذلك من باب الاشتغال باسم الإشارة العائد إلى الفضل والرحمة، بتأويل ما ذكر، وتقديم الشاغل جائز نحو زيدا إِيَّاهُ أكرمت، واسم الإشارة ظاهر وضع موضع المضمر، إشعارا بعلوِّ شأن الفضل والرحمة، وقد شهر استعمال اسم الإشارة رابطا فلا غرابة في هذا الإعراب، والضمير في «يَفْرَحُونَ» للمؤمنين.

﴿هُوَ﴾ أي ذلك المشار به إلى الفضل والرحمة بتأويل ما ذكر؛ أو الفضل والرحمة، وأضمر لهما بتأويل ما ذكر؛ أو المجيء المعلوم مِن «جَآءَ»، ولا يخفى أنَّ ردَّ الضمير إلى الأقرب الصريح أولى من ردِّه إلى البعيد، ولو كان ردُّه إلى البعيد لا يحتاج إلى تأويل ما ذكر، لأنَّه اجتمع فيه البعد وغير التصريح بالاسم.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج4، ص141، وقال أخرجه أبو الشيخ عن ابن عَبَّاس.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي مِمَّا يجمع الكُفَّار من المال والجاه واللذائذ. ويجوز عود الواو للمؤمنين، لأنَّ المؤمنين لا يخلون من جمع المال وحبِّ الجاه بالطبع.

تالله لو كانت الدنيا بأجمعها ... تبقى علينا وما من رزقها رغدا
ما كان من حق حرٍّ أن يذلَّ بها ... فكيف وهي متاع يضمحلُّ غدا[1]

وما يعدُّونه خيرا ليس بخير.

لا تعجبنَّ الجهول حلَّته ... فذاك مَيْتٌ وثوبه كفنه[2]

﴿قُلَ اَرَآيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ «مَا» اسم موصول، والمعنى: أرأيتم ما نزَّل الله من البحيرة والوصيلة والحامي والسائبة؟ والمفعول الثاني جملة قوله: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُم﴾ على أنَّ «قُل» الداخل عليها لهذا.

[نحو] ولا يحسن تخريج الآية على الاستفهام وأنَّها مبتدأ خبره ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُم﴾ لعدم الرابط إذ لا يكفي تقديره هكذا: آلله أذن لكم فيه، وإنَّما يكفي الضمير في «أَنزَلَ» فيكون الخبر أنزل الله أي ما أنزله الله، مع أنَّ هذا تكلُّف، لأنَّ هذا الحذف يوهم أنَّ «مَا» مفعول به لـ«أَنزَلَ»، ولا يحسن أن تقول: زيدٌ ضربت، برفع زيد وتقدير الهاء، أي زيد ضربته، بل ينصب ولو ورد الرفع نادرا، كقول أبي النجم: «كلُّه لم أصنع»[3] برفع كلُّ، أي كلُّه لم أصنعه، فما إذن كانت استفهاميَّة وهي مفعول به لـ«أَنزَلَ». ومعنى «أَنزَلَ» خلق، لأنَّ ما خرج من الأرض من الأرزاق مقدَّر في السماء، وبسبب الماء النازل منها فإنَّ النبات به وبحرارة القمر والشمس، والحيوانات كالنبات.

---

(1) البيتان للحصكفي. ينظر: **خريدة القصر وجريدة العصر** للعماد الأصفهاني. ج2، ص 75. (ترقيم المكتبة الشاملة).

(2) أورده **الزمخشري في الكشاف**، ج2، ص200. ولم ينسبه.

(3) من مطلع أرجوزة لأبي النجم العجلي أوَّلها:

قد أصبحت أم الخيار تدَّعي ... عليَّ ذنبا كلُّه لم أصنع

شواهد المغني للسيوطي، ص184.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَـلَالاً﴾ ﴿حَلَالاً﴾: هو الميتة، ﴿وَحَرَامًا﴾: هو الوصيلة والبحيرة والحامي، قال الله ﷻ: ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [سورة الأنعام: 138] ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الاَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَّكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [سورة الأنعام: 139]. وقيل: المراد أنَّه أنزل الماء وكان منه ما يؤكل، وقلتم: ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ و﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ...﴾. وأسند الإنزال إلى الرزق لأنَّه مسبَّب عن سببه، وهو المطر والريح والبرد والحرُّ، أو أطلق المسبَّب وهو الرزق عن سببه وهو الماء ونحوه.

﴿قُلَ ـ آللهُ أَذِنَ لَكُم﴾ في التحليل والتحريم، وعديل هذا هو قوله: ﴿أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ في التحريم والتحليل؟ فـ«أَمْ» متَّصلة والاستفهام توبيخ، ويجوز أن تكون منفصلة، أي بل على الله تفترون، أو بل أعلى الله تفترون؟ وعلى الانفصال يتعلَّق بقوله: ﴿قُلَ ـ آللهُ أَذِنَ لَكُم﴾ أو بقوله: ﴿أَرَآيْتُمْ﴾.

ومقتضى الظاهر: آلله أذن لكم أم غيره، ولكن قال: ﴿أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ لأنَّ فيه معنى أم غيره وزيادة التصريح بافترائهم، ولأنَّ معنى ﴿آللهُ أَذِنَ لَكُم﴾: أفعلتم ما فعلتم على أنَّه من عند الله؟ أم فعلتموه من عند أنفسكم افتراء؟ وقدَّم قوله: ﴿عَلَى اللهِ﴾ للفاصلة وطريق الاهتمام لا للحصر، إذ ليس المقام لأن يقال: يفترون على الله لا على غيره.

﴿وَمَا ظَنُّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ هذا يتضمَّن وعيدا أبهمه الله تهديدا وتهويلا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ متعلِّق بـ«ظَنُّ» كما قرأ عيسى بن عمر: «وَمَا ظَنَّ» بصيغة الماضي، على أنَّ الظنَّ في الدنيا، أو في الآخرة لتحقُّق الوقوع، فالظنُّ يوم القيامة.

[نحو] ومفعولا الظنِّ محذوفان، أي أيُّ شيء ظنُّهم يوم القيامة أنَّه لا يجازيهم على افترائهم، أو يجازيهم جزاء يسيرا، كَلَّا! لا بدَّ من الجزاء

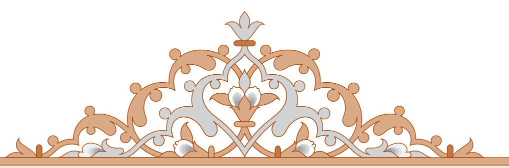
وشدَّته؛ أو بمحذوف، أي ما ظنُّهم في الدنيا أنَّه لا يجازيهم يوم القيامة. و«مَا» استفهام على الجنس، وهو متعلَّق الظنِّ، وهو المظنون، كأنَّه لغرابته مجهول.

﴿**إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**﴾ كلِّهم بالإمهال والإنعام والعقل الذي يميِّزون به بين الحقِّ والباطل، وإنزال الكتب والرسل وبالصحَّة والرزق ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ**﴾ هذا الفضل، ومِن شُكْرِه التدبُّر والعمل به، فالنعم التي هي للاهتداء سبب للضلال، والقرآن المنزل للتصديق سبب للوقوع في الكذب.

إلى الماء يسعى من يغصُّ بلقمة إلى أين يسعى من يغصُّ بماء؟![1]

(1) ذكره **أبو هلال العسكري** في جمهرة الأمثال. ونسبه إلى بعض المحدثين. ج2، ص203.





﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿61﴾﴾

إحاطة علم الله تعالى بجميع شؤون الكائنات

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمَّد، وتلتحق به أمته ﴿فِي شَأْنٍ﴾ في أمر، من شأَنْتُه[1] أي قصدته، مصدر بمعنى مفعول، أي مقصود، وتغلَّبت عليه الِاسمِيَّة، ويجوز إبقاؤه على أصله من المعنى المصدريِّ، أي في قصد أو على ما تفرَّع عليه من معنى مقصود، ومعنى تغلب الِاسمِيَّة أنَّه بمعنى أمر مطلق عن ملاحظة قصد أو مقصود.

﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ من الشأن أو من الله أو من القرآن، وعليه فالإضمار له قبل ذكره تفخيم لمرتبة شهرته، وإذا ردَّ الضمير للشأن فوجهه أنَّ تلاوة القرآن معظم شأنه ﷺ، وأنَّ القراءة تكون لشأن. و«مِنْ» للتعليل في هذا الوجه، وإذا ردَّ إلى القرآن فتبعيضيَّة، أو إلى الله فابتدائيَّة. ﴿مِن قُرْآنٍ﴾ منزَّل عليك، و«مِنْ» صلة في مفعول «تَتْلُواْ»، وبعض القرآن قرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ يا محمَّد وأمَّته، والمضارع للاستمرار الماضي حكاية له كأنَّه حاضر ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رقباء مطَّلعين. خصَّ الخطاب به ﷺ أوَّلا لأنَّ التلاوة هو الأصل فيها ولأنَّها منه أوَّلاً.

---

(1) في اللسان: «وَشَأَنْتُ شَأْنَهُ: قَصَدْتُ قَصْدَهُ». ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص258، مَادَّة «شأن».

وإنَّمـــا يقرأ غيره تبليغا وتبعـــا له، ولأنَّ رئيس القـــوم إذا خوطب دخل قومه، كقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَـآءَ﴾ [سورة الطلاق: 01] كما أنَّ الأمير يخاطب رئيس الكفَّـار، ويجري حكم قومه علـى جوابه، وكأنَّه أجاب عن قومه، وكذا خطاب الأمير لهم يجري قوم عليه [كذا]، ولو جعلنا الخطاب في «تَكُـونُ» و«تَتْلُـو» للعموم البدليِّ لعـمَّ كما عـمَّ «تَعْمَلُونَ» و«عَلَيْكُـمْ»، إلَّا أنَّه يلزم أن يكـون قوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُـونَ...﴾ كالتكرير له. والمراد: ما يكون ذلـك كلُّه في حال من الأحوال إلَّا حال شـهادتنا. وقدَّم «عَلَيْكُمْ» لطريق الاهتمام بما يكون انتقاما منهم مراعاة لجانب الكُفَّار، ولو كان الكلام على العموم، ويجوز أن يكون الخطاب في «تَعْمَلُونَ» و«عَلَيْكُمْ» للكفَّار، فالوعيد ظاهر.

﴿إِذْ﴾ متعلِّق بـ«شُـهُودًا» أو بـ«كُنَّا» ﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ فيما ذكر من الكون في شأن، والتلاوة والعمل، والإفاضة: الدخول في العمل.

﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ ما يغيب، وعزب: غاب وخفي ولو كان قريبا، ويفسَّـر بالبعد لأنَّه ملزم للخفاء والغيبة وسـبب له. ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ عن علمه، على حذف مضاف، أو ﴿عَن رَّبِّكَ﴾: كناية عن علمه تعالـى. ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الَارْضِ وَلَا فِي السَّـمَآءِ﴾ «مِنْ» صلة في الفاعل، ومثقال: وزن، وهو فاعل، وإنَّمـا يعبَّر على الوزن بالمثقال لاعتبار الثقـل، فالمراد: ما يوازن النملة الصغيرة جدًّا أو يساويها في الثقل الذي هو ضعيف لا يعلمه إلَّا الله أو من اجتهد.

أو الذرَّة الهباءة، والله مختصٌّ بعلم ثقلها ولا سـيما إن قلنا: هي جزء من ألف جزء من النملة، أو الخردلة. ومثقال الشيء: ميزانه، وذلك مَثَلٌ في القِلَّة لا حصر، ولذلك قـال: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِـكَ وَلَآ أَكْبَـرَ﴾ كما ذكر الأرض والسماء مثلا لأنَّ العَامَّة لا تعرف سواهما إلَّا بتعليم.

والمراد: الأرض والســماء والعرش والكرســيُّ وكلُّ موجود مخلوق لا خصوص الأرض والســماء، والله ﷻ لا يوصف بكلٍّ ولا بجزءٍ، والمثقال في الجَاهِلِيَّة والإســلام لا يختلف، وهو أربعة وعشــرون قيراطا، والدرهم سِتَّة دوانق، وعشرة دوانق سبعة مثاقيل.

وقدَّم الأرض لأنَّها أقرب إلى المخاطبين، وهم بها أعرف منهم بالسماء، ولأنَّ الكلام في حال أهلها والبرهان عليهم، و«فِــي الَارْضِ» حال من «ذَرَّةٍ» لتقدُّم النفي، والنعتُ أولى، ولا يجوز تعليقه بـ«يَعْزُبُ» لأنَّه يؤدِّي إلى أنَّ الله تعالى في السماء والأرض حلولا.

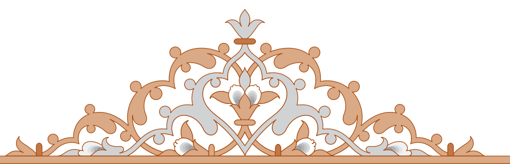
وقولــه: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ...﴾ كلام مســتأنف مقرِّر لِمَــا قبله. و«لَا» عاملة عمل إنَّ، واسمُها معرَب لشبهه بالمضاف، أو عاملة عمل ليس لا عاطفة على «ذَرَّةٍ» لأنَّه يبقــى قوله: ﴿**إِلَّا فِي كِتَــابٍ مُّبِينٍ**﴾ متعطِّــلا، إلَّا إن يجعل اســتثناء منقطعا، أي لكن كلُّ شــيء في كتــاب مبيــن، إلَّا أنَّ الحمل على الاســتثناء المنقطع خلاف الأصــل، لا يحمل عليه الــكلام إلَّا لداع صحيح راجح أو متعيِّن، فالوقف على السماء.

ولو جعل «لَا» عاطفة على «مِثْقَالِ» وجعل الاستثناء مُتَّصِلا لكان المعنى: لا يغيب عن ربِّك شــيء في حال من الأحوال إلَّا حــال كونه في كتاب مبين **وهو فاســد**، لأنَّه أثبت الخفاء عن الله، اللهــمَّ إلَّا أن يحمل على تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، كأنَّه قال: إن خفي عنه شيء فهو في اللوح المحفوظ، ومعلوم أنَّه لم يكتب فيه خفاء شــيء عنه، لكن لا يحســن التخريج علــى هذا، لأنَّ الكلام مع الكفَّــار الغلف، ولا يفهمون هــذا، ولو فهموا مثلــه في غيره من الكلام فلا يحملون كلامه عليه، وإنَّما يحمله عليه من تحقَّق إيمانه.

[نحو] وجاز العطف بـ«لَا» وَالِاتِّصَال، علــى أنَّ معنى «يَعْزُبُ»: يصدر، أي لا يصدر عن الله شــيء إلَّا وهو في كتاب مبين، والاستثناء إذا جعلنا «وَلَا

أَصْغَرَ» كلاما مستقلًّا عَمَّا قبله يكون مفرغا، والمفرغ لا يقال فيه: متَّصل ولا منفصل، والحقُّ أنَّه متَّصل لأنَّ المقدَّر فيه أبدا عامٌّ لِمَا بعد «إِلَّا»، ولا تعين العطفَ آيةُ رفع «أَصْغَرُ»[1] و«أَكْبَرُ» بدون «مِنْ»، لأنَّ «لاَ» فيها غير عاملة، وما بعدها مبتدأ لا معطوف على المرفوع قبله، أو عملت عمل ليس. وقدَّر بعض: لا شيء إلَّا في كتاب مبين، وبعض جعل «إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» استثناء مِمَّا قبل قوله: ﴿وَلَا يَعْزُبُ﴾ وهو تكلُّف، وقيل: «لَا» عاطفة على «مِثْقَالِ» و«إِلَّا» عاطفة، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [سورة النمل: 11] في أحد الأوجه، ويقدَّر المبتدأ هكذا: وهو في كتاب مبين، وهو تعسُّف. والكتاب المبين: اللوح المحفوظ لا علم الله، لئلَّا يلزم التأكيد، والتأسيس أولى منه.

(1) يشير إلى قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿... عَالِمُ الغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَٰوٰتِ ولَا فِي الاَرْضِ ولَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ...﴾ (الآية: 3).



﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٤﴾

أولياء الله: أوصافهم وجزاؤهم

﴿**أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ وَلِيٌّ: «فعيل»، بمعنى فاعل، يتولَّى الله بالطاعة والمحبَّة، وهي الميل إلى رضاه وفعل الطاعة، ويتولَّاه بالدعاء إليه، وأداء كلِّ ما فرض عليه مع الاعتقاد الصحيح المبنيِّ على الدليل.

وأعلى درجاته أن يستغرق قلبه في نور معرفة جلال الله، فإن رأى رأى دلائل قدرة الله ﷻ، وإن سمع سمع آيات الله، وإن نطق نطق بالثناء على الله، وإن تحرَّك تحرَّك في طاعة الله، وإن اجتهد اجتهد فيما يقرِّبه إلى الله لا يفتر عن ذكر الله، ولا يرى بقلبه غير الله؛ أو بمعنى مفعول، يتولَّاه الله بالتوفيق والإكرام.

وإذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله وليٌّ، أعني العلماء العاملين بالعلم، **ومن العمل به الإخلاص**، فشرطهم أن يكونوا محفوظين، كما أنَّ شرط الأنبياء أن يكونوا معصومين، وكلُّ من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع. والوليُّ: هو الذي توالت أفعاله على الموافقة؛ أو بمعنى فاعل ومفعول معا، كباب المفاعلة لا استعمال للمشترك في معنييه.

وحاصله أنَّهم يتولَّونه بالخدمة ويتولَّاهم بكلِّ ما يليق بهم. ومعنى ﴿لَا خَوْفٌ...﴾: يلحقهم في الآخرة خوف من مكروه، ولا حزن بفوت مأمول،

وفي الحديث: «**لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس**»[(1)]. وأقول ذلك في الجنَّة ظاهر، وأمَّا في الموقف فكلُّ أحد يصيبه الخوف والحزن، فما معنى الحديث؟ ولعلَّ ذلك مواطن، فقد قال الله ﷻ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الاكْبَرُ﴾ [سورة الأنبياء: 103] أو أنَّهم لا يخافون من كفر لأنَّهم نجوا منه، ولا يحزنون على فوت الإيمان كما يحزن من فاته لأنَّهم حصَّلوه، وقيل: لا يخاف عليهم غيرهم، وقيل: لا يلحقهم ما يوجب خوفا لا حزنا.

﴿**الذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ عقاب الله بامتثال الأوامر واجتناب النواهي. والاتِّقاء: حذر المعاصي إجلالا لله تعالى، أو خوفا من عقابه، ومن يعصي ويتوب من قلبه لم يخرج عن اسم الاتِّقاء والتقوى، لأنَّ لذلك مراتب، منها ترك المعاصي إلَّا نادرا يعاجل التوبة، ومنها ترك المعاصي البتَّة كالأنبياء والملائكة.

قيل: يا رسول الله مَن أولياء الله؟ قال: «**الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله تعالى**»[(2)]، أي تدعو حالهم إلى طاعة الله وتقواه، وقال ﷺ: «**لله قوم تحابَّوْا في الله بلا قرابة، هم على منابر من نور يوم القيامة، يغبطهم الأنبياء والشهداء، لا فزع عليهم، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**[(3)]». [قلت:] ونقول: الأنبياء أفضل، إنَّما يتمنَّون حالهم لشدَّة الجمع بينهم وبين أممهم لشأن التبليغ، ثمَّ رأيته والحمد لله تعالى لغيري، وقال عيسى عليه السلام: «أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين رفضوا الدنيا ولم يغرَّهم ظاهرها، وهدموها وبنوا بها الآخرة».

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب البيوع، رقم 3060، من حديث عمر (م.ح). ورواه **الهندي** في الكنز، ج9، ص13، رقم 24697. و**السيوطي** في الدر، ج3، ص366، في حديث طويل وأوَّله قوله ﷺ: «إنَّ لله تعالى عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيئون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة...» من حديث أبي مالك الأشعري.

(2) أورده **السيوطي** في الدر، ج3، ص335، من حديث سعيد بن جبير.

(3) رواه **النسائي** في الكبرى، كتاب التفسير، سورة يونس، رقم: 11236، من حديث أبي هريرة.

«الذِيـنَ ءَامَنُواْ...» مبتدأ وخبـره: ﴿لَهُمُ الْبُشْـرَىٰ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْاخِرَةِ﴾ أو خبر ثان لـ«إنَّ»، أو خبر لمحذوف، كأنَّه قيل: من هم؟ فقال: هم الذين. قيل: أو منصوب على المدح، أو نعت لـ«أَوْلِيَاءَ»، وفيه الفصل بالخبر، وإذا لم يجعل «لَهُمُ الْبُشْرَى» خبرا فهو مسـتأنف، كأنَّه قيل: ماذا لهم؟ فقيل: «لَهُمُ الْبُشْـرَى...». و«فِي الْحَيَاةِ» متعلِّق بـ«الْبُشْرَى» أو بـ«لَهُم»، أو بمتعلّقه، أو حال من ضمير الاستقرار.

عن عبادة بن الصامت قال ﷺ: «**البشـرى في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها الرجـل أو تـرى لـه**»[1] رواه الحاكـم، قـال ﷺ: «**ذهبـت النبـوءة وبقيت المبشِّـرات**»[2]، وقال ﷺ: «**الرؤيا الصالحة التي يتبشَّـر بها المؤمن جزء من ستَّة وأربعين جزءًا من النبوءة**»[3] كما هو مشهور، وعن ابن عمر وأبي هريرة: «**جزء من سـبعين جزءًا من النبوءة**»[4]. ولا يختص التبشـير بها بمن في غاية درجات الولاية، بل بالسعيد مطلقا، ويجوز أن يراها أو ترى له، ولو في حال المعصية، لأنَّه يختم له بالسعادة، فلا تَهِم.

ويجوز أن تفسَّر بالرؤيا الصالحة وما يبشَّـر به على لسان رسول الله ﷺ، وما يكون بالمكاشفة وما تبشِّـره به الملائكة عند النزع، ويكون حديث عبادة تمثيلا لا حصرا.

---

(1) رواه **الحاكم** في مسـتدركه في كتاب التفسير (10) تفسير سـورة يونس، ج2، ص370. من حديث عبادة بن الصامت.

(2) رواه **ابن ماجه** في كتاب تعبير الرؤيا (1) باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، رقم 3896. من حديث أم الكعبية. **وأحمد** في مسنده، ج6، ص381.

(3) رواه **الربيع** في مسنده، باب الرؤيا، رقم 51، مع اختلاف في اللفظ، من حديث أنس.

(4) رواه **ابن ماجه** في كتاب تعبير الرؤيا (1) باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له. رقم 3897، من حديث ابن عمر.

وَيَـدُلُّ علـى أنَّـه تمثيـل مـا روى مسـلم أنَّ أبـا ذرٍّ ﵁ قـال: قيل لرسـول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخيـر ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»[1] فإنَّ هذا ليس حصرا أيضا، وذلك بلا قصد منه للثناء بل يشـغل قلبه بـالله فيفيض النـور على ظاهره، وينـادي الملك للملائكة: «إنَّ الله أحبَّ فلانا فأحبُّوه»، ويوضع له القبول في الأرض والبشرى في الآخرة بعد الموت ويوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِـرُواْ بِالْجَنَّةِ التِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [سورة فصّلت: 30] قيل: عند الموت، وقيل: بعده، قال الله ﷻ: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ [سورة الحديد: 12].

﴿**لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ**﴾ لوعده ولا لوعيده، ولا لشيء مِمَّا قضى، وهذا لعمومه وكونه برهانا على عدم خلفه البشرى أولى من التفسير بخصوص عدم خلفها. ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ إشارة إلى البشـرى، وإنَّما ذكِّر بتأويل التبشير، أو إشارة إلى ثبوتها إذ قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْـرَىٰ﴾. ﴿**هُوَ الْفَوْزُ**﴾ أي المفوز به ﴿**الْعَظِيمُ**﴾ فتسلَّ بذلك عن إيذائهم وأيقن كما قال:

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب (51) باب: إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضرُّه، رقم 166 (2642) من حديث ابن عمر.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿65﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿66﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ﴿67﴾﴾

العزَّة والملك لله تعالى

﴿**وَلَا يُحْزِنكَ قَوْلُهُم**﴾ لست مرسلا ولا نبيئا وإِنَّك مجنون أو شاعر أو ساحر، أو ما تأتي به أساطير الأَوَّلِينَ، أو يعلِّمك بشر؛ وفي هذا تهديد لهم.

﴿**إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا**﴾ لا شيء منها لغيره، فهو ينصرك عليهم ولا تنفعهم قوَّتهم بالمال والكثرة، وهو تعليل جمليٌّ لقوله: ﴿لَا يُحْزِنكَ﴾ كأنَّه قيل: لأنَّ العزَّة لله جميعا، كما قرأ أبو حيوة بفتح الهمزة، وهذا أولى من أن يكون استئنافا بيانيًّا، كأنَّه قيل: لم لا يحزنه؟ فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾، لأنَّ الأوَّل هو المتبادر، ولأنَّ «يُحْزِنكَ» نهي لا إخبار، والاستئناف البيانيُّ إنَّما يحسن بعد الإخبار، وَأَمَّا بعد الطلب فيحتاج لتأويل، كَأَنَّهُ قيل: لِمَ نُهِيَ عن الحزن المتأثِّر بإحزانهم؟ فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ...﴾ وهي على ظاهرها يعطيكها الله، أو بمعنى القُوَّة.

وقد يقال ـ على بعدٍ ـ إنَّ الجملة محكيَّة بالقول على فرض أنَّ المشركين يقولون: العزَّة لله، بلسانهم واعتقادهم، لأنَّها أمر واضح لا محيد عنه، والحزن

يتصوَّر منــه ﷺ لمخالفتهم مضمــون ذلك، وكذلك يبعــد أن يكون بدلا من القول، كأنَّه قيــل: لا يحزنك أنَّ العزَّة لله بفتح الهمزة على حــدِّ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيــرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [ســورة القصــص: 86] ﴿وَلَا تَدْعُ مَــعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخَرَ﴾ [ســورة القصص: 88] إلهابا وتهييجا.

واللفظ نهيٌ للقــول أن يحزنه، والمــراد النهي عن التأثُّر بــه، وذلك أنَّه الســبب. و«جَمِيعًا» حال من الضمير في الخبر، ولم يؤنَّــث لأنَّ «فعيلا» من صيغ المصدر، وهو يصلح بلفظ واحد لِكُلِّ ما أريد به، ولو كان هنا وصفا أو توكيدا، أي إنَّ العزَّة جميعها لله، وما تقدَّم أولى.

﴿**هُوَ السَّــمِيعُ**﴾ العليم بالأصوات ﴿**الْعَلِيمُ**﴾ بالأفعال والاعتقادات وكلِّ شــيء، فهو يعاقبهم على أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهــم، كبيرها وصغيرها، ويجازيكم خيرا كذلــك وينصركم، وصغائرهــم كبائر لأنَّهم أصــرُّوا عليها، وبالإشــراك ﴿**أَلَآ إِنَّ للهِ مَن فِــي السَّــمَاوَاتِ وَمَن فِــي الَارْضِ**﴾ من العقلاء الملائكة والإنس والجــنِّ بعبوديَّتهم لــه، وملكه لهم، وخلقه لهــم، أو أراد بـ«مَنْ» العقــلاءَ وغيرَهم، فــإذا كان العقــلاء خدما له وملــكا لا أهليَّة لهم لألوهيَّة، فكيف تتأهَّل الجمادات لها؟ كما قال: ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ**﴾ بالعبادة ﴿**الذِينَ يَدْعُونَ**﴾ يعبدون أصناما ﴿**مِن دُونِ اللهِ شُــرَكَآءَ**﴾ إنَّما اتَّبعوا أشياء غير شريكة لله، وتوهَّموا أنَّها شركاء له سبحانه.

[نحو] و«شُــرَكَاءَ» مفعول به لـ«يَتَّبِعُ»، و«مِن دُونِ اللهِ» نعت للمفعول به المقدَّر لـ«يَدْعُونَ» كما رأيت، أو «شُرَكَاءَ» مفعول لـ«يَدْعُونَ» ومفعول «يَتَّبِعُ» محذوف، أي ما يتَّبع الذين يدعون من دون الله شــركاء بالحقيقة، ولو سمَّوها شــركاء لجهلهم ما يتَّبع يقينا، كما يدلُّ له قوله: ﴿**انْ يَّتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ**﴾ وعليه فـ«مِن دُونِ اللهِ» حال من «شُرَكَاءَ»، و«مَا» نافية في ذلك كلِّه، ويجوز أن تكون استفهاميَّة مفعول له لـ«يَتَّبِعُ»، إنكار للياقة، و«شُرَكَاءَ» مفعول «يَدْعُونَ»، و«مِن

دُونِ اللهِ» حال من «شُرَكَاءَ»، أو موصولا اسـميًّا معطوف على «مَنْ»، والرابط محذوف، أي يتَّبعه، و«الذِينَ» على كلِّ حال واقع على المشركين، ولا حاجة إلى جعل «مَا» موصولا مبتدأ خبره محذوف تقديره: باطل.

والمراد بقوله: ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ ظنُّهم أنَّ الأصنام آلهة تشـفع لهم، ويجوز أن يفسَّـر ﴿شُـرَكَآءَ﴾ بالأصنام، والملائكة، وعيسـى، وعزير، والنجوم، والقَمَرَيْنِ، والضوء، والنـار، والبقر، وكلِّ ما عبد مـن دون الله، فالظنُّ هو ظنُّهم أنَّها آلهة تشفع.

ويجوز أن لا يقدَّر للظنِّ مفعولان على أن يكـون مِمَّا لم يتعلَّق الغرض في كلامهم بمفعولـه، كأنَّه قيل: إن يتَّبعـون إلَّا خلاف اليقين، ولا سـيما أنَّ عمل المصدر المقرون بـ«ال» ضعيف قليل في غير الظـروف، [قلت:] بل هذا أولى بتخريج الآيـة. ﴿وَإِنْ هُـمُۥ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون، وأصلـه الكذب بتحزير، ويجوز إبقاؤه على هذا الأصـل، والخرص أيضا: التحزير بـلا تلفُّظ، كخرص النخل، فيكون المعنى: يقدِّرون في أنفسهم أنَّها آلهة، ولو تلفَّظوا بعدُ، كما يطلق الكذب على الفعل أيضا بلا تلفُّظ، ويقال: الخرص مشترك بين الكذب والحزر.

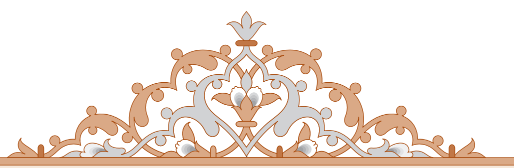
﴿هُوَ الذِي جَعَلَ﴾ خلـق ﴿لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْـكُنُواْ فِيهِ﴾ عـن الحركة فتبقى قواكم، ويرجع ما ذهب منها بالحركة، لأنَّ الإنسان مغرى بالعاجل، فقد لا يبقي على نفسه ما دام يجد عملا فيبطل [حركة] جسـده. ويجوز كون «جَعَلَ» بمعنى صيَّر، أي جعل لكم الليل سـكنا لتسـكنوا فيه، وهو أنسـب بقولـه: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ بمفعولين، فيكون مفعولان قبله ثانيهما «سـكنا» كما رأيت، أي وقت سكون، أو وقتا يمال إليه، وعلى معنى خَلَقَ يكون «مُبْصِرًا» حالا من «النَّهَارَ».

[بلاغة] وإسناد الإبصار إلى النهار مجاز عقليٌّ ووجهه أنَّه زمان البصر، ويجـوز أن تكون الآية من باب شـبه الاحتباك، وهو أن يحـذف من كُلٍّ من الموضعين مقابل ما ثبت في الآخر، والمعنى: جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا

فيه، والنهار مبصرا لتتحرَّكوا في مكاسبكم، كما قال في القصص: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ﴾ [سورة القصص: 73] ثمَّ إنَّ المناسب لقوله: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أن يقال: لتبصروا فيه، بإسناد الإبصار إلى النهار، بمعنى تصييره غيره بصيرا، أو بمعنى: ينظر، وكلاهما مجاز عقليٌّ، وعلَّة ذلك التفرقة بالنصِّ على معنى ظرفيَّة ما هو مجرَّد فقال: ﴿فِيهِ﴾، وعلى معنى ظرفيَّة ما ليس ظرفيَّته مجرَّدة بل بتوسُّط السبب وهو الضياء، ولا شكَّ ولا خفاء أنَّ الرؤية بخلق الله، ولم يذكر مقابل الإبصار لأنَّ الضياء نعمة بذاته مقصودة ولا كذلك الظلمة.

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ الجعل أو ما ذكر من الليل والنهار، أو ذلك كلُّه ﴿**لَءَايَاتٍ**﴾ دلائل الوحدة، أو آيات أخر متلوَّة في ذلك الشأن غير ما ذكر ﴿**لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾ يتدبَّرون ويعتبرون، فيفهمون أنَّ خالق هذه الأشياء كلِّها مختصٌّ بالوحدانية وَالأُلُوهِيَّة. والآية كالدليل لقوله: ﴿إِنْ يَّتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ...﴾ فإنَّ ما قبل هذه الآية يدلُّ على الوَحدَانِيَّة بأنَّ أشرف معبوديهم هو عبد له تعالى، فلا يصلح للربوبيَّة فضلا عن غيره، وهذه بأنَّ له قدرة كاملة على تغييب الليل والنهار، **ولا يصلح للربوبيَّة من لا يقدر على ذلك ولا على أدنى شيء**، ولو كانت تصحُّ عبادة غير الله تعالى لكانت الأصنام المنحوتة أحقَّ بأن تعبد ناحتها لو عقلت، لأنَّه نحتها. والمراد: يسمعون المتلوَّة ونظائرها المنبِّهة على الآيات التكوينيَّة.

ويدلُّ على إرادة غير الأصنام معها فيما تقدَّم قوله تعالى:



﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾

نفي اتخاذ الولد عن الله

﴿قَالُواْ﴾ أي اليهود والنصارى ومن زعم أنَّ الملائكة بنات الله، وهم قوم من العرب وطائفة من النصارى ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ من زوج تزوَّجها، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [سورة الأنعام: 101].

[قلت:] فليس كما زعم من زعم أنَّ المراد أنَّه اتَّخَذَ ابن غيره ابنا له، كما يتبنَّى الإنسان ابن غيره، وأيضا لو كان المراد هذا كما يسمَّى الولد ابنا لعظيم غير أبيه تشريفا له ومحبوبا لديه، وكما سُمِّيَ إبراهيم خليلا لم يكن التغليظ الوارد، ولو كان ينهى عنه أيضا للإيهام بحقيقة الولد ولإيهام الحاجة، ولو كان الاتِّخاذ أنسب بالتبنِّي لكن تفسَّر الآية بتحصيل الولد، وقد يكون ذلك كلُّه واردا عن الكفرة، يقال: ولد، ويقال: لم يلد ولكن اتَّخذ ولدا، وقد قيل: إنَّ الله يدعى أبًا لعيسى بمعنى مشرَّف عند الله، وشاع حتَّى توهَّم الناس أنَّه أبوه حقيقة.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزِّهوا أَيُّهَا الناس الله عن الولد، فإنَّ الولادة من صفات الجسم، ومن صفات المحتاج، وتعجَّبوا أَيُّهَا العقلاء المستعملون لعقولهم.

والصحيح أنَّه لا يلزم أن يكون في «سبحان» معنى التعجُّب أو التعجيب، بل يجوز اســتعماله لمجرَّد التنزيه ﴿**هُوَ الْغَنِيُّ**﴾ عَمَّا سواه، وإنَّما يتَّخذ الولد من يحتاج إليه فكيف يتَّخذه.

﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الَارْضِ**﴾ وكلُّ ما ســواه فكيف يحتاج؟ وكيف لا يكــون غنيًّا؟ بل مــا خلق ســواه للحاجة بل للدلالــة، ولو كان للحاجة لم يزل محتاجا إلى غير ما وجد فما يزال يخلق للحاجة، **تعالى عن ذلك**، والبنوَّة تنافي الملك.

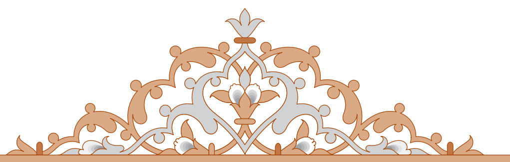
[نحو] ﴿**إِنْ**﴾ أي ما ﴿**عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ**﴾ فاعل «عِندَ»، أو فاعل لثابت مغنٍ عن الخبر، أو مبتدأ لـ«عِندَ»، والســلطان: الحجَّــة ﴿**بِهَذَآ**﴾ أي على هذا، متعلِّق بـ«سُــلْطَانٍ»، أو نعت أو حال من ضمير الاستقرار، أو بمعنى في متعلِّق بـ«عِندَ»، أو بالاستقرار أو بـ«سُــلْطَانٍ». وزعم بعض أنَّه متعلِّق بـ«سُلْطَانٍ»، وأنَّ الباء على ظاهرها، لأنَّ «سُلْطَان» يتضمَّن معنى الاحتجاج والاســتدلال، وليس كذلك، فإنَّ قولهم بالولد ليس اســتدلالا بل يحتاج لدليل، ولا دليل له، بل الدليل نافٍ له. والإشارة إلى قولهم بالولد.

﴿**أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ مــا لا يثبت من اتِّخَاذ الولد فضلا عن أن تعلموه، وذلك توبيخ، وكلُّ ما لا دليل عليه لا يثبت وهو جهل، والاعتقاد لا بدَّ فيه من قاطع.

﴿**قُلِ اِنَّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ**﴾ باتِّخاذ الولد وثبوت الشركة ﴿**لَا يُفْلِحُونَ**﴾ لا يفــوزون بالجنَّة ولا ينجون من النار والمكــروه ﴿**مَتَاعٌ**﴾ قليل، حالهم في الدنيا متاع، أي تمتُّع قليــل، أو لهم متاع قليل، والمعنى على هذا: لهم مــا يتمتَّعون به، أو لهم تمتُّــع، أو حياتهم أو تقلُّبهم متــاع، أو افتراؤهم متاع، أي تمتُّع، وذلك لأنَّ لهم لذَّة في الافتــراء، والمراد أنَّ هذا المتاع ليس من جنس الفلاح أو ما يفلح به لأنَّه حقير، كمــا دلَّ عليه التنكير ولأنَّه قليل،

لأنَّه متكدِّر سـريع الزوال، لأنَّه من الدنيا كما قال: ﴿**فِي الدُّنْيَا**﴾ يتمتَّعون به في حياتهم، أو ثابت فـي الدنيا، وينقطع ولا يتَّصلون بـه بعدها، بل يعاقب عليه إذ لم يشكروه وعلى سائر معاصيهم كما قال:

﴿**ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ**﴾ بالموت والبعث ﴿**ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّـدِيدَ**﴾ في القبـر والموقف وفي النـار ﴿**بِمَا كَانُـواْ يَكْفُرُونَ**﴾ بالقرآن وسـائر الوحي، وبالنبيء ﷺ، وبوحدانيَّة الله ﷻ، و«ثُمَّ» الأولـى للترتيب الذكري بلا تراخ، كأنَّه قيل: أذكر لكم بعد ذلك «إنَّ إلينا مرجعهم»، أي رجوعكم، والآية تقرير لقوله: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾.



﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (71) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (73)﴾

قِصَّة نوح عليه السلام مع قومه

﴿**وَاتْلُ**﴾ يا مُحَمَّد ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ على قومك أهل مَكَّة، أو المشركين مطلقا ﴿**نَبَأَ نُوحٍ**﴾ خبره: ﴿**إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ**﴾ قيل هم من بني قابيل. و«إِذْ» بدل اشتمال من «نَبَأ»، ولا يتعلَّق بقوله: ﴿نَبَأَ﴾ لأنَّ وقت القول لم يكن حال الإخبار، ويجوز تعليقه بنعت مقدَّر هكذا: نبأ نوح الواقع إذ قال، وفي الآية حذف مضاف، أي بعض نَبَئِه؛ أو الإضافة للجنس الصادق بالبعض، لأنَّه لم يذكره كلَّه بل بعضه وهو قوله: ﴿**يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي**﴾ أي قيامي، أي لَبْثِي فيكم بالدعوة، كقولك: قام بكذا؛ أو اسم مصدر، أي إقامتي بالدعوة فيكم مدَّة طويلة إن قال ذلك بعد طول مَّا، فكيف إن قاله في وسط عمره أو آخره؟ أو كناية عن نفسي، أي عن ذاتي كما يقال: سلام على مقام فلان، وعظَّم الله حضرة فلان، يراد فلان على أنَّه اسم مكان، أو مصدر تصرِّف فيه.

أو من القيام ضدّ القعود على أنَّه يعظهم قائما كما كان رسول صلى الله عليه وسلم يعظ على المنبر قائما، وعيسى عليه السلام يعظ الحواريِّين قائما، وذلك ليعمَّ الاستماع،

أو مقام هو من زيادة الأسـماء، أي إن كان كبُرْتُ عليكم، واسـم كان ضمير الشأن، أو تنازع «كَانَ» و«كَبُرَ» في «مَقَامِي».

﴿وَتَذْكِيرِي﴾ لكم ﴿بِئَايَاتِ اللهِ﴾ الجواب محذوف تقديره: لم أبال باستثقالكم، أو فافعلوا ما شئتم، وناب عنه علّته وهو قوله: ﴿فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾ والمعنى لأنّي على الله توكّلت؛ أو الجملة هي الجواب عبارة عن عدم مبالاته؛ أو عبارة عن استمرار توكُّله على الله تعالى؛ أو إحداث مرتبة مخصوصة في التوكُّل؛ أو الجواب: «فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ».

[نحو] وقدِّم الظرف للحصر وللاهتمام، وكانت الفاء مع أنَّ الجواب يصلح شرطا للفصل بمتعلّقه وكأنَّه جملة إِسمِيَّة، وقيل: لا يجوز الفصل بين أداة الشرط وفعله إلَّا قليلا خلاف القياس، نحو: إِنْ زيدا أكرمت، وإن بزيد مررت، فحينئذٍ يقال قرن بالفاء لأنَّه لا يصلح أن يكون شرطا. ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أتقنوا كيدكم، عطف إنشاء على إخبار ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ مفعول لمحذوف تقديره: واجمَعوا بوصل الهمزة وفتح الميم، لأنَّ أجمع بالهمزة في المعاني، وجمع في الأجسام؛ أو يقدَّر: وادعوا شركاءكم؛ أو منصوب على المعيَّة؛ أو يقدَّر مضاف، أي وأمر شركاء، فيكون المعمول من المعاني، فيصحُّ عمل «أجمع» بالهمزة فيه بواسطة العطف، وقيل: أجمع وجمع بمعنًى، فيكون «أَمْرَكُمْ» مفعولا به له، وقيل: المراد بشركاء من على دينهم، والمشهور أنَّهم الأصنام.

﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الرتبة ﴿لَا يَكُنَ اَمْرُكُمْ﴾ أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير، وقيل: المراد به أمر آخر وهو ما يعتريهم منه من الشدَّة، فيكون الغمَّة بمعنى الكرب ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ نهى الأمر أن يكون غمَّة عليهم، والمراد نهيهم عن أن يغتمُّوا به، ولكن وجَّه النهي إلى الأمر مبالغة، فإنَّه كناية عن نهيهم عن جعل أمرهم غمَّة عليهم؛ أو المعنى لا تجعلوا أمركم في قصد غمَّة، أي مستورا بل أظهروه؛ أو لا تجعلوه حزنا وهمًّا وإن قتلتموني استرحت.

﴿**ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ**﴾ والمفعول محذوف، أي انفذوا فيَّ ما أردتم، استعارة مكنيَّة، إذ شبَّه الهلاك بالدين والقضاء تخييل، وعدِّي بـ«إِلَىَ» لتضمينه معنى أدُّوا أو أبلغوا؛ أو اقضوا بمعنى احكموا، فهو تضمين واستعارة مكنيَّة. ﴿**وَلَا تُنظِرُونِ**﴾ لا تمهلوني، فإنِّي لا أبالي بكم ولو تقتلونني، فإنِّي متوكِّل على الله ﷻ ولا أترك ديني.

﴿**فَإِن تَوَلَّيْتُمْ**﴾ أعرضتم عن تذكيري، وهذا الإعراض حادث بعد التذكير، وهو غير السابق فلا تكرار، ولو فرضنا اتِّحادهما لقيل: المراد بقوا على الإعراض، والجواب محذوف تقديره: فلا ضَيْر؛ أو فلا باعث يدعوكم إلى التولِّي، ونابت عنه علَّته وهو قوله: ﴿**فَمَا سَأَلْتُكُم**﴾ عليه ﴿**مِّنَ اَجْرٍ**﴾ لأنِّي ما سألتكم عليه أجرا يفوتني لتولِّيكم؛ أو يوجب توليتكم لأحد أمرين: لثقله عليكم أو لكونه سببا لاتِّهامكم بأن تقولوا إنَّما يعظنا طمعا في الأجر من أموالنا.

﴿**اِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ**﴾ دنيا وأخرى على تبليغي إيَّاكُم لا تعلُّق له بقبولكم، ولا إعراضكم؛ أو الجواب: ما سألتكم، بمعنى عدم المبالاة ﴿**وَأُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ**﴾ بأن أكون ﴿**مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ من الموحِّدين المطيعين في عدم أخذ الأجرة على الدين؛ أو المستسلمين لأمره ونهيه لا أخاف ولا أرجو غيره؛ أو المستسلمين لِمَا يصيبني من البلاء عن ديني، منكم أو من غيركم.

﴿**فَكَذَّبُوهُ**﴾ أي كذَّبه قومه الذين كان يُخاطبهم، والمراد: التكذيب بعد هذا الخطاب المخصوص فلا تكرير، وإلَّا فالمراد الزيادة في التكذيب أو البقاء عليه ﴿**فَنَجَّيْنَاهُ**﴾ الفاء تعليل، لكن محطه قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ أو تعليل منظور إلى المجموع؛ أو تعليل لقوله لقومه ما ذكر كلُّه من قوله: ﴿فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾ باعتبار التنجية ولقوله: ﴿كَذَّبُوهُ﴾ باعتبار الإغراق.

والمراد: نجَّيناه من الغرق، وهو أولى من أن يقال: فنجَّيناه من إيذاء الكفرة، لقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ ولقوله: ﴿وَمَن مَّعَهُ﴾؛ أو يقدَّر: فحقَّت عليهم كلِمة العذاب فنجَّيناه؛ أو فعاملنا كُلًّا بما يقتضيه فأنجيناه. ﴿**وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ**﴾ متعلِّق بـ«نَجَّيْنَاهُ»؛ أو بـ«مَعَ»، لأنَّه عامل معنويٌّ، لأنَّه في معنى ثابت أو ثبت؛ أو حال من هاء «نَجَّيْنَاهُ وَمَنْ»؛ أو من الضمير في «مَعَ»، وهم أربعون رجلا وأربعون امرأة، وقيل: تسعة وسبعون وقيل: سبعة.

﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ**﴾ أي نوحا ومن معه في السفينة، وردَّه بعض إلى «مَن مَّعَهُ»، وفي الهاء مع الميم مراعاة معنى «مَن» ﴿**خَلَآئِفَ**﴾ من الهالكين بالغرق.

﴿**وَأَغْرَقْنَا**﴾ بالطوفان ﴿**الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا**﴾ هي كلُّ معجزة نوح؛ أو الآيات: الطوفان، كان عَلَيْهِ السَّلَامُ في أواخر أمره يعدهم به.

﴿**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**﴾ هي إهلاكهم، انظر كيف كان عاقبة قوم نوح لَمَّا أُنذِروا ولم يصدِّقوا بالإنذار، فكذلك قومك قد أُنذِروا بأشدَّ مِمَّا أنذر به قوم نوح وأظهر، فَهُمْ أحقَّاء بالهلاك، ولتعليق الأمر بالإنذار والتكذيب لم يقل: أغرقناهم وكيف كان عاقبتهم.

وقدَّم التنجية على الاستخلاف والإغراق لكمال العناية بها، ولتعجيل المسرَّة للنبيء ﷺ إذ له ما لنوح وعلى قومه ما على قوم نوح من مطلق الإهلاك، وللإيذان بأصالة الرحمة وكونها أنسب بِالرُّبُوبِيَّةِ، وأمَّا الإهلاك فهم استلحقُوه بذنوبهم.

[قلت:] وإنَّما علقت ذلك إليه ﷺ لا إلى نوح لأنَّ الآية نزلت عليه، وأمَّا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فلا ندري أَنَزَلَ عليه مضمون ذلك كلِّه؟ وإن نزل فلسنا ندري أكان على هذا الترتيب الذي في الآية أو على ترتيب آخر؟. وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا اِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ۝74 ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝75 فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝76 قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمُۥٓ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّٰحِرُونَ ۝77 قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الْاَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُومِنِينَ ۝78﴾

عادة الأمم في تكذيب الأنبياء وقصَّة موسى مع فرعون

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِ﴾ بعد نوح ﴿رُسُلاً اِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كلَّ رسول إلى قومه، والمراد: الرسل الذين قبل موسى لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا...﴾. وإضافة القوم للحقيقة، فيصدق بأقوام كقوم هود وقوم صالح وقوم إبراهيم وقوم لوط، والمراد بالرسل ما يشمل الأنبياء بلا رسالة، من إطلاق الخاصِّ وإرادة العامِّ.

﴿فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحة في نفسها وفي دلالتها على وضوح الرسالة والنبوءة. والمشهور في نوح رسالته إلى أهل الأرض كلِّها وقيل: لبعضها وهم أهل دعوته، ورجَّحه بعض، واختار أهل الصين أنَّ الصين لم يغرق وأنَّ الغرق لم يعمَّ الأرض، وقيل: عمَّ من لم يرسل إليه لأنَّه تعالى له أن يفعل ما شاء، والصحيح الأوَّل.

إلَّا أنَّه روي أنَّه بعد نزوله من السفينة سار في الأرض فوجد قوما لم يغرقوا فقال لهم: ما شأنكم؟ فقالوا إنَّا مسلمون، وما قلت في دعائك؟ قال:

قلت: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [سورة نوح: 26] فقالوا نحن لسنا كافرين، ولا يخفى أنَّه نبيء الكلِّ بعد الغرق ضرورة، فقيل: إجماعا، قلت: لا ضرورة ولا إجماع لذلك القوم الذين لم يغرقوا، فإنَّ الظاهر أنَّهم على الحقِّ بدون نوح. وعند قومنا المشهور اختصاص نبيئنا ﷺ بالبعث إلى الخلق كلِّهم على الإطلاق بلا قيد، وقد يقال: إنَّه بعث إلى الأنبياء قبله.

[نحو] الباء للمصاحبة أو للتعدية، وكأنَّه قيل: أجاؤوهم البيِّنات؟ والهاء مفعول ثان مقدَّم، أي صيَّر البيِّنات جائيَتَهُم. ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ بِمَا﴾ اسم موصول، والرابط هاء «بِهِ»؛ أو حرف موصول والهاء للحقِّ، ﴿كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ﴾ قبل بعث الرسل إليهم لشدَّة شكيمتهم، شدَّة تختصُّ بالشقي، والباء الأولى للسببيَّة، والمعنى بسبب تعوُّدهم تكذيب الحقِّ، وهي متعلِّقة بـ«مَا» النافية، لأنَّ المعنى: انتفى الإيمان بسبب تكذيبهم الحقَّ من قبل بعثة الرسل إليهم، وقيل: واو «كَذَّبُوا» لقوم نوح.

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ مثل ما ذكر من انتفاء إيمانهم نطبع على قلوب المعتدين، أي نختم عليها، وإن شئت فقل: مثل ذلك الطبع نطبع على قلوبهم فلا تقبل الإيمان، لأنَّ القضاء بعدم الإيمان طبع.

ويجوز أن يراد بالمعتدين مَن ذكر قبلُ، فشأنه الإضمار، وأظهر ليصفهم بالاعتداء المشعر بالانهماك في الضلال واتِّباع المألوف.

[أصول الدين] وفي الآية أنَّ الأفعال بقدرة الله وكسب العبد وهي مخلوقة لله ﷻ، وليس تفسيرنا الطبع بالخذلان منافيا لقولنا: إنَّ الأفعال مخلوقة لله ﷻ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ بعد هؤلاء الرسل أو بعد هؤلاء الأقوام ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾ تخصيص بعد تعميم، والملأ: القوم مطلقا، أو الأشراف الذين يملأون العيون مهابة للباسهم وأجسامهم، وَأَمَّا غيرهم فَتَبَعٌ.

﴿بِئَايَاتِنَا﴾ التسع: العصا واليد والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والطمس وفلق البحر، متعلِّق بـ«بعث»، أو بحال محذوف صاحبه موسى وهارون، أي ملتبسَيْن بآياتنا.

﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان بها لشرفهم، فكفر غيرهم بها تقليدا لهم، ويجوز أن يقال: استكبروا عنهما أي عن موسى وهارون؛ أو استكبروا عنهم، أي عن الآيات وموسى وهارون، وذلك أوّل الأمر إذ قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا...﴾ [سورة الشعراء: 18] ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادتهم الإجرام فاجترؤوا على الكفر بذلك، فإنَّ الذنب يجرُّ إلى الآخر الذي أعظم منه أو دونه أو مساويه.

والواو للحال بتقدير «قد» وبدونه؛ أو للعطف، ولها نصيب في التفريع لعطفها على مدخول الفاء المتفرِّع على محذوف، أي فانبعثا فأدَّيا الرسالة إليهم فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ الآيات التسع، وذكرها بالحقِّ في موضع الضمير تفخيما لها، حتَّى إِنَّهُ إذا ذكر لفظ الحقّ صرف إليها؛ أو الحقُّ: دين الله، أو اليد والعصا، لأنَّ نزاعهم وقع في اليد والعصا.

ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ التقدير: قَالَ مُوسَىٰ ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَّبِّكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿...فألْقَىٰ عَصَاهُ...﴾ إلى: ﴿...لِلنَّاظِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: 105 ـ 108] ﴿فَلَمَّا جآءَهُمُ الْحَقُّ﴾ لأنَّ مجيء الحقِّ هو مضمون «قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ»، فلا يقدَّر «لَمَّا جآءَهُمُ الْحَقُّ» معطوفا عليه، ونسبة المجيء إلى الحقِّ استعارة، ويضعف تفسير الحقِّ بدين الله بأنَّه لا يتمُّ معه الجواب لِـ«لَمَّا» بقوله: ﴿قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر في نفسه أو متميِّز عن غيره فائق له، مِن أبان اللازم؛ أو مظهر للباطل حقًّا، من أبان المتعدِّي. وأفادت الفاء أنَّ تجاسرهم على قولهم هذا مسبَّب عن اعتيادهم الإجرام.

[بلاغة] ومعنى «جَاءَ»: حصل تجوُّزا، للإشعار بأنَّ المقدَّرات متوجِّهة من الأزل أو اللوح المحفوظ إلى أوقاتها شيئا فشيئا، فشبَّه التقرُّب شيئا فشيئا بالمجيء شيئا فشيئا، وشبَّه الحقَّ بالشخص المنتقل بالمجيء من الله، ورمز إلى ذلك التشبيه بما يلائم الإنسان وهو المجيء.

أكَّدوا بطلان ما هو حقٌّ أكيد ثابت بالحسِّ؛ أو بالمعجزات التي لا تخفى عنهم إلَّا جحودا، ويجوز تقدير المعرفة هكذا: فلمَّا جاءهم الحقُّ من عندنا وعرفوه حقًّا، لأنَّه قد يجيء فلا يعرف وقد يجيء فيعرف، والمعنى: جاءهم الحقُّ واضحا كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل: 14] وكأنَّه قيل: فما قال لهم موسى؟ فقال الله ﷻ:

﴿**قَالَ مُوسَىٰٓ**﴾ لهم ﴿**أَتَقُولُونَ**﴾ توبيخ وإنكار للياقة هذا القول ﴿**لِلْحَقِّ**﴾ في شأن الحقِّ ﴿**لَمَّا جَآءَكُم**﴾ ومفعول «تَقُولُ» محذوف تقديره: أتقولون إنَّه لسحر، فقال موسى أو الله لهم: ﴿**أَسِحْرٌ هَذَا**﴾ استفهام إنكار، وقوله: ﴿**وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ**﴾ حال، وهو من جملة مقول هذا القول المقدَّر، ونحن قد أفلحنا فليس سحرا.

ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿أَسِحْرٌ﴾ مفعولا به للقول، لأنَّهم جزموا بأنَّه سحر، ولم يتوقَّفوا عن الجزم، كما قال الله ﷻ: ﴿قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ﴾ اللهمَّ إلَّا أن يكون الاستفهام للتقرير والتحقيق، أي أقرَّ يا موسى بأنَّه سحر وبأنَّه لا يفلح الساحر.

[نحو] وأجيز أن يكون القول بمعنى العيب، يقال فلان يخاف القول أي العيب، وفيه أنَّ عاب متعدٍّ فأين مفعوله؟ فلا يصحُّ أن يقال: إنَّه لَمَّا كان بمعنى العيب لم يكن له مفعول، وإن قيل: لم يتعلَّق المعنى بالمفعول فلم ذكر قوله: ﴿لِلْحَقِّ﴾؟ وإن قيل: الحقُّ مفعول فلم زيدت لام التقوية في المفعول مع أنَّه

لم يتقدَّم ولم يضعف العامل بكونه مصدرا أو وصفا؟ وقد يقال: للبيان كما يقال: أعني لزيد، كأنَّه قيل: ذلك للحقِّ.

﴿**قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا**﴾ بما يقول من وجود الله وتوحيده؛ أو من توحيده؛ وذلك رجوع إلى التقليد بعد إفحامهم، وانتفاء جواب حقٍّ يقابلون به موسى عليه السلام. ﴿**لِتَلْفِتَنَا**﴾ لتصرفنا.

[لغة] والالتفات مطاوعة، يقال: لفته فالتفت كصرفه فانصرف، ومنه قولنا: التفت عن الخطاب إلى الغيبة مثلا، والتفت في صلاته أي لفته نفسه من الخطاب فالتفت، أو لفته الشيطان في الصلاة فالتفت، وقد يتجاوز به إلى قولك: انتقل من الخطاب.

﴿**عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا**﴾ من عبادة الأصنام ومن عبادة فرعون فيمن وجد آباءه يعبدونه، فإنَّهم ولو لم يعبدوه عبادة الأصنام لكن انقادوا لأحكامه المخالفة للحقِّ، فذلك عبادة.

لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ...﴾ [سورة التوبة: 31] قال عديُّ بن حاتم رضي الله عنه: يا رسول الله، ما كُنَّا نعبدهم، فقال: «**أليس تقولون يحلُّون لكم ويحرِّمون؟**» قال: نعم، قال: «**ذلك عبادة**»[1].

﴿**وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الْاَرْضِ**﴾ التكبُّر على الناس والتعظيم عليهم واستتباعهم؛ أو العظمة بالسلطنة التي تطلبانها، وهي أكبر ما يطلب من أمر الدنيا. والأرض عَامَّة، أو أرض مصر. أفردوا موسى عليه السلام قبل هذا لأنَّه المخاطِب لهم، وأنَّه الأصل في الرسالة، ولأنَّه المقصود بالإغاظة، وجمعه مع هارون هنا لأنَّ الكبرياء التي ادَّعوها هي له ولأخيه، وهي الغاية المطلوبة ومنتهى الأمر.

---

(1) رواه **البيهقي** في الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي، رقم: 20137، من حديث عدي بن حاتم.

ويجوز أن يراد بالكبرياء سببها وملزومها، وفائدة هذا المجاز الإشارة إلى أنَّ المقصود بالملك الترفُّع على العباد والتبسُّط في البلاد. والكبرياء: التكبُّر، و«فِـي الاَرْضِ» متعلِّق به أو بـ«تَكُونَ»، أو باستقرار «لَكُمَـا»، أو بِـ«لَكُمَا» لنيابته عنه، أو بالمستتر في «لَكُمَـا». وما تقدَّم تعريض بأنَّهـم لا يؤمنون، وصرَّحوا به في قوله تعالى عنهم:

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُومِنِينَ﴾ مصدِّقين لكمـا فيما جئتما به، وقدِّم «لَكُمَا» للاهتمام بالإعراض عنه، وللفاصلة، وثنَّى في قوله: ﴿لَكُمَا﴾ مع أنَّه أفرد في قوله: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ لأنَّ دعوة موسى هي له ولأخيه هارون، وغايتها المقصودة أن يؤمنوا بهما.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿79﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿80﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿81﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿82﴾﴾

إحضار فرعون السحرة لمقاومة دعوة موسى

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أسند القول إليه دون الملإ لأنَّه مختصٌّ بالأمر ابتداء، بخلاف الاستكبار ونحوه، فإنَّه فيهم وفيه، قيل: إلَّا أنَّ الظاهر أنه غير داخل في قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لأنَّه لعنه الله لا يظهر أنَّه يعبد صنما أو غيره كما يظهر قومه، وذلك أنَّه يدعو إلى عبادة نفسه، واعترض بقوله ﷻ عنه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْاعْلَىٰ﴾ [سورة النازعات: 24] وأجيب بأنَّه ليس فيه أنَّه هو يعبد ربًّا غير أعلى.

﴿ايتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾ يمكن أن تأتوني به ﴿عَلِيمٍ﴾ حاذق في سحره، أرسل فرعون الشرط في طلب السحرة، وطلبوا وتفحَّصوا في البلاد ووجدوا حذَّاق السحرة، وأكرهوا إلى المجيء على فرعون وقومه، فجاء السحرة، أو فأتوا بالسحرة، وحذف ذلك غنًى عنه بقوله ﷻ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ بعد ما قال لهم ما قال وقالوا له ما قالوا كما بيَّنه في آية أخرى ﴿أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من الحبال والعصيِّ، لأنَّه شاهدها وعلم أنَّها للسحر، والإلقاء عبارة عن استعمالها وذلك بعدما قالوا ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنَ اَلْقَى﴾ [سورة طه: 64].

والأمر للتهديد وللإذن في تقديـم ما هم فاعلوه ولا بدَّ، توسُّلا به إلى إظهار الحقِّ، وإلَّا فالسحر لا يجوز الأمر به لأنَّه ذنب، وتقدَّم كلام في هذا. والرابط محذوف، أي ما أنتم إيَّاهُ ملقون، أو ملقون له (بلام التقوية)، أو ملقوه (بالإضافة) لا ملقون إيَّاهُ (بضمير الفصل) لإمكان الاتِّصال.

﴿**فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ**﴾ تلك الحبال والعصيَّ ﴿**قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ**﴾ الذي جئتم به هو السحر لا غيره، فتعريف الطرفين للحصر الإضافيِّ، كأنَّه قيل: لا ما جئت به من الحقِّ، فإنَّه ليس سحرا ولو سَمَّاهُ فرعون سحرا.

و«ال» للجنس لا للعهد، لأنَّ السحر المتقدِّم ما جاء به موسى، وهذا ما جاء به السحرة، اللهمَّ إلَّا باعتبار مطلق السحر هكذا أو حقيقته، أو على طريق الاستخدام بالظاهر كما يستخدم بالضمير.

ويجوز أن يكون «السِّحْرُ» بدلا من «مَا» والخبر هو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ**﴾. ويجوز أن تكون «مَا» استفهاميَّة والخبر «جِئْتُم بِهِ»، و«السِّحْرُ» بدل من «مَا» الاستفهاميَّة، فتقدَّر الهمزة فيه؛ أو خبر لمحذوف، أي هو السحر، والاستفهام تقرير أو توبيخ على فعل المعصية. ومعنى الإبطال: إفساده أن لا يؤثِّر، أو إظهار للناس أنَّه لا ينفع، أو إفناؤه كما أنَّه أفناه بالعصا كقوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة[1]

أي ظهر أنِّي لم تلدني لئيمة.

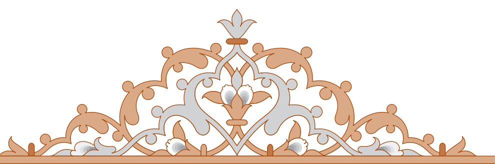
﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ لا يثبته بل يردُّه عليهم بالعقاب في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما، وعمل المفسدين: عمل بفعل السحر وغيره من المعاصي.

(1) نسبه الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير إلى زائد بن صعصعة الفقعسي، ينظر: ج25، ص215. (ط. تونس).

واختار التعبير بالإفساد ليشير إلى أنَّ السحر إفساد وتمويه باطل لا حقيقة له، كما أنَّه ترى الحبال والعصا تسعى وهي غير ساعية، وبعض السحر له تأثير بالله تعالى وحقيقة كسحر اليهود للنبيء ﷺ حتَّى إِنَّهُ يرى أنَّه فعل شيئا وهو لم يفعله ومرض به.

والجملة تعليل لقوله: ﴿إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ والمراد بالمفسدين العموم كما رأيت؛ أو المخاطبون وعملهم؛ أو مطلق عملهم الشامل له ولغيره. وكذا المجرمون عامٌّ؛ أو هؤلاء.

﴿**وَيُحِقُّ**﴾ أي يثبت. والعطف على «سَيُبْطِلُ». ﴿**اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ**﴾ بأوامره التكوينيَّة وبحكمه بقوله: ﴿كُنْ﴾ حقيقةً بخلقه الكلام حيث شاء، أو استعارة تمثيلية أو بأوامره الشَّرعِيَّة وأحكامه؛ أو بمواعده، قيل: أو بأموره وهي ذلك؛ وقال الحسن: بنصره الموعود به، وقيل: بما ينزله مبيِّنا لمعاني الآيات التي جاء بها نبيئه عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿**وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ إثبات الحقِّ.



﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿83﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿84﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿85﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿86﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿87﴾﴾

إيمان طائفة من بني إسرائيل بدعوة موسى

﴿**فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ**﴾ انقاد له أوَّل أمره، كما تدلُّ له الفاء؛ لَمَّا أَلْقَوْا وألقى عَقَبَهُ إيمانُ قليلٍ كما قال: ﴿**إِلَّا ذُرِّيَّةٌ**﴾ شبَّان ﴿**مِّن قَوْمِهِ**﴾ من قوم موسى، على معنى أنَّ غالب ذرِّيَّة بني إسرائيل كفروا حين كانوا في حكم فرعون دعاهم موسى فلم يجيبوه إلى الإسلام، وأجابه القليل منهم سرًّا كما قال: ﴿**عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ**﴾ أن يعاقبهم على الإيمان بموسى. و﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾: بمعنى مع خوف، وهو متعلِّق بمحذوفٍ، حالٌ.

وقيل الذرِّيَّة: الإسرائيليُّون الذين بمصر، أرسل إليهم موسى وقد كفروا بالقهر ومخالطة القبط، كما أرسل إلى القبط، هلك الآباء وبقيت الأبناء، وسمُّوا ذرِّيَّة بهذا الاعتبار، وقيل: نجا قوم من قتل فرعون وكفروا، وكانت المرأة إذا ولدت ولدا أسلمته لقبطيَّة خوفا عليه فينشأ على الكفر، ولَمَّا غلب موسى آمنوا. ولفظ «ذُرِّيَّةٌ» للقلَّة وحداثة السنِّ.

وقيل: المراد مطلق الإسـرائيليّين كانوا على الإيمـان ولم يطيقوا إظهاره، ورجوع هاء «قَوْمِهِ» إلى «مُوسَى» هو الظاهر، وقيل: الهاء لـ«فِرْعَوْنَ»، وفيه أنَّه لو كان كذلك لقيل: إلَّا ذرِّيَّة من قومه على خوف منه، بردِّ الهاءين إلى فرعون لظهور أنَّه لا خوف من موسـى على الإيمان؛ أو قيل: إلَّا ذرِّية من قوم فرعون على خوف منه، كامرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطة ابنة فرعون؛ وقيل: ماشطة فرعون نفسه كانت له ضفائر عيَّن لها ماشطة.

قال الفرَّاء: سـمُّوا ذرِّيَّة لأنَّ آباءهم من القبط كما سُمِّيَ أولاد فارس الذين نقلوا إلى اليمن الأبناء لأنَّ أمَّهاتهم من غير جنس الآباء، وكان الرجل يتبع أمَّه وخاله في الإيمان، واعترض ردُّ الضمير لـ«فِرْعَوْنَ» ببعده وقرب «مُوسَى»، مع أنَّ إعلان الإيمـان من قوم فرعون غيـر منقول قبل هلاكه إلَّا السـحرة، وبأنَّ موسى هو المحدَّث عنه، واعترض بأنَّ الكلام في قوم فرعون لأنَّهم القائلون: إنَّه ساحر، وأنَّ بني إسرائيل في قهر فرعون، وبُشِّروا بالخلاص على يد مولود نبيء صفته كذا، وَلَمَّا ظهر اتَّبعوه ولم يُعرَف أنَّ أحدا منهم خالفه.

وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ بأنَّ معجزات موسى مدركة بالحسِّ ظاهرة ومع ذلك لم يؤمن به قومه إلَّا قليل.

﴿**وَمَلَإِيْهِم**﴾ مَلإِ فرعـون، وكان بضمير الجمع على عـادة الناس في ردِّ ضمير الجمع للواحد تعظيما له على فـرض اعتياد ذلك في قوم فرعون، كما يصف الله الأصنام بصيغ العقلاء كـ«الذِينَ»، لأنَّ ذلك عادة عابديها، واعترض بأنَّ التعبير عن الواحد بالجمع تعظيما معتاد في التكلُّمِ كما يقال: نحن فعلنا، والمراد واحد، والخطابِ نحو: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [سورة المؤمنون: 99] وقوله:

ألا فارحمونـي يـا إلـه محَمَّد[1]

(1) تكرر ذكره لدى المفسرين ولم ينسبوه. ينظر على سبيل التمثيل: أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، ج6، ص388.

إلَّا أنَّ الفارسيَّ نقله في الغائب، والحافظ حجَّة، والمثبِت مقدَّم على النافي.

أو «فرعون» هنا اسم لقومه، كعاد وثمود اسم للقبيلتين مسمَّاتين باسمي أبويهما، وكربيعة ومضر وقريش، واعترض بأنَّ هذا في القبيلة وأبيها وفرعون ليس أبًا للقبط، مع أنَّ مثل هذا محتاج إلى السماع لا مقول بالقياس، فلا يقال: فلان من هاشم بل من بني هاشم وهكذا. أو الهاء للذرِّيَّة، أو لقوم موسى، أو قوم فرعون، سواءً جعلنا الضمير في «قَوْمِهِ» لموسى أو لفرعون. وإذا جعلنا الهاء للذرِّيَّة فالمراد: ذرِّيَّة فرعون لا ذرِّيَّة موسى، إذ لا وجه لخوف الذرِّيَّة المؤمنة من ملئهم، إلَّا أن يراد ملأ بني إسرائيل الناشئين تحت فرعون في كفر، أو الناشئين في إيمان خافوا الهلاك على من دونهم فمنعوهم من الإيمان أو إظهاره.

وقيل: عائد إلى آل المقدَّر هكذا: على خوف من آل فرعون، ويردُّه أنَّه لا دليل عليه وقد وجدنا مرجعا للهاء بدون هذا التقدير، وكذا يردُّ على من قدَّر: على خوف من فرعون وقومه وملئهم.

[نحو] [قلت:] وقول السعد والرضيِّ: جمع المفرد تعظيما مختصٌّ بضمير المتكلِّم غير مسلَّم، بل يقع في ضمير المخاطب والغائب أيضا كما مرَّ، والظاهر كما ورد، لأنَّ العلَّة واحدة. وإذا أطلق اسم الأب على قبيلته فتارة يراد معها وتارة تراد دونه، وإذا عبِّر بآل فلان فتارة يراد فلان وتارة كلاهما وتارة أهله دونه.

﴿**أَنْ يَّفْتِنَهُمْ**﴾ يصرفهم عن دينهم بالعذاب. والمصدر بدل اشتمال من «فِرْعَوْنَ» أو مفعول به لـ«خَوْفٍ» من إعمال المصدر المنوَّن؛ أو علَّة لمحذوف، أي أسرُّوا إيمانهم لِئَلَّا يفتنهم. ولم يجمع ضمير الرفع[1] فيعود لفرعون والملإ لأنَّ الصرف والعذاب منهم تبع له وعمل بأمره، وكأنَّهم لم يخافوا سواه، وإن أريد مِن «فِرْعَوْنَ» قومه على ما مرَّ فردَّ الضمير إليه هنا لنفسه خَاصَّةً فاستخدام.

(1) أي: لم يقل: «أَن يَفْتِنُوهُم».

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ متكبِّر غالب ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ هذا تأكيد لِمَا قبله، لأنَّ العلوَّ من أسباب تمكُّن التعذيب. والمراد بالأرض أرض مصر. ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المبالغين في التكبُّر حتَّى ادَّعى الرُّبُوبِيَّة، وطرح العُبُودِيَّة حَتَّى قال: أنا ربُّكم الأعلى، واسترقَّ أسباط الأنبياء، وسفك الدماء.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ تثبيتا لقلوب من آمن به إذ خافوا: ﴿يَا قَوْمِ﴾ خطاب لبني إسرائيل، أو لمن آمن به ولو من القبط، فإنَّ الإيمان به كالكون من قومه ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ هذا الشرط شرط لجواب الشرط الأَوَّل مع شرطه، فليس من تعليق الحكم بشرطين لأنَّه لا يجوز إلَّا بالتبعيَّة كالعطف، وذلك كقوله: إن جاء زيد فأطعمه إن جاع، فالجوع شرط لمجيء زيد ووجوب إطعامه.

[نحو] والشرط وجوابه مغنيان عن جواب الشرط الثاني والمعلَّق بالإيمان وجوب التوكُّل المأخوذ من الأمر المجرَّد عَمَّا يخرجه عن الوجوب، والمشروط بالإسلام حصوله، فإنَّه لا يوجد مع اختلاط تعميده تعالى باعتماد غيره، وقال بعض: إن كنتم آمنتم وجب عليكم التوكل ـ **ومقام التسليم فوق مقام التوكُّل** ـ إن كنتم مسلمين توكَّلتم عليه، وليس هذا قاعدة، والحقُّ ما ذكرته.

[فقه] وهذا كما نقول في الفقه: المتأخِّر لفظا يجب تقدُّمه معنى، والمتقدِّم لفظا يجب تأخُّره معنى، كقوله: إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلَّمت زيدا، ومجموع قولك: إن دخلت الدار فأنت طالق مشروط بقولك: إن كلَّمت زيدا.

[لغة] والإسلام هنا: الاستسلام بالأعمال وإلغاء النفس، والإيمان: التصديق، والتوكُّل: إسناد الأمور إليه تعالى. والدعاء والتسبُّب لا ينافيان التوكُّل إذ بنيا عليه ﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ الفاء لترتيب قولهم هذا على قول موسى باتِّصال، وقدَّموا «عَلَى اللهِ» للحصر كما طلب موسى، وكون «تَوَكَّلْنَا» إنشاء أولى من أن يكون إخبارًا.

﴿**رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً**﴾ أي محلَّ فتنة بتقدير مضاف، لأنَّ المعاني لا تحمل على الذوات. وحذف المضاف لتكون الصورة مبالغة ﴿**لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ فرعون وقومه؛ و«ال» للعهد. أظهر في موضع الإضمار للوصف بالظلم؛ أو يراد مطلق الظالمين، فيدخل فرعون وقومه. ومعنى جعلهم فتنة للظالمين أن يغلبهم الظالمون فيظنَّ الظالمون ومن ضعف إيمانه أنَّ المؤمنين ليسوا على الحقِّ فيستمرُّوا على الكفر، ويتبعهم الضعفاء؛ أو معناه: أن تسلِّطهم علينا فيعذِّبونا؛ أو معناه: أن يفتنونا عن ديننا.

﴿**وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ فرعون وقومه، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ أو الكافرين على الإطلاق كما مرَّ، والمراد: نجِّنا من كيدهم وشؤمهم؛ أو من أيديهم؛ أو شؤم مشاهدتهم، لأنَّ معاشرة الأشرار مصيبة تتعب الأبرار وتزيد في فجور الفجَّار.

أو ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الملأ الذين تخوَّفوا منهم، و﴿الْكَافِرِينَ﴾ ما يعمُّهم وغيرهم. وقدَّموا التوكُّل على الدعاء بأن لا يجعلهم فتنة وبالتنجية لتجاب دعوتهم، لأنَّه من لم يتوكَّل يضطرب.

﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ**﴾ هارون ﴿**أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ**﴾ في مصر ﴿**بُيُوتًا**﴾ و«أَنْ» مفسِّرة لتقدُّم معنى القول دون حروفه، و«تَبَوَّءَا» أمرٌ؛ أو مَصدَرِيَّة و«تَبَوَّءَا» مضارع؛ أو أمر عند من أجاز دخول «أَن» المصدَرِيَّة على الطلب. والمعنى: أوحينا التبوُّء، أو أوحينا أمر التبوُّء، أي الأمر به.

ومعنى تبوُّءِ البيوت اتِّخَاذ البيوت للسكنى، أو للرجوع إليها للعبادة، كذا يقال، فلعلَّهم قبل ذلك لا بيوت لهم بل يكترون أو يسكنون بالعارية؛ أو لهم بيوت نحو شعر أو أخصاص فأمر ببيوت البناء، وهذا يصعب لكثرتهم؛ أو الأمر متوجِّه إلى من لا بيت له ولجمهورهم بيوت؛ أو أريد بالبيوت محاريب في مساكنهم؛ أو أريد بالبيوت مساجد أو مصلَّيات مخفاة حيث يمكن

إخفاؤها. والفعل متعدٍّ لواحد، واللام متعلِّق بـ«تَبَوَّءَا»، أو بمحذوف حال من «بُيُوتًا»، وقيل: الاثنين، واللام صلة في أحدهما.

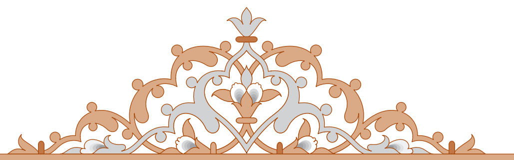
﴿**وَاجْعَلُواْ**﴾ أنتما وقومكما، وقد يكون الخطاب لقومهما لأنَّهما يأمران وينهيان جهرا ﴿**بُيُوتَكُمْ**﴾ مطلقا أو البيوت المأمور باتِّخاذها ﴿**قِبْلَةً**﴾ قيل: يقابل بعضها بعضا، وهو قول عن ابن عَبَّاس، وهو أمر صعب، وقيل: مقابلة بأبوابها إلى الكعبة وكان موسى يصلِّي إليها أوَّل الأمر، وروي أنَّ جميع الأنبياء قبلتهم الكعبة، وهو ضعيف، ويذكر أنَّ قبلة اليهود الصخرة، وموسى الكعبة، والنصارى مطلع الشمس وهو بعيد.

أو القبلة مجاز للمصلَّى، فإنَّها سبب لكون البيت مصلًّى، فإنَّ الصلاة سبب لكون المكان مصلًّى، والصلاة سبب صحَّتها وشرطها فيكون سببا له لكونه شرطا للصلاة؛ أو معنى ﴿قِبْلَةً﴾: مساجد، على أنَّ المراد باتِّخاذ البيوت اتِّخاذها للعبادة يصلُّون فيها مستقبلين الكعبة، وذلك لضرورة الإخفاء من فرعون لئلَّا يهلكهم، وإنَّما وجبت عليهم الصلاة في الكنائس إذا لم يضطرُّوا، وفرعون منعهم عن الكنائس، فأوحى الله إليهم أن صلُّوا في البيوت كما قال ابن عَبَّاس، وورد أنَّ أصحاب الكنائس يصلُّون إذا رجعوا إليها.

وقبلة اليهود الآن الصخرة، وكذا هي قبلة موسى عَلَيهِ السَّلَامُ، وكانوا يضعون التابوت عليها ويصلُّون إليه، وَلَمَّا زال بقوا على الصلاة إليها، وقبل ذلك يصلُّون إليه وهو في قبَّة موسى عَلَيهِ السَّلَامُ.

﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ في بيوتكم إذ منعتم عن الكنائس، أو أخربت، أو عن بنائها من أَوَّل الأمر بعد إذ كنتم تصلُّون فيها كما كان المؤمنون بمكَّة أوَّل الإسلام يخفون دينهم. وقيل: أمر الله موسى باتِّخاذ المساجد على رغم الأعداء وتكفَّل لهم أن يصونهم عن شرِّ الأعداء.

﴿وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ﴾ يا موسى بالنصر على فرعون وقومه، وبالجنَّة وبحصول مقصودهم. أفرد بالخطاب لأنَّه المقدَّم بالرسالة فهو أليق من هارون بتبشير المؤمنين، وَأَمَّا غير ذلك من اتِّخاذ المعابد والمساجد والصلاة فإنَّه مِمَّا شاركوا فيه وخوطبوا فيه معه.



﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾

دعاء موسى على فرعون وملئه

﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُۥ زِينَةً**﴾ آلة الزينة، أو هي ما يتزيَّن به من ذهب وفضَّة وغيرهما، وملابس ومراكب والآنية الفاخرة والفرش الباهرة والسروج الثمينة وغير ذلك ﴿**وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ تعميم بعد تخصيص، وقيل: الزينة الجمال وصحَّة البدن وطول القامة ونحو ذلك، والمراد بالأموال: أنواع من المال كالدنانير والدراهم والعبيد والأنعام والحيوانات. قال ابن عبَّاس: كان لهم من بناء فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن ذهب وفضَّة وزبرجد وياقوت.

﴿**رَبَّنَا**﴾ تأكيد للنداء الأوَّل، أو فعلت ذلك يا ربَّنا ليضلُّوا ﴿**لِيَضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ**﴾ دينك واللام للتعليل فصدَّهم بإيتاء ذلك ليضلُّوا، وذلك خذلان؛ أو لَمَّا جعلوا ذلك سببا للضلال أشبهوا من أوتيه ليضلَّ به؛ أو هي لام العاقبة فيكون في ذلك استعارة تبعيَّة.

[أصول الدين] وقيل: اللام للدعاء ولام العاقبة تكون في كلام الله تعالى كما تكون في كلام غيره، إلَّا أنَّه ﷻ عالم بالعاقبة بلا أوَّل لعلمه، ولام

التعليل لام الإرادة ولو في معصية كالضلال في الآية، لأنَّه مريد للمعصية وإلَّا لزم أنَّه وقع في ملكه أمر بلا إرادة منه فيكون مقهورا، وعلم موسى عاقبتهم ضلالا بالوحي.

[بلاغة] وإذا جعلت اللام للتعليل صحَّ على حقيقته، وصحَّ على [أَنَّهُ] استعارة تمثيلية[1]، شبَّه حال فرعون وقومه وجعلهم نعم الله ذريعة إلى الإصرار على الكفر بحال من أوتي النعم ليضلَّ بها، فاستعمل اللفظ الموضوع للثاني في الأوَّل، ويكفي في التشبيه وجود المشبَّه به فرضا ـ كما هنا ـ لا حقيقة، فإنَّ الله ﷻ يعطي المال ليطاع به لا ليعصى به.

ومن شأن من أراد العقاب أن يذكُر أوَّلا موجبه، فذكره موسى عليه السلام أوَّلا ثمَّ دعا بالعقاب فقال: ﴿**رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُومِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الَالِيمَ**﴾ هذه ثلاثة أدعية إذا قلنا: ﴿فَلَا يُومِنُواْ﴾ دعاء، وتتمُّ أربعة بقوله: ﴿لِيَضِلُّواْ﴾ إذا جعلنا اللام لام الدعاء، فيكون اللفظ أمرا لهم بالضلال، والمعنى دعاء الله أن يبقيهم عليه لَمَّا رآهم لا يزيدون على زيادة الوعظ إلَّا كفرا؛ أو أيس منهم حتَّى إِنَّ إيمانهم كالمحال كما يقال: لعن الله إبليس، وكذا «لَا يُومِنُوا» في صورة نهيهم عن الإيمان، والمراد: دعاء الله أن يميتهم على الكفر. ويجوز عطف «فَلَا يُومِنُواْ» عَلَى «لِيَضِلُّواْ»، ونصبه في جواب «اشْدُدْ» وهو أولى.

ومعنى الطمس على أموالهم إذهابها، قاله مجاهد، وقال الجمهور أَزِلْ صُوَرها بالمسخ وتغييرها عن هيئتها، قال قتادة: صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة، قال ابن عَبَّاس: صارت دراهمهم ودنانيرهم ونحاسهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا. وأخرج عمر بن

(1) في الطبعة العُمانية: «وصحَّ بالاستعارة تمثيله».

عبد العزيز خريطة فيها بعض بقاياهم البيضة مشقوقة وهي حجر والجوزة مشقوقة وهي حجر، قال السدي مسخ الله أموالهم حجارة والنخل والثمار والدقيق والأطعمة. وأمَّا ما روي عن محَمَّد بن كعب: صار الرجل مع امرأته حجرين والمرأة تخبز قائمة صارت حجرا فلا يصحُّ في الآية لأنَّها في مسخ أموالهم، وقد يكون لبعضهم ذلك مع مسخ الأموال.

[أصول الدين] ومعنى الشدِّ على قلوبهم القبضُ عليها حتَّى لا يدخلها الإيمان، وإنَّما يجوز الدعاء بذلك على أحد إذا علم بشقوته وفي «تبيين أفعال العباد»[1] جواز الدعاء على الفاسق بأن يموت مشركا، [قلت:] وأنا لا أجيز ذلك، وأمَّا الدعاء على المشرك بالبقاء على الشرك فجائز، وذكر بعض الحَنَفِيَّة أنَّ الرضا بشرك المشرك إنَّما يكون شركا إذا كان يستجيز الشرك أو يستحسنه، أمَّا إذا لم يكن كذلك ولكن أحبَّ الموت أو القتل على الشرك لمن كان مؤذيا حتَّى ينتقم الله منه فلا يكون كفرا، فلو دُعِيَ على ظالم بنحو: «أماتك الله على الشرك»، أو «سلب عنك الإيمان» لم يكن عليه ضرر، لأنَّه لا يستجيزه ولا يستحسنه ولكن تمنَّاه لينتقم الله منه وهو المنقول عن الماتريدي.

ولا دليل في الآية عليه لأنَّها في مشرك، ولجواز علم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بشقوتهم، والرضا بالكفر كفر عند أبي حنيفة، يعني إذا كان بمعنى إجازته، أمَّا على معنى الدعاء به للشرير، أو الرضا بقضاء الله به على أحد أو على نفسه فلا بأس عندهم، ويجب الرضا.

[فقه] ومن جاءه كافر ليسلم فقال: اِصبر حتَّى أتوضَّأ، أو نحو ذلك من أوجه التأخير كفر لرضاه بكفره في تلك المدَّة. وروي أنَّه أتى عثمان بن عفَّان يوم فتح مكَّة بابن أبي سرح ليبايع، فكفَّ ﷺ يده ثلاثا وفي الرابعة بايعه،

---

(1) الكِتَاب لأبي العَبَّاس أحمد بن محَمَّد بن بكر (ت: 504هـ/ 1110م)، وَهُوَ كِتَاب مهمٌّ في علم الأخلاق الإِسلَامِيَّة، لا يزال مخطوطا، وتوجد منه عِدَّة نسخ في مكتبات وادي ميزاب.

وقال لأصحابه: «**هلَّا قتله رجل رَشيد منكم حين كففت يدي عنه؟**» فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله، ألا أومأت إلينا بعينك، فقال ﷺ: «**ما ينبغي لنبيء أن تكون له خائنة الأعين**»[1]، [قلت:] وظاهره أنَّ التوقُّف غير كفر.

وروي أنَّ جبريل دسَّ طينا في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة، وعن أبي أمامة عنه ﷺ «**قال لي جبريل عليه السلام ما أبغضت شيئا من خلق الله تعالى مَا أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد، وما أبغضت شيئا أشدَّ بغضا من فرعون، فلمَّا كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو، فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها في فيه، فوجدت الله تعالى أشدَّ غضبا عليه مِنِّي، فأمر ميكائيل فأتاه فقال: آلان؟**»[2] [قلت:] وأظنُّ أنَّ قوله: «خفت أن يعتصم...» إلخ وقوله: «مخافة أن تدركه الرحمة» لا يصحَّان، [إذ] كيف يعمل بيده مانعا من التوحيد؟ لكن لا مانع أن يأمره الله بذلك، ثمَّ إنَّ إيمان الأخرس مقبول فليكن فرعون كذلك إذ لم يقدر على النطق، وإنَّما الحجَّة في عدم القبول عنه أنَّه شاهد الأمر.

وقد قال جماعة منَّا ومن الأَشعَرِيَّة: إنَّ توحيد المكلَّف في قلبه كاف عند الله، ولو كان قادرا على النطق، وليس مراد جبريل بقوله: «مخافة أن تدركه الرحمة» وقوله: «خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو» رحمةَ الدنيا ونجاتها كما لا يخفى، وكما في حديث أبي هريرة «**مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له**» اللهمَّ إلَّا أن يراد: مخافة أن يحيى فيخلص الإيمان فيحيى، فلا يبقى إلَّا أن يقال: ما هذا التشديد؟ فيجاب بأنَّه لا يفعل جبريل إلَّا بأمر الله تعالى. ورؤية العذاب الأليم: ما يرونه من السوء عند مشاهدة الموت.

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الجهاد، رقم 2308، ورواه **النسائي** في كتاب تحريم الدم رقم 3999. من حديث سعد بن أبي وقاص (م.ح).

(2) أورده **السيوطي** في الدر، ج3، ص342، وقال: أخرجه أبو الشيخ عن أبي أمامة مرفوعا.

دعا موسى وأمَّن هارون عليهما السلام، والتأمين دعاء فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**قَالَ قَدْ اجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا**﴾ يا موسى وهارون، قيل بين الدعاء والاستجابة أربعون سنة، وهذه استجابة في طمس أموالهم والشدِّ على قلوبهم ومن قبلها كانت أموالهم على حالها وقلوبهم قابلة إلَّا أنَّهم لم يستعملوها.

﴿**فَاسْتَقِيمَا**﴾ زِيدًا استقامة شكرا لنعمة الإجابة؛ أو دوما عليها، وذلك بالدعاء إلى دين الله وتبليغ الوحي حتَّى يأتيهم العذاب الأليم، وهو الإغراق وما بعده، ولم يعلم به موسى وهارون حتَّى وقع، ولم يصرِّح فرعون بالإيمان حتَّى أدركه الغرق حين لا ينفعه. ﴿**وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ في القلق واستعجال ما وعد به، وسخط البطء به؛ أو عدم الوثوق به، ولم يصدر منهما عليهما السلام شيء من ذلك، ولكن يوعظ الإنسان ليثبت ويزيد خيرا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [سورة هود: 46] ولم يصدر منه الجهل، وقال: ﴿**لَئِنَ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ [سورة الزمر: 65] ولا يصدر الإشراك من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[نحو] و«لَا» ناهية، ونون الرفع حذفت للجزم، والنون للتوكيد كسرت تشبيها بنون الرفع بعد الألف، وقيل: بنون المثنَّى، والعطف على «اسْتَقِيمَا»، وذلك أولى من كون الواو للحال و«لَا» نافية ونون الرفع محذوفة لتوالي الأمثال، وهذه نون التوكيد الشديدة لأنَّ المنفيَّ لا يؤكَّد، وقيل: «لَا» نافية وأدغمت نون الرفع في نون التوكيد الخفيفة مكسورة، والكسائي وسيبويه لا يجيزان الخفيفة بعد الألف والمجيز يرى أنَّ الألف قبلها كالفتحة.



﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣﴾

إغراق فرعون وإنجاء بني إسرائيل

﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ**﴾ بحر القلزم. جاوز بمعنى جاز، وتعدَّى لواحد بنفسه كما تقول: جزنا موضع كذا، وللآخر بالباء التي كهمزة التعدية، فكأنَّه قيل: أجزناهم البحر، ولا تقل غير ذلك.

[قصص] جاء يعقوب من الشام إلى مصر ليوسف، فسكنها مع عياله حتَّى تمَّ له من صلبه وصلب أولاده وأولاد أولاده مع أولاده اثنان وتسعون، ونموا حتَّى خرجوا مع موسى ـ وهم ستُّمائة ألف ـ حال غفلة فرعون، ويسَّر الله لهم الخروج وانتبه لهم فرعون فتبعهم على حصان أدهم ومعه ثمانية آلاف فارس على لون حصانه، سوى سائر الألوان، والجند يقدمهم جبريل على فرس أنثى ويسوقهم ميكائل حتَّى لا ينجو منهم أحد، فقال موسى: يَا رَبِّ، البحر قدَّامنا والعدوُّ من ورائنا! فأوحى الله إليه: ﴿أَنِ اِضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [سورة الشعراء: 63] فانفلق على اثني عشر طريقا فدخلوها كلُّهم، واقتحم فرس فرعون وهو ذكر إذ

شـــمَّ رائحة فرس جبريل وهو فرس أنثى، فاتَّبعه قومه حتَّى دخل آخرهم وخرج آخر بني إسرائيل انطبق البحر عليهم، وكانت تلك الطرق ملتوية لا على سمت حتُّى إِنَّهَا خرجت في الأرض التي خرجوا منها وذلك كما قال الله ﷻ:

﴿**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ**﴾ أي تبعهم؛ أو أتبعهم أنفســـهم، أعني أنفس فرعون وجنوده؛ أو يقـــال: تبعه فأتبعـــه بمعنى فلحقـــه، واجتمعوا مع بني إســـرائيل في طرق البحر، وهم خلف بني إســـرائيل، وَلَمَّا دخل آخر فرعون وخرج آخر موســـى أغرقوا، وقيل: ما دخل فرعون وقومه حتَّى خرج موسى وقومه ﴿**بَغْيًا**﴾ مجاوزة للحدِّ في الظلم، وقد يبغي الإنسان على من لا حقد له عليه ولا بغض، ولذلك قال: ﴿**وَعَـــدْوًا**﴾ أي معاداة بالبغض والحقد، أي لأجل البغي والعدو؛ أو باغين وعادين؛ أو ذوي بغي وعدو؛ أو مفعول مطلق على تضمين «أَتْبَعَ» معنى بغى واعتدى؛ أو يقدَّر: باغين بغيا وعادين عدوا.

﴿**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ**﴾ لحقه وتلبَّس بأوائله، وقيل: المعنى حتَّى غرق، وعليه فالقول الذي ذكر الله تعالى عنه قول بالقلب: ﴿**قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ**﴾ بأنَّه؛ أو صدَّقت أنَّه ﴿**لَآ إِلَهَ إِلَّا الذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْـرَآءِيلَ**﴾ أنشأ الإيمان؛ أو أنشأ التصريح به حين لا ينفعه لمشـــاهدته الوعيد وملائكة الموت، وهو في ذلك الحين غير مكلَّف، ولأنَّه لم يقل: موسى رســـول الله، فهو كمن قال لا إله إلَّا الله، ولم يقل محَمَّد رسول الله. ﴿**وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ زاده تأكيدا ليقبل إيمانه مع أنَّه أبلغ من أن يقول أســـلمت. والإســـلام: الإذعان للأحـــكام هنا، وهو المعنى اللغويُّ، وإن حمل على الشرعيِّ وهو الخروج من الشرك، ولو اختار بعض أنَّ الإســـلام الشـــرعيَّ مختـــصٌّ بما جاء بـــه نبيئنا محَمَّـــد ﷺ، وأراد بالمسلمين على الوجهين بني إسرائيل، ففي الآية أنَّ فرعون عالم بإيمان بني إسرائيل وإسلامهم، ولعلَّهم كانوا يسرُّون ذلك أوَّل الأمر وأظهروه بعده حين آمنت الســـحرة. ولم يقل: «آمنت بالله الـــذي آمنت به...» إلـــخ قيل لأنَّه غير



عارف بالله، وقيل: هو مقرٌّ عارف به سرًّا، إلَّا أنَّه ينكره ظاهرا، وعليه فلعلَّه لم يصرِّح به ليوافق المراد الذي نجت به بنو إسرائيل، لأنَّ التخصيص تخاف فيه المخالفة وهذا البقاء جهالة فيه.

﴿ءَالَانَ﴾ آمنت؛ أو آلآن تؤمن؟، وهذا توبيخ، والماضي اعتبار لإيمانه الصادر عند المشاهدة، والمضارع لحكايته؛ أو لاستمراره عليه، إلَّا أنَّه لا يقبل، ويجوز تقدير ذلك مؤخَّرا للحصر كأنَّه قيل: ما آمنت، أو ما تؤمن إلَّا الآن حين أيست وشاهدت ولم يبق لك اختيار، ﴿وَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [سورة غافر: 85] وأمَّا قومه فلم يؤمنوا عند المشاهدة، وإن آمنوا فإنَّهم لم ينطقوا، ويقدَّر القول هكذا: قال جبريل عن الله آلآنَ؛ أو قال ميكائيل؛ أو قال الله تعالى؛ أو قيل: آلآن؟ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ الله ﴿قَبْلُ﴾ في عمرك من حين كَلِفْتَ بادِّعاء الأُلُوهِيَّة وسائر المعاصي. والواو للحال.

﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بأنواع الضلال في نفسك والإضلال لغيرك.

روي عن رسول ﷺ أنَّه قال: «**قال لي جبريل لو رأيتني يا محَمَّد وأنا أدسُّ في فم فرعون من الطين الأسود المنتن من البحر مخافة أن تناله الرحمة بنطقه بالتوحيد**»[1] فيستشكل بأنَّه قد نطق به فما نفع هذا الدس؟ ويجاب بأنَّه لم يفصح بلا إله إلا الله بل قال: ﴿الذِي ءَامَنَتْ بِهِ...﴾ وَيَدُلُّ له رواية: «مخافة أن يقول لا إله إلَّا الله»[2] وهذا اللفظ لم يقله، وعلى فرض أنَّه يكفي في الإفراد لكن لم يزد «موسى رسول الله»، ويستشكل بأنَّ في الدسِّ منعا عن التوحيد وإبقاء على الإشراك، ويجاب بأنَّ لله أن يفعل ما يشاء، وجبريل لم يفعل إلَّا

(1) رواه **الترمذي** في كتاب التفسير، باب تفسير سورة يونس، رقم 3032. من حديث ابن عَبَّاس (م.ح).

(2) رواه **الحاكم** في مستدركه في كتاب التفسير: ج2، ص370، رقم 3303 (420) من حديث ابن عَبَّاس.

بأمر الله، وذلك كسائر تسليط الله على الشقيِّ ما يمنعه عن التوحيد من قتل أو غيره، ولو بعد الشروع، وبأنَّ ذلك حين لا ينفعه الإيمان لمشاهدته، فذلك كقوله لأهل النار فيها: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ...﴾ [سورة المؤمنون: 108] ويستشكل بأنَّ قول جبريل: «مخافة أن تناله الرحمة» يفيد أنَّه لو أتى بالتوحيد على وجه تامٍّ لكفاه، ويجاب بأنَّه قال ذلك لأنَّه لا يدري لعلَّه أحدث بعد ذلك أمرا، ولمزيد بغضه له، وبهذا يجاب عن أن يقال: إن كان لا ينفعه فما فائدة الدسِّ؟ والحجَّة هي أنَّه شاهد الوعيد فلا ينفعه الإيمان، وفي الدسِّ تحقيق واستعجال لِمَا قضي من شقوته.

وإنَّما قدَّرت: قال جبريل أو مكائيل عن الله: ﴿ءَالَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لقوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَ ـ ايَاتِنَا لَغَافِلُونَ**﴾ لأنَّ هذا آخر المقول، وهو بالله أنسب لا يثبت لغيره إلَّا باعتبار أنَّه عن الله ﷻ.

[قصص] قال ابن عَبَّاس: إنَّ بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، ويقال أيضا: إنَّهم قالوا ما مات، وذلك لعظمه في قلوبهم فنجَّاه الله بعد موته من الغيبة في الماء بإظهاره على ساحل البحر بدنا بلا روح؛ أو بلا لباس كما قال: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أحمر قصيرا أعرج كأنَّه ثور فعرفوه، قيل: ومن ذلك لا يقبل الماء ميِّتا أبدا، **قلت** بل يقبله قبلُ وبعد وإذا انتفخ طفا على الماء لتجوُّفه. وعَرَفَه الجاهل أنَّه ليس إلها لأنَّ الإله لا يموت، وبعد رؤيته رجع في البحر بالماء، أو أكلته الدوابُّ والطير.

وقيل: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بدرعك، والبدن يطلق على الدرع العظيمة الكمَّين، كانت له درع من ذهب مرصَّعة بجواهر، وقيل: من حديد بسلاسل ذهب يعرف بها، يصدِّق لها بموته من ظنَّ أنَّه لم يغرق، أو أنَّه لا يموت في الماء. والباء صلة، و«بدن» بدل من الكاف.

[نحو] وقال السمين تلميذ أبي حيان في مصر: إِنَّهَا سَبَبِيَّة مجازا، لأنَّ بدنه سبب في تنجيته ليرى؛ أو للمصاحبة على أنَّ البدن: الدرع؛ أو قيل: هي للآلة، على وزان قولك: أخذته بيدك، ونظرته بعينك؛ وكذا هي للمصاحبة إذا فسِّر بالجسم، أي بجسمك فقط لا مع روحك تخييبا عن طمعه في أَن ينجو حيًّا. و«مَنْ خَلْفَكَ»: هم بنو إسرائيل المكذِّبون موسى في قوله: إِنَّ فرعون مات، ومَن بعدَهُم إلى آخر الدهر، يشاهده من يشاهده على الساحل ما دام عليه، ويسمع به غيره، ويعرفون أنَّ دعواه الأُلُوهِيَّة باطلة ولا تصحُّ لغير الله ﷻ فينزجروا عن دعوى الأُلُوهِيَّة والإفساد، ولو بلغوا ما بلغوا كفرعون أو فوقه.

[قصص] غار النيل فقال قومه: أجره لنا، فقال ثلاثا: لست براض عنكم، فأتوه مَرَّة أخرى فقالوا: هلكت البهائم والصبيان والأبكار وإن لم تجره عبدنا إلها غيرك، فأمرهم بالخروج إلى الصعيد واعتزل عنهم فيه وألصق خدُّه بالأرض وقال: اللهمَّ خرجت إليك خروج العبد الذليل إلى سيِّده، وعلمت أنَّه لا يجريه غيرك فأجره وأخِّر عذابي للآخرة، فأجراه الله ﷻ فسجدوا لفرعون إذ قال أجريته لكم، فقال له جبريل: لي عبد ملَّكته عبيدي وأعطيته مفاتيح خزائني وعاداني ومن أحببت وأحبَّ من عاديت، فقال: لو كان لي لأغرقته في القلزم مقرونا بخابية ملح مختوم عليها فقال جبريل: أكتب لي، فكتب: يقول أبو العَبَّاس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج عن سيِّده الكافر نعماءه أن يربط بخابية مملوءة ملحا مختوم عليها ويغرق بالقلزم، وَلَمَّا أغرق أحضر له جبريل ما كتب على نفسه.

وكونُه بالساحل آية وبرهان على أنَّ الأُلُوهِيَّة لا تصحُّ لغير الله، وزجر عن قوله وفعله وإظهار لموته، وقد قيل: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ نحملك بنجوة من الأرض وهو المكان المرتفع يرى فيه ولا يخفى عن المارِّ.

وذكر بعــد نعمة الإنجاء وإغراق العــدوّ نعمة أخرى ضمَّهــا إليها فقال: ﴿وَلَقَــدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا ﴿بَنِي إِسْــرَآءِيلَ مُبَوَّأَ﴾ منزل ﴿صِــدْقٍ﴾ وهو المنزل المحمود، والعرب إذا مدحت شيئا أضافته إلى الصدق وتقول: رجل صدق، وقدم صدق، فقد يُري الأمر بظاهره الخيرُ وهو بخلاف ذلك، فيعتبر مآله هل هو بحسب ما يُظنُّ فيه؟ فيقال: شــاة صادقة إذا تحقَّق سمنها كما ظهر منها، قال الله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِــي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِــي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [سورة الإسراء: 80].

و«مُبَوَّأ» اسم مكان ميميٌّ، وهو الشام ومصر لبني إسرائيل الذين في زمان موسى على المختار عندهم، وفيه أنَّ بني إســرائيل لم يدخلوا الشام في حياة موسى عليه السلام على ما شُــهر، فيحتاج في ذلك إلى تكلُّف أبنائهم بأنَّ المنَّ على الأبناء منٌّ على الآباء، كما نســب كثيرا في القرآن إلى الأبناء ما للآباء، وقد قيل أيضا: إنَّ بني إسرائيل لم يســكنوا مصر بعد هلاك فرعون بل رجعوا إلى الشام وأخذوا معهم يوسف من قبره.

وقيل «مبوَّأ صدق»: مصر، على أنَّهم سكنوها بعد فرعون، وأخذوا جميع ما لهم من الدور والأجنَّة والأنعام والأرضين والحيــوان، قال بعض: وذهب وفضَّة، وقيل: الشــام والقدس والأردن، لأنَّها بــلاد الخصب والخير والبركة. وقيل: بنو إسرائيل من كان منهم في أعمال المدينة قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلهم ما بين المدينة والشــام ورزقهم من الطيِّبات النخــل والرطب والتمر الذي لا يوجد مثله في البلاد.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللذائذ مِمَّا في مصر والشــام؛ أو ما بين الشام والمدينة ﴿فَمَا اخْتَلَفُواْ﴾ بالإيمان والكفر وســائر أمر دينهــم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فــي التوراة وعرفوا الحقَّ والباطل، طلبوا الرئاســة، وبغى بعض على بعض، وتقاتلوا تعسُّفا بالتأويل، وتعصُّبا للمذاهب، حتَّى كانوا إحدى وسبعين

فرقة بعد التوراة، وهم من بقي من بني إســرائيل بعد فرعون ونسلهم، وقيل: كانوا قبل موسى على الكفر وهو قول ظاهر البطلان.

وقيل: بنو إسرائيل على عهد رســول الله ﷺ كانوا على التصديق به ﷺ لِمَا يجدونه في التوراة والإنجيل وغيرهما، ولَمَّا جاءهم العلم ـ وهو القرآن والمعجزات ـ كفر الأكثرون وآمن الأقلُّ، وكانوا قبله يهدِّدون به العرب إذا ضرُّوهم قالوا: قرب مبعث نبــيء نقاتلكم معه، ويجوز أن يكون العلم على هذا هو التوراة ونحوها، لأنَّه مذكور فيها بأوصافه، وســمِّيت ألفاظ التوراة والقرآن علما لأنَّها ســببه ومتضمِّنة له، وقال الفــرَّاء: العلم بمعنى المعلوم وهو رسول الله ﷺ.

﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَــوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيــهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ من أمر الدين بإهلاك الضالِّ وإنجاء المهتدي.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿94﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿95﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿96﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿97﴾﴾

تأكيد صدق القرآن فيما قال ووعد وأوعد

﴿**فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ**﴾ يا محمَّد، «مِمَّا» متعلِّق بـ«شَكٍّ» أي شكٌّ فيما أنزلنا؛ أو بسبب ما أنزلنا. والفاء لمجرَّد الترتيب الذكريِّ؛ أو للسببيَّة، لأنَّ ذكر القصَّة في الجملة سبب للشكِّ، والمراد: مِمَّا أنزلنا إليك من القصص، والمراد: الشكُّ على سبيل الفرض والتقدير، كقوله تعالى: ﴿قُلِ اِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ [سورة الزخرف: 81] وقوله: ﴿فَإِنِ اِسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الَارْضِ...﴾ [سورة الأنعام: 35]. وقيل: الخطاب له ﷺ، والمراد: أمَّته؛ أو كلُّ من يسمع؛ ولا ينافيه قوله ﷻ: ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ فإنَّه كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [سورة النساء: 174] وما أنزل إليه فقد أنزل إلينا.

وقيل: الشكُّ الضيق والشدَّة، لأنَّ الشكَّ سبب لهما وملزوم في الجملة، تسأل أهل الكتاب فيخبرونك بما لقيت الرسل فتصبر كما صبروا، وهو ضعيف، ولا يجوز أن يكون الخطاب في «كُنتَ» لمن يصلح للشكِّ. وفي «إِلَيْكَ» لرسول الله ﷺ لأنَّه لا يجوز خطابان في كلام واحد، مثل أن تقول: أكرمك، وتريد بخطاب أكرم زيدا، وبخطاب الكاف عمرا.

وقيل «إِنْ» نافية، و«اسْأَلْ» جواب لمحذوف، تقديره: إن أردت زيادة نفي الشكِّ فاسأل، **ولا بأس بهذا** ولو قيل: هو خلاف الظاهر. ﴿**فَاسْئَلِ الذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ**﴾ نحو التوراة والإنجيل ﴿**مِن قَبْلِكَ**﴾ فإنَّ ما أنزلنا إليك هو عندهم في كتبهم يخبرونك بصدقه ولو أنكر بعضهم، قال ﷺ: «**يا ربِّ لم أشك فلا أسأل**»[1] رواه عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة، وكان عمر يسأل أهل الكتاب فغضب ﷺ جدًّا، فقال: «**لو كان أخي موسى حيًّا لم يسعه إلَّا اتِّبَاعي**»[2]. وهذا تهييج له ﷺ على زيادة الثبوت برسوخ علماء أهل الكتاب في معرفة رسالته ﷺ إلى كلِّ أحد، وبتحقُّق ذلك في كتبهم.

وقيل: الخطاب في ذلك كلُّه لمن يصلح له، ولا يعارضه ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ لأنَّ ما أنزل إليه ﷺ أنزل إلى أمَّته.

[فقه] وفي الآية أنَّه يجب على كلِّ من خالجته شبهة في أمر الدين أن يسارع إلى حلِّها بالرجوع إلى أهل العلم وإن لم يجد من يحلُّها وجب عليه أن يعتقد: إنِّي في هذا على ما هو الحقُّ عند الله وأنتظر الفتح، فإن شكَّ هل يوصف الله بكذا سارع إلى تجديد التوحيد بقوله: «ليس كمثله شيء».

وهيَّجه أيضا على زيادة الثبات بقوله: ﴿**لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**﴾ واضحا لا يقبل شكًّا ولا شبهة في أنَّك رسول إلى كلِّ أحد، وأنَّ هذا عند أهل الكتاب، وزاد التهييج بقوله ﷻ: ﴿**فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ الشاكِّين فتتزلزل عَمَّا أنت فيه، وزاد بقوله: ﴿**وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج3، ص343، من حديث قتادة.

(2) رواه **أحمد** في مسنده، ج3، ص387. ورواه **الدارمي**، ج1، ص115، **وابن عبد البر** في جامع بيان العلم، ج2، ص42. من حيث جابر بن عبد الله.

وفي تلك التهييجات قطع لأطماع الكُفَّار عن أن يترك الحقَّ، وإعلام بأنَّ الامتراء والتكذيب بلغا في القبح إلى حيث ينبغي أن ينهى عنهما من لا يحسن أن يتَّصف بهما.

[أصول الدين] ﴿**إِنَّ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ**﴾ قضاياه بالشقاوة أو بالعذاب؛ أو ما في اللوح المحفوظ. وأفعالُ العباد معلومةٌ لله تعالى ومخلوقةٌ له ـ طاعةً ومعصيةً ـ ومرادةٌ له، لا تخالف علمه ﴿**لَا يُومِنُونَ**﴾ وإن آمنوا ارتدُّوا وماتوا على الردَّة ﴿**وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ**﴾ تشاهَد أو تتلى، لأنَّ قضاء الله لا يخلف وعدا كان أو وعيدا. ﴿**حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الَالِيمَ**﴾ فإذا رأوه لم ينفعهم إيمانهم، كما لم ينفع فرعون إيمانه حين رأى العذاب الأليم.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿98﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿99﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿100﴾﴾

قصَّة يونس عليه السلام مع قومه

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾ أي تكون ﴿قَرْيَةٌ﴾ من القرى التي استؤصلت بالعذاب ﴿آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ﴾ أي هلَّا كان أهل قرية آمنوا قبل مجيء العذاب إليهم وحضوره، فنفعهم إيمانهم بأن كان قبل حضور الوعيد؟ فحذف المضاف فرجعت الضمائر إلى ما لا يليق بالمضاف إليه من الإفراد والتأنيث.

وأريد بقرية أهلها تسمية للحالِّ باسم المحلِّ وروعي لفظها فلا حذف، وزعم بعض أنَّ القرية وضعت لأهلها أيضا على الاشتراك، والمراد: أهل القرية العاصون؛ أو المشرفون على الهلاك. و«لَوْلَا» حرف تحضيض، فكيف يحضُّهم على شيء خصَّه بقوم يونس، وهو قبول التوبة بعد حضور العذاب، كما قال: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ والاستثناء متَّصل، وصحَّ الاستثناء لأنَّ التحضيض دالٌّ على الانتفاء قبله؟.

الجواب: إمَّا أنَّه حضَّهم على ما يمكن من التوبة لو أتوا به كما أتى به قوم يونس، على أنَّ المشاهد تقبل توبته لو أتى بها كما أتى بها قوم يونس، وإمَّا أن لا يعدَّ اسوداد سقوفهم وحيطانهم والدخان حضور عذاب، ولو كان

من أجل ما توجَّه إليهم من العذاب ومقدمة له، وقد قيل: إنَّ أمارة العذاب ليست حضورا له ولا مشاهدة.

ويجوز أن يكون التحضيض على التوبة قبل حضور العذاب فيكون الاستثناء منقطعا، لأنَّ قوم يونس تابوا بعد حضوره؛ ويجوز أن تكون للتوبيخ فإنَّه لا يخفى أنَّ ذلك الاسوداد حضور لكن حضور أمارة، أي لكن قوم يونس وهم يعبدون الأصنام في نينوى من الموصل، ومن حضره العذاب رفع عنه التكليف فلا ينفعه قول ولا عمل بخلاف الصبيان فإنَّه يقبل عملهم مع أنَّه لا تكليف عليهم.

﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن مسعود وقتادة: لم يكن ذلك إلَّا لقوم يونس، وعليه الجمهور، وقال الزجاج والقرطبي: لم يروا العذاب بل أمارته وهو الإسوداد والدخان، ولو رأوا عين العذاب لم ينفعهم إيمانهم، والمانع من القبول التلبُّس بالعذاب لا أمارته فهم كمريض يرجو الشفاء، قال بعض: رأى قوم يونس دليل العذاب فآمنوا، وقيل: رأوا العذاب عيانا بدليل قوله: ﴿كَشَفْنَا﴾ فإنَّ الكشف لا يكون إلَّا بعد شروع أو قربه، ونسبه بعض للجمهور.

و«عذاب الخزي»: هو الدخان والسواد غامت السماء غيما شديدا أسود هائلا، يدخن دخانا شديدا، وكان فوق رؤوسهم، ويقال: غشيهم كما يغشى الثوب القبر[1]، ويقال: بينه وبينهم قدر ثلثي ميل، ويقال: قدر ميل.

[قصص] لَمَّا عصوه أخبرهم أنَّ العذاب مصبِّحهم إلى ثلاث؛ أو إلى ثلاثين؛ أو أربعين، فقالوا: لم نجرِّب عليه كذبا قطُّ، فإن لم يصبح فيكم فقد صدق فخرج جوف الليل فغشيهم العذاب صبحا يوم عاشوراء يوم الجمعة،

(1) هذا التشبيه يظهر جليًّا لمن يعرف عادة أهل ميزاب أنَّهم عند الدفن وإنزال الميِّت في قبره ينشرون عليه ثوبا ساترا حتى يوارى الميِّت بالتراب فيرفع الثوب.

فتابوا وردُّوا المظالم، حتَّى كان الرجل يقلـع الحجر الحرام من أصل بنيانه، وخرجوا إلى الصحراء لابسين المســوح باكين مفرِّقين بين الأولاد والأمهات منهم ومن الــدوابِّ، وعلت الأصوات وقالوا بأمر شــيخ بقــي من علمائهم: «يا حيُّ حين لا حيَّ، ويا حيُّ يحيي الموتى، ويا حيُّ لا إله إلَّا أنت، اللهمَّ إنَّ ذنوبنا قد عظمت وجلَّت وأنت أعظم وأجلُّ، فافعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله» فانصرف العذاب؛ وقيل: عجُّــوا إلى الله تعالى أربعين يوما، ولم يعلم يونس بتوبتهــم فانصرف مغاضبا. وقد فعل موســى بن نصير مثل فعلهم حين قــدم المغرب لإصلاح فســاد البربر وليفتح أندلــس، وجد أهل المغرب مقحطيــن، فأمرهم بــردِّ المظالم وإصــلاح ذات البيــن، والصلاة والصوم، وخرج بهم إلى صحراء، ومعه ســائر الحيوانــات وفرَّق بينها وبين أولادها فوقع البكاء والصراخ والضجيج إلى منتصف النهار، وصلَّى وخطب الناس، ودعا الله عَزَّوَجَلَّ فسقوا حتَّى رووا[1].

﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِيــنٍ﴾ حين انقضاء أجلهم، وقيل: إلــى ارتفاع القرآن وذهاب الكعبة، إلا أولادهم الآتين بعد ذلك فإنَّهم يتناسلون ويموتون، وخفوا عن الأعين كالجنِّ، كما فعل بالخضر، وقيل: يظهــرون أيَّام المهدي ويكونون من أنصاره ثمَّ يموتون؛ وقيل: يموتون يوم القيامة، ولا يصحُّ، لأنَّها لا تقوم إلَّا على من لا يعرف الله ولا يذكره، ولعلَّ المراد قرب قيام الســاعة كرفع القرآن والكعبة وخروج المهدي والدجال؛ أو أخرجهم الله إلى أرض في غير المعمور.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ مشيئة بلا إكراه ولا إجبار ولا مشيئة طبع ﴿ءَلَامَنَ مَن فِي الَارْضِ كُلُّهُمْ﴾ لا يشذُّ أحد ﴿جَمِيعًا﴾ بمرَّة مجتمعين على الإيمان لا متلاحقين، وهو حال، ولكن شاء أن يؤمن من اختار الإيمان، ويكفر من اختار الكفر.

---

(1) الحادثة مشهورة أوردتها عِدَّة مراجع، منها ابن الأثير في الكامل، ج4، ص1206، وابن كثير في البداية والنهاية، ج9، ص173.

[أصول الدين] وهذا الاختيار خلق من الله أيضا بلا طبع ولا إجبار فبطل قول القَدَرِيَّة: إنَّ المراد مشيئة الإلجاء ـ وهم المعتزلة ـ إذ زعموا أنَّ أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله، وأنَّهم القادرون عليها، وقد قال ﷺ: «**القَدَرِيَّة مجوس هذه الأُمَّة**»[1] وذلك إنَّ المجوس أثبتوا خالقين للخير والشرِّ، قال علماء ما وراء النهر: هم شرٌّ من المجوس، لأنَّ للمجوس آلهة تعدُّ، والمعتزلة لا تعد آلهتهم[2]، لأنَّ كلَّ فاعل عندهم خالق لفعله حتَّى الدواب.

والآية تسلية للنبيء ﷺ في شدَّة حرصه على إيمان قومه، وزاد بقوله: ﴿**اَفَأَنتَ**﴾ أي أتشتدُّ في الحرص فأنت تكره الناس؛ أو أنت مبالغ في الحرص هذه المبالغة فأنت... إلخ؛ أو أربُّك لا يشاء ذلك فأنت... إلخ؛ أو الهمزة مِمَّا بعد الفاء، والهمزة لإنكار صحَّة ذلك والتوبيخ.

[نحو] و«أَنتَ» فاعل لـ«تُكْرِهُ»، حذف وحده وبرز ضميره منفصلا يدلُّ عليه «تُكْرِهُ» المذكور بعدُ، لأَنَّ الاستفهام عن الإكراه لا عن المكره. والمعنى: أيصحُّ أن تكره الناس؟ لا يصحُّ. ولو جعل مبتدأ لكان المعنى: أأنت الذي تكرههم لا الله؟ وهذا لا يصحُّ لأنَّ الله أيضا لا يكرههم على الإيمان، إلَّا على الفرض والتقدير: لو كان يليق الإكراه لكان القادر عليه الله لا أنت، والله قادر لكن لا ثواب للمكرَه بفتح الراء. ومفعول «تُكْرِهُ» المحذوف هو الناس في قوله: ﴿**تُكْرِهُ النَّاسَ**﴾ ولا مفعول لتكره المذكور لأنَّه تأكيد للمحذوف. ويجوز أن يكون «النَّاس» مفعولا لـ«تُكْرِهُ» المذكور، ويقدَّر للمحذوف، أي أفأنت الناسَ تكره الناسَ بنصب «الناس» في الموضعين.

---

(1) رواه **الربيع** في مسنده، باب ماء جاء في الحُجَّة على القَدَرِيَّة، ج3، ص10، رقم 798. و**أبو داود** في كتاب السنَّة، باب في القدر، رقم 4691، مع زيادة في آخره. من حديث ابن عمر.

(2) لا يخفى على القارئ ما في مثل هذا الكلام من آثار التعصُّب المذهبي. والمبالغة في إلزام الآخر بما لم يقل، لأجل إقصائه من ملة الإسلام!. (المراجع).

والمراد بالناس من طبع على قلبه؛ أو العموم مبالغة. ﴿**حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُومِنِينَ**﴾ لا تقدر على ذلك، وإكراههم مستحيل لأنَّ الله تعالى قضى أن لا يكرهوا.

وزاد تسلية بقوله: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ اَن تُومِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ بإرادة الله، ولا تكفر أيضا إلَّا بإرادة الله تعالى، أي بشيء بها إلَّا بإذن الله؛ أو في حال من الأحوال إلَّا في حال ملابسة إرادة الله ﷻ؛ أو في حال ما كسلامة العقل وصحَّة البدن إلَّا في حال ملابسة إذن الله ﷻ، وهذا في المعنى تعليل لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ...﴾ **وما لم يرده الله مستحيل فلا يتعاطى فضلا عن أن يجهد فيه.**

﴿**وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ لا يدركون بعقولهم الآيات والأحكام، أي لا يعقلونها، أو لا يستعملون عقولهم بالتدبُّر في الدلائل والآيات، عطف على محذوف، التقدير: يأذن لمن أراد الله أن يؤمن باختياره فيؤمن فيثاب. ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾: أي الشيء الخبيث وهو العذاب، أو الكفر، أو الخذلان، إذ هما سبب العذاب على الذين أراد الله أن لا يؤمنوا باختيارهم. والمضارع المقدَّر الذي هو لفظ «يأذن». و«يَجْعَلُ» المذكور للاستمرار؛ أو بمعنى الماضي على أنَّ المراد القضاء، كما يدلُّ له قوله تعالى:

﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا تُغْنِي الاَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُومِنُونَ (101) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ كَذَالِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُومِنِينَ (103)﴾

فرضية النظر والتفكير وإنذار الغافلين

﴿**قُلُ انظُرُواْ**﴾ نظر تدبُّر في الدلائل والآيات المتلوَّة ﴿**مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ من الدلائل، والجملة مفعول لـ«انظُرُوا» معلَّق عنها، لأنَّ المعنى: تعلَّموا أو تعرَّفوا، بشدِّ اللام والراء؛ أو مستأنفة، وانظروا في الآيات المتلوَّة بدليل قوله: ﴿**وَمَا تُغْنِي الَايَاتُ**﴾ المتلوَّة كما لم تغن آيات السماوات والأرض ﴿**وَالنُّذُرُ**﴾ الرسل، والمفرد نذير؛ أو مصدر جُمِعَ للتنويع، أي أنواع الإنذار ﴿**عَن قَوْمٍ لَّا يُومِنُونَ**﴾ سبق القضاء عليهم أن لا يؤمنوا ولا يختاروا الإيمان، وإن أريد بالآيات آيات السماوات والأرض كان من وضع الظاهر موضع المضمر.

[نحو] و«مَاذَا» مبتدأ و«فِي السَّمَاوَاتِ» خبر؛ أو «مَا» مبتدأ و«ذَا» موصولٌ خبرٌ صلته «فِي السَّمَاوَاتِ»، وهذا أولى. و«مَا» الثانية مفعول مطلق، أي أيَّ إغناء تغني، وهي استفهاميَّة؛ أو نافية، والمفعول محذوف أي ما تغني شيئا، والجملة حال؛ أو اعتراض بيانيٌّ على النفي لا على الاستفهام، لأنَّ الإنشاء لا يكون حالا إلَّا بتأويل ولا داعي إليه، ولا خفاء في جعلها حالا على أنَّ «مَا» نافية، لأنَّ المعنى: أنت مأمور بالقول ولو كان لا يؤثِّر، فقل ولو كان قولك لا يؤثِّر فيهم.

ورتَّب على قوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْاٰيَاتُ...﴾ قوله: ﴿**فَهَلْ يَنتَظِرُونَ**﴾ بالإعراض عن الإيمان بك، والفاء للسببيَّة، والاستفهامان للإنكار، وفي قوله: ﴿مَاذَا﴾ للتقرير. ﴿**إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ إلَّا مثل وقائع الأمم قبلهم، فالأيَّام: الوقائع، يقال: يوم من أيَّام العرب، أي حرب من حروبهم، تسميةً للحالِّ باسم المحلِّ الذي هو الزمان. ﴿**قُلْ فَانتَظِرُواْ**﴾ إن أبيتم إلَّا الإصرار على الكفر فانتظروا ذلك المثل ﴿**إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ**﴾ له؛ أو فانتظروا هلاكي إنِّي معكم من المنتظرين هلاككم، فإنَّكم لا تستحقُّون إلَّا ذلك.

[نحو] و«مَعَكُمْ» خبر، و«مِنَ الْمُنتَظِرِينَ» خبر ثان، وفي تعليقه بمنتظرين تقديم معمول الصلة على الموصول، إلَّا إن توسّع لكونه ظرفا، وفي جعله حالا من ضمير الاستقرار تقديم الحال على عاملها المعنوي و«مِنَ الْمُنتَظِرِينَ» في هذه الأوجه هو الخبر ولم يتعدَّد وفي الوجه الأوَّل؛ أو تعليقه بمنتظر محذوف هكذا: إنِّي منتظر معكم من المنتظرين السلامة من ذلك.

﴿**ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا**﴾ عطف على محذوف تقديره نهلك كفَّار الأمم ثمَّ ننجِّي رسلنا ﴿**وَالذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ من العذاب، والمضارع لحكاية الحال لتكون من العذاب كأنَّها مشاهدة. و«ثُمَّ» للترتيب الذكري لا الزمان، لأنَّ التنجية لهم قبل إهلاك الكفرة ومعها.

﴿**كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِّ الْمُومِنِينَ**﴾ محمَّدا وأصحابه بعد إهلاك الكفرة؛ أو المراد أصحابه، وأمَّا هو ﷺ فمعلوم بالأولى.

و«حَقًّا» مصدر مؤكِّد لغيره، بمعنى حقَّ ذلك حقًّا، كابني أنت حقًّا؛ أو حال من الكاف، على أنَّها اسم منصوب على المفعوليَّة المطلقة مضاف لِمَا بعده؛ أو من تنجية محذوفا، أي تنجية ثابتة كذلك؛ أو «كَذَلِكَ» خبر لمحذوف، والتقدير: الأمر كذلك، على أنَّ الإشارة للإهلاك والتنجية، ويقدَّر بعده: هكذا ننجي المؤمنين ونهلك الكافرين حقًّا، وقدَّم «حقًّا».

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (105) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (106) وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (107)﴾

إخلاص العبادة لله

﴿**قُلْ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ أهل مَكَّة و«ال» للعهد وهم المعهودون، لأنَّ الشمس النَّبَوِيَّة طلعت من بينهم، ويجوز أن يكون «ال» للجنس فيكون المراد المكلَّفين من أهل مَكَّة وغيرهم، قريش وغيرهم، الحاضرين والغائبين، من وجد ومن سيوجد؛ والأوَّل أولى لأنَّ أصل الخطاب أن يكون للموجود الحاضر، وغيرهم مستفاد من النصِّ الآخر العامِّ.

﴿**إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي**﴾ في شكٍّ من كون ديني حقًّا، قولا وفعلا واعتقادا، و«مِنْ» بمعنى في متعلِّق بـ«شَكٍّ»، وقال: ﴿فِي شَكٍّ﴾ مع أنَّهم في جزم ببطلان الدين للإشارة إلى أنَّهم عارفون الحقَّ وجحدوه، كما يخاطب الجازم خطابا بصورة الشكِّ تثبيتا؛ أو كأنَّهم عرفوه لظهور دلائله، وإنَّ أقصى ما يبقى للعاقل إذا قصَّر أن يشكَّ، وأمَّا الجزم فعناد محض ولا سبيل إليه البتَّة.

﴿**فَلَآ أَعْبُدُ**﴾ أي فأنا لا أعبد، وإنَّما قدَّرت ذلك لأنَّ «لَا أَعْبُدُ» يصلح شرطا، فلو كان وحده جوابا لجزم وسقط الفاء، وليس تقديرٌ كقولك: فهذه

خلاصة ديني اعتقادا وعمـــلا فاعرضوها على العقل الصـــرف، وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا صحَّتها، جوابا أولى من كون «لَا أَعْبُدُ...» إلخ جوابا، فإنَّ كُلًّا من قوله: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ الذِينَ تَعْبُـــدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ ومن كون خلاصة ذلك لا يتوقَّف على ثبوت شكِّهم فيجوز تقدير: لا أتَّبعكم في مقتضى شكِّكم لأنِّي قد توثَّقت بأن لا أعبد الذين تعبدون مـــن دون الله، ولا أترك ديني أبدا، كما قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تعْبُدُونَ...﴾ [سورة الكافرون: 02].

﴿**الذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ**﴾ وهـــم الأصنام وهي لا تقدر على الإحياء ولا التوفِّي، وقال: ﴿الذِينَ﴾ مجاراةً لهم في الخطاب إذ يجعلونها كالعقلاء ﴿**وَلَكِـــنَ اَعْبُدُ اللهَ الـــذِي يَتَوَفَّاكُـــمْ**﴾ فيجازيكم، فإنَّ المحيـــي المميت هو الحقيق بأن يعبد.

والحاصل: إن كنتم في شـــكٍّ من ديني الذي أعبد الله تعالى به وأدعوكم وغيركم إليه ولم تعلموا به فإنِّي أخبركم أنَّه تخصيص العبادة به تعالى؛ أو إن كنتم في شـــكٍّ من صحَّة ديني فإنِّـــي أخبركم بأنَّ خلاصته عبـــادة الإله الذي يملك الإماتة لا ما لا قدرة له على شيء كأصنامكم.

والمقام لذلك لا لِمَا قيل من أنَّ المعنى: إن شـــككتم أأتركه إلى دينكم أو إلى غيـــره فاقطعوا طمعكم في تركـــه. وصحَّ لكثرة ذكـــر الإماتة مقرونة بالبعث أن يقال: المعنى أعبد الذي خلقكم ثـــمَّ يتوفَّاكم ثمَّ يعيدكم للجزاء، فاقتصر علـــى ذكر بعضه، وخصَّ التوفِّـــي بالذكر مع أنَّه هـــو المحيي أيضا للتهديد إذ لا شيء أشـــدَّ عليهم من الموت، ولذلك خاطبهم خصوصا ولم يقل: أعبد الله الـــذي يتوفَّى الأحياء، وقـــدَّم ذكر ترك عبـــادة غيره على ذكر عبادته لأنَّ التخلِّي قبل التحلِّي.

﴿**وَأُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ**﴾ أي بـــأن أكون مِمَّن آمن بالوحي، وبما أَدَّى إليه العقل مِمَّا يكـــون العقل فيه حجَّة، وهذا أمـــر بأصل الإيمان، وذكر

الأمر بالاستغراق في نور الإيمان بقوله: ﴿**وَأَنَ اَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**﴾ فإنَّ المعنى: أعرض بالكلِّيَّة عمَّا سواه فإنَّه هو المراد بإقامة الوجه، فإنَّ من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقامة أو باستقبال يقيم وجهه إلى سمت لا يميل يمينا ولا شمالا ولا فوق ولا تحت، وإلَّا اختلَّت المقابلة المرادة، وذلك استعارة تمثيليَّة؛ أو كناية، والوجه على ظاهره؛ أو بمعنى الذات.

وقيل: المعنى صرف العقل بالكلِّيَّة إلى طلب الدين، وقيل: المراد استقبال القبلة في الصلاة وعلى هذا المراد بالدين خصوص الصلاة مجازا، وهو غير متعارف، سواء جعلنا التجوُّز لأنَّها جزء من الدين أو أنَّها سمِّيت هكذا باسم الدين، مع أنَّه لا يتعارف «أَقِمْ» بمعنى وجِّه للقبلة.

[نحو] و«حَنِيفًا» حال من الدين أو الوجه، والأوَّل أولى للقرب، ولأنَّه حال من صاحب الدين في غير هذه الآية، ولأنَّ كونه من الوجه يوجب كونه حنيفا في وقت إقامته، والظاهر أنَّه حنيف بعد الإقامة. والحال مؤكِّدة في الوجهين لا في الثاني خاصَّة كما قيل. وبعض المعطوف محذوف، أي وأوحي إليَّ أن أقم. و«أَنْ» مفسِّرة وليس العطف على «أَنَ اَكُونَ...» وإلَّا لزم أن تكون معه مَصدَرِيَّة، لأنَّها في المعطوف عليه مَصدَرِيَّة، ولزم دخول الباء على الأمر، والمصدريَّة لا تكون في الأمر لأنَّه لا مصدر للأمر خارجيًّا ولو أجازه سيبويه، وإذا أوِّل بالمصدر وهو غير طلبي زال معناه الطلبي.

﴿**وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ تأكيد لِمَا قبله؛ أو أريد به خصال الإشراك كالرياء والسمعة والالتفات إلى الوسائط، والالتفات إلى غير الله وغير ذلك من أنواع الشرك الخفيِّ. والعطف على «أَقِمْ» و«أَنْ» تفسيريَّة، وحرف المصدر لا يدخل على النهي إذ لا مصدر له خارجي. ﴿**وَلَا تَدْعُ**﴾ تسأل، أو تعبد ﴿**مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ**﴾ إن فعلت به ما هو ضر أو نفع وهو الأصنام، وذلك مزيد تهييج على التوحيد، لأنَّه يزداد وينقص. والعطف

على «أَقِمْ»؛ أو على «لَا تَكُونَنَّ» ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ ذلك على الفرض والتقدير ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾ أو إذ فعلت؛ أو إذا فعلت ﴿مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالذنوب ولغيرهم بشؤم الذنوب.

﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ كفقر ومرض ولا مصيب إلَّا الله ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ رافع ﴿لَهُۥ إِلَّا هُوَ﴾ والأصنام لا تضرُّ ولا تكشف الضرَّ ﴿وَإِنْ يُّرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ لم يقل: يمسسك، إشارة إلى أنَّ الخير مراد بالذات بخلاف الضرِّ فإنَّه يمسُّ بالعرض، ولا يوجد شرٌّ جزئيٌّ ما لم يتضمَّن خيرا كلِّيًّا، فالمطر الشديد مثلا وإن هدَّم بعض البيوت، أو أفسد الزرع، أو الثمار لكن ينبت الحبوب وما ينتفع به الوحوش والأنعام والثقلان، ويعود على ما أفسد بالإصلاح ويسهل البناء، وإلَّا ففي الضرِّ إرادة ومسٌّ وفي الخير كلاهما، ولعلَّه أيضا ذكر في كلٍّ منهما ما حذف من الآخر.

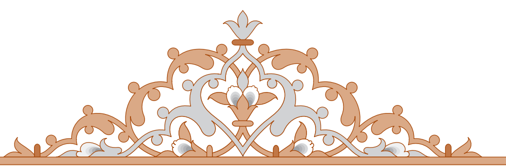
﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾ لا رادَّ له أي للخير.

[أصول الدين] ووضع الفضل موضع ضمير ليخبرنا أنَّ الخير فضل منه لا استحقاق لنا، ولا واجب على الله، فلو عبد الإنسان أكثر من عبادة الملائكة وغيرهم من أوَّل الخلق إلى آخرهم لم يجب له على الله شيء، لكن اقتضت حكمته لفضله إثابته.

وإن أريد بالفضل مطلق فضله لم تكن الجملة جوابا بل علَّة للجواب المحذوف أي نلته ولم يفتك لأنَّه لا رادَّ لفضله، ولم يقل: وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله إلَّا هو كما قال: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ لأنَّه ذكر الخير بالإرادة فلم يبق للاستثناء معنًى، بخلاف الضرِّ فإنَّه مذكور بالمسِّ لا بالإرادة.

ومراد الله لا يمكن ردُّه، وهي صفة ذات، والمسُّ صفة فعل، والمعنى: وإن يرد بك الخير، لكن لَمَّا تعلَّق الخير بالإنسان والإنسان بالخير جازت

العبارتان، إلَّا أنَّ التقديم في اللفظ يدلُّ على زيادة العناية بالمقدَّم، فدلَّ قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ على أنَّ المقصود الإنسـان وسـائر المخلوقات مخلوقة لأجله، وأيضا أشار إلى الاستثناء بقوله: ﴿**يُصِيبُ بِهِ**﴾ بالفضل وهو الخير؛ أو بالخير ﴿**مَنْ يَّشَـآءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ في وقته المقدَّر، لا من لم يشـأ، ولا في غير وقته ﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ فتعرَّضوا لمغفرته بالتوبة ولا تيأسـوا، ولرحمته بالطاعة، فإنَّه الغنيُّ الشكور.



﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿108﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿109﴾﴾

الإسلام دين الحقّ ووجوب اتّبَاعه

﴿**قُلْ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ أهل مَكَّة، وهذا أولى من العموم، وهو مستفاد من المقام الآخر ﴿**قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ**﴾ القرآن؛ أو مطلق الوحي عموما؛ أو الرسول ﴿**مِن رَّبِّكُمْ**﴾ فلا عذر لكم ﴿**فَمَنِ اهْتَدَىٰ**﴾ بالتصديق والعمل ﴿**فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ**﴾ فنفع اهتدائه لنفسه وهو ثواب الله، فما للمكلَّف يرغب عن نفع نفسه؟ ﴿**وَمَن ضَلَّ**﴾ بالإشراك؛ أو الكبائر ﴿**فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾ وبال ضلاله على نفسه فما له يسعى في ضرِّ نفسه؟ ﴿**وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ**﴾ لم يترك إليَّ أمركم فأجبركم على الهدى وأحفظكم عن الضلال، والحافظ هو الله، وهذا حصر، والمعنى: ما أنا بل الله، وما أنا إلَّا بشير ونذير. و«مَا» حجازيَّة، بدليل أنَّه إذا ظهر الإعراب كان النصب، كقوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [سورة يوسف: 31]، و﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِم﴾ [سورة المجادلة: 02]، والقرآن بلغة الحجاز لا بلغة تميم فلا تَهِم.

﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ**﴾ بالحفظ والتبليغ والامتثال قرآنا أو غيره من الوحي ﴿**وَاصْبِرْ**﴾ على مشقَّة الدعوة إذ يقابلونك بما تكره بالطبع وبالحقِّ، وتحمَّل أذاهم الذي يؤذونك به إذا دعوتهم إلى الحقِّ ﴿**حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ**﴾ فيهم بأمره، من القتل والنصر عليهم والأمر بالقتال قال بعض:

سأصبر حتَّى يعجز الصبر عن صبري وأصبر حتَّى يحكم الله في أمري
سـأصبر حتى يعلم الصبر أنَّني صبرت على شيء أمرَّ من الصبر[1]

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أعدلهم، لأنَّه لا يحكم إلَّا بحقٍّ، وعالم بالسرائر والظواهر على حدٍّ سـواء، ولا يخطـئ، بخلاف غيره، فقـد يحكم بالظاهر ويخالف الباطن الذي هو الواقع، وقد يتعمَّد الخطأ، وقد يعجز فيحكم بباطل.

وصَبَر ﷺ ولم يقلق ولم يسـتعجل حتَّى أذن الله له بالقتال مطلقا، وأخذ الجزية من أهل الكتاب والمجوس إن لم يؤمنوا، وبالسـبي والغنيمة مطلقا، ومن أهل الكتاب والمجوس إن لم يؤمنوا ولم يذعنوا للجزية.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(1) ذكرهما بعض المفسرين ولم ينسبوهما. ينظر مثلا: **الرازي**: مفاتيح الغيب، ج17، ص141.

11

تفسير سورة هود

مكِّيَّة إلَّا الآيات 12 و17 و114 فمدنيَّة، وآياتها 123 ـ نزلت بعد سورة يونس

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5)﴾

إحكام القرآن ودعوته إلى عبادة الله والتوبة إليه والإيمان بالبعث

﴿**الر**﴾ اسم للسورة عند الخليل وسيبويه، مبتدأ وقوله: ﴿**كِتَابٌ**﴾ خبره؛ أو هذه السورة مسمَّاة «الر» ويقدَّر: اقرأْ «الر»، أو اذكُر «الر»، ويقدَّر: القرآن كتاب؛ أو حروف تذكر للإعجاز، كأنَّه قيل: القرآن مركَّب من جنس هذه الحروف التي تكتب وتقرأ، فأتوا بمثله إن كان من غير الله، أو تنبَّه يا محمَّد فتعي ما يوحى إليك، فـ«كِتَابٌ» خبر لمحذوف، أي القرآن كتاب، أو السورة كتاب، فإنَّ القرآن والكتاب يطلقان على البعض كما يطلقان على الكلِّ.

روى الترمذي وقال حسن غريب، عن ابن عَبَّاس رضي الله عنه قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبت، قال: «**شيَّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمَّ يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشـية**»[1]، أي لأنَّ فيهنَّ ذكر القيامة والبعث والحساب والجنَّة والنار، ولقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [سورة هود: 112].

﴿**أُحْكِمَتَ ـ ايَاتُهُ**﴾ ألِّفت تأليفا متقنا لا نقص فيه ولا خلل، أو منعت من النسخ لبعضها أو لكلِّها، وهذا على أنَّ المراد السورة فإنَّه لم ينسخ منها شيء، يقال: أحكمت الدَّابَّة إذا وضعت عليها الحكمة، وهي ما يمنعها من الجماح، فهي ممنوعة من الإفساد بالنسخ إي الإبطال، أو حقَّقت الآيات بالحجج.

وجعلت حكيمة على أنَّ الهمزة للتصيير، بمعنى أنَّها مشتملة على الحكم الاعتقاديَّـة، كالتوحيد والإيمـان بالملائكة والأنبياء ونحـو ذلك من خصال التوحيد، وعلـى الحكم العَمَلِيَّـة التي هي عمل الفرائض ومـا دونها، وترك المعاصي وتصفية النفس.

[قلت:] ولا نسـلِّم أنَّه نسـخ منهـا أربع كما قـال بعـض: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ...﴾ [سورة هود: 12] ﴿وَقُل لِّلذِينَ لَا يُومِنُونَ...﴾ [سورة هود: 121] والتي تليها بالسـيف، و﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [سـورة هود: 15] بـ﴿مَـن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ [سـورة الإسـراء: 18] لأنَّ ذلك لا يختلف بشـرع القتال وعدمه، ولأنَّ النسخ لا يكون في الخبر.

﴿**ثُمَّ فُصِّلَتْ**﴾ زُيِّنت بالفرائد كما تزيَّن القلائـد بالفرائد، بأن يجعل بين كلِّ لؤلؤتين خرزة، أو يجعل بيـن اللآلئ الكبار ما هو صغير من الجواهر، أو ما يغاير لونها، شـبَّه القرآن باللآلـئ المنظومة والعقائـد والمواعظ بالفرائد اللآلئ الكبيرة في الفصل، أو الفرائد: آيات التوحيد، أو ذلك استعارة تمثيليَّة.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (57) باب: ومن سورة الواقعة، رقم 3297. من حديث ابن عَبَّاس.

أو معنى «فُصِّلَتْ» جعلت ســورا، أَمَّا على إرادة القرآن فظاهر، وأَمَّا على إرادة السورة فبمعنى جعل آياتها متفرِّقة بالمعنى في سائر السور، من التفصيل بمعنى التفريــق، أو معنى «فُصِّلَــتْ»: أنزلت نجوما، أي أوقاتــا متفرِّقة، من التفصيل بمعنى التفريق أيضا، أو معناه: لُخِّصت وبيِّنت فيما يحتاج إليه العبد، والإسناد على هذا مجاز عقليٌّ، لأنَّ التفصيل في معاني الآيات لا في ألفاظها.

و«ثُمَّ» للتراخي في الرتبة لا في الزمان، لأنَّ تفصيل آياتها ليس متراخيا عن إحكامها ـ بكســر الهمزة ـ فــإنَّ الإحكام مقارن للتفصيــل والتفصيل متراخ عن الإحكام رتبــة، لأنَّ التفصيل بِأَيِّ معنــى كان أقوى وأدخل في المدح من الإحــكام؛ أو «ثُمَّ» لمجــرَّد الترتيب في الإخبــار بلا تراخ في الزمان، لأنَّ الإخبــار بالتفصيل عقب الإخبار بالإحــكام، اللهمَّ إلَّا باعتبار الجزء الأوَّل وانتهاء الأخير، أو باعتبار أنَّ اللفظ إذا انقضى فقد بعد. ويجوز أن يكون بمعنى: جعلت منفصلة وصادرة تحقيقا، والتشديد للمبالغة، ويدلُّ لهذا قراءة فتح الفــاء والصاد مع التحقيــق، كقوله تعالــى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ [سورة يوسف: 94].

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ نعت ثــان لـ«كِتَاب» والأوَّل «أُحْكِمَتْ»، أو خبر ثان والأوَّل «كِتَابٌ»، أو تنازعه «أُحْكِمَتْ» و«فُصِّلَتْ»، أو حال من المستتر في «فُصِّلَتْ». و«لَدُنْ» بمعنى: عند، والعلمُ إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة يســمَّى خبرة وصاحبه مخبرا، وهو أبلغ من العلم، ولذا أخِّــر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ وهذا تقرير للإحكام والتفصيل إذ جاءا ممَّن يعلم الخفايا ولا يخفى عنه شيء.

﴿اَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ لئــلا تعبدوا إلَّا الله، و«لَا» نافيــة لا ناهية فلا تهم، كيف يصحُّ معنى «لَا» الناهية بعد لام الجرِّ والتعليل، وأجيز تقدير باء السببيَّة و«لا» نافية أيضا، والجارُّ متعلِّق بـ«فُصِّلَتْ» أو «أُحْكِمَتْ» على التنازع.

أو المراد: ضمِّن الكتاب أن لا تعبدوا، أو من النظر: ألَّا تعبدوا إلَّا الله، أو في الكتاب ألَّا تعبدوا إلَّا الله، أو تفصيله ألَّا تعبدوا إلَّا الله، أو هي أن لا تعبدوا إلَّا الله، أو بدل من آيات، والأوَّل أولى، ويليه أن تكون تفسيرية، لأنَّ في التفصيل معنى القول دون حروفه.

وقيل: يجوز أن يكون إغراء إلى ترك عبادة غير الله، أغراهم إلى تركها وإنَّما يعرف هذا في الاسم الصريح، ولا يجوز أن يكون مفعولا مطلقا لـ: اُتْرُكُوا، لأنَّ المفعول المطلق لا يكون في المؤوَّل بالمصدر فلا تهم.

﴿**إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**﴾ الهاء لله، أو للكتاب، والظرفان حالان من «بَشِير»، ويقدَّر مثلهما لـ«نَذِير»، أو من المستتر فيهما أو منه حال من المستتر في «لَكُمْ»، أو متعلِّق بـ«بَشِير» ويقدَّر مثله لـ«نَذِير» على معنى: يحصل التبشير منه والإنذار منه، والمراد الإنذار بالعذاب لمن كفر وخالف الكتاب، والتبشير لمن آمن وعمل. وقدَّم الإنذار لأنَّ التخويف أهمُّ وسبب لِمَا به التبشير، ولأنَّه أنسب بالزجر عن عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ**﴾ أن مفسِّرة، واستُدِلَّ بها على أنَّ قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ﴾ نهيٌ، والفعل مجزوم، و«أَنْ» فيه تفسيريَّة لا مصدريَّة، ولا يقدَّر فيه شيء، ولا بأس بهذا.

[نحو] وإنَّما المحذور جعل «أَنْ» ناصبة مصدريَّة بعدها «لَا» الناهية الجازمة، لأنَّه لا خارج للنهي يكون علَّة لِمَا قبله مثلا، وذلك أنَّ معنى المصدر ملاحظ قبل التأويل، ولا يتصوَّر اعتبار حصول معناه في الطلب، بخلاف الإخبار فإنَّ معنى المصدر موجد فيه ومراد قبل التأويل، ولو كان لا يدلُّ على مضيٍّ أو استقبال فلا تهم، فقد علمت أنَّه لا تدخل «أن» المصدريَّة على الأمر والنهي، وإذا جعلنا «أَنْ» مصدريَّةً قدَّرنا: وآمركم أن استغفروا، أو نحو ذلك.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ الاستغفار من الشـــرك، والتوبة: التجرُّد إليه بالطاعة، أو الاستغفار: التوبة من الشرك والذنوب. و﴿تُوبُواْ﴾: معناه أقيموا على ذلك، أو ﴿تُوبُواْ﴾: توصَّلوا إلى مطلوبكم وهو الغفران والجنَّة، أو الاستغفار مِمَّا مضى والتوبة عَمَّا يأتي، أو اســتغفروا عَمَّا مضى وتوبــوا الآن عمَّا تفعلون بعدُ، أو توبوا إذا فعلتم بعدُ، وإذا تابوا قبلُ وجب التجديد بعدُ.

وقيل الاســتغفار: تــرك المعصيــة، والتوبة: الرجــوع إلــى الطاعة؛ أو الاســتغفار: طلب ســتر الذنب والعفو، والتوبة: الندم عليه والعزم على عدم العود. و«ثُمَّ» في ذلك كلِّه على ظاهرها ويجوز أن تكون للترتيب الرتبيِّ، لأنَّ الرجوع عن المعصية إلى الطاعة فضل ومزيَّة على طلب الغفران.

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَــنًا﴾ يُحْيِكم في راحة بالغنى أو بالقناعة والأمن من غير الله، وانتظار الأجر العظيم في الآخرة والميل إلى الطاعة، بخلاف من لم يقنع ففي مشــقَّة اللهف والحرص والجزع، فلا ينافي ذلك ما يصيب المؤمن من المكاريه، وخوف الخاتمة، وكون الدنيا ســجن المؤمن، ولا كون أشــدَّ الناس بلاء الأمثل فالأمثل، وأيضا يثاب على مصائبه بالغفران ورفع الدرجات وهذا تمتيع حسن.

أو المعنى: لا يهلككم بالاســتئصال أو بالمســخ، والمشرك مع شركه لا يخلو من الخوف من الاســتئصال إذا ســمع به لمن تقدَّم، أو مــن مآله إلى الاستئصال ولو لم يستشعر به بمنزلة من استشعر به لأنَّه مآله.

أو عدم المؤاخذة على النعم بأن يرزقكم الحلال وتؤدُّوا شــكره، بخلاف الكافر فإنَّه يعاقب على النعم إذ لم يشكرها، وأيضا لا يبالي بالحرام.

[صرف] و«مَتَاعًا» اســم مصدر، أي تمتيعا، ولا يصحُّ أن يكون بمعنى ما يمتّع به، لأنَّ التمتيع لا يتعدَّى بنفسه إلى ما به التمتيع، لا يقال: متَّعته حليبا إلَّا على نزع الجارِّ، فلا تهم.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَــمًّى﴾ هو ما قضى الله من العمر أي إلــى آخر العمر أو في العمر، أو إلى أجل، أو هو الآخر، وليس لأحد إلَّا أجل واحد وهو الوقت الذي قتل فيه مثلا. ﴿وَيُوتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ حسن في العمل، فإنَّ فاعل الخير فاضل على فاعل الشرِّ، وهو مقابل ذي فضل فما له إلَّا العقاب، ويجوز أن يكون ذلك في تفاوت الأعمال الصالحة، فمــن زاد على الآخر في العمل الصالح بكثرة أو تجويد فله ما زاد، ولمــن دونه بقدر ما عمل بنقص ﴿فَضْلَــهُ﴾ جزاء فضله في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة، والهاء لصاحب الفضل، لأنَّ في ذلك ترغيبا.

ويجوز عودها لله بمعنى أنَّ ثــواب العامل فضل من الله، ولا واجب عليه، والفضــل على هذا نفس الثــواب، ويجــوز أن يكون هو العمــل، بمعنى أنَّ الأعمال مخلوقة لله وملك له، فيقدَّر مضاف كالأوَّل هكذا: جزاء فضله.

[نحو] وذكر الســهيلي أنَّ «فَضْلَهُ» مفعــول أوَّل و«كُلَّ» مفعول ثانٍ، لأنَّ الأوَّل في باب أعطى وكســا هو الذي كان فاعلا في المعنــى، وهكذا أقول، والمفسِّرون لا يقولون بذلك كأنَّهم يفسِّرون يؤتي ويعطي بـ«يُنِيل» فيجعلون النائل هــو الأوَّل، وأمَّا بلا تأويــل فالآتي الفضل وأنَّ العاطــي في «أعطيتك درهما» هو المخاطَب بمعنى الآخذ.

وقدِّم الفضل الكبير على عذاب اليوم الكبيــر لتقدُّم رحمته تعالى، ولأنَّ العذاب تعلَّق بالتولِّــي عَمَّا يوجب الفضل الكبير مــن التوحيد وغيره. ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ تُعْرِضُوا عن ترك عبادة غير الله والاســتغفار والتوبة، والأصل: تتولَّوا بصيغة مضارع الخطاب، بدليل الخطاب في قوله: ﴿فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [قلت] ومن العجيــب أن يقال: إنَّه ماض، وإنَّــه يقدَّر القول، أي فقل: إنِّي فلا التفات، وكأنَّ الالتفات حرام حتَّى يتحاشى عنه بهذا.

ونعت اليوم بالكبر لعظــم عذابه، كما وصف بأنَّه يــوم ثقيل ولطوله، لا كأيَّام الدنيا القصيرة من غروب لغــروب، أو طلوع لغروب، ومن العجيب أنَّه

قيل قد يكون نعتا لـ«عَذَاب» منصوبا إلَّا أنَّه جرَّ للجوار، واليوم: يوم القيامة، أو يوم في الدنيا شديد الهول كما ابتلوا بالقحط حتَّى أكلوا ما مات وجاف ودَادَ، وحتَّى إنَّ أبصارهم تغيَّرت لشدَّة الجوع حتَّى كأنَّ في الهواء دخانا.

﴿**إِلَى اللهِ**﴾ لا إلى غيره، وأيضا قدِّم لتربية المهابة ﴿**مَرْجِعُكُمْ**﴾ رجوعكم لا يفوته عقابكم الكبير الموعود به، أو بعد العذاب الكبير في الدنيا عذاب يوم الرجوع إلى الله ﷻ، وكسر «مَرْجِع» فصيح استعمالا شاذٌّ قياسا، كما قال ابن مالك [في لامية الأفعال]:

في غير ذا عينه افتح مصدرا وَسِوَا ... هُ اكْسِرْ، وشذَّ الذي عن ذلك اعتزلا

﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ فهو قادر على إيتاء كلِّ ذي فضل فضله، وعلى العقاب الشديد بدليل ما مرَّ.

وذكر بعض أنَّ «قَدِيرٌ» مبالغة فيكون العذاب شديدا لشدَّة قدرته، كما قيل إنَّ أفعال الله كلَّها قويَّة لقوَّته تعالى عن صفات الخلق، وعلى كلِّ حال فالجملة تأكيد لكبر اليوم، أو العذاب، وتنبيه على أنَّ الكبر وصف لِمَا وقع فيه، لكن وصف به للملابسة على المجاز العقلي، وعلى أنَّ المراد يوم القيامة، ومن جملة قدرته بعثكم وجزاؤكم وعلمه بما في الصدور كما قال:

﴿**أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ**﴾ يصرفونها عن الحقِّ إلى الباطل والكفر، يشتغلون في الخلوة بذمِّ النبيء ﷺ وفي قلوبهم، فالذمُّ ثني للصدور، وتكوينه في القلب والخلوة استخفاء كما قال: ﴿**لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ**﴾ فالثني كناية عن الإعراض لأنَّه من لوازمه، وحقيقته إمالة الجسم عن غير كإمالة ثوب أو جنب، أو استعارة تشبيها للمعقول بالمحسوس.

[صرف] والأصل: «يثنيون» ثقلت الضمَّة على الياء ونقلت إلى النون المكسورة قبلها بعد إزالة كسرها بالإسكان، وحذفت للساكن بعدها.

والاستخفاء علَّة لقوله: ﴿يَثْنُونَ﴾، أي يقتصرون على الذمِّ بقلوبهم وعلى الخلوة ليستخفوا، فصحَّ جعله علَّة للإعراض المخصوص بالقلب والخلوة، لا كما قيل: إنَّه لا يصحُّ، وإنَّه علَّة لمحذوف تقديره: يريدون ليستخفوا، لأنَّه إن أريد أنَّ «يَسْتَخْفُوا» مفعول لـ«يريد» فاللام زائدة لا تعليل، وإن أريد أنَّ المعنى: يريدون الثني ليستخفوا فذلك رجوع إلى جعله علَّة لـ«يَثْنُوا» فإنَّ معنى: أراد إكرامك وأكرمك لتكافئه، واحد من جهة التعليل.

ويجوز أن يكون معنى ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: يحنونها على الكفر وعداوة رسول الله ﷺ، كمن انحنى على شيء محافظة عليه، لا يظهرون ذلك ليخفى عن الله، وهذا شأن طائفة من المشركين، ويبعد أن يكون ذلك في المنافقين، لأنَّ السورة مَكِّيَّة، ولا مانع من النفاق في مكَّة، قيل: كان فيها الأخنس بن شريق حلو اللسان والمنظر، يلقى رسول الله ﷺ بما يحبُّ وينطوي بما يكره.

ولا مانع من كون الآية مَدَنِيَّة جعلت في سورة مَكِّيَّة إلَّا أنَّه خلاف الأصل، لا يخرَّج عليه إلَّا بحجَّة، وقد قال عبد الله بن شدَّاد: نزلت في بعض المنافقين إذا مرَّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وطأطأ رأسه وغطَّى وجهه لئَلَّا يراه ﷺ فيدعوه إلى الإيمان؛ أو الآية في المشركين مطلقا، فإنَّ لهم أحوالا في مكَّة ففي بعض الأحيان يخفون العداوة.

أو المعنى: يولون ظهورهم إعراضا عن الحقِّ، فإنَّ من ولَّى أحدا ظهره ثنى عنه صدره، يرون النبيء ﷺ فيولونه ظهورهم، فثني الصدر مجاز عن تولية الظهر أوَّلاً، ثمَّ إنَّه مجاز أو كناية عن الإعراض ثانيا.

﴿**أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ**﴾ يدخلون رؤوسهم فيها للنوم مثلا ﴿**يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾ ﴿أَلَا﴾: تأكيد وتنبيه، و«حِينَ» متعلِّق بـ«يَعْلَمُ»، قدِّم على طريق الاهتمام لا للحصر، فإنَّه إذا علم السرَّ الذي في وقت التغشية والتكييف في القلب فأولى أن يعلم غير ذلك من وجوه السرِّ، وهذا لبادي الرأي، وإلَّا

فالله استوى عنده كلُّ سرٍّ وكلُّ جهر، وأيضا لا يلزم من كونه يعلم كذا وقت كذا أن لا يعلمه في غيره، وأيضا ورد ذلك على قولهم: إنَّا إذا أخفينا شيئا لم يعلمه الله فلا يخبر به محَمَّدًا ومن معــه، فلا حاجة إلى تعليقــه بمحذوف فرارا من توهُّم أنَّه لا يعلم في غير ذلك، وأنَّ التقدير: ألا يستخفون منه؟ أو ألا يريدون الاستخفاء؟ وأيضا هذا التقدير لا يناسبه التأكيد والتنبيه. و«مَا» موصول حرفيٌّ أو اسميٌّ، أي إسرارهم وإعلانهم، أو ما يسرُّونه وما يعلنونه.

[سبب النزول] ويقال: نزلت في طائفة من المشــركين يقولون: إذا أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة مُحَمَّد فكيف يعلم؟ فكان الرجل يدخل بيته ويرخي ســتره، ويحني صدره ويتغشَّــى بثوبه، ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي؟ ويقال: يحنون صدورهم لئلَّا يسمعوا كتاب الله ولا ذكره.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل عــن ابن عبَّاس ﵁ إنَّ الآيــة نزلت في أناس يستحيون أن يقضوا حاجة الإنســان أو يجامعوا في غير ستر عن السماء، لأنَّ اجتناب ذلك مأمور به شرعا، فكيف تفسَّر الآية بنفيه، وكذا ما قيل: إنَّها نزلت في أناس يتعبَّدون بستر ما يستحى من كشفه من أبدانهم إلى السماء، ولو غير عورة. وقدِّم السرُّ معالجة عليهم بإظهار ما أضمروا واجتهدوا فيه، وكأنَّه يعلم سرَّهم أكثر مِمَّا يعلم جهرهم وليس كذلك بل هما سواء.

﴿**إِنَّهُ عَلِيــمُۢ بِذَاتِ الصُّــدُورِ**﴾ بالاعتقادة ذات الصــدور، والخطرة ذات الصدور، أو الأحــوال ذات الصدور. والصدور: القلــوب مجازا، أو هو على حقيقته، فيكون «ذات الصدور»: القلوب التي فيها، أو ما مرَّ. والعلم بالقلوب: علم بأحوالها، فكيف يخفى عنه شيء؟ وقد علم ما في الصدور فإنَّه لا أخفى منه إلَّا ما سيقع، وهو عالم به أيضا لأنَّ علمه ذاتيٌّ لا يشذُّ عنه شيء.

[أصول الدين] وفــي الآية ردٌّ على من زعم مــن المعتزلة أنَّ الله لا يعلم الشيء حتَّى يقع، وهذا في معنى الإشراك تعالى الله، وهم طائفة منهم.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾

فضل الله وعلمه وقدرته

﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الَارْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا**﴾ أكلها وشربها وكلُّ ما تنتفع به فضلا منه لا وجوبا فلا واجب عليه، وأمَّا «عَلَى» فلتحقيق وصولها إلى رزقها كأنَّه واجب، ويجوز جعل «عَلَى» بمعنى مِن. والمراد بالأرض ما تحت السماء، فشمل الطير وما في بحور الجوِّ وهذه البحور، والطائر يدبُّ إذا نزل من طيرانه، وسبح الحوت دبيبها وما حبس عن المشي.

روي أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نزل عليه الوحي تعلَّق قلبه بأحوال أهله، فأمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يضرب صخرة بعصاه فضربها فانشقَّت عن صخرة، فضربها فانشقَّت عن صخرة فضربها، فانشقَّت عن دودة في فيها ورقة وهي في أسفل البحر فسمعها تقول: [أي بلسان حالها] «سبحان من يراني، ويسمع كلامي، ويعرف مكاني، ويذكرني ولا ينساني».

والمراد الدَّابَّة التي لها رزق فهو على الله ومنه، فلا تُشْكِلُ دَابَّة ماتت قبل أن تأكل أو تشرب مثلا، فإنَّ هذه لا رزق لها، وكذا التي احتاجت ومنعت لأنَّها انقضى رزقها، وفي ﴿عَلَى﴾ استعارة تبعيَّة لتحقيق وصول الرزق، ووجه

الشـــبه عدم التخلُّف، ففي كلٍّ من الواجب والموعود بــه الحصول لا عدمه، **وفي ذلك إغراء بالتوكُّل فلا يبقى إلَّا الإجمال في الطلب**، كما في الحديث[1]، و«فِــي الَارْضِ» نعت لـ«دَابَّةٍ» أولى مــن أن تعلَّق به تعلُّقــا مراعًى فيه معنى حدثه، لأنَّ المتبادر تغلُّب الِاسمِيَّة فيه.

﴿**وَيَعْلَمُ مُسْــتَقَرَّهَا**﴾ موضع اســتقرارها في الدنيا ﴿**وَمُسْتَوْدَعَهَا**﴾ موضع اســتيداعها بعد الموت كالقبر؛ أو موضع اســتقرارها فــي الصلب، وموضع استيداعها في الرحم؛ أو موضع استقرارها في الأرض، وموضع استيداعها قبل وجودها كالمنيِّ والعلقة، وما تولَّدت منه من طعام وشراب ونبات وغير ذلك.

وعن ابن عَبَّاس ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾: حيث تأوي ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: حيث تموت، فقيل: هذا إشارة إلى آخر التكفُّل وإلَّا فلا رزق بعد الموت، وعن ابن مسعود: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾: الأرحام، ﴿وَمُسْــتَوْدَعَهَا﴾: حيث تموت، بمعنى أنَّه تعالى يعلم مكانها آخر ما تحتاج للرزق ويسوقه إليها.

ويجوز أن يكونا مصدرين بمعنى: يعلم استقرارها واستيداعها، أو زمانين أي وقت استقرارها ووقت اســتيداعها، ويجوز في «مُسْتَوْدَعَهَا» أن يكون اسم مفعول، أي ما تودع فيه من الموادِّ كالمنيِّ والمقارِّ كالصلب والرحم، والتفسير الأوَّل أولى لتبادره، ولعمومه ما لا نطْفَةَ فيه ولا صلب ولا رحم.

وقد قيل: المراد الإنسان على طريق الاســتخدام لمناسبة قوله تعالى فيه: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [سورة الأنعام: 98].

﴿**كُلٌّ**﴾ كلُّ ما ذكر من الدوابِّ ومســتقرِّها ومستودعها ورزقها وكذا جميع أحوالها، أو كلُّ شيء ﴿**فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ اللوح المحفوظ المبين لكلِّ شيء مِمَّا

(1) يشير الشــيخ إلى الحديث: «أَيُّهَا الناس اتَّقوا الله وأجملوا في الطلب...» رواه **ابن ماجه** في كتاب التجارات، رقم 2133، من حديث جابر (م.ح).

ينتهي، وهذا تتميم لِمَا قبل كما يقرُّ أحد بما عليه ويزيد بأنَّه قد كتب على نفسه فيه كتابا يحفظه له ولا ينساه، وهذا بيان لكونه ﷻ عالما بالمعلومات كلِّها.

وأمَّا بيان كونه قادرا على الممكنات بأسـرها ففي قوله ﷻ: ﴿**وَهُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ**﴾ وما فيهما وما بينهما، ويدلُّ على هذا أنَّ خلقهما أعظم فغيرهما مخلوق بالأولى له، ولأنَّ الانفراد بالشيء دالٌّ على الانفراد بما فيه، أو لابسه، ولكن خصَّ السماوات والأرض بالذكر لقوله: ﴿**فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾؛ أو أراد بالسماوات كلَّ العلويَّات فشمل العرش والكرسيَّ وما في ذلك، وبالأرض كلَّ السفليَّات فشمل ما فيها، كذا قيل على التجوُّز، وفيه أنَّه خلاف الأصل، ولأنَّه لا يصلح له ذكر سِتَّة أيَّام، ويجاب بأنَّه لا مانع من خلق ما فيهنَّ في ستَّة أيَّام.

والأولى حمل الآية على ظاهرها وحكمته أنَّ الناس يعرفون السماوات والأرض وهما عظيمان فلوَّح إلى أنَّ من خلقهما لا يعجزه شيء. والمراد بالأرض الأرضون، فـ«ال» للاستغراق، أو هذه الأرض الواحدة لأنَّ المخاطبين قد لا يعرفون سبع أرضين وهم يعرفون سبع سماوات، وعلى الاستغراق فإنَّما أفرد الأرض لأنَّها نوع واحد وهو التراب، بخلاف السماوات فبعضها ذهبٌ وبعضها فضَّة وبعضها زبرجد وهكذا[1]، وقيل في الأرضين أيضا باختلاف النوع.

والأيَّام الستَّة على التوزيع خلق السماوات في يومين والأرض في يومين، والأقوات في يومين. والمراد بستَّة أيَّام مقدارها، لأنَّ خلق السماوات والأرض حين لا شمس ولا قمر، وأمَّا الزمان فإمَّا عدم وإمَّا موجود بعد عدم، وقد يجوز أن يخلق الشمس والقمر ثمَّ يخلق السماوات بحيث يأخذان منها محلًّا.

---

(1) لا يخفى على القارئ أنَّ مادَّة خلق السماوات أمر غيبي لا يجازف فيه بغير حجة وعلم. (المراجع)

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ﴾ مُمَاسًّا له قبل خلق السماوات والأرض، سواء خلق العرش قبل الماء ثمَّ خلق الماء تحته عمدةً له، أو خلق الماء قبله ثمَّ خلقه على الماء.

وقيل أوَّل مخلوق من العالم بعد العرش الماء، وخرج بالعالم نوره ﷺ وروحه فإنَّهما مخلوقان قبل العرش، ولا مانع من خلق العرش والماء معا بوقت واحد، قال كعب الأحبار: خلق الله ياقوتة خضراء وصيَّرها ماء، وخلق الريح تحته ثمَّ وضع العرش على الماء[1].

ولا مانع من كونه مماسًّا للماءِ، وَمَنَعَه بعضٌ. واستُدِلَّ بالآية على إمكان الخلاء الموهوم، وهو الفراغ الموهوم، وحقيقته: أن يكون الجسمان لا يتماسَّان وليس بينهما فضاء، والحقُّ منعه، ولا دليل في الآية على الجواز، ولا مانع من التماسِّ، وقيل: معنى كونه على الماء إنَّما كما هو الآن في محلِّه عال على الماء أو خلق الماء والعرش وملكه. والعرش: المُلك.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلِّق بـ«خَلَقَ»، والمعنى: ليعاملكم معاملة المختبر لأحوالكم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ عمل جارحة أو عمل قلب، كما قال ﷺ: «**أيُّكم أحسن عقلا، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله** ﷻ؟»[2] وعن سفيان: معنى ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾: أزهد في الدنيا، وعن مقاتل: أتقى لله ﷻ، وعن الضحَّاك: أكثرهم شكرا.

---

(1) كذلك لا يجب اعتقاد شيء مما ذكره من خلق نوره ﷺ وروحه، ولا ما نقل عن كعب الأحبار دون دليل قطعي، لأن هذه القضايا غيبية ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْاَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ (الكهف: 51). (المراجع).

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج4، ص11، وأوَّله هو: عن ابن عمر رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ عليه هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ فقلت: ما معنى ذلك يا رسول الله؟ قال: «أيُّكم أحسن عقلا...». وقال: أخرجه ابن جرير. وابن أبي حاتم، والحاكم في التاريخ، وابن مردويه عن ابن عمر.

ومدار العمل على القلب إذا رسخت معرفة الله فيه، وقد يرفع لصاحبه عمل الأرض، وجاء الحديث بأنَّ تفكُّر ساعة يعدل عبادة سبعين سنة[1]، وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمُ...﴾ استعارة، ووجه كون خلق السماوات والأرض معلولا للابتلاء أنَّ منهما الأرزاق وفيهما النظر للاستدلال على وجود الله، وكمال قدرته وعلمه.

وإنَّما قال: ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ بصيغة التفضيل، ولم يقل: «أيُّكم حسنٌ عملا» بصيغة الصفة المشبَّهة مع أنَّ أفعال المكلَّفين معتبرة بالتفاوت بالحسن والقبح لا إلى أحسن وأقبح، للتحضيض على التنافس بالترقِّي والازدياد في مراتب الحسن. وإنَّما علَّق البلوى بالاستفهام لِمَا فيه من معنى العلم.

[نحو] وحقيقة التعليق تعطيل العامل عن عمله الأصلي، تقول: علمت هل قام زيد أو هل زيد قائم، فَعُطِّلت عَلِمَ عن نصب مفردين بنصب محلِّ الجملة قائمة مقامهما، وأصل البلوى التعدية بالباء فعُطِّل عنها بنصب محلِّ الجملة قائمة مقام مفعول مفرد، وأمَّا كونه بمعنى العلم المستحقِّ لمفعولين فكفى عنه اشتمال اللفظ على المسند والمسند إليه.

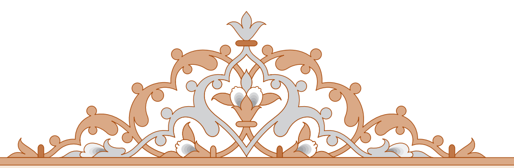
﴿**وَلَئِن قُلْتَ**﴾ يا محمَّد للمشركين ﴿**إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ**﴾ ستبعثون ﴿**مِنۢ بَعْدِ الْمَوْتِ**﴾ الخطاب هنا للمشركين، وفي قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمُۥٓ أَيُّكُمُ﴾ للمؤمنين، أو لهم وللمشركين وهو أولى، لأنَّ الكلام قبل وبعد في غير خصوص المؤمنين، أو المشركين كما هنا، أو هنا أيضا للمشركين والمؤمنين.

وقوله: ﴿**لَيَقُولَنَّ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ لا يمنع من التعميم، لأنَّ المعنى عليه: ولئن قلت للناس: إنَّكم مبعوثون ليقولنَّ الذين كفروا منهم، وعلى أنَّه هنا للمشركين لم يضمر في الجواب لأنَّه لم يظهر في الشرط بل حذف، ولو قال: ولئن قلت للكفَّار: إنَّكم مبعوثون لقال: «ليقولُنَّ ما هذا...» إلخ بضمِّ اللام.

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج3، ص139، بلفظ «سِتِّينَ» بدل «سبعين»، من حديث أبي هريرة.

واستبعد أن يكون من وضع الظاهر موضع المضمر، وإنَّما ذلك لو أظهر في الشرط، اللهمَّ إلَّا بدعوى أنَّ قوله: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ ظاهر في الكفرة، بمقتضى الظاهر بعد الإضمار لهم لا الإظهار كأنَّه لظهوره قد أظهر في الشرط، ولا يخفى بُعد عود الخطاب في «يَبْلُوَكُمُۥٓ أَيُّكُم» للكفرة خصوصا لأنَّ الكافر يبدأ له بالحسنيَّة والقبحيَّة لا بالأحسنيَّة والأقبحيَّة، إلَّا أنَّه لا مانع من خطابهم بالأحسنيَّة والأقبحيَّة لكثرة الدلائل حتَّى كأنَّهم آمنوا.

﴿**إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ ما هذا الذي تقول من البعث، وهذا أولى من ردِّ الإشارة إلى البعث، لأنَّهم لا يقولون: البعث سحر بل القول به، إلَّا أن يراد بالسحر مطلق الباطل الذي لا أصل له، وأولى من ردِّ الإشارة إلى القرآن، لأنَّه لم يذكر لهم لفظ القرآن، مثل أن يقول: جاءني في القرآن إنَّكم مبعوثون، ولو كان المعنى عليه وصحيحا أيضا من حيث إنَّ المعنى: لو تلوت عليهم من القرآن ما فيه إثبات البعث، ومن حيث إنَّ ذكر البعث مشعر بالقرآن لذكره فيه، فكأنَّه ذكر القرآن وأشاروا إليه، وإنَّما البعث سحر عندهم باعتبار القول به والوعظ، فإنَّه يؤثِّر في النفوس بالإعراض عن الدنيا كالسحر كما أنَّ القرآن كذلك.



﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (8) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)﴾

موقف الإنسان المؤمن والكافر عند النعمة والنقمة

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ إلى مجيء أوقات معدودة، فالأُمَّة: الطائفة من الزمان كالطائفة من الناس، والتنكير للتقليل، و«ال» في «العذاب» للجنس الشامل لعذاب الناس الكفرة، أو للعهد وهو العذاب الموعود به وهو عذاب بدر، أو عذاب يوم القيامة في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [الآية: 3]؛ وقيل: العذاب قتل جبريل خمسة مستهزئين قبل بدر.

وقيل: الجماعة يتعارفون ولا يكون فيهم مؤمن، وقيل: أمَّة يعصون بعد هؤلاء فيهلكون معا.

وزعمت الإماميَّة من الشيعة أنَّهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، كعدَّة أهل بدر من أهل البيت، يكونون مع المهدي، وإذا جاءك حديث في أهل البيت وفي سنده شيعي **فخذ حذرك** فإنَّهم يكذبون.

﴿**لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ**﴾ عن الوقوع لو صحَّ، وهذا استهزاء وإنكار له، وفي لفظ الحبس أنَّ العذاب متهيِّئ للوقوع لولا أنَّه محبوس عنه، تهكَّموا بهذا وأنكروا أيضا البتَّة.

﴿**أَلَا يَوْمَ يَاتِيهِمْ**﴾ متعلِّق بـ«مَصْرُوفًا»، وتقديم معمول خبر ليس عليها دليل على جواز تقديم خبرها عليها من باب أولى.

[نحو] ويقال: لا نسلِّم الأولويَّة، فإنَّ تقديم الخبر أعظم من تقديم معموله، ولا سيما أنَّ المعمول الظرفيَّ يتوسَّع فيه، ومعمول جواب «أمَّا» يتقدَّم على الفاء ولو كان ظرفا مع أنَّه لا يتقدَّم العامل، نحو: أمَّا اليوم فأكرم زيدا، وأمَّا في الدار فأكرم زيدا اليوم، ويجوز: ما اليوم زيد ذاهبا، بتقديم معمول خبر «ما» على اسمها مع أنَّه لا يجوز تقديم خبرها، والمانع ـ وهم الكوفيُّون ـ يقدِّرون: ألا يلازمهم العذاب يوم يأتيهم. ﴿**لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ**﴾ وضمير «يَأْتِي» و«لَيْسَ» للعذاب، والأصل: ليس العذاب مصروفا عنهم يوم يأتيهم.

﴿**وَحَاقَ**﴾ نزل أو أحاط، ولا يستعمل إلَّا في الشرِّ، والمراد: يحيق، لكن استعمل الماضي في موضع المضارع مبالغة في التهديد، لإبراز ما سيقع في صورة الواقع، وفيه استعارة تبعيَّة باعتبار الزمان. ﴿**بِهِم**﴾ عليهم ﴿**مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُون**﴾ جزاء كونهم يستهزئون بالنبيء ﷺ والوحي من القرآن وغيره، وذلك الجزاء هو العذاب.

[نحو] والمضارع مقدَّر كما رأيت، و«مَا» مَصدَرِيَّة كما رأيت، ويجوز أن تكون اسما ويضاف الجزاء لِمَا استهزؤوا به لأنَّه سببه إذ كذَّبوا بما كانوا يستهزئون به، ويجوز جعل الاستهزاء أو ﴿مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ بمعنى العذاب أو الجزاء، تسميةً للمسبَّب باسم السبب، والهاء لـ«الْعَذَاب» إذا كانت «مَا» مَصدَرِيَّة، ولِـ «مَا» إذا كانت اسما.

والمراد بالاســتهزاء: الاحتقار بذلك إذ جعلوه كذبا، أو الاستعجال، لَكِنَّ الاستعجال مبنيٌّ على التكذيب، ويجوز أن يكون المعنى: وحاق بهم العذاب الذي يستهزئون به.

﴿وَلَئِنَ اَذَقْنَا الِانسَــانَ﴾ أعطيناه، مشــركا أو موحِّدا، لأنَّ كفران النعم والإيَّــاس والبطر والفخر تصدر منــه كما تصدر من المشــرك، ويجوز أن تكون للمعهود الكافر في الآية قبله، كما قيــل: الأصل في «ال» للعهد فلا تحمل على غيره إلَّا لدليل، ولا دليل هنا إلَّا الاســتثناء بعدُ، والأصل فيه الاتِّصَــال، وعلى العهد يكون منقطعــا بذلك الوجه، أو علــى أنَّ «الذِينَ» مبتدأ خبره «لَهُم مَّغْفِرَةٌ».

﴿مِنَّا﴾ للابتداء متعلِّق بـ«أَذَقْنَا»، أو حال مــن قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ نعمة يجد لذَّتها كما هو شأن الذوق، وذلك كالغنى والصحَّة.

[بلاغة] والإذاقة مســتعار للأعضاء المشــتمل لإدراك أثــر النعمة، لأنَّ الذوق إدراك الطعوم، ويستعمل اتِّساعا لمطلق إدراك المحسَّات والمعقولات، واختار لفظ الرحمة على فضل الإنعام لأنَّه أدلُّ على التفضُّل وعدم الوجوب.

﴿ثُــمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ «مِــنْ» للابتداء، ويضعف ما قيــل: إنَّها للتعليل، أي لأجل ذنبه، ولا دليل عليه، والمــراد: النزع بعد تراخ طويل فــي التلذُّذ بها، فكيف لو نزعت على عجل، فإنَّه يكون أشدَّ كفرا. والتعبير بالنزع دون السلب للدلالة على شدَّة تمسُّــكه بها. ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ عظيم انقطاع الرجاء لفضل الله ورجوعها إليــه، لقلَّة يقينه وصبــره أو لعدمهما. ونزعها منــه لكفره لها، ولو نزعت مع شــكره لأثيب عليها دنيا أو أخرى، أو فيهمــا، أو كفِّر عنه ذنوب. ﴿كَفُورٌ﴾ عظيم كفران النعمة الماضيــة والنعم الباقية، وكثير الكفران، ويكرِّر الكفران ويعظِّمه ولو علــى زوال نعمة واحــدة، ومن الكفــر الإيَّاس. وقدِّم «كَفُورٌ» للفاصلة.

﴿وَلَئِنَ اَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ﴾ كصحَّة وخصب وعزٍّ ﴿بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ كمرض وجدب وذلٍّ. و«مَسَّتْهُ» نعت «ضَرَّاءَ»، وذلك من الأمور التي يظهر أثرها على صاحبه، ولا يخفى ظهور أثر المرض وما بعده وعكسها على البدن.

[لغة] قال بعض المفسّرين: النعماء: نِعَمٌ يظهر أثرها على صاحبها، والضرَّاء: مضرَّة يظهر أثرها على صاحبها، لأنَّها خرجت مخرج الأحوال الظاهرة كحمراء وبيضاء، وهو بهذا الوزن، إلَّا أنَّها اسم جمع لا واحد له إلَّا بالمعنى كنعمة لأنَّها ليست جمع نعمة، والنعمة أعمُّ من النعماء، لأنَّها لا تختصُّ بما يظهر أثره، والمضرَّة والضرُّ أعمُّ كذلك من الضرَّاء.

[بلاغة] وعبَّر بالذوق وهو ما تختبر به الطعم، والمسّ وهو أوَّل الاتِّصَال تنبيها على أنَّ ما في الدنيا تمثيل بقليل الدنيا على ما في الآخرة كالعنوان، وأنَّ الإنسان يبطر بأدنى شيء، وخالف بين تحوُّل النعمة إلى الشدَّة وعكسه ولم يوفّق بأن يقول بدل قوله: ﴿وَلَئِنَ اَذَقْنَا...﴾ ولئن أذقنا الإنسان شدَّة وضرًّا بعدما أعطيناه رخاء ورحمة على حدِّ ﴿وَلَئِنَ اَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ...﴾ للتنبيه على سبق رحمة الله غضبه، ولأنَّ المقصود بالذات الرحمة، والبلاء للخروج عن الطريق بسوء التدبير، فهو بالعرض، ولذلك أيضا لم يقل: بعد مسِّ ضرَّاء بتقديم المسِّ.

وأيضا لم يقل: أمسسنا كما قال: ﴿اَذَقْنَا﴾ ليدلَّ أنَّ المَقضِيَّ بالذات الخير وأمَّا الشرُّ فمقضيٌّ بالعرض، وللتنبيه على مراعاة الأدب مع الله، كما ورد ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [سورة آل عمران: 26] مع أنَّ الشرَّ بيده أيضا، وأمَّا إسناد النزع إليه فليس إسناد شرٍّ صراحة بل تلطُّفا.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّيَ﴾ الأمور التي تسوءني، أو الأشياء التي تسيئني، وقد كان لا يتوقَّع زوالها لأنَّه يئوس، ولم يشكر نعمة زوالها كما قال: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ بأمر الدنيا فرح بطر واغترار، وأكثر ما ورد الفرح في القرآن

للذمِّ، وهو في قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ﴾ [سورة آل عمران: 170] لغير الذمِّ لأنَّه في الشهداء. ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس بما آتاه الله ليشكره عليه مشتغل به عن الشكر، وفي لفظ الإذاقة والمسِّ تنبيه على أنَّه يقع في الكفران بأدنى مضرَّة، وفي البطر والفخر بأدنى نعمة.

وكلُّ ما أصاب الشقيَّ أو السعيد من الشدائد شيء يسير وكالعدم بالنسبة للعذاب في الآخرة ونعمها، ولذلك جاء: «**إنَّ الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر**»(1) ولو كان تصيبه الشدائد.

﴿**إِلَّا الذِينَ صَبَرُواْ**﴾ على الضرَّاء إيمانا واستسلاما، والسياق لذلك ولو كان أيضا لا بدَّ من أنَّهم صبروا عن الشهوات وعلى الطاعات. والاستثناء من الإنسان وهو متَّصل إن كان «ال» للاستغراق، ومنقطع إن كان للعهد، وعن ابن عَبَّاس: المراد الوليد بن المغيرة، وقيل: عبد الله بن أميَّة المخزومي.

﴿**وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**﴾ على النعماء شكرا وَالسياق لذلك، ودخل في عمل الصالحات ترك المعاصي، وعمل الصالحات هنا عبارة عن الشكر والإيمان، قال ﷺ: «**الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر**»(2).

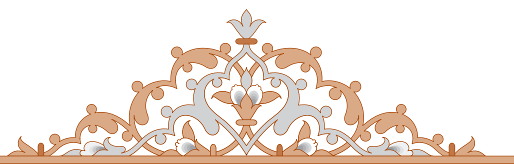
﴿**أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ**﴾ لذنوبهم وتقصيرهم ومكاريههم، ولا يخلو المؤمن عن ذلك، والشقيُّ يعاقب على صغائره وكبائره وتقصيره والمكروه الكراهة الشديدة ﴿**وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ الجنَّة، ودفع التكاليف والأمن من عذاب الله، أو الأجر الكبير: أدناه الجنَّة حين يدخلونها وازديادها في مقدار كلِّ يوم تخرج به عن الأدنى، أو الأجر الكبير: الجنَّة مطلقا وهي أدناه، والأعلى رضا الله، على معنى أنَّه وليٌّ لهم وأنَّهم أولياؤه لا يسخط عليهم، وقال: ﴿كَبِيرٌ﴾ بدل عظيم

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج3، ص243.

(2) رواه **القضاعي** في مسنده الشهاب، ج1، ص127، رقم 112. من حديث أنس.

للفاصلة لأنَّها على الــراء، وتارة تكون على الموازنة. وهؤلاء أربعة شــروط وأربعة أقسام أجيب الأقســام لتقدُّمها بدليل اللام قبل «إِنْ»، وأغنت أجوبتها عن أجوبة الشروط.

والشــرط متحقِّق في ذلك كلِّه، فوجه «إِنْ» الشــرطية الموضوعة للشكِّ اعتبار أنَّ ذلك الواقع من الجائز المحتمل ولو تعيَّن بمقتضى الوعد، أو اعتبار ما سيقع متكرِّرا بعد الوقوع الأَوَّل مثلا قبله ســيق مساق ما يشكُّ فيه لأنَّه لم يقع، ويجمع ذلك أن تقول: الشكُّ باعتبار الخلق.



﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿12﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿13﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿14﴾﴾

مطالب مشركي مكَّة العجيبة وتحدِّيهم بالقرآن

﴿**فَلَعَلَّكَ**﴾ تفريع على ما تقدَّم من اســتهزائهم ومساوئهم، وكأنَّه قيل: إذا تحقَّق شأنهم في قلبك فلعلَّك، أو يســوءك ذلك منهم فلعلَّك، أو ذلك مسيء لك فلعلَّك ﴿**تَـارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ**﴾ الله عالم بكلِّ شــيء فلا يتوقَّع، والرســول ﷺ لا يترك ولا يهمُّ بالترك، فطريق «لَعَلَّ» هنا طريق «إِنْ» الشرطية قبلها، والجزم بعد ذلك باعتبار نفس الأمر.

فإنَّما جاءت «لَعَلَّ» باعتبــار المخلوق في بادئ الرأي، إذا رأى تلهُّفه ﷺ، أو باعتباره ﷺ قبل أن يعلم أنَّ الله عصمه من الخيانة في التبليغ والتقيَّة فيه، أو بعد علمه لكن يغلبه التلهُّف حتى يكون كغيره.

[قلت:] وأمَّا ما قيل في الجواب عن ذلك من أنَّه لا يلزم من توقُّع الشيء لوجود ما يدعو إليه وقوعه، لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرسل من الخيانة في الوحــي والتقية في التبليغ مانعا، فلا يتــمُّ جوابا لأنَّه لا يبقى

توقُّع مع العلم بالعصمة، أو التوقع باعتبار المشركين، أي بلغ بك الجهد في التبليغ أنَّهم يتوقَّعون منك ترك تبليغ البعض.

ويجوز أن تكون للاستبعاد المتضمِّن للنهي كما تقول لمن حرص جِدًّا: لعلَّك تطير إلى السماء، أي لا تحرص ذلك الحرص، أو للاستفهام الإنكاري كما قيل في قوله ﷺ: «**لعلَّنا أعجبناك**»(1) استبعد ذلك، أو أنكر العصمة، وذلك البعض هو ما اشتدَّ المشركون في إنكاره مثل إنكار آلهتهم، وذلك لمخافة ردِّهم عليه واستهزائهم، يصعب عليه أن يردُّوا كلام الله، أو يستهزئوا به.

ويجوز أن يكون المعنى: كأنِّي بك ستترك بعض ما يوحى إليك، على معنى أَنَّ حالك تشبه حال من يقال له ذلك، ولا ينافيه قوله: ﴿أَنْ يَّقُولُواْ لَوْلَا...﴾ لأنَّ قوله هذا علَّة لقوله ذلك.

ويجوز أن يكون المعنى: كأنِّي بك ستترك بعض ما يوحى إليك مِمَّا يشقُّ عليك بإذني، وهو أن يرخَّص لك فيه كأمر الواحد [أن يثبت] للعشرة، إذ ردُّوا إلى واحد باثنين، على أن يراد ترك الجدال بالقرآن إلى القتال لأنَّ السورة مكِّيَّة.

﴿**وَضَآئِقُۢ بِهِ صَدْرُكَ**﴾ عطف على «تَارِكٌ»، و«صَدْرُ» فاعل أو مبتدأ لـ«ضَائِقٌ»، والجملة معطوفة على «تَارِكٌ».

[صرف] ونقل ضيِّقا ـ بشدِّ الياء ـ إلى «ضَائِق» للدلالة على الحدوث لا لمشاكلة «تَارِك» كما قيل، وذلك كقولك في كريم: كارم، أي حادث الكرم في الماضي أو الحال أو الاستقبال، وذلك مقيس كما قال ابن مالك، أي يعرض لك أحيانا ضيق صدرك ببعض ما يوحى إليك، أي بتلاوته على الكفرة، لا لذاته بل لإنكارهم واستهزائهم.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الوضوء (32) باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان، رقم 178. من حديث أبي سعيد.

﴿أَنْ يَّقُولُواْ﴾ مخافة أن يقولوا، أو حذر أن يقولوا، أو لئلَّا يقولوا، أو بأن لا يقولوا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ اَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ ويجوز أن يكون الهاء لمبهم يفسِّره ﴿أَنْ يَّقُولُواْ﴾.

فمصدر «يَقُولُ» بدل من هاء «بِهِ» بدل مطابق، ولا يجوز أن يقدَّر هنا ليقولوا، لأنَّه ليس يضيق صدره ليثبت قولهم، ولا يقدَّر أيضا: لئلَّا يقولوا، لأنَّه أيضا لا يضيق لانتفاء القول.

وفي الآية دلالة على أنَّه ﷺ راسخ الصبر، وفسيح الصدر، فإن حصل ضيق فحادث عارض يزول، وذلك أنَّه لم يقل: ضيِّق.

ومعنى نزول الكنز عليه: حصوله له لا خصوص نزوله من السماء، كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ...﴾ [سورة الحديد: 25] والمراد: المال الكثير الذي من شأنه أن يدفن مخافة عليه، أو وجه ذلك أنَّ مرادهم التعجيز، فأرادوا كنزا من غير محلِّه وهو السماء ومحلُّه الأرض، فيحتمل أنَّهم شبَّهوا السماء بالأرض ورمزوا لذلك بالكنز، أو شبَّهوا الإنزال من السماء بالإخراج من الأرض ورمزوا لذلك بالكنز.

[سبب النزول] قال رؤساء مكَّة: اجعل جبال مَكَّة ذهبا وفضَّة تنفقها على نفسك وأهلك وأصحابك وتكثر به جنودك، أو جئ بملك يُصدِّقك، وجئ بقرآن ليس فيه إبطال آلهتنا، خيَّروه في ذلك، وقيل: قال طائفة: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ وقالت طائفة: هلَّا جاء معه ملك، أو قائل ذلك عبد الله بن أميَّة، ورضوا به فنسب للكلِّ.

قيل: همَّ النبيء ﷺ أن لا يذكر الآيات التي فيها ذمُّ آلهتهم فنزلت الآية، [قلت:] وهذا لا يصحُّ بظاهره لأنَّه ﷺ لا يهتمُّ بما لا يجوز فكيف في شأن التبليغ والتوحيد؟! ولعلَّ المراد بالهمِّ الخطور في باله، كما هو شأن البشر لا حقيقة الاهتمام بإيقاع ولا يثبت ولو أقلَّ من لحظة.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ جواب من الله ﷿ عن نبيه ﷺ، كأنَّه قيل: قل إنَّما أنا نذير، إنَّما عليَّ التبليغ لا الإتيان بما اقترحتموه، فلا يضق صدرك بقولهم، ولا سيما أنَّ الله ﷿ منتقم منهم لذلك كما قال: ﴿وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حفيظ، فيجازيهم على كفرهم، ويجازيك على إيمانك، فتوكَّل عليه ﷿؛ ففي ذكر «وَكِيل» أمر بالتوكُّل.

﴿أَمْ﴾ حرف ابتداء منقطعة ﴿يَقُولُونَ﴾ بل يقولون بألسنتهم، أو بل أيقولون، فـ«أَمْ» للإضراب الانتقاليِّ، أو له وللاستفهام الإنكاريِّ، أو التعجيبيِّ، وذلك أولى من جعلها متَّصلة عاطفة على تقدير: أيكذِّبونك بقلوبهم أم يقولون، أو أيكذِّبونك بما أوحينا إليك معجزة أم يقولون؟ أو أيكتفون بما ذكر أم يقولون؟ لأنَّ الأصل عدم الحذف ﴿افْتَرَاهُ﴾ ضمير افترى له ﷺ والهاء لِمَا يوحى.

﴿قُلْ فَاتُواْ﴾ إن كنت افتريته فأتوا فإنَّكم فصحاء بلغاء مثلي، فإن عجزتم فاعلموا أنَّه ليس منِّي بل من الله ﷿ ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ في الفصاحة والبلاغة والحكمة والإخبار بالغيوب.

تحدَّاهم أوَّلا بالقرآن في سورة الإسراء عموما، وَلَمَّا عجزوا تحدَّاهم بعشر سور، والتحدِّي بعشر متقدِّم نزولا عن التحدِّي بواحدة مُتَأَخِّر تلاوة، ولَمَّا عجزوا تحدَّاهم بسورة في سورة البقرة المَدَنِيَّة، وهي متأخِّرة في النزول عن سورة هود وفي سورة يونس المتأخِّرة في النزول عن سورة هود، وكلتاهما مَكِّيَّة لأنَّه من عجز عن درهم [مثلا] وقد قلت له: أعطني درهما لا تقول له: أعطني عشرة، وقد يقال: الآيتان مدنيَّتان جعلتا في سورتين مكِّيَّتين، والتحدِّي بعشر نزل قبل التحدِّي بواحدة.

وقال المبرِّد: ﴿مِثْلِهِ﴾ في يونس وسورة البقرة بمعنى المماثلة في الفصاحة والبلاغة والإخبار بالغيوب والأحكام، وفي سورة هود في الفصاحة

والبلاغة فقط، انتهى بالمعنى وزيادة، **وهو ضعيف**، إذ الأصل اتِّفَاق وجه المماثلة لا يصار إلى تخالفه مع وجود التأويل بالاتِّفاق، والداعي له إلى ذلك مراعاة تتابع السور.

ويظهر لي أيضا وجه آخر إن شاء الله كان حسنا، هو أنَّ المعنى إن كان كذبا فلا يعجزكم أن تأتوا بسور كثيرة تماثله، لأنَّ أمر الكذب سهل، وباب واسع، وهذا كلام يجوز أن يتحدَّاهم به ولو بعد ما تحدَّاهم بسورة.

[صرف] وأفرد «مِثله» باعتبار كلِّ قرآن يُدَّعى، فإنَّ الهاء عائدة إلى ما يوحى، والمماثلة قائمة بكلِّ واحد لا بالمجموع فالأصل: بعشر سور أمثاله، أو باعتبار أنَّ أصل «مثل» مصدر يصلح للواحد فصاعدا، وقد أفرد لهذا في المثنَّى قال الله ﷻ: ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [سورة المؤمنون: 47]، ورعيت المطابقة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُواْ أَمْثَالَكُمْ﴾ [سورة محمَّد: 38]، وقوله تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ﴾ [سورة الواقعة: 23]؛ وقيل: الإفراد هنا لتقدير منعوت مفرد، أي مقدار عشر سور مثله، وقيل: أفرد لأنَّه وصف لمجموع العشرة، لأنَّ مدار المماثلة في الجمع شيء واحد وهو البلاغة المعجزة فكأنَّ الجميع واحد.

﴿**مُفْتَرَيَاتٍ**﴾ مكذوبات كما ادَّعيتم أنِّي جئت بالقرآن من عندي كذبا منِّي، لا من عند الله، فأنتم أقدر على الكذب، لأنَّ الحقَّ بعيد عنكم، ولممارستكم الوقائع والأشعار والخصام، فربَّما تكذبون أبلغ منِّي بحسب الظاهر المتعارف فيمن يمارس، لكن هو أبلغ لقوله: «**أنا أفصح من نطق بالضاد**»(1) والفصاحة فيه تشمل البلاغة.

﴿**وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ**﴾ إلى أن يعينوكم على افتراء السور على حدِّ القرآن في الفصاحة وغيرها، أو الاستقلال بها دونكم من الناس والأصنام والكهَّان، مع قدرة الكهَّان على حسن السجع ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ أنِّي افتريته.

---

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: تفسير آية 38 من سورة يونس في هَذَا الجزء ص246.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ في الإتيان بعشر سور مثله، أو بالمعاونة. والواو لـ«مَنْ» فالكلام من الله، أو الواو للمشركين فالكلام من القول.

[نحو] والفاء عاطفة على «قُلْ» عطف طلب على طلب، لأنَّ المعتبر في الشرط هو الجواب وهو هنا أمر، أو رابطة لمحذوف، أي إذا قلت: «فأتوا...» إلخ فإن لم يستجيبوا، وذكر بعض أنَّها سَببيَّة، لأنَّ ظهور عدم الاستجابة في تحقُّقه مسبَّب عن الأمر بإتيان ما هو مثله، ومعقِّب له، وإن الموضوعة بالشكِّ إنَّما هي باعتبار ظنِّهم لأنَّ العجز قبل التدبُّر في بلاغته لم يتحقَّق عندهم.

واختار الاستجابة على الإجابة إذ لم يقل: فإن لم يجيبوا، لأنَّ الاستجابة خاصَّة بتحصيل المطلوب، والإجابة تعمُّ الجواب بتحصيله أو دونه، ولم يقل: «فإِن لَّمْ تَفْعَلُوا» كما في سورة البقرة إيماء إلى أنَّه ﷺ على كمال أمن من أمره كأنَّ أمره لهم بالإتيان بمثله دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه.

والخطاب في «لَكُمْ» لرسول الله والمؤمنين، لأنَّ تحدِّيه ﷺ تحدٍّ لهم، وَلأَنَّ المؤمنين يتحدَّونهم أيضا، وأمر النبيء بالتحدِّي أمر لهم بالتحدِّي، لأنَّ كلَّ ما عليه أو له عليهم أو لهم، إلَّا ما خصَّ بدليل، وأيضا هم راضون بتحدِّيه وحاضرون حال التحدِّي.

أو الخطاب للنبيء ﷺ بصيغة الجمع تعظيما له، وفي آية أخرى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ [سورة القصص: 50]، أو الخطاب لهم تلوينا للخطاب.

والجمع في قوله: ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ على حدِّ الجمع في «لَكُمْ» تبعٌ له، والمراد: المماثلة في نوع إعجاز القرآن لا في إجمال معاني القرآن كلِّه في عشر السور، وإلَّا ظهر لهم كأنَّه تكليف بما لا يطاق ولو كان من الجائز أن يأمرهم تعجيزا بأن يأتوا به كلِّه في عشر سور طوال جدًّا حتَّى تجمعه.

[نحو] والباء للملابسة، أي مع علم الله لا الافتراء. و«أَنَّمَا»: للحصر، ولا يغرنَّك ما قيل إنَّها لا تكون للحصر وإنَّ المكسورة تفيده وحدها دون المفتوحة، أي ما أنزل إلَّا بعلم الله وقدرته لا علم فيه لغيره ولا قدرة، فهو منه أبعد أن ينزله غيره، فيعلم هو أو لا يعلم. أو «مَا» اسم «أَنَّ»، أي الذي أنزل ثابت بعلم الله، وعليه فـ«بِعِلْمِ» خبر لـ«أَنَّ»، ولا يتصوَّر أن تكون مَصدَرِيَّة، لأنَّ «أَنَّ» قبلها مَصدَرِيَّة إذا صرنا إلى المصدَرِيَّة.

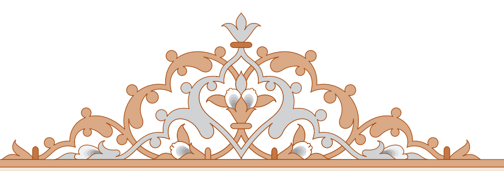
ومعنى ﴿اعْلَمُواْ﴾: أثبت يا محَمَّد، أو يا محَمَّد والمؤمنون على العلم، أو زد أو زيدوا منه، أو المراد العلم الذي في المرتبة العليا التي ما عداها من علم المخلوق كلا علم.

وأجاز بعض أن يكون الخطاب للكفرة على طريق الالتفات إلى الخطاب من الغيبة، والأصل: فليعلموا، ولا يردُّه عن الالتفات وجود الخطاب في ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم...﴾ لأنَّه ليس في نظمه، بل في نظم ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ ويناسبه أنَّ ضمير الجمع في الآية قبلُ لهم، فليكن لهم في هذه، وأنَّهم أقرب ذكرا.

﴿وَأَن لَّآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ «أَنْ» مَصدَرِيَّة مخفَّفة، والعطف على «أَنَّمَا...» أي: واعلموا أن لا إله إلَّا هو، أو على «عِلْم»، أي: أنَّما أنزل بعلم الله وبأن لا إله إلَّا هو، وعلى كلِّ حال المراد: توحيد العالِم بما لا يعلم غيره، القادر على ما لا يقدر غيره، فهو المعبود لا آلهتهم لعجزها عن العلم والقدرة، فليست مجيرة لعابديها من العذاب.

﴿فَهَلَ اَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه، أو زائدون ثباتا عليه للإعجاز الذي شاهدتم، أو الخطاب للكفَّار، أي فهل أنتم داخلون في الإسلام لهذا الإعجاز؟ أو مؤمنون بالقرآن لهذا الإعجاز؟ والفاء سببيَّة أو عاطفة على «اعْلَمُوا».

والمراد: الأمر بالإســلام لتمام حجَّته، كأنَّه قيل: قام موجب الإيمان فلا عذر في التخلُّف عنه، وقد قيل: الاســتفهام للأمر، أو للاستبطاء، أو للتقرير، أي أقرُّوا بما عندكم أبقاءٌ على الكفر؟ أم دخول في الإســلام؟، فإنَّه لا مانع لكم إلَّا حبُّ الدنيا ولذا قال:



﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝15 أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝16﴾

من أراد الدنيا وحدها حرم نعيم الآخرة

﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ**﴾ من المشركين والموحِّدين، وقيل: المراد المشركون لكن يعتبر في المعنى عموم اللفظ، وكذا في القول بأنَّها في المرائين ﴿**الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ مطلق الحياة ضدُّ الموت ﴿**وَزِينَتَهَا**﴾: الأموال والصحَّة والعزَّ والجاه، والرياء والأولاد، أو الحياة الدنيا: المال والصحَّة، وزينتُها: الجاه والعزُّ وما يفتخر به كالأولاد واللباس الحسن والمسكن البديع والرئاسة، و﴿يُرِيدُ﴾: بمعنى يحبُّ الدنيا خاصَّة، ولا بدَّ من أن يكون قد عمل فيها طاعة أو مكارم الأخلاق فقال: ﴿**نُوَفِّ إِلَيْهِم**﴾ عدِّي بـ«إِلَى» لتضمُّن معنى: نوصل ﴿**أَعْمَالَهُمْ فِيهَا**﴾ ثواب أعمالهم فحذف المضاف، أو الأعمال نفس الثواب تسمية للمسبَّب باسم السبب، أي نعطهم ما أرادوا من ذلك عوضا، فيدخلوا الآخرة بلا عمل حسن، أو المعنى: من كان يريد بعمله.

﴿**وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ**﴾ لا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم، وقدِّم «فِيهَا» للفاصلة.

وهذه الآية مقيَّدة بالمشيئة التي ذكرت في الآية الأخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [سورة الإسراء: 18] ومقيَّدة بـ﴿مَن نُّرِيدُ﴾



في الآية الأخرى، حتَّى قيل: إنَّها منســوخة بهذه الأخرى ولا نسخ في الأخبار، والتقييد ليس نسخا، ولا سيما التقييد بمشيئة الله تعالى، لأنَّها شيء يراد في كلِّ أمر من الأمور، ولا سيما في كلامه تعالى، فهي مذكورة ولو لم تذكر.

﴿**أُوْلَئِكَ الذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الَاخِـرَةِ إِلَّا النَّارُ**﴾ جزاء على ما أصرُّوا عليه من شرك وما دونه من عمل أو اعتقاد.

[فقه] وقد قال القرطبي عن بعض العلمــاء: إنَّ الآية في معنى قوله ﷺ: «**إِنَّما الأعمال بالنيــات**»[1] فكلُّ عمل لا يعمل إلَّا على وجــه القربة لا تؤخذ الأجرة عليه، والآية دلَّت على ذلك، وكذا شــرط العمل فــي النيات[2]، فمن صام رمضان قضاء لآخر أو للكفَّارة أو غير ذلك لم يجزه لرمضان ولا لغيره، ومن غسل للتبرُّد لم يُجْزِه.

﴿**وَحَبِطَ**﴾ بطل ﴿**مَا صَنَعُواْ**﴾ من الحســنات كصلة رحم وصدقة وتوحيد وغير ذلك مــن الفرض والنفل، أي بطــل جزاء ما عملوا، أو ما عملوا اســم لمســبِّبه، أو بطل نفس عملهم، كأنَّه لم يعملوه لعدم وجــود ثمرة له، وذلك الحبوط في الآخــرة لا في الدنيــا لأنَّهم قد اســتوفوه فيها ﴿**فِيهَــا**﴾ متعلِّق بـ«صَنَعُوا»، والضمير للدنيا، أي بطل في الآخرة ما صنعوا في الدنيا، أو بطل في الدنيا ما صنعــوا في الدنيــا، أو عائد إلى الآخــرة فيتعلَّــق بـ«حَبِطَ» لا بـ«صَنَعُواْ» لأنَّه لا عمل فــي الآخرة، والمعنى: حبط فيهــا أي في الآخرة ما صنعوا في الدنيا، فحذف في الدنيــا للعلم به، وعلى كلِّ حال المراد: حبط ما صنعوه أو حبط صنعهم.

---

(1) رواه **الربيع** في مســنده كتاب النيات (1) باب في النية رقم 1 من حديث ابن عَبَّاس. ورواه **البخاري** في كتاب بدء الوحي (1) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ رقم 01. من حديث عمر بن الخطَّاب.

(2) كذا في النسخ: تأمل.

﴿**وَبَاطِلٌ**﴾ معطوف على ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الَاخِـرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ عطف مفرد على جملة، وكذا إن عطف على ﴿حَبِـطَ مَا صَنَعُواْ﴾. ﴿**مَا**﴾ فاعل لِـ«بَاطِلٌ»، أو مبتـدأ خبره «بَاطِـلٌ»، والجملة معطوفة كذلك عطـف جملة على أخرى، وعليه قدِّم «بَاطِلٌ» للفاصلة. ﴿**كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ ما يعملونه، أو عملهم.

والـكلام على المجموع لأنَّ بعض الأشـقياء العامليـن لا جزاء لهم في الدنيا ولا في الآخرة كما تدلُّ عليه آية أخرى، فبعض الأشقياء يعمل فلا يثاب في الدنيا ولا في الآخرة وبعض يثاب في الدنيا فقط، وبعض في الآخرة فقط، مثل أن ينقص من عذابه، وبعض يثاب فيهما، وثواب الآخرة للشـقي النقص في الآخرة. روى قومنا أنَّـه رئي أبو لهب فقال: يخفَّـف عنِّي في كلِّ الاثنين لأنِّي سـررت بمحمَّد إذ ولد يوم الاثنين، وأعتقت ثُوَيْبَة لَمَّا بشَّرتني، وأسقى في مثل نقرة الإبهـام، **والله أعلم بصحَّة ذلك**، وكونـه خصوصا من عموم أنَّ الكافر لا يخفَّف عنه.

وروى مسلم عن أبي هريرة أنَّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشـركاء عن الشـرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيـري تركتـه وشِـرْكَه**»[1] وفيـه روايـات أخر، وعـن ابن عمـر قال رسول الله ﷺ: «**من تعلَّم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار**»[2]، رواه الترمذي، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**من تعلَّم علما ممَّا يبتغى فيه وجه الله لا يتعلَّمه إلَّا ليصيب بـه غرضا من الدنيا لم يجد عرْف الجنَّة يوم القيامة**»[3]، يعني ريحها رواه أبو داود، قال رسول الله ﷺ:

(1) رواه **الربيع** في مسـنده (9) باب في ذكر الشـرك والكفر رقم 60، مع تقديـم وتأخير من حديث أبي هريرة. ورواه **المنذري** في الترهيب من الرياء: ج1، ص69، رقم 25.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب العلـم (6) باب ما جاء فيمن يطلب بعلمـه الدنيا، رقم 2655، من حديث ابن عمر.

(3) رواه **أبو داود** في كتاب العلم، باب طلب العلم لغير الله تعالى، رقم 3664، من حديث أبي هريرة.

«**أشــدُّ الناس عذابا يوم القيامة من يرى الناس فيه خيــرا ولا خير فيه**»[1]؛ وذلك في نحو المرائي، قال رســول الله ﷺ: «**إذا كان يــوم القيامة يؤتى برجل قرأ جميع القرآن، فيقال له ما عملت فيه؟ فيقول: قمت به آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى: كذبت، أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله تعالى: ألم أوسِّــع عليك؟ فماذا عملت فيما أتيتــك؟ فيقول: وصلت الرحم وتصدَّقــت، فيقول الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جواد، وقد قيل ذلك، ويؤتى بمن قتل في ســبيل الله، فيقول: قاتلت في الجهاد حتَّى قتلت، فيقول الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جريء مقدام فــارس**» قال الراوي: قال أبو هريرة: ثمَّ ضرب رســول الله ﷺ ركبتي، وقال: «**يا أبا هريرة أولئــك الثلاثة أوَّل خلق تســعر بهم النار يوم القيامة**»[2] ورواه مســلم مختصرا، وذكر أنَّ أبا هريرة بكى بكاء شــديدا ثمَّ قال: صدق رســول الله ﷺ: ﴿مَــن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾. وروي أنَّ أبا هريرة ذكر هذا الحديث عند معاوية فبكى حتَّى ظننَّا أنَّه هالك، فقال: صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَئِكَ الذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الَاخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

(1) رواه **السيوطي** في جمع الجوامع، ص3264.
(2) رواه **مسلم** في كتاب الإمارة، رقم 3527، من حديث أبي هريرة (م.ح).

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (17)﴾

جزاء من يؤمن بالقرآن والآخرة

وذكر من يريد بعمله الآخرة بقوله: ﴿**أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ**﴾ الهمزة داخلة على جملة معطوف عليها بالفاء، التقدير: اذكر من كان يريد الحياة الدنيا فاذكر من كان على بيّنة، أو يقال: من كان يريد الحياة الدنيا فيقال: من كان على بيّنة، وإذا قدَّرنا: «اذكر» فمعناه «أقول» في الذي بعد الفاء، أو أمن كان مستبصرا أفمن كان على بيّنة؛ أو الهمزة ممَّا بعد الفاء فالمعطوف عليه ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾ إلخ.

والهمزة للإنكار والفاء للتعقيب، أنكر أن يعقب من كان على بيّنة من لم يكن عليها، أو يقاربه فضلا عن أن يماثله.

والذي على بيّنة هو النبيء ﷺ، أو المؤمنون، أو كلاهما، أو مؤمنو أهل الكتاب ويأبى عنه [قوله:] ﴿أُوْلَئِكَ يُومِنُونَ بِهِ﴾ وعلى الأوَّل يكون الجمع في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ...﴾ تعظيما. والبيّنة: القرآن أو البرهان، والقرآن برهان.

[نحو] أو الحذف هنا مثله في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ﴾ [سورة فاطر: 8] ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ [سورة الزمر: 9] والتقدير: أفمن كان على بيّنة من ربّه... إلخ كمن يريد الحياة الدنيا، أو كمن ليس على بيّنة من ربّه... إلخ، فيعبَّر عنه بقولنا: كمن ليس كذلك.

أو على أنَّ «مَنْ» شـرطيَّة، فكمن بالفاء، و«مَنْ» مبتـدأ خبره مقدَّر، كما رأيت، ومن الغريب ترجيح بعض أن يقدِّر: أمـن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بيِّنة من ربِّه يعقبونهم أو يقربونهم **مع أنَّ هذه عبارة ينزَّه القرآن عنها،** وما مراده إلَّا الردُّ على الإمام أبـي حيَّان، ولو أنصف لهذا الإمام لكان أولى، وادَّعى بعض أنَّ التقدير: إذا لم يأتوا بعشر سور مثله فقل لهم: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾.

﴿**وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ**﴾ يتبعه شاهد هو جبريل يأتيه من الله، والهاء لـ«مَنْ»، أو الشـاهد القرآن، على أنَّ البيِّنة مطلق البرهان، أو علـى أنَّها القرآن يكون سمَّاه باسم الشاهد وباسم البَيِّنَة لاختلاف مفهوميهما، فإنَّ مفهوم البَيِّنَة البيان، ومفهوم «شَاهِد» الإخبار بالواقع، أو البَيِّنَة: الدليل العقلي.

ويجوز أن يكون «يَتْلُوهُ»: يقرأه فتكون الهاء للبيِّنة، وضمير المذكَّر للتأويل بالقرآن أو البرهان.

ويجوز أن يكون الشـاهد جبريل يتلوه أي البينـة أي القرآن أي يقرأه، أو الشـاهد: النبيء ﷺ يتلوه أي يقرأ القرآن المعبَّر عنه بالبيِّنة، وفيه أنَّ الكفار لا يعتدُّون بشهادته لنفسه.

أو البيِّنة: القرآن والشـاهد: الإنجيل أو عبد الله بن سلام كما قال الله ﷻ: ﴿وَشَهِدَ شَـاهِدٌ مِّنۢ بَنِي إِسْـرَآءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [سـورة الأحقاف: 10]، أو الشاهد: المعجزات وأفرد لأنَّها كلَّها دليل، وهاء «مِنْهُ» لله أو للرسـول على أنَّ الشاهد لسانه ﷺ، وفيه ما ذكر.

وروى الطبراني عن محمَّد بن الحنفيَّة وهـو ابن علي بن أبي طالب قال لأبيه: إنَّ الناس يزعمون أنَّك التالي الشاهد في قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾، فقال: وددت أنِّي هو، ولكنَّه لسان رسـول الله ﷺ، وهو ردٌّ لِمَا روي عن بعض أهل البيت عنه ﷺ: «**من كان على بيِّنة من ربِّه أنا ويتلوه شـاهد علي**» وإنَّ بعض

الشيعية وضعه عن بعض أهل البيت، ليستدلُّوا به على أنَّ الإمام عليًّا هو أهل للإمامة قبل الصدّيق، **ولا دليل لهم فيه.**

﴿**وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰٓ**﴾ عطف على ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ على أنَّ «مَنْ» اسم موصول، أو نكرة للتعظيم موصوفة، أو حال، ويتعيَّن الحال إن جعلت شرطيَّة، والهاء للبيِّنة بمعنى القرآن، أو للشاهد كذلك، والكتاب: التوراة تتلو الرَّسولَ ﷺ، أو تتلو القرآن أي تتبعه بالتصديق، أو تقرأه بمعنى أنَّه يُذكر فأسند إليها قراءته.

والحاصل أنَّ التوراة تصدِّقه، والجملة مبتدأ وخبر، و«كِتَابُ مُوسَى» معطوف على «شَاهِدٌ» و«مِن قَبْلِهِ» حَال من «كِتَابُ مُوسَى»، وقيل: مبتدأ وخبر غير متَّصل بما قبله، ويدلُّ للاتِّصال نصب «كِتَابُ» في قراءة عطفا على هاء «يَتْلُوهُ»، أو نُصبا بـ«اذكر» محذوفا. وذكر التوراة دون الإنجيل لاتِّفاق اليهود والنصارى عليها، فتقوم الحجَّة عليهم بخلاف الإنجيل فإنَّ اليهود جحدوه.

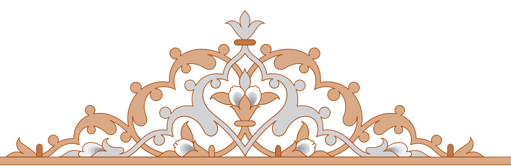
﴿**إِمَامًا**﴾ حال من ضمير الاستقرار، ومعناه متبوعا في الدين ﴿**وَرَحْمَةً**﴾ دِينِيَّة ودُنيَوِيَّة وأخرويَّة لأهل التوراة والإنجيل قبل نزول القرآن، وأمَّا بعده فالرحمة القرآن وما وافق القرآن، وإنَّما هو رحمة من حيث إنَّ القرآن لم ينسخه لا باستقلاله، نعم هما رحمة بعد نزوله أيضا، لأنَّهما يرشدان إلى الإيمان به، ولا شكَّ أنَّ ما لم يحرَّف ولم يخالف القرآن رحمة إلى يوم القيامة دينا ودنيا.

﴿**أُوْلَئِكَ يُومِنُونَ بِهِ**﴾ الإشارة إلى من كان على بيِّنة، والهاء للبيِّنة بمعنى القرآن، أو أحد معانيه السابقة، إلَّا أنَّ القرآن أولى لأنَّ هاء ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ تناسب القرآن، إذ لا يترجَّح هنا بأن يقال: ومن قبل محمَّد ﷺ كتاب موسى، ومن يؤمن بالقرآن فموعده الجنَّة، وقيل: الهاء لكتاب موسى عليه السلام لقربه، ولا يناسبه ما بعد، وقيل: لرسول الله ﷺ.

﴿**وَمَنْ يَّكْفُرْ بِهِ مِنَ الَاحْزَابِ**﴾ الجماعات المتحزِّبة أي المتجمِّعة على الكفر من أهل مكَّة وغيرهم، وقيل: الكفَّار مطلقا لتحزُّبهم على الكفر، وقيل: اليهود والنصارى، وقيل: قريش، وقيل: كفَّار بني أميَّة وبني آل المغيرة المخزومي وآل بني طلحة بن عبيد الله، **والتعميم إلى يوم القيامة أولى.** ﴿**فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**﴾ لا يتخلَّف عنها، وهو اسم مكان الوعد لَكِنَّ الوعد لم يعقد في النار بل أزليٌّ، فالمعنى: إنَّ النار مكان تعلُّق الوعد، ويجوز أن يكون مصدرا ميميًّا بمعنى الموعود به.

﴿**فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ**﴾ شكٍّ ﴿**مِّنْهُ**﴾ من القرآن أو من الموعود، والخطاب في «تَكُ» للنبيء ﷺ زيادة في تقوية يقينه، أو لمن يصلح للخطاب، وهكذا يجوز في كلِّ ما لا يتصوَّر منه ﷺ أن ينهى، ويبقى على ظاهره تأكيدا في جميع القرآن، مثل: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة يونس: 105] في وجه.

﴿**إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**﴾ ويجوز عود الهاءين للشاهد بمعانيه، ولكنَّك تعرف أنَّ الراجح عودها إلى بيِّنة بمعنى القرآن ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُومِنُونَ**﴾ لإهمالهم التدبُّر.



﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24)﴾

الكافرون والمؤمنون وجزاء أعمال كلٍّ منهم

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ من إثبات الشريك والولد، ونفي إنزال ما أنزل ونسبة ما لم ينزل إليه، ومن ذلك إثبات البحيرة ونحوها وتحريم ما أحلَّ، وتحليل ما حرَّم، وقول عبد الله بن سعيد بن أبي سرح الذي [كان] يكتب لرسول الله الوحي(1)، وقول اليهودي: ﴿مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 91].

(1) راجع الحادثة في ج4، ص358.

ويجـــوز أن يكون المـــراد لا أظلم منِّـــي إن كذبت علـــى الله تعالى بأنَّه أرســـلني وأنزل عليَّ كتابا، وأن يكون المراد لا أظلم منكم في نفي أن يكون القرآن من الله ﷻ.

﴿اوْلَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عرضا يترتَّب عليه العذاب، ويفتضحون به عند الخلائق، فإنَّه لا يســـعد أحد إلَّا نودي في الموقف: «سعد فلان سعادة لا شقاوة بعدها» نداء يسمعه أهل الموقف كلُّهم، وكذلك الشقي.

ومعنـــى عرضهم على الله عـــرض أعمالهـــم، وحكمة ذكرهـــم دون ذكر أعمالهم أنَّ عـــرض العامل بعمله أفظع عليه من عـــرض عمله مع غيبته، والله متنزِّه عن المكان وعالم بكلِّ شيء، وذلك مجاز في الإسناد أو كناية بأن شبَّه حالهم بحال الجنـــد المعروضيـــن على الســـلطان أو نائبـــه، لا ليعرفهم بل ليأمرهم، وذلك على حذف مضاف كما رأيت، وقيل: لا حاجة إلى تقديره لأنَّ عرضهم يتضمَّن عرض أعمالهم، وقيل: عرضهم مجـــاز عن إظهار أعمالهم، وقدَّر بعض مضافا أيضا في قوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي على ملائكة ربِّهم أو على أنبياء ربِّهم، واختار ذكر الربِّ ردًّا عليهم في دعوى أرباب من دونه ﷻ.

﴿وَيَقُولُ الَاشْـــهَادُ﴾ جمع شهيد كشريف وأشـــراف، أو شاهد كصاحب وأصحاب، وهذا مرجوح لضعف جمع فاعل علـــى أفعال، والأوَّل أولى على أنَّ شهيد بمعنى شاهد، لا بمعنى حاضر، لأنَّ المراد الشهادة لا الحضور كما يناسبه قوله: ﴿هَؤُلَآءِ الذِينَ...﴾ الآية.

لكن إن كان المراد بالأشهاد الجوارح فالحضور أنسب، إلَّا أنَّ القول منها بلســـان الحال مجاز، فنقول: ينطقها الله ﷻ، والمتبادر أنَّ الأَشْـــهَاد غيرهم، وهم الملائكة والأنبياء، قيل: والمؤمنون، وقيل: أهل الموقف، والعطف على «يُعْرَضُونَ». ﴿هَؤُلَآءِ الذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۖ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ هنا تمَّ كلام الأشـــهاد، أو عند قوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِم﴾ وقوله: ﴿أَلَا...﴾ من الله، قاله

قبل يوم القيامة، إخبارا بأنَّهم ملعونون مــن الله قبل يوم القيامة، وقيل: تمَّ في قوله: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَــذَابُ﴾ وأنَّه دعاء بمضاعفة العذاب **وليس بشــيء، والأوَّل أولى لأنَّه أشَــدُّ عليهم**، وهو الوارد في قولــه ﷺ: «**إنَّ الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس، فيقول: عبدي أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كــذا؟ فيقول: نعم، فيقــرِّره بذنوبه ويرى في نفســه أنَّــه هلك، فيقول الله** ﷻ: **قد سترتها عليك في الدنيا، وقد غفرتها لك اليوم**»[1] ثمَّ يعطى كتاب حسناته، أمَّا الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَآءِ الذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمُۥٓ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَــى الظَّالِمِينَ﴾، وعن ميمون بن مهــران[2]: إنَّ الرجل ليقرأ أو يصلِّي ويلعن نفسه في قراءته، يقول: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وهو ظالم، و«الظَّالِمِينَ» عامٌّ فيدخل الذين كذبوا على ربِّهم بالأولى، أو هم المراد فيكون من وضع الظاهر موضع المضمر.

﴿**الذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَــبِيلِ اللهِ**﴾ دين الإسلام، يُعرِضون عنه، أو يمنعون الناس عنه بالتكذيب والشُّــبَه، وإطلاق ســبيل الله على دينه تعالى في القرآن مجاز استعاريٌّ، وفي كلامنا حقيقة عرفيَّة عامَّة، وقد يقال بأنَّه فيه حقيقة عرفيَّة خاصَّة وذلك لتكرُّره فيه. ﴿**وَيَبْغُونَهَــا عِوَجًا**﴾ يطلبون له عوجا فحذف الجار قبل الهاء، أو يصفونها بالعوج، وإطلاق الطلب على الوصف إطلاق للســبب على المسبَّب، أو ينسبونها للعوج فحذفه قبل «عِوَجًا» والأخفش يقيس ذلك،

---

(1) رواه **البخاري** فــي كتاب المظالــم والغضب (3) بــاب قوله تعالــى: ﴿أَلَا لَعْنَــةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ رقم 2309. ورواه **مســلم** في كتاب التوبة، رقم 4972، مــع زيادة في آخره. من حديث ابن عمر.

(2) أبو أَيُّوب الجزري الرقي، تابعي فقيه من القضاة، روى عن عائشــة وأبي هريرة وابن عَبَّاس وابن عمرو ﭫ، وعنه ابنه عمــرو وحميد الطويل البناني وغيرهم قال العجلي والنســائي: جزري تابعي ثقــة، وقال أبو المليح: مــا رأيت رجلا أفضل من ميمون. توفي ســنة 117هـ (الموسوعة الفقهية الكويتية، ج10، ص334).

وعلى عدم قياسه يكون شاذًّا قياسا، فصيحا استعمالا. والعوج: الانحراف عن الحقّ. والسبيل يؤنَّث كما هنا ويذكَّر، وقد قيل: يبغون أهلها بأن يعوجوا بالرِّدة، وقيل: يطلبونها معوجَّة.

﴿**وَهُم بِالَاخِرَةِ هُمْ**﴾ تأكيد لِلأوَّل بلفظين ﴿**كَافِرُونَ**﴾ وقدَّم «بالآخرة» عَن «كَافِرُونَ» على طريق الاهتمام وللفاصلة لا للحصر، لأنَّهم كفروا بغير الآخرة أيضا، نعم تقديم «هُمْ» يلوِّح إلى اختصاصهم بالكفر بالآخرة، كما يقال: أنا سعيت في حاجتك، بمعنى: لا غيري، كأنَّ كفر غيرهم بها في جنب كفرهم ليس بكفر.

﴿**أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ**﴾ الله ﴿**فِي الَارْضِ**﴾ أن يعاقبهم في الدنيا، ولكن أخَّر عذابهم إلى الآخرة فإنَّه لا قوَّة لهم ولا مهرب عن أرضه لسعتها، ولو هربوا لم يجدوا غيرها، ولو وجدوا فكلُّ موجود ملك لله، ويجمع ذلك كلَّه أن تجعل الأرض عبارة عن الدنيا التي بمعنى الحياة، ﴿**وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنَ اَوْلِيَآءَ**﴾ يمنعونهم من العذاب في الدنيا، أو من العذاب الموعود لهم في الآخرة، أو أريد بالأولياء آلهتهم التي يدعونها أولياء، وعلى كلِّ حال تكون الآية بيانا لسقوط آلهتهم عن رتبة الولاية، إلَّا أنَّ ذلك على التفسير الثاني أظهر.

﴿**يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ**﴾ لمضاعفة كفرهم في نفسه، ولأنَّهم ضلُّوا وأضلُّوا، ولأنَّهم لا يشتغلون بسماع الحقّ، أخَّر عذابهم ليكون مع شدَّته دائما، وهذه المضاعفة هي نفس المماثلة في قوله تعالى: ﴿**فَلَا يُجْزَىا إِلَّا مِثْلَهَا**﴾ [سورة الأنعام: 160] فلا منافاة، وقيل: المضاعفة لكراهتهم الحقَّ أشدَّ كراهة، وافترائهم وكذبهم على ربِّهم، وصدِّهم عن سبيل الله، وبغيهم إيَّاهَا العوج، وكفرهم بالآخرة.

وزعم بعض أنَّ المضاعفة لحفظ الأصل الذي هو ما دون المضاعفة إذ لولا ذلك لم يبق عذاب، لأنَّهم يألفونه لطول الأبد، وهذا خطأ لأنَّ العذاب

الشديد لا يؤلف، وإنَّما يؤلف ما وضع من أوَّل الأمر على الإطاقة، وأيضا الله قادر على أن يبقيهم على التألُّم الأوَّل، ولكن جاء في الأثر: إنَّ عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنَّة لا يزالان يزدادان.

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ للحقِّ ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ يعقلون لإعراضهم هُم في الحقِّ كمن هو أصمُّ وأعمى، وكأنَّه استحال سمعهم وإبصارهم؛ أو الضمائر للآلهة، وكانت بصيغة ضمائر العقلاء مجاراة للكفَّار في نسبة ما للعاقل إليها، حتَّى اتَّخذوها آلهة، كما أنَّ مستحقَّ الأُلُوهِيَّة عالم، [قلت:] وهذا ضعيف لأنَّ السوق لذمِّ الكفرة وبيان استحقاق مضاعفة العذاب، وللزوم تفكيك الضمائر بعضها للكفرة وبعضها للآلهة.

[أصول الدين] وعدم الاستطاعة حقيقة في الآلهة مجاز في الكفرة، فإنَّهم مستطيعون استطاعة غير مؤثِّرة، والله ﷻ خلق في العبد قدرة واختيارا، وزعم أكثر المعتزلة أنَّ أفعال العباد واقعة بقدرة العبد وحدها استقلالا، وأقلُّهم أنَّها بقدرة العبد وقدرة الله ﷻ، والمجاز المذكور استعارة مفردة لا تمثيلية، وذلك أنَّهم يصعب عليهم السمع حتَّى كأنَّهم لا يطيقونه، وفي التمثيلية هنا تكلُّف.

﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ أضاعوها إلى النار، وأضاعوا منافعها إذ لم يستعملوا أعضاءهم فيما ينفع من الإيمان، وأضاعوا ما لهم في الجنَّة، وأضاعوا الفطرة التي فطروا عليها.

وهذا أولى من قول أبي حيَّان إنَّه على حذف مضاف، أي خسروا سعادة أنفسهم، وهو قول حسن لا بأس به، وقال: لأن أنفسهم باقية معذَّبة، أي فليسوا متلفين لها ومفنين، ويعني أنَّ الآية ليست على الإتلاف والإفناء، ولم ينصف من تعقبه بأنَّ الإبقاء في العذاب كلا إبقاء، لأنَّ قول هذا المتعقِّب إنَّ بقاءه كلا إبقاء يناسب الفناء المناسب لعدم التألُّم، وهو باطل، وأولى من أن يقال: خسران النفس إهلاكها.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من شــفاعة الآلهة في الدنيا لو كانت تشفع فيها لشــفعت لهم في الآخرة، أو الكلام على سبيل الفرض، إن كان البعث حقًّا شــفعت لنا آلهتنا، أو ضاع عنهم ما لهم في الدنيا من مال وجاه وأعــوان لم ينفعهم فــي الآخرة، أو لــم ينفعهم الكفر الــذي اختاروه عن الإسلام لأنفسهم.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الَاخِرَةِ هُمُ الَاخْسَــرُونَ﴾ لا بدَّ، أو لا مَنْع من أنَّهم في الآخرة هم الأخســـرون فإنَّهم... إلخ، خبر لا على تقدير «من»، وقيل: كذلك، إلَّا أنَّ «جَرَمَ» بمعنى القطع، جرمت الشيء: قطعته.

[نحو] وقيل: الخبر محذوف أي واقع، أو موجود، وعليه فاســمها مشبَّه بالمضاف لتعلُّق «من» المقدَّرة به، وبني مع ذلك أو أعرب ولم ينوَّن، كما لا ينوَّن المضاف لشــبهه به، أو «لَا» نفي لِمَا ظنُّوا. و«جَــرَمَ»: فعل ماض بمعنى حقَّ. و«أَنَّهُمْ...» فــي تأويل مصدر فاعله، أي ليس الأمــر كما تقولون، وحقَّ أخسريَّتهم في الآخرة، وهذا مذهب سيبويه.

وإذا لم يكن كلامٌ بعــد «لَا جَرَمَ» على هذا كانــت «لَا» زائدة للتأكيد، أو نفيا لضدِّ مــا بعدها، و«لَا» زائــدة، أو لنفي ما قبل، و«جَرَمَ» بمعنى كســب، و«أَنَّهُمْ» مفعول به له، والفاعل مســتتر عائد إلى ما قبل، أي كسب خسرانهم ذلك، وقيل: «لَا» نافية لمحــذوف، أي لا ينفعهم فعلهم، ونقل عن ســيبويه والخليل أنَّ «لَا جَرَمَ» كلمتان ركِّبتا وجعلتا بمعنى فعل ماض بمعنى حقَّ.

و«فِي الَاخِرَةِ» متعلِّق بـ«الَاخْسَــرُونَ» قدِّم للفاصلة، وقد يستدلُّ به على جواز تقديم معمول اسم التفضيل عليه غير «مِنْ» التفضيلية ومدخولها، إلَّا أنَّ هذا المعمول ظرف، وهم يتوسَّــعون في الظروف، وأمَّا «ال» فليست موصولة في اسم التفضيل، والمراد أنَّهم أكثر خســرانا فالزيادة في الكمِّ، أو أكثر شدَّة فالزيادة في الكيف.

﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدَّقوا بقلوبهم وألسنتهم ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿وَأَخْبَتُواْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمأنُّوا من تحقيق القلوب إلى صدق وعده ﷻ بالثواب على الأعمال، وإلى إكثار ذكره، أو ﴿أَخْبَتُوا﴾: خشعوا، بحيث يخافون أن لا تقبل أعمالهم، وكما يقال: أخبت له بمعنى خشع، يقال: أخبت إليه بمعنى خشع، فإنَّ الخشوع لا يخلو من معنى إلى، وأصل خبت: نزل في الخبت من الأرض أو أتاه، وهو المنخفض، فأطلق على الاطمئنان وعلى الخشوع استعارةً، تشبيها للمعقول بالمحسوس، ثمَّ صار حقيقة شَرعِيَّة فيهما، أو في معنى أناب.

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لكونهم نووا العمل الصالح والتقوى دائما، ما داموا أحياء بلا حدٍّ.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين، أي صفتهم الشبيهة بالمثل في الغرابة والعجب ﴿كَالَاعْمَىٰ وَالَاصَمِّ﴾ كمثل الأعمى والأصمِّ، قدّم ما للكافرين مراعاة لِمَا تقدَّم، ولأنَّ السياق لبيان حالهم، وقدّم الأعمى على الأصمِّ لكونه أظهر وأشهر في سوء الحال. ولَمَّا ذكر انسداد العين عقَّبه بذكر انسداد الأذن، وكذا ذكر انفتاح الأذن فعقَّبه بانفتاح العين ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ الكافرون كالأعمى وكالأصمِّ، والمؤمنون كالسميع وكالبصير، كلُّ فريق شبِّه باثنين فذلك أربع تشبيهات.

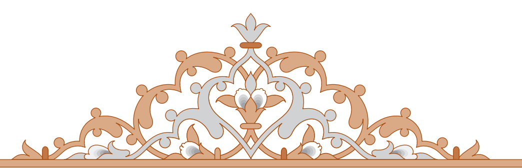
ويجوز أن يكون الأصمُّ هو الأعمى، اتَّصف بالصمم كما اتَّصف بالعمى، والبصير هو السميع اتَّصف بالبصر كما اتَّصف بالسمع، وفي هذا تنزيل تغاير الصفتين منزلة تغاير الذات، فساغ العطف، كأنَّه قيل: كمثل الإنسان الجامع بين العمى والصمم، والإنسان الجامع بين السمع والبصر، فالأصل: كالأعمى الأصمِّ والسميع البصير، بغير عطف الأصمِّ وبغير عطف البصير، فشبَّه كلَّ واحد من الفريقين بواحد جامع بين الصفتين، والأوَّل هو الأصل.

ولا يعتبر صمم الديانة وعماها وسمع الديانة وبصرها، بل المراد عمى العينين وصمم الأذنين وسمعهما، وبصر العينين، وإلَّا لَزِمَ تشبيه الشيء بنفسه، لأنَّ ما بالديانة هو في الفريقين، والوجهان متَّحدان معنى، لأنَّ معنى الأوَّل أنَّ الكافر أخذ من الأعمى عماه ومن الأصمِّ صممه، والمؤمن أخذ من السميع سمعه ومن البصير بصره، فلا يرجِّح الثاني بأنَّ الأعمى قد يهتدي بأذنيه، والأصمَّ قد يهتدي ببصره.

[بلاغة] وفي الآية لفٌّ ونشر لا مرتَّبان ولا معكوسان لإجمالهما في الفريقين كالإجمال في واو: ﴿قَالُواْ كُونُواْ هُودًا اَوْ نَصَارَىٰ﴾ [سورة البقرة: 135] ولو قال مثل الكافرين والمؤمنين لكان مرتَّبا، أو مثل المؤمنين والكافرين لكان معكوسا، وفي الآية الطباق مرَّتين وهو الجمع بين متقابلين بالتضادِّ، إذ جمع بين الأعمى والبصير، وجمع بين الأصمِّ والسميع، وفيها المقابلة وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثمَّ يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، وهو داخل في الطباق وأخصُّ منه، وفيها تشبيه مركَّب.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي الفريقان، وهذا إنكار للاستواء لا يستويان، والحال أنَّ أحدهما كالأعمى والأصمِّ والآخر كالسميع والبصير، فَلَكَ ردُّ ضمير «يَسْتَوِيَانِ» للأعمى والأصمِّ فهُما واحد، وللسميع والبصير فهما آخر. ﴿مَثَلاً﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل، ومعناه: تمثيلا، فهو اسم مصدر، أو معناه صفة، أو معناه حال.

﴿اَفَلَا تَذَّكَّرُونَ﴾ بضرب الأمثال وتصريف الآيات والدلائل بالتأمُّل في ذلك. الاستفهام للإنكار منسحب على المحذوف بعد الهمزة والمذكور بعدها، أي أتشكُّون في عدم الاستواء فلا تذَّكَّرون؟ وإن قدرنا: أتسمعون هذا فلا تذكَّرون؟ انسحب على المذكور بعدها بمعنى استبعاد التذكُّر منهم.



﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (25) أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ (27) قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ (28) وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (31)﴾

قصة نوح عليه السلام

[قصص] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ هو ابن لمك بن متوشلخ بن إدريس، وهو أوّل نبيء بعد إدريس ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ابن أربعين سنة، ودعا قومه تسعمائة سنة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان سِتِّينَ سنة، فعمره ألف وخمسون، أو ابن مائة أو ابن خمسين أو ابن مائتين وخمسين، ودعاهم تسعمائة وخمسين، وعاش بعدهم مائتين وخمسين، فعمره ألف وأربعمائة وخمسون، واسمه عبد الغفّار ونوح لقبه.

والتقدير: ووالله، بواو العطف وواو القسم حذفت واو القسم مع مجرورها، وبقيت العاطفة، ولا بأس باجتماع واوين ولا سيما مع حذف

إحداهما، لا كما قيل: إنَّه يتعيَّن القسم هنا بالباء أو التاء، كقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [سورة ص: 82] وقوله: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ﴾ [سورة الأنبياء: 57] لئلَّا يجتمع واوان ﴿**إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ**﴾ مخبر لكم بالعذاب إن لم تؤمنوا، وبالنجاة إن آمنتم ﴿**مُّبِينٌ**﴾ أي قائلا: إنِّي لكم نذير مبين، أو يقول، وهذا القول حال مقدَّرة، أو يقول استئناف بياني، أو إنِّي لكم... إلخ محكيٌّ بـ«أَرْسَلْنَا»، أو تفسير له لتضمُّنه معنى القول، لأنَّ معنى ﴿أَرْسَلْنَا...﴾: قل لهم إنِّي لكم نذير. و«لَكُمْ» متعلِّق بـ«نَذِيرٌ»، واللام للتقوية، وتعليقها هنا أولى لضعف نذير بالتقديم عليه وكونه معدولا به عن أُنذِرُ زيادة على ضعفه بالوصفيَّة.

و«مُبِينٌ» من أبان اللازم، أي ظاهر، أو المتعدِّي أي مبين وجهَ الخلاص، فحذف مفعوله، ويجوز أن يكون مفعوله هو قوله: ﴿**أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ**﴾ ويجوز أن تكون «أَنْ» مفسِّرة لـ«نَذِيرٌ»، أو لـ«مُبِينٌ»، لأنَّ فيهما معنى القول دون حروفه. و«لَا» ناهية، أو يقدَّر بالباء متعلِّقة بـ«نَذِيرٌ»؛ أو بـ«أَرْسَلْنَا» و«لَا» نافية، ومعنى النفي أنَّه لا يليق بكم إلَّا عبادة الله ﷻ.

﴿**إِنِّيَ أَخَافُ**﴾ لم يقل: أوقن، لإمكان إيمانهم بعدُ عنده ﴿**عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ اَلِيمٍ**﴾ بمعنى مؤلم بكسر اللام كسميع إذا كان بمعنى مسمع، وكنذير بمعنى منذِر، كاستعمال مصدر الثلاثي بمعنى الرباعي فما فوقه. وأسند الإيلام إلى اليوم إسنادا عقليًّا مجازيًّا، وإنَّما هو لله ﷻ، أو بمعنى مؤلَم بفتح اللام على طريق ذلك التجوُّز، لأنَّ المؤلَم بفتحها حقيقةً هم القوم لا اليوم مبالغة، أو بمعنى المتألِّم كأنَّه سرى إليه التوجُّع منهم لشدَّته، ولا داعي إلى جعله نعتا لعذاب مجرورا للجوار، لأنَّ إسناد التألُّم أو الإيلام أو الألم غير حقيق أيضا.

والمراد باليوم يوم القيامة، أو يوم في الدنيا وهو يوم الغرق، وهو أنسب بالتنكير، وعلى إرادة يوم القيامة فالتنكير للتعظيم، ثمَّ إنَّه لا يخفى أنَّ عقاب الدنيا بالاستئصال ونحوه مستلحق لعذاب الآخرة أيضا.

[لغة] ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ الأشراف الذين يملؤون العيون جمالا والقلوب جلالا والأكفَّ نوالا، أو بعض ذلك، أو يُظَنُّ الجلال والنوال فيهم بالرؤية، أو إنّهم مملوؤون بالآراء الصائبة والأحلام الراجحة، وملأ يلزم ويتعدَّى؛ أو قادرون، يقال: ملأ بكذا، أي قدر عليه؛ أو إنَّهم متمالئون أي متعاونون؛ أو الجماعة مطلقا.

﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ لست ملكا فكيف تختصُّ بالرسالة من الله، ووجوب الطاعة لك علينا؟. ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ في دينك ﴿إِلَّا الذِينَ هُمُوَ أَرَاذِلُنَا﴾ أخسَّاؤنا بنحو نسج وحجامة وعمل الحدادة، جمع أرذل بفتح الهمزة والذال، بمعنى أخسُّ.

[صرف] وأفعل يجمع على أفاعل، سواء كان اسم تفضيل أو اسما غير صفة، ولا يختصُّ بالاسم فلا تهم، قال الله تعالى: ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [سورة الأنعام: 123]، وقال ﷺ: «**أحاسنكم أخلاقا**»[1]؛ أو جمع أَرذُل بفتح الهمزة وضمِّ الذال جمع رَذْل بفتحها وإسكان الذال، فيكون أراذل على هذا جمع الجمع، وكذا إن قيل جمع أرذال وأرذل جمع رذل، حذفت ألف أرذال في الجمع لم تقلب ياء.

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ظاهر الرأي من إضافة النعت إلى المنعوت، على حذف مضافين، أي تظهر خسَّتهم بلا تأمّل، وذلك مبالغة في ذمِّهم، ونصب على الظرفيَّة، أي وقت حدوث الرأي البادئ، أو يقدَّر حدوث الرأي البادئ، لأنَّ حدوث مصدر ينصب على الظرفيَّة، وجاز نصبه على الظرفيَّة مع أنَّه اسم فاعل لا مصدر لأنَّه مضاف للمصدر، نحو: جئت بادي طلوع الشمس.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الأدب (40) باب حسن الخلق والسخاء... رقم 5688، من حديث عبد الله بن عمرو. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل، رقم 4285. و**الترمذي** في كتاب البر والصلة، رقم 1941، مع زيادة في آخره. من حديث جابر.



وبادي الرأي: ما لـم يتعمَّق فيه بالفكر وهو متعلِّق بـ«أَرَاذِل» فيما قيل، وفيه أَنَّهُ لم تحدث رذالتهم وقت حدوث بادي الرأي، بـل يتعلَّق بـ«اتَّبَعَكَ» أي اتَّبعوك في ظاهر رأيهم، أو في أوَّله بلا تأمُّل أو تعمُّق، أو اتَّبعوك في ظاهر رأيهم أو أوَّله وليسوا معك في الباطن والحقيقة؛ أو يتعلَّق بمحذوف حال من الكاف في «اتَّبَعَكَ»، أي اتَّبعك حال كونك مكشوف الرأي، أو بمحذوف نعتا لـ«بَشَـرًا» أو بـ«نَرَى»، كقولك: ما قام إلَّا زيد أحد فـي عمل ما قبل إلَّا فيما بعده، مع أنَّه غير مسـتثنى، أو بنسـبة الكلام، أي محكومـا عليهم في بادي الرأي أنَّهم أراذلنا.

[صرف] وياء «بَادِي» عن واو، لأنَّه اسـم فاعل «يبدو»؛ أو عن همزة من «البدء» كما قرأ أبو عمرو وعيسى الثقفي بالهمزة. والرأي: مصدر «رأى يرى» والمادَّة في المواضع الأربعة من معنى العلم، لا من معنى الإبصار، لأنَّ ذلك مِمَّا لا يدرك بالعين، نعم تدرك الوسـائط فباعتبارها يجـوز أن تكون بصريَّة والموضع الرابع قوله:

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ من نحو مال وملك وغيرهما تستحقُّون به التقـدُّم علينا، ووجـوب اتِّبَاعكم، وعن ابـن عَبَّاس: خَلْـق وخُلق، وعن بعضهم: كثرة مال وملك، وقيل: الفضل التفضُّل، لـم تتفضَّلوا علينا فنتَّبعك يا نوح في نبوءتك، ولو كنت مثلنا، ونتَّبعكم على ما أنتم عليه معشـر أتباعه، ولو كنتم أراذل.

وقيل: الخطاب للأتبـاع، والمعنى: لـم تتفضَّلوا علينا بشـيء، و«لَكُم» مفعول ثان و«فَضْلٍ» أوَّل، و«عَلَيْنَا» حال من «فَضْـلٍ»، أو متعلِّق بـ«لَكُمْ» أو بمتعلَّقه، وإن كان «نَرَى» بصريًّا فـ«فَضْل» مفعوله، و«لَكُمْ» متعلِّق بـ«نَرَى» أو بمحذوف حال من «فَضْلٍ»، أو بـ«فَضْـلٍ» لأنَّه ولو كان مصدرا لكن لا ينحلُّ إلى فعل وحرف مصدر، فساغ تقدُّم معموله ولا سيما أنَّه ظرف.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ في دعوى الرسالة التي يدَّعيها نوح لنفسه وتدَّعونها له، وإنَّما أدرجوا القوم المؤمنين معه في الخطاب بـ«لَكُمْ» و«نَظُنُّكُمْ» لأنَّه ومن آمن به كواحد لاتِّحاد دعواهم، وتمسُّكهم بها كتمسُّك واحد وما يترتَّب عليها هم مشتركون فيه.

والمراد في الآية: إنَّك لا تثبت لك النبوءة لأنَّك بشر مثلنا، ولا مزيَّة تخصُّك بالنبوءة من مال وجاه، ولو كان كانت النبوءة لكنَّا أحقَّ بها، لأنَّا ذوو مال وجاه وأتباع شرفاء. والخطاب تغليب على الغيبة، وقيل: الخطاب لهم دون نوح عليه السلام، وعبَّروا بالظنِّ تجوُّزا عن أن ينسبهم نوح وأتباعه إلى المجازفة، ومجاراة على طريق الإنصاف، كما لم يصرِّحوا أوَّلاً بالتكذيب بل عرَّضوا، احتجُّوا بثلاث شبه: بـ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ وردَّها بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمُۥٓ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وبـ ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ...﴾ وردَّها بقوله: ﴿لَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ وبـ ﴿مَا نَرَىٰ لَكُمْ...﴾ وردَّها بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي...﴾ وردَّهنَّ إجمالا بقوله:

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَآيْتُمُۥٓ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أخبروني إن كنت على بيِّنة من ربِّي، والاستعلاء مجاز كأنَّه قيل: متمكِّن على بيِّنة كالتمكُّن على فرس، أو «عَلَى» بمعنى مع، والبيِّنة: البرهان والحجَّة في أنَّه رسول من الله.

﴿وَءَاتَانِي رَحْمَةً﴾ نبوءة، فيما روي عن ابن عَبَّاس، وقيل: الرحمة البيِّنة، بمعنى أنَّ البرهان بيِّنة ونعمة عظيمة، وقيل: البيِّنة دليل العقل. ﴿مِّنْ عِندِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمُ﴾ أي البيِّنة وهي غير الرحمة، فإنَّ الرحمة: النبوءة، والبيِّنة: الحجَّة على ثبوتها، وهذا أولى من جعلهما معا بمعنى البرهان.

وإفراد الضمير باعتبار أنَّ المراد واحد ولو اختلف المفهوم، لأنَّ الأصل في العطف التغاير، وأولى من تقدير: على بيِّنة من ربِّي فعميت عليكم، لأنَّ الأصل عدم الحذف، وأولى من ردِّ الضمير إلى «رَحْمَةً» لأنَّ النبوءة تثبت

بالبرهان، فنسبة الخفاء إليها أولى من نسبته إلى النبوءة المعبَّر عنها بالرحمة، فإنَّ معنى ﴿عَمِيَتْ﴾: خفيت مجازا، لأنَّ العمى حقيقة فيمن له العين، وذلك استعارة مفردة، شبَّه الخفاء بالعمى؛ أو مركَّبة، شبَّه عدم الاهتداء بالحجَّة لخفائها بسلوك مفازة لا تعرف طرقها، ولا يخالف هذا ظاهر الآية؛ أو مجاز مرسل، لأنَّ الخفاء لازم للعمى.

﴿**أَنُلْزِمُكُمُوهَا**﴾ أنجعلها لاصقة بكم، ونجعلكم مهتدين بالإجبار عليها، لا قدرة لنا على ذلك، ولم يأمرنا الله تعالى بذلك. ﴿**وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾ نافرون عنها مبغضون لها، بحيث لا تلتفتون إليها ولا تتأمَّلون فيها، وحاصل المعنى: أَنُجْبِرُكم على قبولها، أي قبول البيِّنة، أو قبول الرحمة أو كلتيهما أو على فهمها، وأنتم لا تختارونه، لا يتصور الإلزام مع ذلك، والصادر عنه الحثُّ الشديد على الإيمان دون الإكراه.

والمراد بالإلزام ما مرَّ لا القتل، لأنَّه لم يؤمر به، ولا يقدر عليه، ولا الإيجاب لأنَّ الإيجاب واقع، و«هَا» في الموضعين للبيِّنة أو للرحمة، وتقدَّم قول: إنَّهما شيء واحد، وقيل: «هَا» للنبوءة على حذف مضاف، أي قبول نبوءتي وهو غير ظاهر.

وضمير التكلُّم لنوح ومن آمن به، أو لنوح إعظاما لمقام النبوءة، أو له ولملائكة الوحي كأنَّهم خاطبوا معه، وهم جبريل وإسرافيل، أو لنوح وجبريل.

﴿**وَيَاقَوْمِ**﴾ ناداهم لطفا بهم واستجلابا وتليينا لشدَّتهم، وكذا أعاد النداء بعد لذلك، وللإشارة إلى أنَّ ما بعد النداء علَّة مستقلَّة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع من الطرد ﴿**لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ أي على التبليغ للرسالة، لأنَّه معلوم من المقام وإن لم يجر له ذكر، ودلَّ عليه ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ...﴾ أو الضمير عائد إلى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ...﴾ وقيل: الضمير للإنذار، وقيل: للدعاء إلى التوحيد، والأمر بالعبادة وحدها هو الأصل

المقصود من التبليغ وإرسال الرسل. ﴿مَالاً﴾ تأجرونني به بعد إيمانكم فيكون أجرا لي، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿إِنَ اَجْرِيَ﴾ للتبليغ، أو الإنذار، أو الدعاء إلى التوحيد، أو للطاعة مطلقا، فيدخل ما ذكر بالأولى. ﴿إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ وهو الجنَّة، وفي التعبير بالأجر تلويح بأنَّ المال لا يفي بأجرتي ولو الدنيا كلُّها وأكثر، وإنَّما يفي بها أجر الله لي بالجنَّة، وقد سألوه طرد الأراذل وهم المؤمنون الفقراء وليسوا أراذل، فنؤمن بك نحن ونجالسك، كما قال قريش لرسول الله ﷺ، فقال ما ذكره الله عنه بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّهُم مُّلَاقُواْ رَبِّهِمْ﴾ فيخاصمونني على طردهم فلا أجد حجَّة، وإنَّهم يلاقونه بالفوز للإيمان فكيف أطردهم عَمَّا به يفوزون وبه أمرهم الله ﷻ، وهذا المراد للمقام، وإلَّا فكلُّ أحد يلقى ربَّه بالموت، وقيل: المعنى لا أطردهم لأنَّهم مصدِّقون في الدنيا بالله تعالى، عالمون أنَّهم ملاقوه، وهو خلاف الظاهر لاحتياجه إلى التأويل بـ: اعتقدوا أنَّهم ملاقوا ربِّهم.

وقيل: المعنى يلاقون الله فيجازيهم إن صحَّ إيمانهم كما ظهر منهم، أو يطردهم إن كان إيمانهم الظاهر غير محقَّق في قلوبهم، وهذا غير متبادر وهو مبنيٌّ على تفسير ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بالإيمان بلا تأمُّل وتعمُّق، أو بالإيمان منافقة ولا يأباه ترتُّب غضب الله تعالى، لأنَّه يبنى في الكلام على حسب ما يظهر له.

[نحو] واسم الفاعل في الموضعين للاستقبال ومع ذلك أضيف، لأنَّ الأصل أن يضاف لمفعوله كما قال أبو حيَّان، ألا ترى أنَّ عمله للإلحاق بالمضارع لا بذاته؟ وألا ترى أنَّه كثيرا ما يرد غير عامل مع وجود شرط العمل؟.

﴿وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ قَدْرَ المؤمنين وعقاب طردهم، فإنَّهم أولياء الله وخير منكم، أو تجهلون لقاء ربِّكم بإنكار البعث وهم يؤمنون بالبعث، ويأملون الثواب الجزيل الدائم، أو تجهلون في التماس طردهم أو

في تســميتهم أراذل وهم غير أراذل، فإنَّ أتباع الرسل في أوَّل أمرهم الفقراء، ومن ليس مقدَّما لعدم خوف من زوال جاه ورياسة لعدمهما، وعدم حسد، لأنَّ الأكبر لا ينافســه المتَّضع، بل يؤمنون توفيقا من الله إلى حبِّ الحقِّ واختياره. وقد يؤمن الإنسان ليرتفع من خمول ثمَّ يخلص لله.

والجهل يطلق على السفه بقول أو فعل وعلى عدم العلم، فيجوز أن يكون المعنى: تسفهون عليهم كما قال الشاعر [عمرو بن كلثوم في معلَّقته]:

ألا لا يجهلــن أحــد علينــا فنجهل فــوق جهــل الجاهلينا

﴿**وَيَاقَوْمِ مَــنْ يَنْصُرُنِي**﴾ يخلِّصني بنصره ﴿**مِــنَ اللهِ**﴾ من عذاب الله ﴿**إِن طَرَدتُّهُــمُ**﴾ وهم مؤمنــون، لا ناصر لي مــن عذابه وهو واقــع لا محالة إن طردتهم، والاستفهام إنكار.

﴿**أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ**﴾ أي فَأَلَا تذَّكرون، أو أتغفلون فلا تذَّكرون، أو أتستمرُّون على جهلكم فلا تذَّكَّــرون، أو أتأمرونني بطردهم فــلا تذَّكَّرون أنَّ ذلك خطأ وقبيح، وأنَّ توقيف الإيمان على طردهم سفه، وتوقيفه عليه ولو كان غير نص في القرآن لكن مفهوم من طلب الطرد وهم مترئِّسون.

﴿**وَلَآ أَقُــولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِــنُ اللهِ**﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُــمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ كالمال. وخزائن الله: أمواله، لم أدعكم إلى اتِّباعي لكثرة أموالي أستتبعكم بها لي، فإنِّي لســت بذي مال، بل أدعوكــم لأنَّ الله أمرني بدعائكــم. والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ والمعنى: لا أسألكم مالا ولا حاجة لي به، لأنِّي أريد الله، لا لكون خزائن الله عندي لأنَّها ليست عندي.

وسمِّيت الأموال خزائن لأنَّها تخزن، أو الخزائن: مقدورات الله تعالى أي لا أقول لكم حين أدَّعي النبوءة عندي مقدورات الله تعالى أفعل منها ما أشاء، أو الخزائن: الغيوب والوجهان ضعيفان.

وعلى الأخير سـمِّيت الغيوب خزائن، لأنَّها تخفى كما يخفى المخزون، فيكون راجعا إلى قوله: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الذِينَ هُمُۥٓ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ على أنَّ المعنى اتَّبعوك في الظاهـر لا في الحقيقة، فأجابهم بأنَّ الغيب لله وما يدريكم بذلك، فلعلَّهم في الغيب كالظاهر.

وكذا قولـه: ﴿**وَلَآ أَعْلَـمُ الْغَيْبَ**﴾ عطف علـى «لَا أَقُـولُ»، أو على مدخوله، وعليه فأعـاد لا دفعا لتوهُّم أنَّ المنفـيَّ المجموع، وعليه فيكون المعنى: ولا أقـول أعلم الغيب، وهـذا والجملة قبله متـواردان ردًّا على قولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الذِينَ هُمُۥٓ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بمعنى اتَّبعوك في بادي الرأي لا فـي الحقيقة، فقال: «لَا أَعْلَمُ الْغَيْـبَ» لعلَّهم في الغيب كالظاهر. والغيب: ما لم يوحَ به ولم يقم عليه دليل. وإذا كان العطف على «لَا أَقُولُ» فإنَّما لم يقل: ولا أقول أعلم الغيب مبالغة في أنَّه لا يمكن لأحد أن يدَّعي القول بالغيب.

﴿**وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، لم أدَّع أنِّي ملك فضلا عن أن تردُّوا علـيَّ بقولكم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَـرًا مِّثْلَنَا﴾ فإنِّي مقرٌّ بأنِّي بشر مثلكم.

﴿**وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِيـنَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُـمْ**﴾ تحقرهم ﴿**لَنْ يُّوتِيَهُـمُ اللهُ خَيْرًا**﴾ توهَّموا أنَّ الله لا يعطي الأراذل خيرا في الآخـرة على تقدير صحَّة البعث في دعوى نوح، فقـال: إنَّ رذالتهم بالفقـر ونحو الحجامـة لا تمنعهم من خير الآخرة مع إيمانهم وعملهم الصالح.

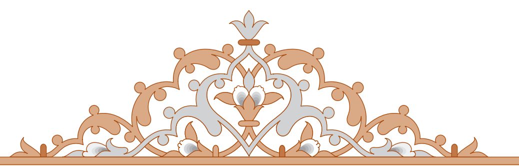
أو أرادوا لن يؤتيهـم الله خيرا في الدنيا، فأجابهم بِـأَنَّ الأصل أن تراعوا خير الآخرة، وأنـا أطمع لهـم فيـه، أو فيهما، والـلام ليسـت لام التبليغ والخطاب، وإلَّا قال: لن يؤتيكم بالكاف، بل بمعنى في، أي في شأن الذين، ويضعف ما قيل: للتعليل، أي لا أقول لكم لأجل الذين... إلخ.

[لغة] و«تَزْدَرِي»: تفتَعِل مـن زرى، أبدلت التـاء دالا لتوافق الزاي في الجهر. وإسـنادُ الازدراء إلى العين مجازٌ عقليٌّ للمبالغـة، وحقيقته لقلوبهم، والعين واسـطة، بالغت قلوبهم في الاحتقار حتَّى اتَّصل بعيونهم على طريقة معناه في القلب، أو إسناده إليها لظهور أثره فيها بالإعراض عنهم بها، وبلحظ السوء، وللتنبيه على أنَّهم استحقروهم لبادي المعاينة لرثَّة حالهم، وفي ذلك تجهيل لهم وتحميق، لأنَّهم استرذلوهم بمجرَّد فقرهم ورثَّة حالهم.

﴿**اللَّهُ أَعْلَـمُ بِمَا فِي أَنفُسِـهِم**﴾ من الخصال الحميـدة والإخلاص في الإيمان، هذا جزم من نوح بذلك لهم بإخبار الله ﷻ، أو بما في أنفسهم من خير أو شـرٍّ مجاراة للكفار وإرخاء للعنان، أو ليس احتقاركم ينقص عنهم ثـواب الله أو يبطله إن كانـوا على حـقٍّ، وإنَّما الحكم للـذي يعلم ما في نفوسهم لا لي، وإذا كان الكلام على سـبيل الإنصاف في الكلام لم يناف جزمه بأنَّهم أولياء الله إن داموا على ما هم عليه، أو جزمه بذلك لوحي من الله الرحمن الرحيم.

﴿**إِنِّـيَ إِذًا**﴾ إذ قلت على فـرض صدور القول ومضيـه، أو إذا قلت: لن يؤتيهم الله خيرا إذ جزمت لهم بعـدم الخير جهالة للغيب، أو مناقضة لِمَا عند الله من الخير لهم، **وهذا لقربه وتبادره أولى.**

أو إذا قلت: عندي خزائـن الله، أو أعلم الغيب، أو لن يؤتيهم الله خيرا، أو ذلك كلَّه ـ والأعين والأنفس جُمِعَا قلَّةً استُعمِلَا في الكثرة ومعناهما النفوس والعيـون ـ ﴿**لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ لهـم، أو من الظالمين لأنفسـهم وفيه تعريض بأنَّهم ظالمون بذلك القول.



﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿32﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿33﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿34﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿35﴾﴾

استعجال قوم نوح العذاب ويأسه منهم

﴿**قَالُواْ يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا**﴾ عطف مفصَّل على مجمل، فإنَّ الجدال يقبل القلَّة والكثرة، وبيَّنه بقوله: ﴿فَأَكْثَرْتَ﴾، أو المراد: جادلت فزدت جدالا كثيرا، أو زدت جدالا يكون هو وما سبق كثيرا، أو معنى «جَادَلْتَ»: شرعت في الجدال، أو أردت الجدال فأكثرت.

[لغة] والجدال: الخصام، وإكثاره: الإتيان بأفراد كثيرة منه، أو بأنواع منه، أو بتكرير فرد أو نوع أو كليهما، أو كلُّ ذلك؛ وأصله مِن جدلت الحبل أحكمت فتله، والمخاصم يحكم أمر خصامه قدر طاقته، وأيضا يريد فتل خصمه عَمَّا أراد؛ أو من الجدالة وهي الأرض، كأنَّه يريد صرعه على الأرض.

﴿**فَاتِنَا**﴾ عطف على «أَكْثَرْتَ» عطف طلب على إخبار، أو على محذوف، أي: اترك الجدال فأتنا ﴿**بِمَا تَعِدُنَآ**﴾ في قولك: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ اَلِيمٍ﴾ حملوا خوفه على اليقين منه، أي بما تعدناه من العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح: 29] بالتعدية إلى اثنين، وهذا أولى من تقدير: تعدنا به، لعدم اتحاد متعلَّق

الموصول والعائـد، ولو قلنا بجواز حذف المعلـوم مطلقا، وأولى من جعلها موصولة حرفيَّـة، أي بوعدنا، لأنَّ هذا المصدر يحتـاج إلى التأويل بمفعول، وقد أغنى عن ذلك جعل «مَا» اسما موصولا فلا تهم.

﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك، أو في دعوى الرسالة، أو فيما جئت به، أو في العذاب، وأمَّا جدالك فلا نكترث به.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَاتِيكُم بِهِ﴾ بما أعدكم ﴿اللهُ﴾ عاجلا أو آجلا، وليس بمقدور لي ﴿إِن شَآءَ﴾ وهذا قبل أن يعلم أنَّ الله ﷻ قد شاء، والخوف في كلامه على هذا عدم اليقين بوقوعه في الدنيا، وإلَّا فقد شـاء، ولا يصحُّ الشـكُّ، أو «إِنْ» بمعنى قد، أو المعنى: إن شـاء أن يعجِّله ﴿وَمَآ أَنتُـم بِمُعْجِزِينَ﴾ بغالبين الله بالهروب عن عذابه، أو بغالبين إيَّاهُ بدفع عذابه عنكم.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيَ﴾ اجتهادي فيما يصلحكم، والنصح: قصد فعل أو قول فيه صلاح، أو إعلام بالسوء ليتَّقى، وبالخير ليُقتفى. ﴿إِنَ اَرَدتُّ أَنَ اَنصَحَ لَكُمُ﴾ أغنى عن جوابه قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُـمْ نُصْحِيَ﴾ ومجموع ذلك دليل جواب قوله: ﴿إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُّغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُـمْ﴾ كأنَّه قيل: إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، فالشرط الثاني قيد لمجموع الشرط الأوَّل وجوابه، ومجموع الأول وجوابه جواب في المعنى للثاني.

ولو قال الرجل لعبده: أنت حرٌّ إن دخلت الدار إن كلَّمت زيدا فدخل ثمَّ كلَّم لم يعتق لعدم شرط كون الدخول مستلزما للعتق، لكن إن كلَّم ثمَّ دخل يعتق فلا يحكم بتحقُّق الجزاء إلَّا عند وجود الشرط الأوَّل بعد وجود الشرط الثاني، ففي قولك: إن كلَّمت زيدا إن دخلت الدار فأنت حرٌّ، إن كلَّمه ثمَّ دخل الدار لا يعتق.

والشـرط المؤخَّر في اللفظ مقـدَّم في الوجود مثل: أنـت حرٌّ إن دخلت الدار، فإنَّ المفهوم كون العتق من لوازم الدخول، لكن إن ذكر بعده شرط آخر مثل إن كلَّمت زيـدا، كان المعنى أنَّ تعلُّق ذلك الجزاء بذلك الشـرط الأوَّل

مشروط بحصول الشـرط الثاني، والشـرط مقدَّم على المشروط في الدخول فإن حصل الشـرط الثاني وهو تكلُّم زيد تعلَّق ذلك الجزاء وهو العتق بذلك الشـرط الأوَّل، وهو دخول الدار، وإذا لم يوجد الشرط الثاني لم يتعلَّق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأوَّل.

[قلت:] والذي عندي أنَّه يقع الحكم إن اجتمع الشرطان ولو بلا ترتيب، إلَّا إن شـرط المتكلِّم الترتيب كما إذا كان الشرط الثاني بالفاء، وكذلك ثلاثة شـروط فأكثر، وذلك إذا كان الشـرط الثاني وما بعده بلا عطـف، وإن كان بـ«أو» فالجواب لأحدهما بلا تعيين، وإن كان بالواو وثمَّ أو غيرها فالجواب لهما إلَّا إن كان بالفاء فالجواب للثاني.

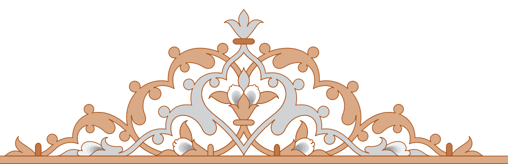
[أصول الدين] والله ﷻ يريـد الكفـر والإيمـان كمـا قال: ﴿يُرِيـدُ أَنْ يُّغْوِيَكُـمْ﴾ إذ لا يكون شـيء إلَّا بقضائـه وقدرته وعلمـه وخلقـه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيعاقبكم على كفركم.

﴿أَمْ يَقُولُـونَ﴾ أي: بل أيقول كُفَّار مكَّـة، أو بل يقولـون ﴿افْتَرَاهُ﴾ أي القرآن، وذلك أنَّ قصَّة نوح كلَّها معترضة تقوية في شـأن رسـول الله ﷺ مع قومه، كما اعترض بين قصَّة إبراهيم في سـورة العنكبوت بقوله ﷻ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [سورة العنكبوت: 18]، ثمَّ رجع الكلام بعد هذا إلى نوح إذ قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ وهـذا الرجوع يقوِّي أنَّ ضمير «افْتَرَى» لنوح، والهاء لِمَا يقوله من الوحي، فيجوز أن يعود ضمير «افْتَرَى» لنوح والهاء لِمَا يقوله من الوحي.

﴿قُـلِ اِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ كسـبي، أي جزاء كسـبي، أو إجرامي جزائي، تسمية للمسبَّب اللازم وهو الجزاء باسم المسبّب الملزوم، وكسبه هو افتراؤه حاشـاه أن يفتري، والمعنى: إن تحقَّق أنِّي افتريته فيما مضى فعليَّ لا عليكم إجرامي.

﴿**وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ**﴾ مِمَّا تجرمونه أي تكسـبونه، أو من إجرامكم أي من جزاء إجرامكم، أو جزاء ما تجرمون، أو مِمَّا ترتِّبونه على أنفسكم من العذاب، والمعنى: وإن كنت صادقا فكذَّبتموني فأنا بريء مِمَّا تجرمون عليَّ.

والمراد بإجرام نـوح جميع ذنوبه، فيدخل فيهـا أوَّلاً وبالذات ما ادَّعوه عليه من الكذب على الله بالرسالة على زعمهم حاشـاه، وبإجرامهم ذنوبهم كلُّها، فيدخل فيها أوَّلاً وبالذات ذنبهم بتكذيب نوح، ويجوز أن يراد بإجرام نوح ذنبه بالكذب على الله بالرسـالة على زعمهم، حاشاه، وبإجرامهم ذنبهم بتكذيب نوح.



﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿36﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿37﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿38﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿39﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿40﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿41﴾﴾

نهي نوح عن الاغتمام بهلاك قومه وأمره بصنع السفينة

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُومِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَ ـ امَنَ﴾ الإيمان يتعدَّد من المؤمن فإنَّه كلَّما فعل أو قال ما يسمَّى إيمانا صحَّ الإخبار عنه أنَّه آمن، فالمعنى أنَّه لا يصدر إيمان من قومك إلَّا مِمَّن آمن قبل، فإنَّه يتجدَّد إيمانه وأمَّا غيرهم فلا يصدر منه إيمان ولا يتكرَّر، وأمَّا قولك: إلَّا من استمرَّ أو استعدَّ على الإيمان ففيه تأويل لـ ﴿ءَامَنَ﴾ فقط دون قوله: ﴿لَنْ يُومِنَ﴾. وأمَّا جعل الاستثناء منقطعا فلا وجه له البتَّة، لأنَّ معناه: لكن من آمن، فيبقى «يُؤْمِنُ» بلا فاعل، وقد صحَّ أيضا أنَّ التفريغ لا يقع في الانقطاع، والداعي إلى التأويل أنَّ من آمن لا يتصوَّر إيمانه لاستحالة تحصيل الحاصل.



﴿فَـلَا تَبْتَئِسْ﴾ لا تكن بئيسـا متغيِّرا بالبأس، نهاه عـن أن يتأثَّر بالبأس وأمره بإلغاء البأس وعدم الاكتـراث، وكأنَّه قيل: لا تحزن بلقاء هذا المكروه. ﴿بِمَا كَانُـواْ يَفْعَلُونَ﴾ مـن التكذيب والإيذاء، أو من فعلهـم وهو التكذيب والإيذاء، والمضارع للاستمرار، أو بمعنى الماضي.

[قصص] كانوا يضربونه حتَّى يشرف على الموت أو يظنُّوه ميِّتا فيلقوه في المزبلة، ويضربونه كذلك ويلفُّونه في ثـوب ويلقونه في بيته، ويرجع يدعوهم. وبلغوا من الكفر به أنَّهم يوصون بالكفر به، حتَّى إنَّه يجيء الرجل بولده فيقول: لا يغرنَّك هذا، فيقول: يا أبي ناولني العصا، فيضربه بها فيشجُّه، وقد يسيل دمه وقد يضربه ضربة يظهر بها عظم رأسه، كان ذلك فقال: «يا ربِّ قد ترى ما فعلوا فاهدهم، أو صبِّرني إلى أن تحكم فيهم» فأوحى الله تعالى إليه: لم يبق في صلبٍ ولا رحمٍ من يؤمن بك، وأقنطه من إيمان من لم يؤمن، وسلَّاه وبشَّره بقوله:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْـكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ والأمر للوجوب على ظاهره، وحفظه لنفسـه ولمن آمن معه واجب، [قلـت:] والقول بأنَّه للإباحة وأنَّه لو شـاء لم يصنعه فينجِّيه الله ومن معه بما شـاء، كجمود الماء لهم في حقِّهـم خَاصَّةً، وكجعل سفينة من ماء تجري في الماء **خطأ لا دليل له** مع أنَّ الله تعالى قادر على ذلك، كما جعل الماء دائرا كالحائط بمن آمن ولم يحضر هناك.

والفلك: السـفينة، و«بِأَعْيُنِنَا»: بحفظنا عن إفساد قومه لها، وعن الزيغ في صنعها، أو بمرأًى منَّا، أي بعلم مِنَّا، لا تخفى عنِّي مصالحك، وذلك أنَّ العين يكون بها الحفظ والعلم، تعالى الله عن صفات الخلق.

[بلاغة] وعرَّف الفلك مـع أنَّه لم يتعارف عندهم لكونـه معروفا عنده بالوحي قبل، كما يناسـبه قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ فـ«ال» للعهد، فَإِنَّهُ أوحى إليه أنَّه ينجِّيه في شـيء يصنعه بتعليم الله يسـمِّيه فلكا، وقيل: للجنس إذ لم يعرف الفلك ولم يأمره الله إلَّا بصنعه هكذا، وعلَّمه كيف يصنع.

[قصص] وروى الطبري والحاكم عن عائشــة عنه ﷺ أنَّ نوحا غرس في آخر عمره شــجرة بأمر الله تعالى، فذهبت كلَّ مذهب وقطعها، وجعل يعملها سفينة، فقالوا له أتعمل ســفينة في أرض بعيدة عن الماء؟ وهذا نصٌّ في أنَّهم عرفوا السفينة وأنَّها كانت قبل نوح، وقيل: أوَّل من عملها نوح ولا تعرف قبله وعليه الجمهور، والله أعلم بذلك.

[بلاغة] والباء للملابســة وجمع العين مبالغة فــي الحفظ والعلم، لأنَّ الحفظ والمراقبة بالأعْيُن أبلغ منها بعين أو عينين، وفي ذلك استعارة تمثيليَّة، شبَّه حفظه أو مراقبته بحراسة الحراس بإمعان العيون، وكمال التيقُّظ في حفظ الشــيء المحروس، بحيث لا يظفر قاصده ولا يرام طالبه، لكمال بأســه عن تناوله لكثرة حرَّاســه، وقيل: «أَعْيُنِنَا»: ملائكتنا، تشبيها لهم بالأعين للحفظ، وقيل: «أَعْيُنِنَا»: رقبائنا على سبيل التجريد بِأَن جرَّد من نفسه تعالى رقباء، وهو أن ينزع من الشيء آخر مثله في صفته مبالغة في كمالها.

[قلت:] والصواب منع ذلك في حقِّ الله ســبحانه لخروجه عن الأدب في حقِّه، وإنَّما يقتصر على مــا ورد مِمَّا يجوز ظاهره كعيــن الله ويده وليس هذا الوارد تجريدا، وأمَّا التجريد في حقِّه تعالى بقوله:

أفــات بنو مروان ظلمــا دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حَكَمٌ عَدْلٌ[1]

فلعدم فقه قائله، أو يقدَّر مضاف أي بدل حكمٍ عدلٍ.

﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك كيف تصنعهــا. عن ابن عَبَّاس: لم يــدر كيف يصنعها فأوحى الله ﷻ إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائــر أي صدره. أي اصنعه حال كونك أو كونه محفوظا عن إفســاده أو عــن الزيغ في عملــه، وعدم إتمامه، ومتعلِّما عمله من وحينا.

---

(1) ذكر بعض المفسرين وأهل اللغة هذا البيت ولم ينســبوه. منهم: **الآلوسي** في روح المعاني، ج21، ص167. بلفظ: «أراقت». **وابن جنّي** في الخصائص بلفظ: «أفاءت»، ج2، ص475.

[قصص] أتـاه جبريل بعد مقاسـاة الشـدائد منهم، يضربونه حتَّى يسـكن ويلفُّونه، ويأتيهم من الغد يعظهم، ويقول: «اللهمَّ اهدهم فإنَّهم لا يعلمون»، وكانوا يوصون أولادهم قرنا بعد قـرن على مخالفته، فكلُّ قرن أشـدُّ عليه من قرن قبله، حتَّى شـكَا إلى الله: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ...﴾ [سورة نوح: الآيات 5 ـ 26]، فقال له: «إنَّ ربَّكَ يأمرك أن تصنع الفلك» فقال: «كيف أصنع ولسـت نجَّارا؟» فقال: «إنَّ ربَّك يأمـرك أن تصنع الفلك بأعيننـا»، فأخذ القدوم وجعل ينجر ولا يخطئ، ويروى أنَّ جبريل يعلِّمه، ويروى أنَّ الملائكة تعلِّمه، وأنَّ الله ﷻ أمره أن يطليها بالقار ولا قار في الأرض ففجَّر الله تعالى له عين القار.

﴿**وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُواْ**﴾ من قومك، ظلموا أنفسـهم والمؤمنين وإيَّاك بالإشراك وغيره من المعاصي، لا تدْعُني باستدفاع العذاب عنهم، بَالغ في إثبات إهلاكهم، كأنَّه قيل: لو دعوتنـي مع منزلتك عندي في دفع العذاب لم أستجب لك، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...﴾ [سورة المدثر: 11] وإلَّا فهو داع عليهم بالهلاك.

وقد يقال علم الله منه رقَّة البشـر تدركه حين يدركهم الهلاك فيدعو لهم، فنهاه عن الدعاء لهم، كقوله تعالـى: ﴿وَلَا تَاخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [سـورة النور: 2] نهاه الله تعالـى أن يخاطبه فيهم ولو لم يتكلَّم له فـي إنجائهم بعد إقناطه من إيمانهم، كما تقول: دعوني أضربه، ولو لم يمنعوك قبل.

وقيل: المراد بـ«الذِينَ ظَلَمُوا»: زوجه واعلة وابنه كنعان، يدعو لهما فنهاه الله ﷻ، وهو قول ضعيف، ووجهه أنَّ الدعاء لهما أنسـب به مع تبادر أنَّه دعا لهما، أو أراد أن يدعو من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي...﴾.

[أصول الدين] وظاهـر هذا جواز أن يقال: خاطبـت الله، فإنَّه إذا قيل: لا تضرب عمرا، جاز أن يقال: ضربـت عمرا، وكذا في كلِّ نهي، ونصَّ أصحابنا على عدم جوازه.

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ اسم مفعول للاستقبال أو للحال، تنزيلا للمستقبل منزلة الحاضر المشاهد أو الماضي لتحقُّق الوقوع، أو مضيه بمعنى: محكوم عليهم في الأزل، أو في اللوح بالإغراق، ولا يردُّ قضائي، وروي أنَّه لَمَّا قال له: «اصْنَعِ الْفُلْكَ...» إلخ قال: يا ربِّ أين الماء؟ فقال: إنِّي قادر.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ عطف على محذوف مستأنف، أي يتهيَّأ للصنع بعد أمرنا له به ويصنع، وهو لحكاية الحال الماضية كأنَّها حاضرة يشاهدها سيِّدنا محمد ﷺ وغيره، أو بمعنى الماضي، أو المضارع بمعنى الماضي، اشتغل بعمل السفينة وكفَّ عن دعاء قومه بأمر الله له عن الكفِّ، وجعل يغرس الشجر ويقطع الخشب ويجفِّفه ويهيِّء القار.

[قصص] ومرَّ رواية أنَّه تعالى أنبع له عين قار وكلَّ ما تحتاج إليه السفينة من المسامير وآلات العمل، أمره الله أن يعملها من الساج فغرسه ولم يقطعه حتَّى طال أربعمائة ذراع، والذراع إلى المنكب في أربعين سنة وهذا تخليط، وقيل: من الشمشاد من جبل لبنان، قيل في التوراة: من الصنوبر، ويقال: بقي مائة سنة يغرس ويقطع وييبِّس، ويقال: عمل معه في صنعها سام وحام ويافث بالنحت، وأجراء على النحت وأمره الله ﷻ أن يطليها بالقار خارجا وداخلا، ويجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين، وإلى السماء ثلاثين، بذراع أهل ذلك الزمان مقدار قامتنا بعدهم إلى المنكب، أو طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون، وإلى السماء ثلاثون، أو طولها ألف ذراع ومائتا ذراع، وعرضها سبعمائة ذراع، وروي: ستُّمائة.

[قصص] وجعلها ثلاثة بطون وفيها كُوًى وبابها من عرضها، في البطن الأوَّل الوحوش والسباع والهوام، وفي الأوسط الدوابُّ والأنعام، وفي الأعلى الناس، وما يحتاجون إليه من طعام وغيره، وقيل: الطبقة الأولى للناس، والعليا للطير، وكثر روث الدواب فأوحى الله ﷻ إليه أن اغمز ذنب الفيل

فوقع منه خنزير وخنزيرة، ومسح على الخنزير فخرج الفأر فأقبلت تأكل الروث، وأفسدت الفأر وأقبلت تأكل الحبال، فأوحى إليه الله ﷻ أن اضرب بين عينني الأسد فخرج من منخره سِنَّوْر وسِنَّوْرة، وبين الأسد والسِّنَّوْر شبه، وكذا بين الفيل والخنزير، فأقبل السِّنَّوْر والسِّنَّوْرة على الفأر، [قلت:] وهذا على أنَّ في سفينة نوح حبالا وكأنَّها تجري بالقلوع والريح، وعلى أنَّها مفتوحة إلى السماء، وقيل: مغلقة، وقيل: تجري بين ماء السماء وماء الأرض مغلقة، وأنَّ الخنزير والفأر والسِّنَّوْر غير موجودة قبل، والأكثرون على خلاف ذلك، ولعلَّها وجدت ولم يحملها لأمر الله، أو لعدم إتيانها بأمره تعالى.

[قصص] وروي أنَّه قال عليه السلام: يا رَبِّ كيف يجتمع الهرُّ والحمام والأسد والبقرة والعناق والذئب؟ فقال الله ﷻ: أنا ألقيت بينهنَّ العداوة وأنا ألقي بينهنَّ الصلح، فقال: يا ربِّي الأسد والفيل؟ فألقى عليهما الحمَّى فلا يضرَّان، وأمكنه حملهما.

[قصص] ويقال: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلا يصف السفينة لنا، فانطلق بهم إلى كثيب، فأخذ كفًّا فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب بن حام، فضرب بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو حيٌّ ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له: أهكذا هلكت؟ قال: لا متُّ شابًّا ولكن ظننت الساعة قامت فشبت، فقال: حدِّثنا عن سفينة نوح، فقال: طولها ألف ومائتا ذراع وعرضها ستُّمائة، وفيها طبقة للدوابِّ والوحوش، وطبقة للناس، وطبقة للطير، ثمَّ قال له: عد بإذن الله ترابا فعاد، وأين طبقة الجنِّ؟ ولعلَّهم إن كانوا فيها مسلمين يكونوا حيث شاءوا.

وشرع في خدمتها وكانت في سنتين، وعن كعب: في ثلاثين سنة، وقيل: في أربعمائة سنة، وقيل: في أربعين سنة، وقيل: ستِّين، وقيل: مائة، وقيل: ثلاث سنين، وكانوا يفسدونها فأمره الله أن يتَّخذ لها كلبا، وعملها في هند أو

الكوفة أو الشام أو الجزيرة [قلت:] **روايات لا ندري صحَّتها ولا دليل فيها ولا حديث، وكــذا روايات طولها وعرضها وارتفاعها، وشــجرها وموضع صنعها ومدَّة المكث فيه ولا يقبل العقل كثيرا منها ونؤمن بنفسها.**

كانوا يمرُّون عليه ويقولون: صرت نجَّارا بعد النبوءة! كما قال ﷻ: ﴿**وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ**﴾ استهزؤوا بـه فيقولون متضاحكين: أنجارة بعد نبوءة؟ وما هذا البناء الذي تبني؟ لا عاقبة له محمودة إلَّا التعب، فإن كان للماء كما تزعم أنَّ الغرق يأتينا فكيف تبنيه في موضع بعيد من الماء، وفي وقت عزَّة الماء عزَّة شـديدة، كما قيل: سخروا منه واستجهلوه لذلك، ولقوله إذا قالوا له: ما لهذه الألواح؟ إنِّي أبني بها بيتا يمشي على الماء.

[لغة] والملأ: الجماعـة مطلقا، أو فـي ترفُّع، ولعلَّ غيرهـم كالفرد لا يجترئ على ذلك. و«كُلَّ» ظرف لإضافتـه إلى مصدر مؤوَّل من «مَا» والفعل، نائب عن الزمان متعلِّق بـ«سَخِرُوا».

﴿**قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا**﴾ في الدنيا ﴿**فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ**﴾ فيها عند الغرق، وفي الآخرة عند الحرق ﴿**كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾ إذا أخذكم الغرق وأحرقتم فيه وفي الآخرة، ونجونا دنيا وأخرى، وهذا مستأنف جواب، كأنَّه قيل: فماذا يقول لهم إذا سخروا منه؟ فقال الله ﷻ: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا...﴾ وهذا أولى من تعليق «كُلَّمَا» بـ«قَالَ» وجعل «سَـخِرُوا» نعتا لـ«مَلأٌ» أو حالا أو بـدل من «مَرَّ...» اشـتماليًّا، لأنَّه لم يجر ذكر لـ«سـخر الملأ منه»، إلَّا في قولـه: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ﴾. وسخرياء نوح منهم: اسـتجهالهم في كفرهم، أو فرحه بهلاكهم، إذا هلكوا، وإلَّا فالأنبياء لا يسخرون، وقد قيل: إطلاق السخرياء على الاستجهال إطلاق للمسبَّب على السبب، أو ذلك للمشاكلة وأجاز بعض أن يكون حقيقة وأنَّها تجوز في حقِّ النبيء انتقاما من فاعلها، قلت: لا يصحُّ هذا، والأنبياء لا تنتقم، اللهمَّ إلَّا إن أمره الله ﷻ بها انتقاما لدينه.

ويجوز أن يراد بسـخرياته: الجزاء على سـخريائهم، قيل: أو الشمت بهم عند الغـرق. وَلَمَّا يئس من إيمانهـم لم يبـال بإغضابهم وكفَّ عن دعائهم إلى الإيمان.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَّاتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

[نحو] «مَنْ» اسـتفهاميَّة عَلَّقَتْ «تَعْلَمُ» عن نَصْـبِ مفردين إلى نصب محلِّ جملة قامت مقامهما وهي «مَن يَأْتِيـهِ» من المبتدأ والخبر، أو علَّقت «تَعْلَمُ» ـ بمعنى تعرف ـ عن نصب مفـرد إلى نصب جملة قائمة مقامه؛ أو «مَنْ» موصولة و«تَعْلَمُ» بمعنى تعـرف، وإن كان على بابه قدِّر مفعول ثان بعـد «مُقِيمٌ» معلـوم من المقـام، أي: فسـوف تعلمون مـن يأتيه عذاب يخزيه... إلخ مَن هو.

[بلاغة] والعذاب المخزي: الغرق، والمقيم: عذاب الآخرة، و﴿يَحِلُّ﴾: ينزل، أو يحلُّ حلول أجل الدَّين، على الاستعارة المكنية، شبَّه عذاب الآخرة المؤجَّل بالدَّين المؤجَّل، ورمـز لذلك بلازم الدَّين المؤجَّـل وهو الحلول، ويجوز حمل ذلك على الاسـتعارة التمثيليَّة، ويجـوز حمل العذاب المخزي على العموم، والمقيم على عـذاب الآخرة، تخصيصا بعـد تعميم، وتهويلا لعذاب الآخرة لشدَّته ودوامه، وهذا أبلغ، والأوَّل أظهر لتبادر أنَّ الأصل عدم العموم ثمَّ التخصيـص. [قلت:] وفي الآيـة ردٌّ عليهم إذ زعموا أنَّ اشـتغاله بغرس الأشجار وقطعها وعمل السفينة عذاب عظيم بلا فائدة، بأنَّ العذاب هو عذابهم المخزي والمقيم لا ما هو فيه، فإنَّه لنجاة الدنيا وفوز الآخرة الدائم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ اَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ غاية لـ«يَصْنَعُ» وما بينهما، مسـتأنف معترض؛ أو حال من ضمير «يَصْنَعُ».

[نحو] سـواء جعلنـا «حَتَّى» جـارَّة لـ«إِذَا» وهـو مرجـوح، أو ابتدائيَّة والابتدائيَّـة لا تخلو من غاية كالجـارَّة فإنَّ بين المفرَّع والمفـرَّع عليه تناهيا

برجوع المفرَّع إلى المفــرَّع عليه. ما زال يصنع حتَّى حصــل أوَّل أمر الله، أو قرب جدًّا وهو نزول العذاب، وهو واحد الأمور، وقولنا بركوب الســفينة أو بالفوران أو بالإرســال للســحاب أو للملائكة فيكون واحــدا لأوامر، وليس المراد: حتَّى إذا حصل وقــت أمرنا، لأنَّ الوقت فــي «إِذَا» والظرف لا يكون ظرفا للظرف، اللهمَّ إلَّا باعتبار وســط الظرف فيعتبر بـ«إِذَا» ظرف أوسع لِمَا بعد المجيء وقبله، كالساعة من يوم الجمعة.

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾: نبع بالماء، كارتفاع الماء في القدر بالغليان.

[قصص] والتنُّور: تنُّور الخبز من حجارة، كان لنوح من أمِّنا حواء، فاض الماء من حيث تكون النار خلافًا للمعتاد، وهو في موضع مســجد الكوفة، أو على يمين داخل الكوفة مِمَّا يلي باب كندة، أو فــي الهند، أو بعين وردة من أرض الشام، أو في أرض الجزيرة جزيرة ابن عمر، وتلك الأقوال للجمهور.

وقيل: **المراد الجنس، فالماء فار من التنانير أين هي لا من تنُّور واحد**، ولا ينافي فوران الماء من التنُّور قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الَارْضَ عُيُونًا﴾ [ســورة القمر: 12] لأنَّ الحاصل أنَّه خرج من الأرض ومن التنُّــور، إلَّا أنَّه منه بالفوران ومن الأرض بالتفجير. أو التنُّــور: وجه الأرض، أو أعلى موضع منها، على خلاف المعتاد أيضا من نبع الماء من أسفل لا من أعلى.

وعن الإمام عليٍّ أنَّ المراد تنوير الصبح، ويحســن أن يكون «فَارَ التَّنُّورُ» كناية عن اشتداد الهول، كقوله ﷺ: «**الآن حمي الوطيس**»(1) أي اشتدَّ الحرب.

[صرف] وزنه [التنُّور] تفعول من النور، أصله: تنوْوْر، قلبت الواو الأولى همزة، فقلبــت ألفا وحذفت تخفيفا، وشــدّد النون تعويضــا عمَّا حذف، قاله ثعلب، وفيه أنَّه إذا أريد التخفيف فكان الحذف لأجله فلم ثقِّل بالشــدِّ؟ وقال

(1) رواه **أحمد**، رقم:1776، ج3، ص298. من حديث العباس.

الفارسي: فعُّول، وليس في كلام العرب نون قبل راءٍ، وأمَّا «نرجس» فمعرَّب، فتنُّور معرَّب، وقيل: اتَّفقت فيه لغة العرب والعجم كالصابون.

وكان فوران التنُّور علامة على دخول السفينة وركوبها، وأعلمته امرأته به، وكان ذلك في ثالث عشر من أبيب[1] في شدَّة القيظ. وإسناد الفور إلى التنُّور مجاز عقليٌّ، والفائر الماء منه وفيه.

﴿**قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا**﴾ في السفينة ﴿**مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ**﴾ شيئين متقارنين، فذلك ذكر وأنثى من كلِّ نوع، إلَّا ما يتولَّد من التراب أو العفونة أو الماء.

[قصص] ويقال: حمل العقرب والحيَّة على أن لا تضرَّا إذا خرجتا من يَذكُر نوحا، ويقال: لم يدخل فيها ما لا يتوالد وما يضرُّ، ولم يدخل البغل والبغلة لأنَّهما يتوالدان من الحمار والفرس، وأدخل الأسد والنمر، وعلى أنَّ الهرَّ والخنزير والفأر لم يكن قبل فالمراد من كلِّ زوجين موجودين.

﴿**اثْنَيْنِ**﴾ فردين ذكر وأنثى مفعول به لـ«احْمِلْ»، فالزوجان الحقيقة، والاثنان شخصان منها، وقيل: يشمل الزوجان ما كان من نبات كالعجوة واللوز والرمَّان الحلو والحامض، و«كُلّ» هنا للأفراد النوعيَّة.

[قصص] قال: يَا رَبِّ كيف أحمل فيها ذلك؟ فحشر إليه الحيوانات، فجعلت تلحس قدميه تطلب حملها، فقال: أمرت باثنين فقط من كلِّ زوجين، فيضرب يديه فتقع يمناه على الذكر ويسراه على الأنثى، وأوَّل ما حمل الذرة، وآخر ما حمل الحمار، قيل: وتعاصت العنز فجذبها بذنبها فصار أبدا منفرجا عن مخرجيها، وتساهلت النعجة فمسح على ذنبها فستر فرجها.

[قصص] وتعاصى الحمار بتعلُّق إبليس بذنبه ونوح يجذبه من أذنه، فقال: ادخل وإن كان الشيطان معك، فدخل إبليس، وقيل: قال للحمار: اُدخل

(1) شهر أبيب هو الشهر الحادي عشر من السنة القبطية، وهو شهر يوليو.

يا شـــيطان، فدخل معه إبليس، فقال: اخرج يا عدو الله ما أدخلك؟ فقال: ألم تقل ولو كان معك شيطان، لا بدَّ من أن تحملني، وقيل: طلب الدخول معتذرا بأنَّه مـــن المنظريـــن فأدخله على عمـــد، ولا نعتقـــد أنَّ نوحا قـــال للحمار: يا شيطان، وقيل: كان على ظهر السفينة، واعترض بأنَّه ناريٌّ هوائيٌّ لا يفرُّ من الغرق، ويجاب بأنَّ ما كان كذلك ليس يقبل طـــول المكث في الماء، وأيضا هذا ماء العذاب ليس كسائر المياه، وأيضا الماء ينافي النار فإن كان الجنُّ في زمان الغرق كلُّهم مشركين غرقوا، وإلَّا نجا مؤمنهم إلى السفينة، ولو لم يرهم نوح، وعلى فرض كفرهم كلِّهم ففي فخذي إبليس ذكـــر وفرج يتوالد منهما، **وقيل: لم يعـــمَّ الطوفان الأرض** فإنَّما حمل من كلِّ زوجيـــن اثنين لئلَّا يحتاج الأمر في ذلك إلى ما في الأرض البعيدة(1).

﴿**وَأَهْلَكَ**﴾ بنيـــك المؤمنين وأزواجهـــم المؤمنات، وزوجـــك المؤمنة وغرقت الكافرة ﴿**إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**﴾ منهم بالإهلاك وهم زوجه واعلة، أو والعة بالعين المهملة فيهما وهي الكافرة، وابنه منها كنعان الكافر، وحمل أولاده ســـاما أبا العرب وحامـــا أبا الســـودان، ويافثا أبا التـــرك، وأزواجهم. والاستثناء متَّصل إن أريد بالأهل الأهل إيمانا، ومنقطع إن أريد قرابته.

﴿**وَمَنَ ـ امَنَ**﴾ عطف على «أَهْلَكَ» وهم ســـائر من آمن ﴿**وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾.

[قصص] جملتهم تسعة وسبعون وتمَّ بنوح ثمانون، أربعون رجلا وأربعون امرأة وصحِّح هـــذا، فنزلوا في موضع بعـــد الخروج وبنوا فيه مدينة فســـمِّيت ثمانين، وهي أوَّل مدينة بعد الطوفان لأنَّها لثمانين، وذلك في أرض الموصل، قرب الجبل، وعن ابن عَبَّاس: بنى كلٌّ منهم بيتا فسمِّيت سوق الثمانين، وظاهر الرواية هذه كلُّهم رجال وأمَّا نســـاؤهم فزيادهم على ذلـــك، وروي: لَمَّا ضاقت

(1) وهو ما يرجِّحه اليوم علماء الآثار.

بهم أرض الموصل تحوَّلوا إلــى بابل فبنوها، وعن كعــب الأحبار رَحِمَهُ اللَّهُ: أوَّل حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حرَّان ودمشق ثمَّ بابل؛ وقيل: جملتهم ستَّة رجال وستُّ نسوة نساؤهم، فهم اثنا عشر، والمشهور الأوَّل تسعة وسبعون زوجه المسلمة وبنوه الثلاثة ونســاؤهم، واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم؛ وقيل: زوجه المسلمة وأبناؤه الثلاثة وكنائنه الثلاث، وقيل: خمسة رجال وخمس نسوة وقيل: عشرة رجال وعشر نسوة وقيل: ثمان وسبعون[1].

﴿وَقَالَ﴾ الله لنوح ومن معه، أو قال نوح لمن معه، ويدلُّ له: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولــو كان الضمير لله عَزَّ وَجَلَّ لقيل: إنَّــه لغفور رحيم. ﴿ارْكَبُــواْ فِيهَا﴾ تغليبا للذكور العقلاء على غيرهم بأن وجَّه الخطاب إلى الــكلِّ، لأنَّ الكلَّ في معرض الركوب وعند السفينة، أو الخطاب لنوح والمؤمنين من الله، أو للمؤمنين من نوح.

وَلَمَّا ركبوا أدخلوا الحيوانــات، وقد لا تدخل الحيوانــات في الخطاب بـ«ارْكَبُوا» بل شــأنها في قوله: ﴿احْمِلْ فِيهَا﴾ فحملها قبل ركوبهم أو بعده. وتعدَّى «ارْكَبُوا» بـ«في» لأنَّه في معنى: كونوا أو ادخلوا.

[بلاغة] والركوب: العلوُّ على الشيء وغلبته فيتعدَّى بنفسه، كقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ [سورة النحل: 8] ولَمَّا أريد المحليَّة والمكانيَّة تعدَّى بـ«في» استعارة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ﴾ [ســورة العنكبوت: 65] وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ [سورة الكهف: 71] فإنَّهم في داخل البطن الأعلى، أو في الوسط، وليسوا على أعلاها، كما يكون الراكب على أعلى الدَّابَّة، شبِّهوا براكب الدَّابَّة.

(1) ينبغي العدول عن هذه التفاصيل الجزئيَّة ومســتتبعاتها، لأنَّ ذلك مِمَّــا يلهي ويبعد المرء عن الاعتبار والموعظة، وهو الهــدف والغاية من ذكر الله ذلك وإفادتنا به ﴿لَقَــدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الاَلْبَابِ﴾ (سورة يوسف: 111) وربَّما يُؤَدِّي ذلك إلى الرجم بالغيب، وللشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ العذر في ذلك فقد جارى الأقدمين فيما يذكرونه. وقال أيضا فيما سيأتي في آية 44 من السورة ص416: إنَّما أنقل ذلك ترويحا وتخفيفا على القارئ والمستمع، فله قصده رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقيل: استعارة مكنيَّة، وقيل: الركوب العلوُّ على شيء يتحرَّك حقيقة مطلقا، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾.

[قصص] ركبوا في السفينة وركبوا في يوم الجمعة العاشر من رجب، وطافت بالبيت أسبوعا، وسارت مائة وخمسين يوما، واستقرَّت على الجوديِّ شهرا، وخرجوا يوم عاشوراء، وليس في الدنيا سواهم وسوى ما معهم وسوى قوم مؤمنين لم يغرقوا، لَمَّا كان الطوفان أحاط بهم الماء كالجدران ولم يدر بهم نوح حتَّى خرج من السفينة، ويقال: أمره الله بحمل جسد آدم فحمله معترضا بين الرجال والنساء بوصيَّة منه عليه السلام، والماء دخل الحرم ورفع البيت أو هدِّم، وقيل: خبِّئ الحجر في أبي قبيس واستشكل الرفع والخبء، وعن مجاهد: لم يدخل الماء الحرم فلا رفع ولا خبء. ويقال: طافت الأرض كلَّها ولم تدخل الحرم وطافت به أسبوعا. ويقال: نجا عوج لأنَّه حمل خشب الساج من الشام إلى نوح عليه السلام وهو كافر، وصل الماء إلى حجرته.

﴿**بِسْمِ اللهِ**﴾ متعلِّق بحال محذوفة مقارنة وصاحبها واو «ارْكَبُوا»، أي مصاحبين لاسم الله وقت إرسائها ووقت إجرائها كما قال: ﴿**مُجْرَيٰهَا وَمُرْسَاهَآ**﴾ مصدران ميميَّان منصوبان على الظرفيَّة متعلِّقان بمصاحبين، أي إرساءها وإجراءها، كقولك: جئت طلوع الشمس، وأمَّا أن يكونا ظرفين ميميَّين زمانيَّين أو مكانيَّين فلا؛ لأنَّ عاملها ليس من معناهما، كقولك: رميت فرمى زيد. أو «بِسْمِ اللهِ» متعلِّق بقائلين حالا محذوفة، أي اركبوا فيها قائلين بسم الله لإرسائها وإجرائها، فهما أيضا مصدران نابا عن الزمان متعلِّقان بقائلين، أو قائلين: بسم الله نستجلب النجاة والخير وقت إجرائها وإرسائها.

ويجوز أن يكون صاحب الحال هاء من «فِيهَا» فيقدَّر: اركبوا فيها كائنا باسم الله إجراؤها وإرساؤها، فيكون «مُجْرَاهَا» و«مُرْسَاهَا» فاعلا لكائنا، أو باسم، أو «بِاسْمِ» خبر لـ«مُجْرَاهَا». والجملة مستأنفة أو حال من هاء في

فيها، والحال مقدَّرة، لأنَّ إجراءها وإرسـاءها لم يكن عنـد الركوب بل بعد الاستقرار فيها.

وروي أنَّـه إذا أراد أن تجري قال: «باسـم الله»، وإذا أراد أن ترسـوَ قال: «باسم الله». ﴿**إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ قاله نوح للمؤمنين معه، إذ نجَّاهم الله من الغرق مع فرطاتهـم لكثرة مغفرته ورحمته وحكمته، لا لاسـتحقاقهم النجاة بإيمانهم، إذ لا واجب على الله، أو لا تخافوا الغـرق لأنَّ الله غفور رحيم، أو اركبوا فيها لأنَّ الله غفور رحيم، ولولا غفرانه ورحمته لم تركبوا فتغرقوا.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿42﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿43﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿44﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿45﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿46﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿47﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿48﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿49﴾﴾

انتهاء الطوفان ونجاة نوح ومن معه

﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ**﴾ حال، حذف عامله وصاحبه، أي فركبوا وهي تجري بهم، وهي حال مقدَّرة، وشُهِرَ أنَّ الجملة لا تكون حالا مقدَّرة، وإنَّما قلت: مقدَّرة، لأنَّها وقت إيقاع الركوب قارَّة. ﴿**فِي مَوْجٍ**﴾ متعلِّق بـ«تَجْرِي»، وهي مياه مضطربة مترافعة، كلُّ موجة كالجبل كما قال: ﴿**كَالْجِبَالِ**﴾ نعت «مَوْجٍ»، ولا يثبت ما قيل: إنَّ الماء طبق ما بين السماء والأرض وجرت في وسطه،

وعلى تقدير صحَّته الله قادر أن يكـــون الموج داخل الماء، وأن يجريها فيه، أو ذلك قبل التطبق.

[قصص] والمشـــهور أن الماء علا على كلِّ جبل أربعيـــن ذراعا، وقيل: خمسة عشـــر ذراعا، وروي أنَّ الله ﷻ أرســـل الماء أربعين يوما وليلة، نصف الماء من الأرض ونصف من الســـماء، ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّـمَآءِ بِمَـآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الاَرْضَ عُيُونًا﴾ [سورة القمر: 11ـ12].

[قصص] وروي أنَّ امـــرأة أحبَّت صبيًّا لهـــا حبًّا شـــديدا فارتفعت به إلى الجبل، فما زال يرتفع فترتفع هي حتَّى بلغ الماء أعلـــى الجبل، فلمَّا بلغ الماء رقبتها رفعته بيديهـــا فأغرقهما الماء، فلو رحم الله أحـــدا منهم لرحمها وصبيَّها، وهذا ينافي ما شـــهر أنَّ الله أعقم أرحام نســـائهم أربعين عاما ليغرقوا على أبلغ العقل كافرين، ولعلَّه لم يصحَّ هذا، أو لم يصحَّ شأن الصبي، أو خصَّت بالولادة.

وألغز بعضهم في السفينة:

ومكسحة تجري ومكفوفة ترى ... وفي بطنها حمل على ظهرها يعلو
فإن عطشت عاشت وعاش جنينها ... وإن شربت ماتت وفارقها الحمل

أي إن دخلها الماء غرقت ومات من فيها.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ اِبْنَهُ﴾ قبل أن ينقطع الطريق إلى الفلك، أو مطلقا لقدرة الله أن يحمله على المـــاء إليها، والأوَّل أولـــى؛ وقيل: وهذا قبـــل الركوب فيها. ﴿وَكَانَ فِي مَعْـزِلٍ﴾ وهو ابنه كنعان ابن امرأته الخائنـــة في دينه، وقيل: ربيبه سمَّاه ابنا، وهو ضعيف.

[صرف] و«مَعْزِل»: اسم مكان ميميٌّ، أي في موضع عزل عن السفينة، وذلك حقيقة، وقيل: في موضع عزل عن دين نوح، وذلك الموضع هو دين الكفر، ســـمَّاه موضعا مجازا، أو هو مصدر ميميٌّ، أي فـــي عزل عن دين

نوح، وقيل: كان في موضع عزل لم يتناولــه الخطاب بـ«ارْكَبُوا»، على أنَّه لم يكن عند أبيه وإخوته وقومه، وكان ينافق بإظهار الإســلام فظنَّه مؤمنا، وإلَّا فإنَّه لا يحبُّ نجاته.

ومعنى: «لم يتناوله الخطاب» أنَّه لا يسمعه، وقيل: كان يجانب الكفار ولا يكون معهم ليظنَّ أبــوه أنَّه مؤمن، أو طمع أن لا يدخل في إجمال من ســبق عليه القول، وقد يمكن أن يناديه لغلبة الشــفقة على الولــد وحبِّه، بحيث لا يملك نفســه، أو ظنَّ أنَّه يســلم حين رأى الغرق والهــول، أو معنى ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾: أَسْلِمْ، لأنَّ الإسلام سبب للركوب وملزوم له.

﴿**يَابُنَيِّ**﴾ الأصل «بُنَيْوِي» قلبت الواو وهي لام الكلمة ياءً وأدغمت فيها ياء التصغير، وحذفت ياء الإضافة، ودلَّت عليها الكسرة ﴿**ارْكَبْ مَعَنَا**﴾ معشر المسلمين في الفلك، ولم يذكره لحضوره، ولأنَّه لا مركب حينئذ إلَّا هو ﴿**وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**﴾ في الدين والانعزال عن السفينة.

وكأنَّه قيل: فبم أجاب؟ فقال: ﴿**قَالَ سَئَاوِي**﴾ ألتجئُ ﴿**إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ**﴾ لعلوه فلا أغرق وذلك إســناد إلى السبب، والأصل: أعتصم به من الماء، ولا يدري أنَّ ذلك ماء الغضب لا ينجو منــه المغضوب عليه بالصعود في الجبل، ولم يستحضر أنَّه إن نجا من الغرق فما يأكل في الجبل حتَّى يزول الماء؟ مع أنَّ ذلك الماء ماء غضب لا ينجِّــي من العطش، وهو كافر إجماعا. لَكِنَّ صعوده إلى الجبل لا يلزم أن يكون صريح عناد لاحتمال أنَّه أراد الجبل لتوهُّمه أنَّه أنجى من السفينة، أو لكراهة الاحتباس في السفينة.

﴿**قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنَ اَمْرِ اللهِ**﴾ بمعنى أنَّ اليوم يوم شدَّة لا تجَاوُز فيه، فليس قيدا يحترز به عن أن يكون راحم غير الله في غير اليوم، ولا أن يرحمهم الله بعد ذلك اليوم. وأَمْــرُ الله: إهلاكه بالإغراق، وهو الأمر فــي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ اَمْرُنَا﴾.

[نحو] و«الْيَوْمَ» خبر، وجاز ولو كان إخبارا بزمان عن جثّة ولا سيما لأنّه أفاد أن لا عاصم، لا نسلّم أنّه جثّة بل أعمُّ منها، و«مِنَ امْرِ» متعلّق به، أو بمتعلّقه ولو قُدِّر الخبر محذوفا ـ أي موجود ـ وعلّق «الْيَوْمَ» و«مِنَ» بـ«عَاصِمَ» لنُوّنَ «عَاصِم» ونُصِبَ؛ وقيل: يتعلّقان به وبناؤه باق، وقيل: معرب ولم ينوّن للتخفيف ولشبه الإضافة، والخبر مقدّر كما رأيت، وأجيز كون «الْيَوْمَ» نعتا لـ«عَاصِمَ» على حدِّ ما مرَّ في الإخبار به.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ الله، والاستثناء منقطع، لأنَّ من رحم الله ليس من جنس العاصم، بل معصوم، أي لكن من رحمه الله يعصمه الله، وذلك بالإسلام، وكأنّه قيل: لا عاصم إلّا مرحوم، والمرحوم ليس عاصما، وكذا يكون الاستثناء منقطعا إن قلنا «عَاصِمَ» بمعنى معصوم، فإنَّ «مَن رَّحِمَ» هو الله، ولا يتصور أن يكون معصوما فإنّه العاصم.

[نحو] ويجوز أن يكون الاستثناء متّصلا، بأن يكون «عَاصِمَ» للنسب، أي لا ذا عصمة إلّا الله الراحم، أو على أصله أي لا عاصم إلّا الله الراحم، وهو أولى، أو ﴿لَا عَاصِمَ﴾: بمعنى معصوم، فكأنّه قيل: لا معصوم إلّا المرحوم الذي رحمه الله، ويدلُّ له قراءة بناء «رُحِمَ» للمفعول، كدافق بمعنى مدفوق، أو لا مكان عاصم إلّا مكان من رحمه الله، وهو السفينة، فيكون ردًّا لقول ابنه: إنَّ لي مكانا عاصما غير السفينة، وهو الجبل ردَّ إفراد.

وحاصل ذلك أنَّ «عَاصِمَ» على أصله، أو للنسب، أو بمعنى مفعول، و«مَن رَّحِمَ» هو الله، أي الله الراحم لغيره، أو «مَن رَّحِمَ» هو المخلوق، أي إلّا المخلوق الذي رحمه الله. وضمير «رَحِمَ» عائد إلى الله، والهاء المحذوفة الرابطة تعود إلى المخلوق، والحاصل والزيادة لا عاصم لكن من رحم الله معصوم بالله، ولا ذا عصمة أي معصوم إلّا من رحمه الله، أو لا معصوم إلّا الراحم، أي لكن الراحم يعصم ولا عاصم إلّا مكان من عصمه الله تعالى،

وهو السفينة، أو لا معصوم إلَّا مكان مَن رحمه الله وهو الفلك، فينجو من فيه، أو لا عاصم اليوم أحدا أو لأحد إلَّا من رحمه الله، أو لمن رحمه الله.

﴿**وَحَالَ بَيْنَهُمَا**﴾ بين نوح وابنه، وهــذا لقربه أولى من أن يرجع الضمير لابنه والسفينة، ووجه هذا أنَّها محلُّ الامتناع فســاغ اعتبارها، وكذا يجوز أن يراد بين ابنه والجبل بأن لم يصل الجبل بــل غرق قبل صعوده، كما روي أنَّه على فرس معجبا بنفســه بَطِرًا فجاءته موجة فأغرقته قبل تمام جوابه، كما قال الله ﷻ: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا **الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾ بالماء.

﴿**وَقِيلَ يَآ أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ**﴾ خاطبهــا أوَّلا لأنَّ الماء نبع منها أوَّلا قبل نزول ماء الســماء، أي الماء الذي فيك منك، أو من السماء، والمراد بـ«أَمْر» في ﴿جَآءَ اَمْرُنَا﴾ و﴿مِنَ اَمْرِ اللهِ﴾: الإهلاك لا المــاء، فضلا عن أن يقال عبَّر بالأمر في ذلك للتهويل عن الماء، وهنا بالماء لأنَّ المقام للنقص. ﴿**وَيَا سَمَآءُ اَقْلِعِي**﴾ أمر السماء بالإقلاع حين علا الماء على الجبل الأعلى أربعين ذراعا، وكانت الســفينة تجري بعد ذلك، وقد كفَّت الســماء، وبعد ذلــك بمدَّة أمر الأرض بالبلع فقــدَّم ما أخَّر وأخَّر ما قدَّم، ويجوز أن تكون الســماء ما زالت تنزل في غير السفينة مع جريان الســفينة، إلى أن أراد الله فأمر السماء بالكفِّ والأرض بالبلع.

ولعلَّ الأرض أيضا ما زالت تنبع كالســماء فأمرها ببلع ما عليها من مائها وماء السماء، وقيل: ماء السماء صار بحارا، وقيل: البحار من الماء الذي عليه العرش، والبلع وظيفتها، وليس للســماء بلع ولكن كفٌّ فكفَّت، وحذف ذكر أن يقول للأرض: أقلعي.

[لغة] والبلع: إدخال الطعام أو الشراب في البطن تشبيها بأكل الحيوان ما يأكل أو يشــرب، وهو حقيقة فيهما، وقيــل: حقيقة في الطعــام فقط، وليس كذلك، وزعم بعض أنَّ البلع بمعنى الازدراد لغة حبشــية، وبعض أنَّه بمعنى

الشــرب، لغة هندية، [قلت:] **وكلُّ من فسَّــر القرآن بغير لغــة العرب فهو من المغرقين في الجهل إلَّا ما قام دليلــه.** والإقلاع: الكفُّ، وتقدير الكلام: «وقال الله» أي أمر بالبلع والإقلاع فبلعت وأقلعت.

[بلاغة] شبَّهَهُمَا بالعاقل الممتثل، أو خلق فيهما العقل والتمييز، وعلى الأوَّل استعارة تمثيليَّة شــبَّه الهيئة المنتزعة من كمال قدرته من إدخال ما على الأرض من الماء فيها، وقطع انصباب الماء من السماء لتعلُّق إرادته بذلك بلا مهلة، بالهيئــة المنتزعة من أمر الآمر المطاع، وطاعــة مأمور مطيع للآمر بلا توقُّف، والجامع: مطلق الانقياد على عجل إعظاما وخوفا.

[بلاغة] أو شبَّه الأرض والســماء بالعاقلين المميزين ورمز لذلك بلازم العاقل الذي هو أن ينادى، وهو تخييليَّة، والبلع: ترشــيح، أو القول عبارة عن الإرادة والقرينة خطاب الجماد، كأنَّه قيــل: أريد أن يرتدَّ ما انفجر من الأرض وينقطع طوفان الســماء، والبلع اســتعارة لغور الماء، ولكن تقرَّر أنَّه لا يصار إلى الاستعارة في المفردات ما أمكنت الاستعارة التمثيليَّة بلا تكلُّف.

﴿**وَغِيضَ الْمَآءُ**﴾ نُقِصَ ـ بالبناء للمفعول ـ كما يقال: غاض الماء ونَقَصَ بالبناء للفاعل واللزوم.

﴿**وَقُضِيَ الَامْرُ**﴾ أحضر الله لنوح والمؤمنين ما أوعد من إهلاك الكافرين، وإنجاء المؤمنين، وقيل: أُتمَّ الأمر، ومكثت الســفينة على الماء خمسة أشهر، وعلى الجودي شهرا أو أربعين يوما، وقيل: جرت ستَّة أشهر.

﴿**وَاسْــتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**﴾ اســتقرَّت عليه، وإذا أريد القصد تعدَّى بإلى نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىآ إِلَى السَّمَآءِ﴾ [سورة البقرة: 29، وسورة فصلت: 11].

[قصص] و«الجودي»: جبل بالموصل، أو بالشــام، أو بآمُد بالمدِّ وضمِّ الميم ويجوز فتحها، وبعض يقول: آمُل باللام، وقيل: جبل بالعراق، وخرجوا

منها في عاشـــر المحرَّم، وقد ركبوها في عاشـــر رجب، أو حادي عشـــر منه، وصاموا بقيَّة يومهم، أو نووا الصوم من قبل فجره، وذلك شكرا لله تعالى على إنجائهم وإهلاك عدوِّهم، وقيل: صام معهم الوحش والطير والدوابُّ والأنعام.

[قصص] وكانت قريـــة الثمانين قريبة مـــن الجوديِّ، أوحـــى الله إلى الجبال أنَّ السفينة ترســـى على واحد منها فتطاولت إلَّا الجودي، فإنَّه بقي على حالـــه تواضعا لله فأرســـاها الله عليه، قال ﷺ: «**بقي منها شـــيء أدركه أوائل هذه الأمَّة**»[1].

[قصص] وأراد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض، فقال الدجاج: أنا، فأخذه وختم على جناحه وقال: أنت مختومة بخاتمي لا تطيري أبدا تنتفع بك أمَّتي، فبعث الغراب فأصاب جيفة فأكل منها فلعنه، قيل: ولذلك يقتل في الحرم، ودعا عليه بالخوف فلا يألف البيـــوت، وبعث الحمامة فلم تجد قرارا فوقفت على شجرة في سبأ، فحملت ورقة زيتون إليه، وعلم أنَّها لم تستمكن من الأرض، ثـــمَّ بعثها بعد فرأت موضـــع الكعبة باديًا وقـــد هدمها الطوفان، وحفظ الحجر في أبـــي قبيس، وكانـــت تربتها حمراء فخضَّبـــت رجليها بها فجاءته، فقالت بُشْرَايَ أن تجعل الطوق في عنقي والخضاب في رجلي، وأن أسكن الحرم، فمسح على عنقها فطوَّقها ووهب لها الحمرة في رجليها، ودعا لها ولأولادها بالبركة، وفي أهل بيت يتَّخذها، وبأن تحبَّب إلى الناس، وقال: لولا أن يغلبك الناس على نفســـك لدعوت الله أن يجعل رأسك من الذهب، [قلت:] وأعلم أني أذكر القصص في التفســـير ولو مع كثيـــر منها [لا يصحُّ] عندي ليستريح إليها القارئ والمستمع.

---

(1) هذا من كلام قتادة، ينظر: صحيح البخاري. كتاب التفســـير، بـــاب ﴿تجري بأعيننا﴾، ج4، ص1844. أوردت مجلَّة الهلال في بعض أعدادها وصفا عن سفينة عملاقة قد اكتشفوها في جبال طوروس كان قد غمرتها الثلوج، قيل إنَّها سفينة نوح.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ مصدر «بَعِد» بالكسر والضمِّ بمعنى هلك أو «بعُد» ضدُّ قرب، واللام متعلِّقة به، أو بناصبه المحذوف، أو بمحذوف خبر، أي ذلك للقوم، أو بـ«قِيلَ». ذكرهم بلفظ الظلم لأنَّه علَّة هلاكهم، ولاستحضار ما مرَّ من قوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [سورة هود: 37].

وأمَّا الأطفال فأغرقوا كما أغرقت الدوابُّ، وكما أهلكت أطفال الأمم السابقة معهم، لا عقوبة إذ لا ذنب لهم، ماتوا بالطوفان كما يموتون بالعقرب والحيَّة والحرق وغير ذلك، عافانا الله بحق الله لا إله إلَّا هو ربُّ العرش العظيم، [قلت:] ولم يصح ما قيل أعقمت أرحام النساء قبل الطوفان أربعين عاما، وهذا ـ كما قيل ـ تعقم قبل قيام الساعة بأربعين عاما.

[قصص] ويروى أنَّ قريشا عكفوا على لباب البرِّ ولحم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوما لتصفوا أذهانهم، فيعارضوا القرآن، فأخذوا في قصدهم فسمعوا قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَآ أَرْضُ...﴾ الآية فقال بعض لبعض: هذا لا يشبه كلام الخلق، فتفرَّقوا عن المعارضة.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ عطف على ﴿نَادَىٰ نُوحٌ اِبْنَهُ﴾، وذلك وقت إمكان النجاة قبل السير، وعطف عليه عطف تفصيل أو تفسير قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنَ اَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ اسم تفضيل من حكم الثلاثي، بمعنى كان ذا صواب وعدل.

أو يقدَّر: أراد نوح نداء ربِّه فقال: رَبِّ إن ابني من أهلي...، والمراد: إنَّ ابني من أهلي وأنت وعدتَّني أن تنجي أهلي ولا أدري لِمَ لَمْ ينج؟ أو فنجِّه الآن ووعدك لا يتخلَّف وأنت أعدل الحاكمين، لأنَّك أعلمهم وأحكمهم. ويجوز أن يكون «حاكم» من الحكمة للنسب، كلابن ورامح ودارع، أي ذي رمح وذي درع.

وقد يمكن أن يكون نوح عليه السلام ظنَّ في ابنه الإســلام على ما مرَّ وتوهَّم أنَّه يأوي إلى جبل ظنًّا أنَّ الجبل ينجِّيه، وأنَّه إنَّما اختار النجاة بالجبل عن النجاة بالسفينة لكراهة أن يحتبس فيها، وأنَّ الجبل أقوى في النجاة منها، فلوَّح إلى الله أن ينجِّيــه في الجبــل، أو يمكِّنه من دخول الســفينة وهذا النداء توسُّــل واســتعطاف، كقوله تعالى: ﴿إِذْ نَــادَى رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّــنِيَ الضُّرُّ وَأَنــتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 83].

ويجوز أن يكون هذا القول من نــوح تفويضا إلى الله تعالى، والمعنى: إن لم تنجِّه فلا اعتــراض ولا عجب، لأنَّك أحكم الحاكميــن، ففي عدم تنجيته حكمة خفيَّة، وبحــث بأنَّه يعارضه: ﴿إِنِّيَ أَعِظُكَ...﴾ إلَّا أن يكون كما شَــكَا نبيء العــراق القمَّل فأوحي إليه إن عدت إلى هــذا محوتك من الأنبياء وهذا على أنَّ ذلك التضرُّع تلويح بالدعاء.

﴿**قَالَ يَانُــوحُ إِنَّهُ**﴾ إنَّ ابنك ﴿**لَيْــسَ مِنَ اَهْلِكَ**﴾ الناجيــن، أو من أهلك المؤمنين الذين أمرت بحملهم، أو من أهل دينك، أو أهله هم المؤمنون، وأمَّا الكُفَّار فقد قطع الكفر بينه وبينهم، وابنه ذلك ليس مؤمنا، وذلك فصل عظيم حتَّى إنَّه لا يتوارث أهل ملَّتين ولو كافرتين، قال أبو فراس:

كانــت مودَّة ســلمان له نســبا ولم يكن بين نوح وابنه رحم[1]

أي كأنَّه لم يكن بينهما رحــم، وذلك كما قال: ﴿**إِنَّهُ عَمَــلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ الهاء للعمل، أو يقدَّر مضاف، أي إنَّ عمله، أو جعله نفس العمل الفاســد لأنَّه بالغ في الفساد، كما يقال: زيد صوم، إذا بالغ في الصوم، وكما قالت الخنساء في وصــف ناقة تتردَّد في ولد فقدتــه لموت أو ذبح أو نــدٍّ: «فإنَّما هي إقبال

(1) من قصيدة له في مدح الشيعة، يشير إلى قوله ﷺ: «سلمان مِنَّا آل البيت». وقبله:
هيهات لا قربت قربى ولا رحم يوما إذا أقصيت الأخلاق والشيم

وإدبار»[1]. أو يقدَّر: إنَّه ذو عمل غير صالح، أو «عَمَلٌ» بمعنى عامل، أي عامل عمل غير صالح، أو عامل غيرَ صالح في عمل.

وقيل: المراد أنَّ ترك ركوبه عمل غير صالح، وقيل: إنَّ نداءك لتنجية ابنك عمل غير صالح، ونسب هذا لابن عبَّاس، ولا يصحُّ عنه، لكن يناسبه ما في مصحف ابن مسعود: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ أَنْ تَسْأَلَنِّي...﴾.

﴿**فَلَا تَسْأَلَنِّي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ أنَّه صواب أو خطأ فقف عن السؤال فيه، ونجاة ابنك من ذلك، فقف في شأنها وسلِّم لإهلاكه، فإنَّه أهل للإهلاك، أو لا تسألني ما لم تعلم أنَّه صواب أو غير صواب.

وليس نداؤه استفسارا عن سبب عدم إنجائه مع تحقُّق سبب الإنجاء فيما عنده كما قال به بعض بناء على أنَّه كان بعد الغرق، بل دعاء بإنجائه حين حال الموج بينهما بتقريبه إلى الفلك بالموج أو بتقريب الفلك إليه، أو بسبب آخر، لكن ذكر الوعد في الدعاء يتبادر يناسب النجاة في الفلك.

وقيل: النهي عن سؤال ما لا حاجة إليه لأنَّه لا يهمُّ، أو لأنَّه قامت القرائن على حاله من أنَّه لا ينجو، أو أنَّه مات كما هو المتبادر من إحاطة الموج به، وليس النهي عن السؤال للاسترشاد، وأمَّا أن يقال: نوح كان [سؤاله] بعد علمه بموت ابنه عتابا لله سبحانه لا استرشادا **فمحرَّم إجماعا**، ومن قال به أخطأ أو تأوَّل.

﴿**إِنِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ بسؤال ما لم تعلم، وإنَّما سمَّى الله قول نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنَ اَهْلِي...﴾ سؤالا لتضمُّن ذكر الوعد بنجاة

---

(1) الشطر من قصيدة للخنساء مطلعها:

قذىً بعينك أم بالعين عوار ... أم ذَرَّفت إذ خلت من أهلها الدار؟

وقبل هذا الشطر:

وما عجول على بوٍّ تطيف به ... لها حنينان: إصغار وإكبار

ترتع ما رتعت، حتَّى إذا ادَّكرت ... فإنَّما هي إقبال وإدبار

أهله طلب الإنجاز للوعد في شأن ابنه بالإنجاء، والسؤال طلب لا استفهامٌ، أو لتضمُّن ذكر الوعد السؤال عن المانع لإنجاز الوعد لابنه فيكون السؤال استفهاما.

وإنَّما سمَّى سؤاله جهلا وزجره عنه بالوعظ، لأنَّ قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ وعدم حضوره السفينة صريح في هلاكه، لَكِنَّ حبَّ الولد بالطبع مع ظنِّ الإيمان بما ينافقه وحضور ما يسلم به من كفر جرَّه إلى ذلك.

وقد قيل: إنَّه ولد زنى من امرأته الكافرة في فراشه، وهو قول باطل، قال ابن عَبَّاس: ما بغت امرأة نبيء قطُّ، بل هو ابن امرأته من رجل آخر تزوَّجته قبله فكان عنده يعلمه، والصحيح أنَّه ابنه من صلبه لأنَّه سمَّاه ابنه، وأقرَّه الله على تسميته، وسمَّاه الله ابنه وقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ اِبْنَهُ﴾ [قلت:] **وحمل الكلام على حقيقته واجب إلَّا لدليل**، وأمَّا أن يلد المؤمن ولو نبيئا الكافر فواقع وبالعكس، كقابيل من آدم، وإبراهيم من آزر، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [سورة يونس: 31، وسورة الروم: 19]. ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنَ اَسْأَلَكَ**﴾ بعد ذلك السؤال ﴿**مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي**﴾ ذلك السؤال السابق ﴿**وَتَرْحَمْنِي**﴾ بقبول التوبة والتوفيق ﴿**أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

[أصول الدين] [قلت:] ولا دليل في الآية على صدور المعصية من الأنبياء لعظم مرتبتهم يسمُّون ما ليس ذنب ذنبا يطلبون المغفرة منه ويسمِّيه الله ذنبا، وليس كذنوبنا التي تصدر مِنَّا، وأولوا العزم ـ بل الأنبياء كلُّهم ـ مؤاخذون بالنقير والقطمير، وحسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين، وذكر بعض أنَّه بكى أربعين يوما، وقيل: ثلاثمائة عام لعتاب الله ﷻ له بقوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ...﴾، ولا يصحُّ أنَّه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة عام.

﴿**قِيلَ**﴾ قال الله بخلق الكلام في السفينة أو حيث شاء الله، أو قال جبريل أو الملائكة عن الله ﴿**يَانُوحُ اهْبِطْ**﴾ من السفينة على الجبل الجوديِّ، لأنَّها

رست عليه، وقيل: اهبط من الجبل إلى الأرض على أنَّه استوت على الجودي في عاشر ذي الحجَّة، وأقام بمن معه شهرا عليه، ثمَّ قيل له: اهبط إلى الأرض.

وخطابه دليل له على أنَّ الله قد غفر له إذ خاطبه بما ليس عقابا ولا سوءًا ولا سيما الخطاب بسلام وبركات، فإنَّ السلطان إذا غضب على إنسان لا يكلِّمه وإن كلَّمه فبسوء.

﴿**بِسَلَامٍ مِّنَّا**﴾ مصاحبا لسلام مِنَّا عليكم وهو التَّحِيَّة، كما قال الله ﷻ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الصافات: 79]؛ أو بسلامة جاءتكم مِنَّا إذ سلمتم من الغرق، ومن أن تغرقوا في الأرض، ومن أن تموتوا فيها جوعا أو عطشا، أو بغير ذلك كالعراء والبرد والحرِّ. و«مِنَّا» نعت «سَلَامٍ»، أو متعلِّق به على معنى: سلامة مِن ضرِّنا.

﴿**وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ**﴾ «عَلَى» متعلِّق بـ«بَرَكَاتٍ» أو بمحذوف نعت لـ«بَرَكَاتٍ»، وهي الحياة في الإسلام والرزق وانتشار ذرِّيَّته، أو المراد: أنَّه يُدْعَى عليك بالبركات، بأن يقال: بارك الله فيك، وهو مناسب للسلام بمعنى التسليم، فيكون كقول الله تعالى[1]: السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

والمراد بـ«أُمَمٍ»: من يتولَّد من المؤمنين من سام وحام ويافث، والمراد بـ«مَن مَّعَكَ»: أولاده الثلاثة، لأنَّ غيرهم لم يلد معه فـ«مَن مَّعَكَ»: المجموع لا الجميع، والبركات والسلام في ظاهر الآية على نوح ومن يتولَّد من أولاده مؤمنا، وأمَّا أولاده ومن معهم في السفينة فالبركات والسلام لهم ضمنا إذ كانوا مع نوح في الإسلام والسفينة.

و«مِن» متعلِّق بمحذوف، أي متولِّدة مِمَّن معك، فـ«مِنْ» للابتداء، أو المراد: أمم من ذرِّيَّة من معك، أو للبيان، أي أمم هم من معك، فتكون

(1) كذا في النسخ ولعلَّ الأنسب كقولنا. أو يقصد سلام الله على سيدنا ﷺ محمد ليلة المعراج.

البركات والسلام على من معه في السفينة من بني آدم، وسمَّاهم أمما لأنَّهم من قبائل، أو لتشعُّب الأمم من مجموعهم.

وروي أنَّ جميع من في السفينة من بني آدم هم من صلبه، ومن صلب ذرِّيَّته، وأنَّه لا يختصُّ النسل بعد بأولاده الثلاثة، وهو غير مشهور مع أنَّه نسب لأكثر المفسرين، فيتحصَّل أنَّ من معه ولدوا وتناسلوا، وكذا من لم ينله الغرق في أيِّ موضع، وعلى كلِّ حال جميع من في الدنيا من نسل نوح أو من نسله ونسل غيره على ما مرَّ، وقد سمِّي آدم الأصغر وآدم الثاني لذلك. وبينه وبين آدم ألف سنة وثمانية أجداد.

[نحو] ﴿وَأُمَمٌ﴾ كثيرة عظيمة ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ خبر «أُمَم» أو نعته على أن يكون «أُمَمٌ» مبتدأ خبره محذوف تقديره: وَمِمَّن معك أمم نمتِّعهم في الدنيا، وقدَّر بعض: ومنهم أمم، بمعنى أنَّه يتشعَّب منهم من يكفر، وقدَّر بعض: وأمم منهم سنمتِّعهم، على أنَّ الخبر«سَنُمَتِّعُهُمْ». و«مِنْهُمْ» نعتٌ. وعَطَف بعضُهم «أُمَمٌ» على ضمير «اهْبِطْ» ويردُّه أنَّ من في الفلك مؤمنون، اللهمَّ إلَّا أن يقال: يكفر بعض بعد الهبوط، وهو بعيد وخلاف الظاهر.

وهو عامٌّ للأمم الأشقياء، وقيل: المراد قوم هود وقوم صالح وقوم شعيب، والعموم أولى لعدم داع إلى التخصيص، ثمَّ إذا صير إلى التخصيص فَلِمَ لَا يذْكَر فيهم فرعون ومن معه مع أنَّه في القرآن صريحا؟ وأمَّا قوم نمرود معه فلم يذكر هلاكهم في القرآن، وعمَّم بعض حتَّى قال بشمول الآية أمما من الحيوانات التي معك.

وعن محمَّد بن كعب القرظي[1]: دخل في ذلك السلام والبركات كلُّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك المتاع والعذاب كلُّ كافر

(1) تقدَّم التعريف به، انظر تفسير الآية 129 من سورة التوبة، ص186.

وكافرة إلى يوم القيامة ﴿**ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ**﴾ في الآخرة لكفرهم، أو في الدنيا قبل الآخرة كما ذكر الله هلاك تلك الأمم بالعذاب الدنيوي.

﴿**تِلْكَ**﴾ القصَّة وهي قصَّة نوح المشتملة عليها هذه الآيات، وقيل: الإشارة إلى آيات القرآن المخبرة بالغيوب، أو غيب قصَّة نوح، وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿**مِنَ اَنبَآءِ الْغَيْبِ**﴾ أخبار الخفاء، أو أخبار الأمور الغائبة. و«مِنْ» للتبعيض، وقيل: غيب عن غير أهل الكتاب كما قال: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا﴾.

[نحو] ﴿**نُوحِيهَآ إِلَيْكَ**﴾ خبر ثان، وضمير النصب لـ«تِلْكَ»، فالموحى هنا قصَّة نوح، أو حال من الأنبَاء فضمير النصب للأنباء، فالموحى هنا مطلق الأنباء لا خصوص قصَّة نوح، أو هو الخبر و«مِنَ اَنبَآء» حال من ضمير النصب، أو متعلِّق بـ«نُوحِي» و«مِنْ» للابتداء، أي نوردها من أنباء الغيب. وقوله ﴿**مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا**﴾ خبر ثالث، أو ثان، الضمير لقصَّة نوح، أو حال من ضمير النصب، أو من كاف «إِلَيْكَ».

وهذا إشارة إلى الإيحاء أو إلى هذا المنزَّل في شأنها، والمعنى واحد: لا علم لك ولا لقومك ولست مِمَّن يخالط من يعلمها، وهم مع كثرتهم لم يعلموها فكيف أنت لولا الوحي؟ وقيل: الإشارة إلى العلم، وقيل: إلى القرآن، وقيل: إلى العلم المكسوب بالوحي.

﴿**فَاصْبِرِ**﴾ على أذى قومك في التبليغ كما صبر نوح على أذى قومه على التبليغ. ﴿**اِنَّ الْعَاقِبَةَ**﴾ المحمودة، وهي الظفر في الدنيا والفوز في الآخرة ﴿**لِلْمُتَّقِينَ**﴾ للشرك والكبائر، فالمراد: الدرجة الأولى من التقوى، فيدخل ما بعدها بالأولى، وقيل: الدرجة الثالثة، على أنَّ المراد عدم الحصر فيها، والجملة تعليل لـ«اصْبِرِ».

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿50﴾ يَٰقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿51﴾ وَيَٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿52﴾ قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿53﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿54﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿55﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿56﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿57﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿58﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿59﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿60﴾﴾

قصَّة هود عليه السلام

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ عطف على ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ عطف معمولين على معمولي عامل واحد، و«هودًا» عطفُ بيان، وجاز ذلك العطف مع طول الفصل لظهور المعنى، واختار بعض تقدير «أرسلنا»، ووجهه طول الفصل مع

أنَّه يحضر في القلب تقدير «أرسلنا»، ولو لم يحضر في القلب آية نوح، ولكن يبقى أنَّ الواو عاطفة لما علمت أنَّ الواو لا تكون للاستئناف، فلا تجد معطوفا عليه أنسب من قوله: ﴿نُوحًا اِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فعدنا إلى الوجه الأوَّل.

والواحد من القبيلة يسمَّى أخَاها، كما تقول لرجل من العرب: يا أخا العرب، وعادٌ أبو قبيلة منها هود، وعاد من ذرِّيَّة سام، وبين هود ونوح ثمانمائة سنة وعاش أربعمائة سنة وأربعا وستِّين.

﴿**قَالَ يَاقَوْمِ**﴾ النداء استعطاف ﴿**اعْبُدُواْ اللَّهَ**﴾ لا تعبدوا غيره ولا تعبدوه مع غيره بل وَحْدَهُ، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿**مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ نعت على محلِّ «اِلَهٍ» كما يدلُّ له قراءة الكسائي بالجرِّ، كيف تعبدون من ليس بإله؟ ﴿**إِنَ اَنتُمُوَ إِلَّا مُفْتَرُونَ**﴾ كاذبون في قولكم: إنَّ الأصنام تستحقُّ العبادة، وإنَّها تشفع لكم، وإنَّ الله أمركم بها أو رضيها، وكاذبون في أفعالكم من عبادة غير الله وسائر معاصيكم، فإنَّ الافتراء كالكذب يستعمل في القول والفعل.

﴿**يَاقَوْمِ**﴾ استعطاف ثان ﴿**لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾ أي على قولي لكم «اعْبُدُواْ اللَّهَ...» أو على التوحيد، يقول ذلك كلُّ نبيء لأمَّته ولو لم يقولوا: تريد الأجر بما تقول لنا، ولا اتَّهموه، إزاحةً لِمَا قد يحدث لهم من التوهُّم، أو كان ولم يظهر له، وإمحاضا للنصح، وإخبارا بإمحاضه، وذلك أدعى للقبول وأشدُّ في التأثير، فإنَّ النفس ما دامت مشوبةً بالمطامع بعيدةٌ عن التأثير. والأجر: المال والرياسة وسائر المصالح.

﴿**اِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الذِي فَطَرَنِي**﴾ خلقني وهو الله لا إله إلا هو، أخرجني من العدم إلى الوجود، ويبقيني مدَّة، فلا شكَّ أنَّه قضى لي فيها رزقا، وفي آية أخرى: ﴿إِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: 127] ولا يخفى أنَّ السيد يقوم بمصالح عبده، ومَأْصَدَقُ الآيتين واحد، والمعنى: عبَّر عنه بمتعدِّد، تارة بلفظ وتارة بآخر، أو لفظ واحد هو أحدهما ذكره الله في موضع بمعناه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أتغفلون فلا تعقلون؟ أو أتجهلون كلَّ شيء فلا تعقلون؟ أي تستعملون عقولكم فتميِّزون الحقَّ كقولي من الباطل كقولكم.

﴿وَيَاقَوْمِ﴾ استعطاف ثالث ﴿اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ اطلبوا المغفرة من ربِّكم لِمَا مضى منكم بالإقلاع عن الشرك وسائر المعاصي، وكون الإسلام جبًّا لِمَا قبله لا يمنع من الاستغفار مِمَّا قبله، وقيل: الاستغفار الإيمان، ويردُّه أنَّه يغني عنه قوله: ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ لأنَّ معناه وحِّدوه، وقيل: الاستغفار من الشرك والتوبة مِمَّا دونه ﴿ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾ ارجعوا إليه بالعبادة، أو توسَّلوا إليه في تحصيل مطالبكم بالتوحيد والعبادة.

ولا يخفى أنَّ التوبة والتبرِّي من عبادة غير الله تعالى مُتَأَخِّران بالذات والرتبة عن الإيمان بالله والرغبة فيما عنده، ولذلك عطف بـ«ثُمَّ»؛ أو التوبة مجاز عن التوصُّل إلى المطلوب لأنَّها السبب والملزوم، فـ«ثُمَّ» على ظاهرها. ﴿يُرْسِلِ السَّمَآءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثير الدرور، أي السيلان، وإن أريد بالسماء السحاب أو الفلك كان مجازا بالحذف، أي يرسل ماء السماء، أو مرسلا تسمية للحالِّ باسم المحلِّ، والحالُّ الماء.

[نحو] و«مِدْرَارًا» حال، وهو مفعال للمبالغة فلا يؤنَّث، ولو اعتبرنا تأنيث من اتَّصف به، حتَّى إنَّهُ لو قلنا: مدرارة لقلنا: التاء للمبالغة لا للتأنيث.

وكانوا قحطوا وأعقموا ثلاث سنين، وقيل: أعقموا ثلاثين سنة فرغَّبهم في الإسلام بالمطر الكثير، وزيادة القوة المؤدِّية إلى كثرة النسل كما قال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً اِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ مُنضَمَّة أو مضمومة إلى قوتكم، أو مع قوتكم، والأوَّل أولى لبقائه على الأصل ورجحان معناه، والمراد قُوَّة البدن.

وقيل: القُوَّة العزُّ، وهو بالمال والبنين، كما فسَّرها الضحَّاك بالخصب، ويكون المال به، وكما فسَّرها عكرمة بولد الولد وذلك كلُّه في قوله تعالى:

﴿وَيُمِدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ﴾ [سورة نوح: 12]، وقيل: القُوَّة الأولى في الإيمان يزيدهم الله على ما فيهم من قُوَّة البدن، والثانية قُوَّة البدن، وكانوا أصحاب بساتين وزروع وماشية فرغَّبهم بالمطر.

﴿**وَلَا تَتَوَلَّوْاْ**﴾ لا تصيروا بعد هذا الوقت أو لا تذهبوا عن مواضعكم التي أنتم فيها حالَ وعظي إِيَّاكم ﴿**مُجْرِمِينَ**﴾ مشركين، بل اذهبوا عنِّي مؤمنين لا مصرِّين على الإجرام، أو لا تصيروا مجرمين بإنكار ما قلت لكم الآن زيادة على كفركم السابق، أو لا تذهبوا مجرمين بإنكاره زيادة.

﴿**قَالُواْ يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ**﴾ حجَّة ظاهرة تصرفنا بها عن عبادة غير الله، وقد جاءهم بآيات واضحات ولو لم نعرفها، وعاندوا أو لم يفهموا لشدَّة جهلهم وشدَّة إعراضهم عن التأمُّل.

وعنه ﷺ: «**ما من نبيء إلَّا أتى قومه ببيِّنات يؤمن بها البشر كلُّهم لو سمعوها كلُّهم إن تأمَّلوا**»[1]، ولو تأمَّلوا لعلموا أنَّ عجزهم عن قتله وهو مبر، وهم عطاش إلى إراقة دمه مع ذمِّه آلهتهم بيِّنةٌ واضحةٌ، وجاء بصحف آدم وشيت.

﴿**وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا**﴾ بتاركي حقوقها علينا من تعظيم وعبادة ﴿**عَن قَوْلِكَ**﴾ متعلّق بـ«تَارِكِي» على تضمينه معنى معرضين، على استعمال الكلمة في حقيقتها ومجازها، وعلى منع ذلك يكون التضمين بتعليقه بخاصٍّ محذوف حال من المستتر في «تَارِكِي»، أي معرضين أو صادِرين عن قولك، ومعنى صادِرين: غير قابلين لقولك، أو عن للتعليل متعلِّق بـ«تَارِكِي». ﴿**وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ**﴾ لا تطمع في تركنا عبادة الأصنام، فإنَّه لا يقع، لا نؤمن بما جئت به ولا بما تجيء به بعدُ.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج4، ص81. و**ابن كثير** في كتابه البداية والنهاية، ج6، ص290.

﴿إِن نَّقُولُ﴾ ما نقول لك، أو في شأنك، بألسنتنا المطابقة لقلوبنا أو ما نعتقد ﴿إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ تعرَّض لك أو أصابك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ لعدم صبر هذا البعض، أو ناب عن باقيها، أو أراد أيَّ بعضٍ كان فإنَّه قادر أن يعتريك ﴿بِسُوءٍ﴾ هو جنون أو فساد الرأي، فصرت تتكلَّم جنونا بما تدَّعيه وحيا لسبِّك إِيَّاهَا، وإعراضك عنها، ومنعك غيرك عنها.

وعبَّروا باللفظ العام ـ وهو السوء ـ تلويحا بأنَّه جزاء فعله السوء، ويحتمل أنَّهم أرادوا مطلق السوء فيعمُّ، إلَّا أنَّ أمثالهم يذكرون الجنون فناسب أن يفسَّر به، ومجموع ﴿اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ اسم محكيٌّ بالقول.

[نحو] ومن العجيب تقدير قول ناصب لهذا المجموع، أي إلَّا قولنا: اعتراك، مع أنَّ هذا القول أيضا ناصب لمجموع هذه الألفاظ مرادا بها حكايتها، وهو اسم محكيٌّ، فقد صير إلى جعل المجموع اسما بالحكاية، فلتجعل كذلك بلا تقدير قول، وحاصله على كلِّ حال أنَّ ما تقوله لا يقوله إلَّا مجنون.

فأجابهم بما ذكر الله عنه في قوله: ﴿قَالَ إِنِّيَ أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ على نفسي أنِّي بريء مِمَّا تشركون، ولا شهادة أعظم من إشهاد الله الذي لا يكذِّبه مكذِّب، ولا ينسى ولا يختلط عليه الأمر ﴿وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ﴾ تنازعه «أُشْهِدُ» و«اشْهَدُواْ» والأصل: أشهد الله بها، أي ببراءتي مِمَّا تشركون، واشهدوا أنِّي بريء ما تشركون، أي من إشراككم، أو مِمَّا تشركونها، أو تشركونهم، وهم ينزلون الأصنام منزلة العقلاء.

[نحو] والعطف على مدخول «قَالَ» لا على خبر «إِنَّ»، كأنَّه قيل: وقال اشهدوا أنِّي بريء... ولو عطف على خبر «إِنَّ» لم يَجُز لأنَّ «أَنَّ» تؤكِّد النسبة الخارجية ولا خارج للطلب، بخلاف «أُشْهِدُ اللَّهَ» فإنَّه ولو جعلناه إنشاء لكنَّه من الإنشاء الذي له خارج حاليٌّ يؤكِّد. ولا تقدِّرْ: «أشهد الله به» بردِّ الضمير

إلى قوله: ﴿أَنِّـــي بَرِيءٌ...﴾ بقصد اللفـظ لأنَّ المراد هنــا المعنى، فإن أريد المعنى جــاز، كما يقــال: أعجبني أن تقيــم، ولا تقوله بالتاء مــع أنَّ المراد الإقامة، أو قدِّر مصــدر مذكَّر، ولم يقــل: وأشــهدكم كالأوَّل، لأنَّ العدو لا يستشهده أحد في مصالحه، لأنَّه لا يفي بالشهادة أو ينكرها أو لا يقبلها.

وإنَّما المراد بشهادتهم عدم المبالاة بهم، وإشهاد الله تحقيق للأمر وتأكيد، فإنَّ إشهاده كالقسم وهو متعارف، لا كما قيل إنَّه غير متعارف، وليس في الآية عطف الإنشــاء على الخبر ولــو جعلنا «أُشْــهِدُ اللهَ» غير إنشــاء، لأنَّ الجمل المحكيَّة مفردات ولا إنشــاء في الحكاية، بل الإنشــاء قبلها، وكأنَّه قيل: قال هذه الألفاظ، فلا حاجة إلى تقدير: «وأقول اشهدوا».

﴿**فَكِيدُونِي**﴾ كلُّكم وشــركاؤكم ﴿**جَمِيعًا**﴾ احتالوا فــي إهلاكي ﴿**ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ**﴾ لا تمهلوني بالضرِّ بل اعجلوا به.

أخبر الله سبحانه وتعالى عنه عليه السلام أنَّه استعجل قومه، وهم أقوى البشر وكثيرون ليظهر لهم عجز أنفســهم، وعجز آلهتهم عن أن تنصر نفســها، وتدفع عن عابديها، فكيف يعبدونها؟ أو الخطاب في «كِيدُونِي» و«لَا تُنظِرُونِ» لقومه خاصَّة، فإذا عجــزوا فكيف تنتصر آلهتهــم وهي جماد، وذلــك إمَّا مدح لهــم بأنَّه أظهر الإيمان والاستيثاق بالله الراســخين، وإمَّا مدح له بأنَّه عليه السلام تعرَّض لإراقة دمه في الله حبًّا له وثقة به، ولــو قيل: آمن معه أربعة آلاف، لأنَّــه برز بهذا اللفظ وحده ولا يمنعونه من ضرٍّ ولو وقع به، وأيضا قال هــذا القول قبل أن يكون معه هؤلاء، ولما ذكر من الإيمان والثقة قال:

﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّـــةٍ اِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ**﴾ تعليل جمليٌّ معنــويٌّ، كأنَّه قيل: لا أبالي بكيدكم ولا أخافــه لأنِّي ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ...﴾ فإنَّه مالكي ومالككم، فلا تقــدرون على مضرَّتي إن لم يقدِّرها، وإنِّي واثق بمن هو كذلك سبحانه.

واختار الماضي لأنَّه أدلُّ على الإنشـاء، فهو إنشـاء للتـوكُّل لا ينقطع، والإخبار بالإنشـاء جائز نحو: زيد هل قام؟ وبرهن على ذلك بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ...﴾ وأنتم من جملة الدوابِّ فلا يفوته عقابكم على ظلمكم، ولا تضرُّون ولا تنفعون إلَّا بإذنه ﷻ، وقـدَّم «رَبِّي» على «رَبِّكُـم» لأنَّ المقام للمحافظة على نفسه وللنعي عليهم بأنَّ الربَّ واحد، وهو مقرٌّ به.

والمراد بالدَّابَّة هنا ما له روح وينتقل، ولو طائرا أو حوتا أو ملكا أو جنًّا.

[بلاغة] والأخذ بالناصية كناية عن التملُّك التامِّ، شبَّه أثر قدرته على كلِّ شيء وتصرُّفه وملكه له بتمكُّن الإنسان من آخر بحيث لا يردُّه عَمَّا أراد، وذلك استعارة تمثيليَّة، والناصية مقدَّم الرأس، جلد أو مع شعر، وإطلاقه على الشعر خاصَّة مجاز، وقولهم: تسمية للحالِّ باسـم المحلِّ كأنَّه صريح في أنَّ الناصية موضوع لجلد مقدَّم الرأس خاصَّة، وعلى ما ذكرت تسمية للبعض باسم الكلِّ. وياؤه عن واوٍ قلبت لكسر ما قبلها، يقال: نصوته بمعنى أخذت بناصيته.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على الصواب والعدل، لا يجور بترك ظالم مصرٍّ بلا عقـاب، ونقص مظلوم حقَّه، كمـن وقف على الطريـق الجادَّة يمنع المارَّة من الفسـاد، ويمنع عنهم الضرَّ، مثل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [سورة الفجر: 14] فذلك استعارة تمثيليَّة، وقيل: المعنى إنَّ مصيركم إليه تعالى للجزاء بالحقِّ.

﴿فَـإِن تَوَلَّوْاْ﴾ تتولوا عـن الإيمان، مضارع حذفت إحـدى تاءيه، وقيل: ماض، وعليه ففيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة باعتبار ما قبله، وفيما بعده التفات إلـى الخطاب عن الغيبـة، وإن قدِّر: «فقل قد أبلغتكـم» فلا التفات، والأصل عدم الالتفات وعدم التقدير، ولا سيما مع عدم ظهور فائدة لذلك.

والخطاب في ذلك وفي ما يأتي من هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، وقيل: الخطاب في قوله: ﴿وَرَبِّكُـم...﴾ من النبيء ﷺ لقريش، كأنَّه قيـل أخبرهم عن قصَّة هود وادعهم إلى الإيمان بالله ﷻ لِئَلَّا يصيبهم مثل ما أصاب قوم هود، والصحيح

ما مرَّ، والجواب محذوف تقديره: فلا همَّ عليَّ، أو لم أعاتب أو لم أعاقب، أو يعذرني، ونابت عنه علَّته وهي قوله: ﴿**فَقَدَ اَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ**﴾ أي لأنِّي قد أبلغتكم...، وعليكم الهمُّ الكبير، وأمَّا تقدير: «فقد أدَّيت» فلا يكفي فإنَّه كلا تقدير، لأنَّه يستدعي معلولا أيضا فلا تهم.

نعم يجوز أن يجعل المذكور جوابا بحيث إنَّ نفس الإبلاغ وإن لم يترتَّب على التولِّي لَكِنَّ الإخبار بالإبلاغ يترتَّب عليه، وكما يقصد ترتُّب المعنى يقصد ترتُّب الإخبار، كقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [سورة النحل: 53] وقيل: الجواب «قَدَ اَبْلَغْتُكُمْ» باعتبار لازم معناه المستقبل باعتبار ظهوره، فإنَّ معناه: لا تفريط منِّي ولا عذر لكم، وعلى هذا النمط بلا مانع من قول أبي حيَّان: إنَّه الجواب، لأنَّ تبليغه تضمَّن عذاب الاستئصال، وكأنَّه قيل: استؤصلتم بالعذاب، وَيَدُلُّ له قوله تعالى:

﴿**وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ**﴾ في أموالكم ومساكنكم يعبدونه أو يعصونه، ويفعل بهم ما شاء.

[نحو] عطف على قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ...﴾، أو على الجواب ولو رفع، لأنَّه لم يظهر الجزم في الجواب، كما يجوز رفع الجواب إذا لم يظهر الجزم في الشرط، ويدلُّ له قراءة: «وَيَسْتَخْلِفْ» بالجزم، و«لَا تَضُرُّوهُ» بحذف النون، ولا يقدح في ذلك أنَّه لو كان شرطا لم يقرن، وهنا تقدُّمت الفاء فكأنَّه قرن بها، لأنَّا نقول: لم يكن جوابا بالذات بل بالعطف، وأيضا يجوز عطفه على مدخول «قَدْ» لا عليها مع ما بعدها، فقد تسلَّط عليه معنى «قَدْ» على هذا.

﴿**وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا**﴾ مفعول مطلق، أي ضرًّا ﴿**اِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**﴾ رقيب لي فلا تقدرون على ضرِّي و[رقيب] عليكم لا يخفى عنه عملكم ولا يفوته عقابكم، وذكر بعض أنَّ هاء «تَضُرُّونَهُ» لله ﷻ. و﴿حَفِيظٌ﴾: بمعنى حافظ مُسْتَوْلٍ، ومن هو كذا لا يَضُرُّه شيء.

﴿وَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا﴾ واحــد الأمور وهو العذاب، أو ضـــدُّ النهي أي أمرنا بالعذاب، أو مأمورنــــا، والأوَّل أوفق بقولـــه: ﴿مِنْ عَــذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ومجيء العذاب اســتعارة لحضوره أو وقوعه في الجملة أو تنقُّله إليهم، والمعنى على الثاني: مجيء أمر الملائكة بالعذاب، أو مجيء وقته الموعود في الأزل.

وذلك العذاب هو بالريح شديدة الحرارة ترى فيها نار كما ورد في الأثر، وقيل: باردة سخَّرها عليهم ســبع ليال أصابتهم صبيحة الأربعاء لثمان بقين من شــوال يدخل الريح من أنف أحدهم ويخرج من دبــره، فيرفعه في الجوِّ ويســقط على الأرض متقطِّع الأعضاء، وتضربهم علــى وجوههم فيكونون كأعجاز نخل منقعر.

[قصص] انبسطوا في الأرض بين عُمان وحضرموت وكانت لهم أصنام يعبدونها: صدا وصمود والهبا، فبعث الله إليهم هودا وكان أحســنهم جســما ونســبا وكذَّبوه، وطغوا على الناس، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتَّى جهدوا، وكان الناس إذا نزل بهم البلاء توجَّهوا إلى مكَّة مســلمهم وكافرهم، وطلبوا من الله الفرج فبعثوا من أفاضلهم إلى مَكَّة ســبعين رجلا اسم رئيسهم «قيل»، فدخلوها فقال «قيل»: اللهمَّ أســق عادا ما كنت تســقيهم، فأنشــأ الله سحابات حمراء وبيضاء وسوداء، فناداه ملك من السماء: يا قيل اختر لنفسك ولقومك، فقال اخترت الســوداء فإنَّها أكثر ماء فخرجــت على عاد من وادي المغيث، فاستبشــروا قالوا هذا عــارض ممطرنا، فجاءتهم منهــا ريح عقيم، فأهلكتهم، ونجا هود والذين آمنوا وهم أربعة آلاف وما أصابهم من الريح إلَّا ما يلين أجسادهم، وذهبوا إلى مَكَّة يعبدون الله فيها إلى أن ماتوا.

﴿نَجَّيْنَا هُــودًا وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ﴾ أربعــة آلاف، أو ثلاثة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي لم يموتوا كما مات هــؤلاء، والباء متعلِّق بـ«نَجَّيْنَــا» أو بـ«ءَامَنُوا» ﴿وَنَجَّيْنَاهُــم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيــظٍ﴾ العذاب بتلك الريــح، أو نجَّينا هودا... من

عذابهم، ثمَّ بيَّن أنَّ عذابهم غليظ نجا هود ومن معه منه، ومن غلظه أنَّه تدخل الريح من أنوفهم وتقطِّع أمعاءهم، وتخرج من أدبارهم، ولا تكرير في ذلك على التحقيق بل بسط.

أو التنجية الأولى من عذابهم بالريح في الدنيا والثانية من عذاب الآخرة بصيغة الماضي لتحقُّقها، كأنَّه قد وقعت، وكأنَّها حضرت حين مجيء أمره تعالى، أو يفسِّر ﴿نَجَّيْنَا﴾ بحكمنا بمجموع التنجيتين، أو تبين ما يكون لهم من التنجية في الآخرة، لأنَّ ما في الدنيا أمارة للآخرة، **وما تقدَّم أولى**، أو المعنى: وحكمنا بتنجيتهم من عذاب غليظ يصيب قومهم أيضا يوم القيامة.

﴿**وَتِلْكَ عَادٌ**﴾ إشارة إلى كفَّارهم لسيِّدنا محمَّد ﷺ كأنَّه يراهم وقومه لأنَّهم متحقِّقون، ولأنَّ آثارهم ترى ﴿سِيرُواْ فِي الاَرْضِ فَانظُرُواْ...﴾ [سورة النمل: 69] وقيل: أصحاب تلك: عاد.

وما قيل من أنَّ الإشارة إلى قبورهم مشكل، لأنَّ هودا ومن معه لم ينقل إلينا أنَّهم دفنوهم اللهمَّ إلَّا أن يقال دفنوهم، ثمَّ مضوا إلى مَكَّة، أو دفنهم سائر الناس، أو لعلَّ بعضا لم يهلكوا لعدم شدَّة شرِّهم فدفنوهم، ولله أن يعمَّ بعذاب وأن يخصَّ كما قيل إنَّه قيل لعجوز منهم: أيُّ عذاب الله أشدُّ؟ فقالت: كلُّه شديد لكن سعد يوم لا ريح فيه. وأيضا القبور والآثار لا تجحد آيات الله ولا تعصي فتحتاج إلى تكلُّف المجاز بتقدير الإضافة أو المجاز الارساليِّ؛ لأنَّ الضمائر بعدُ تنافي ذلك إلَّا بالتجوُّز، وكذا لو قيل: عاد بمعنى قبورهم وآثارهم.

﴿**جَحَدُواْ بِـَٔايَاتِ رَبِّهِمْ**﴾ تعدَّى بالباء لتضمُّنه معنى كفر، كما يعدَّى كفر بنفسه لتضمُّنه معنى جحد، أو كلاهما يتعدَّى بالباء وبنفسه.

﴿**وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ**﴾ هو هود ‹عليه السلام›، لأنَّه كالرسل كلِّهم، وكلُّ واحد من الرسل ككلِّهم، لأنَّه يجيء بالوحي من الله كما جاءوا ولو اختلفت شرائعهم، وَاتَّفَقُوا

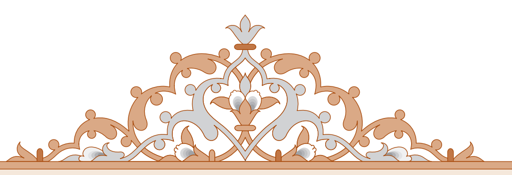
في بعض وفي التوحيد وخصاله ومكارم الأخلاق فعلا ومساوئها تركا، أو عصوا سائر الرسل لأنَّ الكافر برسول كافر بجميعهم، وقيل: الرسل هود ومَن قَبله، قيل: ومَن بعدَه أيضا، أو المراد بالآيات: الدلائل المنصوبة للتوحيد، أي لم يمعنوا النظر فيها، التي في الآفاق، والتي في أنفسهم وما احتجَّ عليهم به من غير ذلك، أو صحف شيت.

﴿**وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ من رؤسائهم، والعنيد: الطاغي المتجاوز في الظلم، وهم معاندون للحقِّ، وذلك من إسناد ما للبعض إلى الكلِّ.

﴿**وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً**﴾ يلعنهم الناس بعدهم، والجنُّ والملائكة والأنبياء في الوحي وكتبهم، وقيل: جعلت اللعنة كشخص يتبع آخر ليهلكه بالقتل أو ليلقيه في هوة، فذلك تمثيل، والضمير لعاد مطلقا، وقيل: لمتَّبعي الجبَّارين منهم.

﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ يلعنهم من ذكر وبعضهم بعضا، أو يقدَّر: وأتبعوا لعنة يوم القيامة، أو عطف على «هَذِهِ» لأنَّه على معنى «في» ولو نصب. ﴿**أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمُ**﴾ جحدوه أو كفروا به، أو كفروا نعمه ﴿**أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ**﴾ بعدوا بعدا، كرَّر ذكر هلاكهم وذكر اسمهم، سمُّوا باسم جدٍّ لهم، وأظهر، وذلك لمزيد التشنيع عليهم، والتحذير من فعلهم، وذلك إخبار لا دعاء، لأنَّ الله هو المالك لكلِّ شيء القادر على كلِّ شيء.

وقد يقال: أمر الخلق يدعون بذلك تعبُّدا. وهم عاد الأولى، ونبيئهم هود عليه السلام، وأضافها إلى هود احترازا عن عاد الثانية: عاد إرم، وإرم جدٌّ لهم يقال عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.



﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿61﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿62﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿63﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿64﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿65﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿66﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿67﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿68﴾﴾

قصَّة صالح عليه السلام

وذكر عادا الثانية ونبيئهم صالح عليه السلام بقوله: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا**﴾ مثل: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ والأخوَّة فيهما أخوَّة النسب،، سمُّوا باسم أبيهم ثمود لشهرته، وبين صالح وجدِّه ثمود خمسة أجداد، وبين صالح وهود مائة سنة، وعاش صالح مائتين وثمانين سنة، ومساكن ثمود بين الشام والمدينة.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وما تدعونه آلهة من الأصنام باطل ليس إلها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الاَرْضِ﴾ لا أصنامكم فليست آلهة، وإنَّما الإله هو الذي يخلق ما يشاء من الأرض.

ومعنى إنشائهم من الأرض إنشاؤهم مِمَّن أنشئ منها، وهو آدم بوسائط بينكم وبينه، وأيضا بعد إنشائه منها يأكل هو وآباؤكم وأمهاتكم وحواء مِمَّا نبت من الأرض، ومن لحوم وألبان ما يأكل مِمَّا نبت منها، أو يقدَّر: أنشأ آباءكم، وقيل: «مِنْ» بمعنى في.

وتقديم الفاعل في المعنى ـ وهو قوله: ﴿هُوَ﴾ ـ للتخصيص بمعنى أنَّه خصَّه بالذكر، لأنَّه لو كان غيره وحده أو معه لذكر ذلك، وبعض يصرِّح بأنَّ ذلك حصر، والمعنى على كلِّ حال: هو أنشأكم من الأرض لا غيره، تقول: أنا سعيت في حاجتك، أي لا غيري، ولو لم يذكر الضمير البارز لم يفد التخصيص.

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هو لا غيره، فهذا تخصيص أيضا لأنَّه معطوف على «أَنشَأَكُمْ» المخصَّص بذكر «هُوَ» قبل الفعل، ولو لم يُذكر أو أُخِّر تأكيدا لم يفد الحصر.

و«استفعل» هنا للتعدية وهو التصيير، أي جعلكم عامرين فيها، أي باقين أحياء، وذلك من العمر، يقال: عَمِرَ الرجل بكسر الميم يعمَر بفتحها عمْرًا بإسكان: أي بقي، واستعمره الله: أبقاه حَيًّا. أو للطلب أي طلبكم أن تعمروا الأرض بالسكنى والبنيان والحرث والإسلام، والطلب من الله على ظاهره، إلَّا أنَّ الله قادر غير محتاج قاهر غير عاجز. أو بمعنى الأمر والإقدار، أي أوجب عليكم عمارتها وأقدركم عليها، ونهاكم عن إخرابها بإهمالها وبعمل المعاصي.

[قلت:] والبناء واجب كسدِّ الثغور والقناطر على العيون المهلكة، وبناء المسجد الجامع في المصر، و[البناء] المندوب كالقنطرة على غير الماء، والمدارس والرباط تيسيرا للناس، ومباح كبيوت السكنى، ومكروه كالزيادة

على الحاجة ومزيد التجويد، ومحرَّم كالبناء بالحرام أو في الحرام، وبالمبالغة في التجويد، والتذهيب والتفضيض.

أو ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: من العمرى كما تقول في الحديث: هي لك عمري أو عمرك، أي جعلكم تسكنون فيها أعماركم، ثمَّ تتركونها لغيركم بالموت، أو جعلها لكم عمرى ويرثها بعد انصرام أعماركم.

﴿**فَاسْتَغْفِرُوهُ**﴾ من الإشراك والمعاصي وآمنوا به وحده ﴿**ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ**﴾ بالطاعة. و«ثُمَّ» لعلوِّ مرتبة التوحيد، والتخلِّي عن سائر المعاصي ﴿**إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ**﴾ أي ليس غائبا عن استغفاركم وتوبتكم ودعائكم، فهو نافعكم لعلمه بذلك، أو قريب الرحمة كما قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: 56] ﴿**مُّجِيبٌ**﴾ لداعيه، وقيل: «قَرِيبٌ» متعلِّق بـ«تُوبُوا»، و«مُجِيبٌ» متعلِّق بـ«اسْتَغْفِرُوا».

﴿**قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا**﴾ نرجوك للأمور العظام كالنفع بالرأي والمال والرئاسة لِمَا رأوا منه من حسن العشرة ومكارم الأخلاق، كالموافقة في الدين ورفع شأن الأصنام، وقيل: مرجوًّا للملك بعد ملكهم، لأنَّه ذو حسب وثروة، وقيل: مرجوًّا مؤخَّرا غير معتبر لحقارتك ﴿**قَبْلَ هَذَآ**﴾ أي قبل هذا الوقت الذي جئتنا فيه بالتوحيد وما تدَّعيه من الله ﷻ، أو قبل المجيء بذلك، أو قبل قولك هذا، وَلَمَّا رأينا منك ذلك انقطع رجاؤنا منك.

﴿**أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا**﴾ من الأصنام مع قدمهم وكثرتهم، وجودة رأيهم، وطول أزمنتهم؛ فـ«يَعْبُدُ» لحكاية الحال الماضية. ﴿**وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ**﴾ من التوحيد والطاعة والإيمان برسالتك ﴿**مُرِيبٍ**﴾ موقع في الريب لنا، من أراب المتعدِّي، فيكون من الإسناد إلى السبب، أو ذي ريب، من أراب اللازم.

وكلٌّ من كون الشـك ذا ريب، أو موقعا في الريب للمبالغة، كقولك: ظلٌّ ظليل أو مظلّل، أو المراد: إنَّ ذلك الشكَّ يورث الريبة وهي غيره، فإنَّه التردُّد، وهي بعده: ترجيح السـوء والاتِّهام به، أو القلق والاضطراب، ومورث ذلك حقيقة هو الله عزَّ وجلَّ.

﴿**قَالَ يَاقَوْمِ أَرَآيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي**﴾ حجَّة قاطعة واضحة، وأداة الشكِّ مراعاة باعتبار المخاطبين المشـركين ﴿**وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً**﴾ نبـوءة، أو أعمُّ ﴿**فَمَـنْ يَّنصُرُنِي مِـنَ اللهِ**﴾ عدَّاه بـ«مِـنْ» لتضمُّنه معنى: يمنعني مـن عذابه، أو النصرة مسـتعملة في لازم معناهـا ﴿**إِنْ عَصَيْتُهُ**﴾ بالإشـراك وغيره، وبعدم التبليغ وعدم أمركم ونهيكم، فإنَّ عذابه واقع لا محالة إن عصيته، فإن تكفَّلتموني بدفعه أمكـن لكم دعائي إلى معصيته، فيقولون: لا نقدر على دفعه، أو يقولون: نقدر، وهم كاذبون، أو مجازفون بلا تروٍّ، فلا وجه لقولكم.

﴿**فَمَا تَزِيدُونَنِي**﴾ بقولكم ﴿**غَيْرَ تَخْسِيرٍ**﴾ أي تضليل عن منافعي بإبطال ما أعطاني الله تبارك وتعالى، وبالتعرُّض لعذابه، أو غير نسبتكم إلى الخسران تطلبون قربي إليكم وأنتم تباعدون عنِّي، كفسَّـقه بمعنى: نسبه إلى الفسق، أو ما تزيدونني من أنفسـكم في جوابكم لي إلَّا خسـارا سـألتكم أن تعطوني الإيمان فأعطيتموني الخسـار باتِّباع آبائكم، قاله مجاهـد، ومثله لابن عطيَّة. وقيل: فما تزيدونني غير تخسيري إيَّاكُم، وكلَّما ازددتم تكذيبا ازددتم خسارة، والوجه ما مرَّ أوَّلاً.

وقد طلبوا قبل في جدالهم إيَّاهُ عليه السلام أن يخرج لهم ناقة وبراء عشراء حاملا من هذه الصخـرة، لصخرة عظيمة منفردة، فتمخَّضـت الصخرة كالمرأة حين الولادة فخرجت منها ناقة على ما وصفوا، لَمَّا خرجت ولدت، وقيل: شرطوا أن تخرج منها وولدها يتبعها، فكان ذلـك، فقال صالح: ﴿**وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ**

لَكُمۡ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾ أشار إلى الناقة بعد خروجها من الصخرة.

[نحو] و«ءَايَةً» حال من «نَاقَةُ»، وعامل «نَاقَةُ» متضمِّن لمعنى الفعل وهو أشير، وأيضا هاء التنبيه في معنى أنبِّه، وهذا التنبيه متسلِّط على مدخوله، فكأنَّه معنى لمدخوله. و«لَكُمۡ» حال من «ءَايَةً»، ولو نكرة لتأخُّرها، وذلك حال من الحال، ولا بأس به، وكلُّ الحالين مبيِّنة لهيئة صاحبها، أو «لَكُمۡ» حال و«نَاقَةُ»[1] حال من ضمير الاستقرار.

ومعنى ﴿لَكُمۡ﴾ أنَّها نفع لكم للإيمان وحلب اللبن والعسل منها، ونهاهم عن مضرَّتها وهي حرام، ولا سيما فيما لم يجر عليه ملكهم وهي الناقة، هي ملك لله تأكل من ملك الله وهي الأرض، وتشرب منها، ولا مؤونة لها عليكم، وأوعدهم على مسِّها بسوء، كقتل وجرح وحبس عن مرعى ومشرب، بعذاب قريب أي عاجل، هو لا يتأخَّر عن ثلاثة أيَّام بل يكون في آخرهنَّ أو عقبهنَّ.

ومضت مدَّة ﴿**فَعَقَرُوهَا**﴾ عقرها منهم قُدار بضمِّ القاف، فمنهم آمر ومنهم راض، ومنهم غير ناه فكلُّهم عقروها، ضربها في رجلها فوقعت على الأرض فذلك عقرها، فذبحوها وقسَّموا لحمها ﴿**فَقَالَ**﴾ صالح ﴿**تَمَتَّعُواْ**﴾ عيشوا، وفي الآية أنَّ الحياة مطلقا تمتُّع ولو تكدَّرت بنحو خوف، فإنَّهم إذا رأوا أمارة العذاب تنغَّصت عيشتهم، وأيضا قد علموا منه الصدق في أموره ﷺ، أو التمتُّع بمعنى التلذُّذ، تهكّم عليهم، أو تلذَّذوا بما شئتم ﴿**فِي دَارِكُمۡ**﴾ في بلدكم، ويسمَّى البلد دارا لأنَّه يتصرَّف فيه، ويقال لبلادهم ديار بكر[2]؛ أو أريد دار كلِّ أحد كلٌّ يتمتَّع في داره ﴿**ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ**﴾ ثمَّ تهلكون، الأربعاء

---

(1) كذا في النسخ. لعلَّه يقصد: و«آيةً» حال... إلخ.

(2) تقدَّم أنَّ ديارهم كانت بين الحجاز والشام، وهو المكان المسمَّى الآن مدائن صالح، ولعلَّ قول الشيخ بلادهم في ديار بكر أنَّهم نزحوا إليها قبل نزول العذاب عليهم.

والخميس والجمعة، فجاءهم العذاب آخر يوم الجمعة أو ليلة السبت، وقيل: صبيحة السبت، قالوا: وما العلامة؟ قال: تصفرُّ وجوهكم في الأربعاء وتحمرُّ في الخميس وتسودُّ في الجمعة.

[قصص] وَلَمَّا رأوا العلامة قصدوه بالقتل فهرب إلى أخواله في الصحراء، وليسوا في طغيان عاد، ولم يقدروا عليه، والفصيل رغا ثلاثا ـ عدد الأَيَّام الثلاثة ـ لَمَّا رأى قتل أمِّه، فقيل: قصدوا قتله أيضا فهرب، فدخل تلك الصخرة، وقيل: طلع الجبل، فقال صالح: إن أدركتموه تائبين فلعلَّكم تنجون، فأوحى الله إلى الجبل أن تطاول فتطاول حتَّى لا تدرك قُنَّته، وفيها الفصيل؛ وقيل: قتلوه بعد أمِّه.

﴿**ذَٰلِكَ وَعْدٌ**﴾ ذلك العذاب وعدٌ، أي موعود؛ أو ذلك الإخبار المعلوم من المقام ﴿**غَيْرُ مَكْذُوبٍ**﴾ أي غير مكذوب فيه، فذلك من باب الحذف والإيصال، وذلك أنَّ نفس الوعد لا يتَّصف بالصدق أو الكذب حقيقة إنَّما يتَّصف بهما المتكلِّم، أو شبَّه الوعد بالمخاطب ورمز إلى التشبيه باللازم وهو غير مكذوب تخييلا، وكأنَّه قال له واعدٌ: أفي بك، فإنَّ وفى به صدَقه ـ بتخفيف الدال ـ فهو مصدوق غير مكذوب، وإلَّا كذَبه ـ بتخفيف الذال ـ فهو مكذوب، وذلك كقوله تعالى: ﴿صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [سورة الزمر: 74].

وقيل: ﴿مَكْذُوبٌ﴾ بمعنى باطل ومتخلِّف، على المجاز الإرساليِّ، أو هو مصدر بوزن مفعول كالمفتون إذا قيل بمعنى الفتنة، وكالمجلود والمعقول بمعنى الجلد والعقل، والمنشور والمغبون بمعنى النشر والغبن.

﴿**فَلَمَّا جَآءَ اَمْرُنَا**﴾ مثل ما مرَّ في قصَّة هود: عذابنا، أو أمرنا بنزوله، ﴿**نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ**﴾ من العذاب وهم أربعة آلاف ﴿**بِرَحْمَةٍ مِّنَّا**﴾ بسبب رحمة مِنَّا ﴿**وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ**﴾ مثل ما مرَّ في قِصَّة هود، والتقدير: ونجَّيناهم من خزي، وهو العذاب بالصيحة، كما قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم

﴿مِّن عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، ولا يقبل تعليقــه بـ«نَجَّيْنَا» على أنَّ الواو زائد. والخزي: ذلك العذاب الدنيويُّ مفسَّر به.

ومعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم إذ جاء أمرنا ذلك، أو إذ قامت الساعة ولو لم يجر لها ذكر، لأنَّ العقل يســتحضرها عند ذكر هلاك الأشــقياء، وكأنَّها حضرت، وهو ضعيف، أو إذ أهلكنــا المكذِّبين بعد الثلاثــة، أو «إِذْ» هي «إذا» حذفت ألفها، فيكون المراد الاستقبال المنزَّل ـ لتحقُّقه ـ منزلة الماضي.

[نحو] «يَوْمَ» في محلِّ جرٍّ بإضافة «خِزْيِ» وبني لإضافته إلى «إِذٍ» المبنية النائب تنويها عــن الجملة، فكأنَّه أضيف «يوم» إلى جملــة ماضويَّة، كما بني «حين» لإضافته للجملة في قوله: «على حين عاتبت المشيب على الصبا»[1].

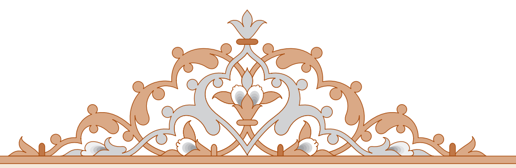
﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمَّد ﴿هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ لا يردُّ عَمَّا أراد ﴿وَأَخَذَ الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مقتضى الظاهر: وأخذهم، لكن ذُكروا بصفة القبح الموجبة لهلاكهم. ﴿الصَّيْحَةُ﴾: جنسها، وهي صيحة جبريل ‹عليه السلام› من السماء، وصيحة كُلِّ حيوان في الأرض، أو صوت من الســماء فيه شــبه أصوات حيوان الأرض كلِّه، أو صيحة من الســماء فيها كلُّ صاعقة وصوت مفزع، وفي الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [ســورة الأعراف: 78] ولعلَّ الرجفة وقعت بعد الصيحة المستتبعة لتموج الهواء، فتقطَّعت قلوبهم في ضحوة يــوم الرابع بعد أن تكفَّنوا بالأنطاع، وبعد ذلك ذهب صالح من أخواله إلى مَكَّة، وقيل: إلى فلسطين.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ صاروا، أو الصباح ما قبل الزوال وبعد الفجر، والديــار: المنــازل، و﴿جَاثِمِيــنَ﴾: باركين على ركبهــم ميِّتين، أو ساقطين على وجوههم، ويطلق الجثوم على الســكون، ثمَّ إنَّ العرب أطلقته على سكون الميِّت.

(1) البيت للنابغة وتتمَّته: «فقلت ألَمَّا أصح والشيب وازع؟». شواهد ابن عقيل، ص288.

﴿**كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ**﴾ لم يلبثوا ﴿**فِيهَآ**﴾ في ديارهم، غَنِيَ بالمكان بكسر النون يَغْنَى بفتحها: أقــام فيه، وكذا غني ضدُّ الفقــر، و«كَأَنْ» مهملة لَمَّا خفِّفت، أو اسمها ضمير الشأن، وهو المشهور.

﴿**أَلَآ إِنَّ ثَمُودًا**﴾ نوّن لمعنى القوم والحيِّ، أو لأنَّه الأب الذي ســمِّيت به القبيلة على حذف مضاف، أي أولاد ثمود، أو نســل ثمود، وقيل: نُوِّن نظرا لأوَّل وضعه، وإن كان المراد هنا القبيلة، وكذا نوَّن الكسائي ثمود في قوله: ﴿أَلَا بُعْــدًا لِّثَمُودَ﴾. ﴿**كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْــدًا لِّثَمُودَ**﴾ مثل ما مرَّ في قصَّة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ.



﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿69﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿70﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿71﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿72﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿73﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿74﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿75﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿76﴾﴾

قصَّة إبراهيم عليه السلام وبشارته بإسحاق ويعقوب

﴿**وَلَقَدْ جَآءَتْ**﴾ لم يقل: وإلى إبراهيم كما في نظائره، لأنَّ الملائكة للبشرى لا للرسالة، وإنَّما أرسلوا إلى قوم لوط كما قال: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿**رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ**﴾ ثلاثة عشر ملكا رئيسهم جبريل، وهو منهم على صورة غلمان، وفي غاية الحسن.

[قصص] وقيل: تسعة أحدهم جبريل، وقيل: ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: وعزرائيل فهم أربعة، وقيل: ثمانية أحدهم جبريل، وقيل: أحد عشر أحدهم جبريل، وفي جميع الأقوال هم على صورة الغلمان الذين في غاية الحسن. وعاش إبراهيم مائة وخمسا وسبعين سنة وبينه وبين نوح

ألف سنة وستُّمائة سنة وأربعون سنة، وإســحاق مائة وثمانين سنة، ويعقوب مائة وخمسا وأربعين.

ورجَّحوا في عدد الرسل المرسـلين إلى إبراهيم من الملائكة أنَّهم ثلاثة، وهو قول ابن عبَّاس، لأنَّ أقلَّ الجمع ثلاثة، وهي مقطوع بها وما فوقها محتمل، وإطلاقه على أقلَّ مجـاز يحتاج إلى قرينة، ورجَّح بعض عشـرة على أنَّها أوَّل جموع الكثرة، وبعضهم أحد عشـر على أنَّ العشـرة أكثر جمع القِلَّة، وبعض تسعة على أنَّها أوَّل جمع الكثرة، وبعض ثمانية كذلك، والرسل جمع كثرة.

﴿**بِالْبُشْرَىٰ**﴾ بالتبشير بإسحاق من صلبه ويعقوب من صلب إسحاق كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾، ﴿فَبَشَّـرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [سورة الصافات: 101] وقال: ﴿وَمِنْ وَّرَآءِ اِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾، وقال: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [سورة الأنبياء: 72]. وقيل: بهلاك قوم لوط، [قلت:] وهـلاك العدوِّ من أعظم ما يكون التبشـير به، ولا سـيما عدوّ الدين، واعترض بقوله تعالى: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَـوْمِ لُوطٍ﴾، وقيل: بعدم لحوق الضرر بـه، ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَـنِ اِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ الْبُشْـرَىٰ﴾ وقيل: البشارة الأولى من مكائيل، والثانية من إسرافيل عليهما السلام.

﴿**قَالُواْ سَلَامًا**﴾ سلمنا عليك سلاما، أي تسليما، والجملة إنشائيَّة، أو هو مفعول «قَالُوا» أي ذكروا سـلاما بلفظ: «السـلام عليك»، أو «سلام عليك»، فيكون في قولهم بالجملة الِاسـمِيَّة كما في جواب إبراهيم، أو بلفظ: «سلمنا سلاما»، أو بحذف «سلمنا» فيكون دون سلام إبراهيم، لأنَّه بالفعليَّة، والأَولى أن لا يكون دونه.

﴿**قَالَ سَـلَامٌ**﴾ أي عليكم سـلام، أو سـلام عليكم، أو أمري سلام، أو جوابي سـلام. ﴿**فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ**﴾ أي ما تأخَّر عن أن جاء، أو في أن جاء، أو بأن جاء، أي ما قام غير جاء، وذلك مبالغة في السرعة وإلَّا فلا بدَّ من الاشـتغال بعد مجيئهم بذبح العجل، وشـيِّه أو طبخه اللهمَّ إلَّا إن هيِّئ قبلُ

لحاجة، لشـدَّة رغبته في الإضافة، وليوافق جائعا، ولشـدَّة كرمه، ويناسـبه: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [سورة الذاريات: 26] بفاء الاتِّصَال.

وقد يقال: التجدُّد للضيف أشدُّ إعظاما له، وأزيد في الاعتناء به، واختاره بعض المحقِّقيـن، وأنا أختـار الأوَّل لأنَّ الإفراح بالطعام مطَّـرد، وليس كلُّ مضاف يعـرف أنَّ في التأخيـر للتجدُّد اعتنـاء به، وليس يعـرف أنَّ التأخير للتجدُّد، نعم الطعام الجديد أحلى ببقاء بعض حرارته.

ويجوز أن يفسَّـر ﴿لَبِثَ﴾ بأبطأ، وفاعل «لَبِثَ» ضمير إبراهيم، ويجوز أن يكون ﴿أَن جَآءَ﴾: أي ما أبطأ، أو ما تأخَّر مجيئـه بعجل، ولا حاجة إلى جعل «مَا» مبتدأ أو مَصدَرِيَّة، والمصدر مبتدأ والخبـر «أَن جَاءَ» على حذف مضاف، أي فلبثه قـدر مجيئه بالعجل، أو اللبث الذي لبثه قـدر مجيئه لِمَا في ذلك من التكلُّف. ﴿حَنِيذٍ﴾ مشوي في حجارة محماة، أو مطبوخ، والأوَّل أولى، أو يقطر دسمه بعد شيِّه أو طبخه، يقال حنذتُ الفرس إذا ألقيت عليه ما يعرق به كالجل.

[قصص] وكان عَامَّة ماشـية إبراهيم البقر فيما قيل، والمشهور الغنم. قيل: مكث عَلَيْهِ السَّلَامُ خمسـة عشـر يوما لم يأكل مع الضيـف، إذ لم يجـده، وَلَمَّا جاءه الملائكة ظنَّهم أضيافا فعجَّل إليهم فرحا، وكان لا يأكل إلَّا مع الضيف ما وجده.

وفي مجيئه بعجل مع أنَّه يكفي بعضه سـنَّة تقديم أكثر مِمَّا يأكل الضيف بكثير لينبسـط في الأكل، ولا يستحيي، ويسـنُّ للمضيِّف النظر إليه مسارقة ليقوم لهم بالأصلح، لا مواجهة لِئَلَّا يستحيوا.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي إلـى العجل الحنيذ إذ لم يمدُّوها إليه، لأنَّ الملائكة لا تأكل، وذلك بعد أن قرَّبه إليهـم، وقال: ﴿أَلَا تَاكُلُونَ﴾ [سـورة الذاريات: 27] كما في سورة أخرى، وقيل: لا تصل لأنَّهم يتناولون بغيرها، وهو باطل لأنَّ الملائكة لا تعبث وتنزه عن إفساد الطعام، ولو خيَّلوا له الأكل بذلك لم ينكرهم ولم يقل لهم: «أَلَا تَاكُلُونَ؟». ﴿نَكِرَهُمْ﴾ توحَّش منهم ولم

تطمئنَّ نفســه إليهم، حتَّى خاف أن يكونوا عدوًّا أرادوا قتله إذ لم يأكلوا، لأنَّ الجائي إلى ضرٍّ لا يأكل ما قدَّم إليه المجيء إليه، وأيضا دخلوا بدون استئذان وفي غير وقت المجيء، وأيضا لا يعرف سلاما في زمانه، وفي أرضه.

وقيل: علمهم ملائكة وخاف أنَّه بدَّل فجاءوا لإهلاكه، خاف على نفسه لأمر لم يرضه الله تعالى منه، أو على قومه، أو عليه وعليهم، وللملائكة اطِّلَاع على ما لم يطَّلع عليه الإنسان، وفي حديث البخاري: «**قالت الملائكة: ربِّ إنَّ عبدك هذا يريد أن يعمل بسيِّئة...**»[1]، وذلك بأمارة لا باطِّلاع على ما في القلب.

﴿**وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ**﴾ أضمر أو بلغ، فإنَّه من نُكْــرِهِ لهم بلغ الخوف وأدركه ﴿**خِيفَةً**﴾ نوعا من الخوف قويًّا أو ضعيفا أو متوسِّــطا، ولو علمهم ملائكة لم يقدِّم لهم مأكولا، ولا خاف منهم، ولا ســيما أنَّهم في صورة حسنة ﴿**قَالُواْ**﴾ لِمَا أحســوا منه من الخوف، إلهاما من الله لهم، أو لِمَا رأوه من أثره في وجهه وكلامه، ثمَّ تذكَّرت أنَّه صرَّح لهــم بالخوف كما في آية أخــرى: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [سورة الحجر: 52].

وعن ابن عَبَّاس أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ أحسَّ بأنَّهم ملائكة كما قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ فهو عرفهم ولم يعرف فيم أرســلوا، فأخبروه، فالإنكار المدلول عليه بـ«نَكِرَهُمْ» غير الإنكار المدلول بـ﴿سَــلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَــرُونَ﴾ [الذاريــات: 25]، وهو هنا بعد إحضار الطعام وهناك قبله، أو ما هنا راجع إلــى حالهم حين إحضار الطعام، وما هناك متعلِّق بهم لا بعــدم الأكل، ولا يخفى أنَّ المتبــادر أنَّه لم يعرفهم

(1) رواه **مســلم** في كتاب الإيمان: «إذا همَّ العبد بحســنة كتبت وإذا همَّ بسيِّئة لم تكتب». رقم 205 (129). وأوَّل الحديث عنده: قال ﷺ: قال الله ﷻ: «إذا تحدَّث عبدي بأن يعمل حســنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا اكتبها بعشــر أمثالها وإذا تحدَّث بأن يعمل ســيِّئة فأنا أغفر له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلــه». وقال ﷺ: قالت الملائكة: «ربِّ ذا عبدك...». وتمام الحديث هو: «... وهو أبصر به، فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنَّما تركها من جرَّائي...».

ملائكة حتَّى قالوا: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ ولو عرفهم ملائكة لم يقدِّم إليهم الطعام، فما عرفهم إلَّا بعد تقديمه، وذكر بعض أنَّه لم يعرفهم ملائكة حتَّى مسح جبريل على الحنيذ فأسرع يرضع أمَّه.

﴿**لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ**﴾ بالعذاب، ولم نأكل طعامك لأنَّا ملائكة، لا نأكل لا لإرادة سوء بك، ولوط هو ابن أخي إبراهيم وهو لوط بن هاران وهاران أخو إبراهيم، وفي سورة أخرى: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [سورة الذاريات: 32 ـ 34].

﴿**وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ**﴾ قال ابن مسعود: قائمة وهو قاعد، تخدمهم بنحو الإطعام والشراب، ولعلَّ نساءهم لا تحجب، ولا سيما العجائز وهي عجوز، وقيل: قائمة وراء الحجاب تستمع كلامهم، والستر اتِّفَاقي، وقيل: لوجوب الستر عليهنَّ.

وقال ابن إسحاق: قائمة تصلِّي، ولا دليل له، وقال المبرّد: قائمة عن الولادة، وهو بعيد، ولم تعلم هي ولا إبراهيم أنَّهم ملائكة ولو علما ما فعلا، لأنَّهما يعلمان أنَّ الملائكة لا تأكل ولا تشرب، ولا مانع من أن يعلما من ذلك الوقت مع عدم علمهما من قبل أنَّهم ملائكة، [قلت:] وقيام المرأة بأمر الضيف جائز غير مكروه على عادة العرب.

[قصص] واسمها «سارَّة» ـ بشدِّ الراء ـ تسرُّ من رآها لمزيد جمالها، لفظ عربيٌّ، أو «سارت» بتخفيفها وجر التاء في السطر لفظ عجميٌّ في هذا الوجه الأخير، وأصله على هذا «يسارت» بمثنَّاة تحتيَّة أسقطت، وزيدت في اسم ابنها حي بن زكرياء فصار يحيى، وهو ابنها بوسائط، وهي بنت عمٍّ إبراهيم: سارة بنت هاران بن ناحور.

والواو للحال، وصاحبها واو «قَالُوا». ﴿**فَضَحِكَتۡ**﴾ فرحا بزوال الخوف الذي أوجسه إبراهيم عنه وعنها، وقد خافت أيضا كخوف إبراهيم أو لخوفه

وفرحا بإهلاك أهل الفساد، وهم قوم لوط، أو لذلك كلِّه وكانت شديدة الإنكار عليهم، وفرحا بموافقتها أمر الله ﷻ إذ كانت تقول لإبراهيم في ما مضى وقبل دخول الملائكة: أضمم إليك ابن أخيك لوطا فإنَّ الهلاك ينزل عليهم، فضحكت إذ قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ...﴾، وقيل: لوط ابن أخي إبراهيم، وقيل: ابن خالته، ويقال: أخي سارَّة، قيل: مصدِّقا لكلامها.

[قصص] وبعد تمام قولها لإبراهيم دخل الملائكة وكان قولهم ذلك وفرحا بقول الملائكة حقيق لهذا أن يتَّخذه الله خليلا، لَمَّا قال: ﴿أَلَا تَاكُلُونَ﴾ [سورة الذاريات: 27] قالوا: لا نأكل طعاما إلَّا بالثمن، فقال: ثمنه أن تذكروا الله أوَّله وتحمدوه آخره، فقال جبريل ومكائيل عليهما السلام: لحُقَّ لمثل هذا الرجل أن يتَّخذه الله خليلا، وقيل: نظر جبريل إلى مكائيل فقال: لحُقَّ...، والمعنى: لو كنَّا نأكل لأكلنا بالثمن.

وقيل: ضحكت فرحا بالولد، ويردُّه أنَّ الضحك وقع قبل علمها بالولد، لعطف التبشير بالفاء المرتِّبة، إلَّا أن يتكلَّف أنَّها بمعنى الواو، وهو محتاج إلى دليل، وكذا قول من قال: ضحكت تعجُّبا من التبشير بالولد مع أنَّها عجوز وزوجها شيخ.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير وقيل: ضحكت تعجُّبا من خوفه من ثلاثة وهو في حشمه وخدمه وأهله، وأنَّه وحده يغلب أربعين، وقيل: مائة، وقيل: تعجُّبا من غفلة قوم لوط عن قرب العذاب، وقيل: ضحكت من حياة الحنيذ بمسح الملك عليه، وقيل: تعجُّبا من أنَّهم لا يأكلون مع أنَّها أحسنت خدمتهم، يا عجبا لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا!.

وقيل: «ضَحِكَتْ»: حاضت كقول الشاعر:

وعهدي بسلمى ضاحكا في لبابة ... ولم يعد حقًّا ثديها أن تحلَّما

وفيه أنَّه لا يعرف قائل البيت، ويقال: ضحكت السـمرة أي سال علكها، ولعلَّه مصنوع، وكذا قوله:

وإنِّي لآتي العرس عند طهورها وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا[1]

وجمهور اللغويِّين أثبتوا «ضَحِكَتْ»: بمعنى حاضت، وضحكت الأرنب: حاضت، وفيه أنَّ المعروف: حاضت السمرة، ولعلَّ المفسِّر الأوَّل ذكر حاضت إخبارا بأنَّها حاضت بعد كبر السن، لا تفسيرا لضحكت بمعنى حاضت، فتوهَّم الناس أنَّه تفسير. ومعنى البيت أنَّ وصلي بسـلمى حال ما حدث لها الحيض في بدء بلوغها دخلت في جملة نسـاء لبابة أي خالصة عَمَّا يكدِّر أبدانهنَّ من نوائب الدهر، فإنَّ لباب كُلِّ شيء خالصه، وتحلَّم الثدي: بدت حلمته.

واعترض تفسـير الضحك بالحيض بأنَّه لا يلائمـه تعجُّبها بعد إذ قالت: ﴿ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ...﴾ لأنَّه لو حاضت قبل التبشـير لـم تتعجَّب من الولادة، لأنَّ الحيض معيار الولادة، وأجيب بأنَّ التعجُّب من التبشير بالولادة مطلقا لا بقيد الحيض، وأنَّه لا يلزم من الحيض الولادة، وأنَّها تعجَّبت لكبر سنِّها وسنِّ زوجها ولمجيء الحيض في غير أوانه.

﴿**فَبَشَّـرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ**﴾ ولدته بعد التبشير بسـنة، وبعد إسماعيل بأربع عشرة سنة، وبثلاثة عشر قبل وقوعه في البطن ﴿**وَمِنْ وَّرَآءِ اِسْحَاقَ يَعْقُوبُ**﴾ أي ويعقوب ثابت بالولادة، أو مولود بعد إسـحاق، وهذا متضمِّن للتبشير بيعقوب على تقدير القول، أي قائلين: من ورائِه يعقوب مولودا له، أي لإسحاق، أو ضمِّن «بشَّر» ذكرنا لها إسـحاق ولدا ملوَّحا بابنه يعقوب بعده، وهي مبشَّرة بولد من بطنها وبولد من ذلك الولد تعيش حتَّى تراه، وذلك يناسـب أنَّ لها رغبة وحرصا في الولادة «أَحبُّ شيء إلى الإنسان ما منعا». وقدَّر بعض: ويحدث من وراء إسحاق يعقوب.

---

(1) لم نقـف على قائلـيْ هذيْن البيتين، وقـد أوردهما المفسـرون، منهم **الآلوسـي** في روح المعاني، ج12، ص98.

ويجوز كما هو ظاهر الآية أنَّ يعقوب ليس من التبشير لكن أخبرنا الله أنَّه بشَّرها بإسحاق، وأخبرنا أنَّه يكون منه يعقوب، وقيل: ﴿وَراء﴾: بمعنى ولد الولد لا على معنى أنَّ من ولد إسحاق يعقوب، لأنَّ يعقوب ولد إسحاق لا ولد ولده بل على أنَّه وراء إبراهيم من جهة إسحاق، فهو وراء إسحاق من حيث إنَّه وراء إبراهيم، فأضيف لإسحاق تقييدا بأنَّ هذا الوراء الذي هو لإبراهيم معتبر بإسحاق لا بإسماعيل، **وذلك تكلُّف يجتنب**، وكما بشِّرت بشِّر إبراهيم، كأنَّه قيل: هذا ولد مبشَّر به يكون منها فإنَّه ينتظر ذلك وزيادة إذ قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [سورة البقرة: 124] إلَّا أنَّها أشدُّ حرصا لأنَّها لم تلد قطُّ، وهو قد ولد إسماعيل، أو مع غيره، ولو كان أشدَّ حرصا منها من حيث قصد الإمامة لكنَّه لم يدر في الوقت أنَّ هذا الولد إمام ولو علم بعد ذلك.

﴿**قَالَتْ يَاوَيْلَتَىٰٓ**﴾ يا هلكتي، هذا أصله، والمراد: الأمر المهول خيرا أو شرًّا، والتاء للوحدة والألف عن ياء المتكلِّمة. ﴿**ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ**﴾ بنت تسع وتسعين، وقيل: بنت تسعين ﴿**وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا**﴾ ابن مائة على أنَّها ابنة تسعين، أو ابن مائة وعشرين على أنَّها ابنة تسع وتسعين، روايتان فيهما.

[نحو] و«شَيْخًا» حال من الخبر، وعامل الخبر هو المبتدأ، والمبتدأ هو العامل في الحال لتضمُّنه معنى أشير، وفي الهاء أيضا معنى أنبِّه، وقال الكوفيُّون: «هَذَا» في مثل هذه العبارة تعمل عمل كان.

[لغة] و﴿بَعْلِي﴾: زوجي، سُمِّيَ الزوج بعلا لاستعلائه على امرأته، لأنَّ البعل هو المستعلي على غيره القائم به، كما أنَّ الرجل قائم بأمر امرأته من نفقة وغيرها، كما سُمِّيَ صنم بعلا لادِّعائهم أنَّه قائم بأمر عابده، وقيل: هو في الأصل: الزوج وَسمِّيَ غيره به تشبيها.

[نحو] «وَأَنَا عَجُوزٌ»: حال من ضمير «ءَالِدُ». و«هَذَا بَعْلِي شَيْخًا»: معطوف على الحالية، وحاليته بالعطف لا بالواو، لأنَّ واو الحال لا

تتكرَّر، وهذه الواو عاطفة لا حالية، إلَّا إن لمحت في «عَجُوزٌ» ضميرا ردًّا إلى أصله من الوصفيَّة، فجعلت «هَذَا بَعْلِي شَيْخًا» حالًا من الضمير فتكون الواو للحال.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما ذكر من الولادة من الهرِمين، وأيضا أحدهما عقيم أو في هذا الولْد بإسكان اللام على المصدَرِيَّة، أو هذا الذي يولد، أو حصول الولادة، وقيل: الإشارة إلى أنَّ «ءَالِدُ» باعتبار مصدره المؤنَّث وهو الولادة، لأنَّ المصدر بالتأويل لا يؤنَّث ضميره نحو: أعجبني أن تقيم لا يقال أعجبتني، ولو أردت التأويل بـ«إقامتك» لا بـ«إقامك». ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ تعجَّبت من خلاف العادة، مستعظمة للنعمة مصدِّقة بقدرة الله ﷻ، وكذلك الاستفهام في «ءَالِدُ» تعجُّب وتعجيب، ولا إنكار.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنَ اَمْرِ اللهِ﴾ مع أنَّ قدرته صالحة لخرق العادة، وهذا إنكار لأن يكون تعجُّبها لائقا، أرادوا منها أن يكون قلبها مطمئنًّا إلى المعتاد وخلاف المعتاد على حدٍّ سواء لكمال قدرته، وكثرة خوارق العادة ومشاهدتها في جنب إبراهيم وغيره، وعلمُها بها كالوحي، وعلمها بأنَّه قبل تزوُّجه إيَّاها ألقي في النار ولم تحرقه. ويقال: نشأت وشابت في ملاحظة الآيات، لَمَّا شاب إبراهيم كان أهل زمانه ومن بعده يشيبون، أو أريد بشيبها أوانه لا وقوعه منها.

﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمُۥٓ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ إخبار، وقيل: دعاء من الملائكة بالرحمة تحضر ـ وهي مزيد الإنعام ـ وبالبركة بعدُ بأن تنمو تلك الرحمة، وتتوالد له ولذرِّيَّته، وكلٌّ من الرحمة والبركات عموم، ومن الرحمة الولادة، وقيل: الرحمة النبوءة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل، والأنبياء منهم غالبا، وهم من ولد إبراهيم عليه السلام، وقيل: رحمته تحيَّته، وبركاته فواضل خيره.

[نحو] والنصب على الاختصاص، كقوله ﷺ: «**نحن معاشرَ الأنبياء إخوة**»[1] بنصب معاشر، أي أخصُّ أهل البيت، والاختصاص وضعٌ لا على تضمُّن مدحٍ أو ذمٍّ، أو النصب على المدح بأن وضع على رسم المدح كما هنا، أو الذمِّ، أو النصب على النداء.

و ﴿الْبَيْت﴾: بيت إبراهيم، والمراد: آله بيت نسب لا بيت طين وخشب، وقيل: هو المراد، وعلى الأوَّل تدخل الزوجة وهي سارَّة، والزوجة تدخل في أهل البيت قيل لهذه الآية، وفيه أنَّها ـ قيل ـ هي بنت عمِّ إبراهيم وهي من نسبه، فلا دليل، وقيل: المراد بيت الطين والخشب فتدخل بأنَّها فيه، وإنَّما الدليل على أنَّ زوجة الرجل من آله آية الأحزاب: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ...﴾ الآية [سورة الأحزاب: 33]. وزعمت الشيعة أنَّها لا تدخل في آل زوجها وأهل بيته إلَّا إن كانت من نسبه، واخرجوا عائشة ﵂ من هذه الآية.

ولم يحيُّوها بالسلام كإبراهيم بل بالرحمة والبركة تفنُّنا، أو لأنَّه لم يكن تَحِيَّة أهل الأرض، وجمع وذكِّر لإبراهيم والملائكة ولذرِّيَّتها، أو لأنَّها كجملة رجال عقلاء.

واستدلَّ بالآية على انتهاء السلام في البركات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ومثله في الردِّ، فإن زاد لم تردَّ عليه الزيادة للنهي عن هذه الزيادة، وقيل: تردُّ لقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا﴾ [سورة النساء: 86] ويجاب بأنَّ المراد: بأحسن منها فيما لم يرد النهي فيه بأن يردَّ بغير هذه الزيادة، وذلك أنَّه ﷺ قيل له: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه فغضب حتَّى احمرَّت وجنتاه وقال: «**ما هذا السلام؟ إنَّ الله تعالى حدَّ السلام**» وقرأ: ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[2].

---

(1) أورده **ابن الجوزي** في تفسيره زاد المسير، ج2، ص373.

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره أثرا عن ابن عَبَّاس، ج4، ص102.

﴿إِنَّــهُ حَمِيدٌ﴾ محمود، لا يوجــد في ذاته أو فعله أو وصفــه ما يذمُّ، بل صفاته ذاته فهو محمود في الســرَّاء والضرَّاء، أو عظيــم الحمد وكثيره لعباده بمعنى حامد، أي مجازيهم علــى الخير، ومنه هبة الولد حيــن الإيَّاس، فهو يدعو للحمد لا للتعجُّب ﴿مَّجِيدٌ﴾ جواد كريم، أو رفيع الشأن.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾ بالتبشير بالولادة، وقول الملائكة: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿عَنِ اِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الخوف من الملائكة الجائين ولم يأكلوا طعامه، ولا يعرف أنَّهم ملائكة ﴿وَجَآءَتْهُ الْبُشْــرَىٰ﴾ بالولادة على ما مرَّ. ﴿يُجَادِلُنَا﴾ جواب «لَمَّا»، وكان مضارعا لأنَّه للتجدُّد، كأنَّــه قيل: تكرَّر جداله حين ذهب... بأن يقول: فيهم لوط وهو مؤمن! أو لإرادة اســتحضار الحال الماضية، أو بمعنى: جادلنا كما ترِدُ «لو» المضــارع بعدها للماضي، كقولــه تعالى: ﴿قُل لَّــوَ اَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ [ســورة الإســراء: 100] أي لو ملكتــم، أو الجواب محــذوف والجملة خبر لــه، أي جعل يجادلنا، أو محذوف والجملة مســتأنفة، قيل: أو حال من «إِبْرَاهِيم»، أو من هاء «جَآءَتْهُ»، أي اجترأ على الجدال أو فطن له، أو **يقــدَّر: أقبل يجادلنا،** فـ«يُجَادِلُ» حال من ضمير «أقبل». ﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ في شــأنهم كيف يهلكون كلُّهم؟ وفيهم ثلاثمائة مؤمن، و«يُجَادِلُنَــا» على حذف مضاف: يجادل رســلنا، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ...﴾ إلى ﴿...لُوطًا﴾ [سورة العنكبوت: 31ـ32].

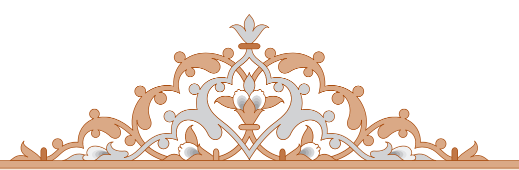
﴿إِنَّ إِبْرَاهِيــمَ لَحَلِيمٌ﴾ صبــور لا يرغب في الانتقام، فهــو يحبُّ تأخير العذاب عنهم لعلَّهم يؤمنون ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التوجُّع عن الذنوب والتأسُّــف عن الناس لذنوبهم ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إلى الله عن كلِّ شيء.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيــمَ...﴾ بيان لحامله على المجادلة، وهو شــدَّة رأفته، ومن تكريره معهم أنَّه قال: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: فقرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فأربعة عشــر؟ قالوا: لا، قال: فواحد؟ قالوا: لا، قال: إنَّ فيها لوطا.

وعن حذيفــة: أرأيتم إن كان فيها خمســون من المســلمين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، قال: فعشرون؟ قالوا: لا، قال: فعشرة؟ أو قال: فخمسة؟ ـ شكَّ الراوي ـ قالوا: لا، قال: فواحد؟ قالوا: لا، قال: إنَّ فيها لوطا، قالوا: نحن أعلــم بمن فيها، وذلك جدال بنفــي العذاب، وهم قالوا: نحن أعلم منك بمن لا يســتحقُّ العذاب وهم لوط وأهله، إلَّا امرأته كما في آية أخرى، وبمن يســتحقُّه. وقيل: الجدال طلب الشــفاعة، وقيل: ســؤاله: أَلعذاب واقع لا محالة؟ أم على سبيل التخويف ليرجعوا؟ وَلَمَّا طال جداله قالت الملائكة بأمر الله:

﴿**يَآ إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ امْرُ رَبِّــكَ وَإِنَّهُمُۥ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَــرْدُودٍ**﴾ فذلك مفعول لقول محذوف، أي قالــوا يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدال إنَّه قد جاء أمر ربِّــك، وهو عذابه لهم الــذي تعلَّقت به الإرادة الأَزَلِيَّة لأوانه كسائر المخلوقات، **والأمور لأوانها**. فالأمر واحد الأمور، أو هو القضــاء بمعنى متعلَّقــه، أو الإرادة بمعنــى متعلَّقها، والقــدَر: تعلُّق الإرادة بالأشياء في أوقاتها.

و ﴿غَيْرُ مَــرْدُودٍ﴾: غير مصروف بجدال، كما قــال: ﴿يُجَادِلُنَا﴾، ولا بفَوْتٍ ولا دعاء، كما قال: ﴿مُنِيبٌ﴾ فإنَّ المنيــب يدعو المناب إليه، كما قال: ﴿أَوَّاهٌ﴾، أو غير ذلك كالتحسُّــر. ومعنى ﴿جَآءَ﴾: استقبل، أو شارف الحضور، فلا ينافي قوله ﷻ: ﴿ءَاتِيهِمْ﴾ والأولى تفسير الأمر بالقضاء لا بالعذاب، لذكر العذاب بعد، وعلى كلِّ حال في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمُۥ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ...﴾ تأكيد أو تفســير لِمَــا قبله، وزيادة، أو المجــيء توطئة لقوله: ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.



﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾

قصَّة لوط عليه السلام مع قومه

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ﴾ لإهلاك قوم لوط ﴿رُسُلُنَا﴾ أي الملائكة الذين بشَّروا إبراهيم عليه السلام بالولد، وخاطبوا زوجه المسلمة رضي الله عنها، وقيل: خاطبوا بنتا له وجدوها تستقي من عين سدوم، فسألوها من يضيِّفهم فخافت عليهم، فقالت: مكانكم، فأخبرته فجاءهم. ﴿لُوطًا﴾ قيل: أتوه نصف النهار وهو يعمل في أرض له، وقيل: يحتطب، وقيل: عشاء، وبين قرية إبراهيم التي جاءوا منها وقرية لوط ثمانية أميال، وقيل: نصف نهار، وقيل: أربعة فراسخ كما روي عن ابن عبَّاس.

﴿سِيءَ﴾ مِن «ساء» المتعدِّي، ففيه ضمير لوط نائب الفاعل، أي ضُرَّ وأُحزن، أي ساءه الله ﴿بِهِمْ﴾ كما يدلُّ له الإضمار للوط في قوله: ﴿وَضَاقَ﴾ فلا داعي إلى جعله من اللازم وجعل «بِهِمْ» نائبا، وهاء «بِهِمْ» للملائكة الرسل، ووجه سوئه بهم أنهم في صورة غلمان مرد لهم جمال لم ير مثله، وخاف أن يفحش بهم قومه، ويعجز عن دفعهم كما قال: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل، أي ضاق بهم ذرعه، أي ضاق.

[لغة] وأصله مِن ذرع البعير بيديه على قدر خطوه وطاقته، مأخوذ من الذراع، فاستعمل بمعنى الطاقة، فقيل: ضاق ذرعه كما إذا حمل عليه أكثر من طاقته قصرت خطاه ومدَّ عنقه، والأصل أنَّ الذراع الطويل ينال ما لا ينال القصير، فضرب ذلك مثلا في القدرة والعجز، ويفسَّر بالقلب مجازًا، وَضيقُهُ كنايةٌ عن شدَّة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه.

﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ معصوب عليه بالسوء، أي شدَّ عليه السوء، فهو من الحذف والإيصال، أو معصوب بالسوء. والإسناد إلى اليوم مجاز، والمراد: شدَّة ما فيه من النوائب لقوَّة قومه وشدَّة خبثهم، مع انتهاء هؤلاء الأضياف إلى غاية من الجمال، ولمزيد الضرِّ ذكَّر بهم مرَّتين وزاد: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

﴿وَجَآءَهُ قَوْمُهُ﴾ وهو في بيته مع الأضياف لأجل الفحش بالأضياف ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ كأنَّه أهرعهم إليه أي جمعهم إليه جامع بإسراع، كأنَّهم قهرهم على الإسراع قاهر، وذلك كناية عن شدَّة إسراعهم باختيارهم، كما أنَّ ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ كناية عن شدَّة الانقباض للعجز عن دفعهم عن أضيافه، وقيل: أهرعهم كبيرهم وساقهم، أو الطمع، أو أهرع بعض بعضا، ويقال أيضا: اللفظ للمفعول ولا يوجد له فعل مبنيٌّ للفاعل والمعنى البناء للفاعل، أي مسرعين، كأُولِع وزُكِم وعُنِي به وزُهِي عمرو.

[لغة] وقيل في «يُهْرَعُونَ» إنَّه الارتعاد ضرورة من خوف أو برد أو علَّة، كما يقال: أُرعد بالبناء للمفعول في ذلــك، وأوَّل بعضهم ذلك بأولعه طبعه، وأرعده غضبه أو خوفه، أو نحو ذلك، وجعله جهلــه أو ماله زاهيا، وأهرعه حرصه وهكذا...

﴿وَمِــن قَبْلُ﴾ قبــل مجيئهم لوطا أو قبل إرســال الله تعالــى لوطا إليهم ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّــيِّئَاتِ﴾ أي هم معتادون لأعمال اللواط لا يستحيون ولا يستخفون، ولذلك قصدوا ضيفك، والجمع باعتبار الأدبار، وإلَّا فالمراد نوع واحد، وهو إتيان أدبار الذكور، ولذا ذكر في أكثر المواضع بالفاحشة بالإفراد، وَالسَّــيِّئَات: إتيان النســاء في الأدبار والذكــور، والمــكاء والصفير واللعب بالحمام والقمار والاستهزاء بالناس.

[قصص] روي أنَّه لَمَّا أتاه الملائكة الذين كانــوا عند إبراهيم على جمال فائق في الأرض التي يعمل فيها، أو في احتطابه، اســتضافوه فمشى بهم ساعة، فقال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرها؟ قال أشهد بالله أنَّها لشرُّ قرية في الأرض عملا، قال ذلك أربع مرَّات، ومرُّوا معه حتَّى دخلوا منزله، وقد قال الله للملائكة: لا تهلكوهم حتَّى يشــهد عليهم لوط أربع شــهادات، وقيل: مرُّوا معه من أرضه أو احتطابه على جماعة من قومه فتغامزوا، فقال لوط ﵇: إنَّ قومي شرُّ خلق الله، فقال جبريل: هذه واحدة، ثمَّ مرُّوا على أخرى كذلك إلى أربع، يقول ذلك في كلٍّ، فقال جبريل للملائكة: اشهدوا، وقيل: خرجت امرأته من البيت بعد إذ دخلــوه، فأخبرت قومها أنَّ فيه من لم يــروا مثله جمالا، ولم يعلموا، ويجمع بأنَّها أعلمت من لم يعلم بهم أو لم تعلم أنَّهم علموا.

﴿قَالَ﴾ لوط من وراء الباب ﴿يَاقَوْمِ هَؤُلَآءِ﴾ الإناث مشــيرا إلى بناته من صلبه، ومن توالد مــن أولاده إن كان ذلك ﴿بَنَاتِي﴾ فتزوَّجوهنَّ لســت أبخل عنكم بهنَّ، وإنَّما مرادي منع ما منع الله، ولم يحرم يومئذ تزويج مشرك بمؤمنة.

[سيرة] كما زوّج ﷺ بنتيه بابني أبي لهب وهما مشركان: عتبة وعتيبة، وبنته زينب من ابن أبي العاصي مشركا، ثمَّ حرَّم الله ذلك، ﴿وَلَا تُنكِحُواْ الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُومِنُواْ﴾ [سورة البقرة: 221] إلَّا أنَّ عتبة لم يدخل برقيَّة، لنهي أبيه له حين نزل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [سورة المسد: 1] فارقها وتزوَّجها الإمام عثمان بن عفَّان، ودخل ابن أبي العاصي بزينب، وأسر يوم بدر، وفادى نفسه، وأخذ النبيء ﷺ عنه العهد أن يرسلها إلى المدينة إذا عاد، وأرسل ﷺ زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار ليأتيا بها، فجاءا بها، ثمَّ إنَّه أسلم وأتى المدينة، فردَّها ﷺ بنكاح جديد أو بدونه على الخلاف.

ويقال: كانوا يطلبونه قبل ذلك أن يزوِّجهم بهنَّ، فيأبى لخبثهم، وَلَمَّا اشتدَّ الأمر فدى بهنَّ أضيافه، يرى تزويجه إِيَّاهُم بهنَّ سهلا ولو كانوا مشركين غير أكفاء، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ تزويجه بناته المسلمات بهم حرام لشركهم، ولكن تعرَّض لهم بهنَّ مبالغة في تحريم اللواط، ولشدَّة كراهته اللواط، حتَّى أباح ذلك، حاشى نبيء الله أن يعترض بما لا يجوز، وقيل: عرض عليهم بناته بشرط أن يسلموا.

ويقال: بناته نساء قومه، لأنَّ كلَّ نبيء أبو أمَّته بالشفقة والرحمة والتعليم، **وهذا أولى** لأنَّ بناته أقلُّ مِمَّن يعمل اللواط لا يكفينهم، وقد قيل: له بنتان قط: زعوراء وزيتاء، عبَّر عنهنَّ بالجمع، لَكِنَّ ظاهر الآية ما فوق الاثنتين، ولا حجَّة على أنَّهما اثنتان فقط، وعن ابن عَبَّاس: هنَّ ثلاث، وأقرب ما يقال: إنَّ عددهنَّ بقدر اللواطين، وإنَّما هلك أهل البلاد كلُّهم لرضاهم أو إعانتهم أو لعدم النهي، وأمَّا استبعاد تزويجه بهنَّ للأراذل فلا يتمُّ لأنَّه يفدي الأضياف بتزويجهنَّ، وبعضُ الشرِّ أهون من بعض.

وقد قرأ أُبَيٌّ: «وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» [سورة الأحزاب: 6]، أي بالشفقة والرحمة لا بالنسب كما قال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ اَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: 40]، وقرأ ابن مسعود أيضا: «وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ»، بعد قوله:



﴿... أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: 6] ويبحث بأنَّ المراد أب للمؤمنين والمؤمنات، وكيف يكون لوطٌ أبًا للكافرات والكافرين فإنَّه بعيد، ولو بالشفقة والتعليم والرحمة.

والإضافة مجاز، على أنَّ المراد: نساء أمَّته، أو «بنات» استعارة، ولا يقال: عَرْضُ نساء أمَّته عليهم قليل الجدوى لتمكُّنهم منهنَّ، لأنَّا نقول: عرضهنَّ عليهم على طريق التذكير والنصح، كما قال:

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أنظف حالا من الأدبار على فرض أنَّ في الأدبار طهرا، أو هنَّ طاهرات، والأدبار خسيسة على خروج اسم التفضيل عن بابه، أو أراد النظافة بحسب العقل وقلَّة استفحاش الطبع، ولا شكَّ أنَّ إتيان النساء في القبل أزيد في الطهارة بهذا المعنى بالنسبة إلى اللواط، كما تقول: الميتة أطيب من المغصوب، وأحلُّ منه بحسب نظر بادي العقل، ولو كان لا حلَّ ولا طيب في الشرع للمغصوب والميتة، والفحش في اللواط أشدُّ.

[نحو] «هَؤُلَآءِ بَنَاتِي» مبتدأ وخبر، و«هُنَّ أَطْهَرُ» مبتدأ وخبر مستأنف، أو خبر ثان، أو حال، أو «بَنَاتِي» بدل أو بيان، وجملة «هُنَّ أَطْهَرُ» خبر، أو «هُنَّ» فصل و«أَطْهَرُ» خبر «هَؤُلَاءِ».

﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ بترك السَّيِّئَات، أي اللواط، وباختيار تزوُّج النساء، أو بترك الشرك وهو أعظم، لَكِنَّ المقام لتحريم اللواط. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تفضحوني بعد كوني مستورا بعدم هذا اللواط الذي قصدتم الآن فأذلَّ بالفضيحة؛ أو لا تخجلوني، من الخزاية بمعنى الحياء، أي تفعلوا ما أستحيي منه ﴿فِي ضَيْفِيَ﴾ أي في شأن ضيفي، أو سبب ضيفي، وإخزاء ضيف الرجل إخزاء للرجل.

[صرف] والضيف يطلق على الواحد فصاعدا، لأنَّ أصله مصدر، وسمع جمعه على ضيوف وأضياف وضيفان، فتحمل هذه الجموع على أنَّها جموع للضيف المستعمل في الواحد. يقال: خَزِيَ بالكسر يَخزَى بالفتح بمعنى ذلَّ، أو استحيى، وهنا تعدَّى بالهمزة فإنَّه مضارع «أخزاه» بمعنى صيَّره ذليلا أو مستحييا.

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يأتي الصواب من تحريم اللواط وتركه والنهي عنه، والاستفهام توبيخ وتقرير وتذرُّع إلى التعجُّب.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ شهوة احتجنا إليها وأثبتناها، وهو واحد الحقوق، وليس المراد ضدُّ الباطل، اللهمَّ إلَّا أن يريدوا بذلك أنَّه لا يحلُّ لنا في شرعك تزوُّجهنَّ، لأنَّهنَّ مؤمنات، كما قيل بذلك في شرعه عليه السلام، وقيل: كان في سنَّتهم أنَّه من خطب امرأة ورُدَّ عنها حرمت هي عليه، وقيل: إنَّ عادتهم أن لا يتزوَّج أحد إلَّا واحدة وهم متزوِّجون، وضعف القول بأنَّهم يرون نكاح الإناث غير حقٍّ. و«مِنْ» صلة للتأكيد، و«حَقٍّ» مبتدأ، و«لَنَا» خبر أو فاعل لـ«لَنَا»، أو لثابت أغنى عن الخبر.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ﴾ بتجربة أحوالنا ومشاهدتها ﴿مَا نُرِيدُ﴾ من وطء الذكران.

[نحو] و«مَا» اسم أو حرف مصدر، أي إرادتنا، لا اسم استفهام، لأنَّ تأكيد العلم باللام و«إنَّ» ينافيه. ﴿قَالَ لَوَ اَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لو للتمنِّي والمصدر من خبر «أَنَّ» فاعل ثبت، و«بِكُمْ» بمعنى عليكم يتعلَّق بمتعلِّق «لي»، أو بـ«لِي» أو بـ«قُوَّةً» لأنَّه مصدر لا ينحلُّ إلى أنْ والفعل، وأيضا يتوسَّع في الظروف، أو حال من «قُوَّةً».

والمراد: القُوَّة على أن يدفعهم عن اللواط بنفسه أو بغيره كما قال: ﴿اَوَ ـ اوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أنضمُّ إلى قوم أقوياء أدفع بهم، أشدَّاء ثابتون كالركن للبيت، بل ركن الجبل، قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله أخي لوطا كان يأوي إلى ركن شديد**»(1) رواه البخاري ومسلم قال ذلك ترحُّما عليه وشفقة عليه لا استضعافا لقوله.

(1) رواه **البخاري** في كتاب الأدب المفرد، (236) باب من دعا في غيره من الدعاء، رقم 472 (605)، وفي كتاب التفسير (يوسف) (5) باب ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ الرَّسُولُ...﴾ رقم: 4694، مع زيادة في آخره. ورواه **مسلم** في كتاب الإيمان، رقم 261. من حديث أبي هريرة. وأورده **السيوطي** في الدر، ج3، ص372.

[قصص] وكان هو وإبراهيم من بابل من أرض العراق، من قرية تسمَّى كوتا، أتيا الشام وهما فيه غريبان، وأمَّا قوله تعالى: ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ [سورة الشعراء: 161] فأُخوَّة بالرسالة إليهم، وأخوَّة بلد لا في الدين أو النسب، وهو ابن أخي إبراهيم، وقيل: ابن أخته، أرسله الله إلى أهل سدوم من أرض الشام، ويقال أيضا: سمِّي أخا لهم لمجاورته لهم ومصاهرته لهم، ولولادته منهم أولادا، وإقامته فيهم مدَّة طويلة.

وقيل في قوله ﷺ: «**رحم الله أخي لوطا...**» إشارة إلى أنَّه لا ينبغي للوط أن يقول ذلك، لأنَّ ظاهره إقناط كلِّيٌّ من أن يجد ناصرا من الناس، وقد قال شعيب: ﴿أَرَهْطِيَ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ﴾ [سورة هود: 92] ولا أقوى من الله ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [سورة الزمر: 36]، [قلت:] والإيَّاس من الناس جائز والممنوع الإيَّاس من الله ﷻ، وما تقدَّم أولى، فإنَّ التمنِّي للركن تمنٍّ لأمر شرعيٍّ يثاب عليه، كمن تمنَّى سيفا يجاهد به، وقد قيل: أراد بالركن العشيرة.

وأجيز أن تكون «لَوْ» شرطيَّة على حدِّ ما مرَّ من تقدير الفعل، فيقدَّر لها جواب، أي لدفعتكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوَ اَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [سورة الرعد: 31] وعطف «آوِي» على ثبت المقدَّر، والمضارع للتجدُّد، أو على «قُوَّةً» بتقدير «أَنْ» الناصبة حذفت ورفع الفعل، أي قُوَّةً أو أَوْيًا، وَالقُوَّة بنفسه في الدفع، والأوْيُ في الدفع بغيره، والشرط أولى من التمنِّي لأنَّ جوابه المقدَّر يقبل أنواعا كالدفع كما ذكرته، والمنع والبطش.

ويجوز أن يكون الركن الشديد الله، على أنَّ «أَوْ» بمعنى بل، فيكون قوله ﷺ: «**رحم الله أخي...**» مدحا، وهو خلاف المتبادر من الآية، وَلَمَّا قال من وراء الباب مستترا: ﴿هَؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ وتضرَّع إليهم بالوعظ، وذكر الأوْي إلى ركن شديد من الناس، ولم يجده علموا أنَّه ضعيف فتسوَّروا عليه، أو أرادوا التسوُّر، ورأى الملائكة كربه، قالوا له ما ذكر الله ﷻ عنهم في قوله:

﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ ملائكة أرسلنا الله إلى إهلاكهم، فافتح الباب لهم، وقيل: كسروا الباب ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بإضرارنا لأنَّ مضرَّة أضيافه مضرَّة له، فقالوا: لن يصلوا إلى مضرَّتك، فدخلوا ودعا جبريل عليه السلام الله أن يأذن له في إعمائهم فضربهم بجناح أخضر فعموا، كما قال عز وجل: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [سورة القمر: 37] فقالوا: النجاء النجاء! إنَّ في دار لوط سحرة، فستعلم يا لوط ما نعاقبك به غدا، وقال لوط لهم: متى هلاكهم؟ فقالوا: الصبح، فقال: أريد إهلاكهم قبل ذلك، أريد إهلاكهم الآن، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ في بعض من الليل، وقيل: نصف الليل، أو في ظلمة من الليل، وعن ابن عبَّاس: آخره، قال الله تعالى: ﴿نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [سورة القمر: 34] ويجاب بِأَنَّهُ سرى أوَّل الليل ووقعت نجاتهم بسحر، إذ جاوزوا البلد المقلوع، وذلك السرى لِئَلَّا يسمعوا أصوات العذاب الذي يقع صبحا، وسرى بأهله في حينه، وطوى الله لهم الأرض في وقتهم، ووصلوا إبراهيم ونجوا. سَرَى وأَسْرَى بمعنىً، وقيل: أسرى أوَّل الليل وسرى آخره.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ قال قتادة: لا ينظر إلى ورائه فيلحقه العذاب الذي يصيب القوم، والخطاب للأهل.

[بلاغة] ومقتضى الظاهر: ولا يلتفت منهم أحد بالغيبة وذلك على طريق الالتفات، وناسبه ذكر لفظ «يَلْتَفِتْ»، وَيُسَمَّى ذلك تسمية النوع، وهو أن يؤتى في العبارة بنوع من البديع، ويذكر اسمه فيها نحو جرَّدت الأسود مِنِّي إلى العدوِّ.

﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ استثناء من «أَحَدٌ» بالنصب لأنَّه فصيح، ولو كان الإبدال أفصح لتقدُّم السلب، ولا مانع من اتِّفاق الجمهور على وجه مرجوح مع اتِّفاق حقيقة المعنى، والمراد: إنَّكم نهيتم عن الالتفات بعد الخروج إلَّا هي فلم تنه، فالتفتت وقالت: واقوماه! فضربت بحجر وماتت. ويجوز أن يكون

الاســـتثناء منقطعا، أي لكن امرأتك تهلك كما هلكوا، أو تلتفت فتصاب، ولو خرجت معكم، كما قال:

﴿**إِنَّهُ**﴾ أي الشأن ﴿**مُصِيبُهَا**﴾ خبر مقدَّم للاســـتقبال ﴿**مَآ أَصَابَهُمْ**﴾ مبتدأ مؤخَّر ومعناه الاســـتقبال، ووجه لفظ المضيِّ الإخبار بأنَّهم يصابون بالعذاب قبلها، وتَحَقُّقُ الوقوع.

[نحو] والجملة خبر «إِنَّ». ولا تقل كما قال بعـــض المحقِّقين: «مُصِيبُهَا» مبتدأ و«مَا» خبر، ولا تقل «مُصِيبُ» خبر «إِنَّ» و«مَا» فاعله، لأنَّ ضمير الشأن لا يفسِّره إلَّا جملة صريحة خلافا للكوفيِّين، إذ أجازوا: إنَّه ما قائم أخواك، ويجوز إجماعا: إنَّه ما قائم أخواك، وما قائم أخوك على أنَّ «أخوك» فاعل «قائم».

ويجوز أن يكون اســـتثناء من «أَهْل» فيتعيَّن النصب، كما قرأ ابن مسعود وكتبه في مصحفه: «فَاسْرِ بِأَهْلِكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ» فيكون لم يسر بها، لكن اتَّبَعَتهم بلا أمر منه عَلَيْهِ السَّلَامُ وبلا علم منـــه باتِّباعها، أو مع علمه إذ لـــم يأمرها فلا يضرُّه اتِّباعها، فكانت خلفهم، فقالت: واقومـــاه! لَمَّا التفتت وأصيبت، وهذا ما ظهر لي، وقيل: لم تخرج والاستثناء من «أَهْلَ».

وقيل: المعنـــى ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُـــمْ أَحَدٌ﴾ أمر بالإســـراع فإنَّ الالتفات ينافيه، ويجوز كون معنى ﴿لَا يَلْتَفِتْ﴾: لا يتخلَّف، كما روي عن ابن عَبَّاس، يقال: لفته عن الأمر أي صرفه عنه، فتكون غير منهيَّة عن التخلُّف، فلم تســـر، أو سرت وأهلكت على كلِّ حال. والاســـتثناء من «أَهْلِ» أو من «أَحَدٌ» على ما مرَّ، وتقدَّم أنَّه أراد عجلة العذاب في الحين.

فقال ما ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ بقولـــه ﴿**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ**﴾ زمـــان موعدهم، أي موعد عذابهم، قال ما موعدهم؟ قالوا: صبح هذه الليلة، قال أريد أســـرع من ذلك قالوا: ﴿**أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**﴾ جواب لاستبطاء غير مذكور.

﴿فَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا﴾ هو واحد الأمور أي شيء من أشيائنا، وهو إهلاكهم، أو أمرنا للملائكة بإهلاكهم، وهو ضدُّ النهي مصدر أمر يأمر، وهو أولى لأنَّه الأصل الحقيقة، والأوَّل مجاز أو حقيقة أصلها مجاز، وإسناد المجيء للأمر بالمعنيين مجاز عقليٌّ، أو المجيء مجاز بالاستعارة، كذا قيل، ومعنى ﴿جَآءَ﴾: حان أو استقبل فحضر، وقيل: جاء وقت أمرنا، أو أردنا مجيء أمرنا.

﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قلبناها، والأصل: «جعلوا» أي الملائكة أو واحد منهم، ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾: بإدخال ريشة واحدة أو يد جبريل، وقيل: جناح من سبع أرضين، أو من أسفل أرضهم، أو من داخلها فرفعها إلى أن سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة فقلبها، وأتبِعوا بالحجارة قبل تمام القلب، أو شقَّت الأرض إليهم.

[بلاغة] وأسند الجعل إلى الآمِرِ به والمسبِّب له وهو الله ﷻ تهويلا للأمر كما هو بما يتلى، ولم يقل: جعلنا سافلها عاليها ولو استلزم ما يتلى، لأنَّ التصريح بجعل العالي الذي هو مستقرهم سافلا أشقُّ، وكذا إذا كان الأمر واحد الأمور أسنده لذلك إلى مالك الأمور. و«هَا» للأرض، أو للمدائن المعلومة من المقام، وكذا في قوله:

﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ فيه ما في قوله: ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

[قصص] والمدائن خمس: ميعة وصعرة وعصرة ودوما وسدوم، وقيل: سبع، وأعظمها سدوم، وفيها لوط، وفيها أربعة آلاف ألف إنسان، أو ما شاء الله تعالى، وقيل: هذا العدد في المدائن. وقيل: «هَا» في «عَالِيَهَا» عائدة على البيوت الشاذَّة عن القرى المتتابعة لها الخارجة عنها، وعلى هذا فالمقلوبون غير مرجومين والمرجومون غير المقلوبين. قلبت القرى، ورجمت البيوت الخارجة عنها، ومن غاب عنهم في بلاد أخر، حتَّى إِنَّهُ دخل رجل منهم الحرم فانتظره ملك بحجر، حتَّى خرج منه فأوقعه عليه.

[لغة] والإمطار مجاز عن الإرســال استعاريٌّ للشبه، أو إرساليٌّ للإطلاق والتقييد. و﴿سِــجِّيل﴾: الطين المتحجِّر بالإحراق، كما قال ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هو حجر من طين كالآجر المطبوخ، وكما في آية أخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [سورة الذاريات: 33]. وأصله ـ قيل ـ سِنكِيل بالفارسيَّة، وعرِّب إلى سجِّيل؛ أو هو من أسجله إذا أرسله، كأنَّه قيل من مثل الشيء المرسل؛ أو من مثل العطيَّة في الإدرار؛ أو من السجل بمعنى الكتابة، أي مِمَّا كتب الله أن يعذِّبهم به، أو مِمَّا كتب عليه، فإنَّه كتب على كلِّ حجر اسم صاحبه؛ أو أصله سجِّين وهو جهنَّم، أو واد فيها أبدلت النون لاما.

﴿مَّنضُودٍ﴾ مركَّب بعضه علــى بعضٍ، ثمَّ فرِّق علــى أصحابه، أو جمع لعذابهم، أو أتبــع بعضه بعضا في الإرســال إليهــم به كالمطر فــي التتابع والكثرة، أو كلُّ حجر ألصق أجزاؤه بعضها ببعض إلصاقا عظيما فهو شــديد. ﴿مُسَــوَّمَةً﴾ معلَّمة، كلُّ واحد مكتوب عليه اســم صاحبه الذي يرمى به، أو مميَّزة بما يُعلَم به أنَّها ليســت من حجر الأرض، أو مخطوطة بخطوط بيض وحمر، أو معلَّمة للعذاب.

[قصص] وعن ابن عَبَّاس: منها أبيض فيه نقط ســود، أو أســود فيه نقط بيض، ويقال: بعضها كرأس البعير، وبعضها كمبركه، وبعضها كقبضة الرجل، وعن الحســن والســدِّي: كان عليها أمثــال الخواتم كالطيــن المختوم، قال أبو صالح[1]: رأيت منها عنــد أمِّ هانئ، وكان عليها خطــوط حمر على هيئة الجزع، [قلت:] الذي يقرب أن يكون عند أمِّ هانئ حجارة أصحاب الفيل.

[نحو] وهو نعت لـ«حِجَارَةً»، ولا بأس بتقديم النعت غير الصريح، وهو «مِن سِجِّيلٍ» عليه، ولك جعله حالا من ضمير الاستقرار في «مِن سِجِّيلٍ»، أو حالا من «حِجَارَةً»، لوصفه بـ«مِن سِجِّيلٍ».

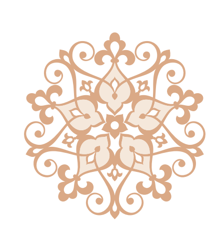
(1) انظر التعريف به في ج4، ص45.

﴿**عِندَ رَبِّكَ**﴾ يـا محمَّد ﷺ، أي في خزائنه، والعنديَّـة عنديَّة ملك، وهو لفظ مستعار للمكان المتخيَّل للغيوب استعارة مصرّحة، وهو متعلِّق بـ«مُسَوَّمَةً»، أو بمحذوف نعت لـ«حِجَارَةً»، وقال بعض: جاءت من عند ربِّك. ﴿**وَمَا هِيَ**﴾ أي الحجارة ﴿**مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ متعسِّر، والظالمون: هم قوم لوط المقلوبون، ذكرهم باسم الظلم تشنيعا عليهم بموجب هلاكهم، وهو ظلمهم باللواط، وهذا تأكيد لِمَا قبل، أي أصابهم به ذلك الهلاك، وهم أهل له لَا بُدَّ لهم به، وهذا معنى البعد المنفيِّ.

وفي الآية وعيد لكلِّ ظالم لنفسه أو غيره باللواط أو غيره، وقد قيل: المراد بالظالمين من يعمل عمل قوم لوط بعدهم، أي: وما عقوبتها، بردِّ الضمير للعقوبة.

وقيل: إنَّه ﷺ سأل جبريل عن الظالمين فقال: هؤلاء كفَّار أمَّتك المكذِّبين، كلُّ واحد يرقبه حجر إذا مات، أو كان في النزع رمي به، فقد رمي من مات منهم في بدر أو أُحُد مثلا على كفره، وقيل: من شأنهم الرمي عند احتضارهم، ولكن لم يقع؛ وقيل: المعنى أَنَّ الحجارة أصابت من غاب منهم كما أصابت من حضر كما مرَّ.

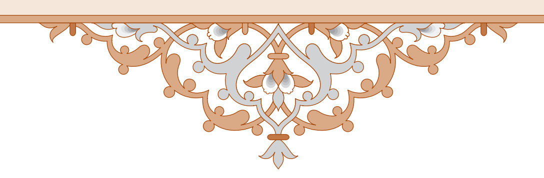
وقيل: **الضمير للقرى**، والمعنى: ما قرى قوم لوط بعيدة المشاهدة عن الظالمين من قومك، فإنَّهم يشاهدون محالَّها، وما بقي مِمَّا يليها في مسيرهم إلى الشام. والباء صلة، وذكِّر «بَعِيد» لتأويل «هِيَ» بالحجر جنس الحجارة، أو تأويل القرى بالمكان، وكذا إن رجع الضمير للعقوبة يؤوَّل بالعذاب أو العقاب، أو لأنَّ بعيدا بوزن المصدر كالصهيل، أو الباء بمعنى في، وبعيد نعت لمحذوف، أي وما هي في مكان بعيد.



[تمَّ بحمد الله وحسـن عونه الجزء السـادس من تيسير التفسير، ويليه بحول الله الجزء السابع، وأوَّله تفسير قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ...﴾ [الآية: 84]]

الفهـارس





الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس بعض مختارات الشيخ

المسألـــــة	الصفحة
• ﴿وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَــبَ وَالْفِضَّةَ﴾ من الأحبار، أو من أهل الكتاب، أو من المؤمنين، أو من الكلِّ، **وهو أولى**	6
• ﴿يُحِلُّونَهُ، عَامًا﴾ أي يحلُّون النســـيء، بمعنى المؤخَّر أو التأخير، **والأوَّل أولى**، لكن لا مانع من أن يقال: أحلُّوا التأخير أو حرَّموه	15
• وتنازع «يُحِلُّ» و«يُحَرِّمُ» في قوله ﷻ: ﴿لِيُوَاطِئُواْ﴾، **والأولى** تعليقها بما يعمُّهما، أي فعلوا ذلك ليواطئوا، **بل هذا متعيِّن**..	17
• ﴿وَيَسْــتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾... قيل: أبناء فارس، وقيل: أهل اليمن، وعلى الأَوَّل سعيد بن جبير، وقيل: ما يعمُّ هؤلاء وغيرهم **وهو أولى**	21
• ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾... والهاء لرسول الله ﷺ، ويدلُّ له: ﴿اِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذَ اَخْرَجَهُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقيل: للدِّين المدلول عليه بالمقام، **والأوَّل أولى**... أو لله **وهو أولى**	21
• أو يعلَّق «إِذْ» الثانية بـ«ثَانِيَ» **لكــن بضعف**، قيل: لإيهامه تطفُّله ﷺ على الصدِّيق في اللبث في الغار ومقدِّماته... **وليس كذلك**	22
• فإنَّ الهاء أيضا في قوله: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّــمْ تَرَوْهَا﴾ للنبيء ﷺ **أولى** من أن تكون للصدِّيق رضي الله عنه	25
• وتوليهم: ذهابهم عن موضــع اجتماعهم وتحدُّثهم، **ويضعف** أن يفسَّــر بالتولِّي عن رسول الله ﷺ، لأنَّه لم يجر ذكر لاجتماعهم معه حين أصيب	42
• [**قلت:**] ولا مانع من أن يكون قولــه تعالى: ﴿قُلْ هَــلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ...﴾ تهكُّما بهم بأنَّ ما ننال هو ما تحبُّون لنا وهو إحدى الحسنيين	44

المسألــــة	الصفحة
• ﴿وَفِـي اِلرِّقَـابِ﴾ أي ومصروفة في الرقـاب، وبهذا **يترجـح** أن يقدَّر «مصروفة» في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾، فيناســب ما هنا، لكن **لا مانع** أن يقدَّر هنا ثابتة كما هنالك..	58
• وجعل «أَحقُّ» خبرا للرسول **أولى** لقربه وعدم الفصل، ويكون الكلام في إيذائه، ولو كان جعله خبرا لله **أولى** من حيث إِنَّهُ هو المقصود بالذات في العبادة	66
• ويقدَّر الجواب لفظ: «يهلك»، لَكِنَّ المعنى **بعيد**	67
• ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُـنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُــورَةٌ تُـنَـبِّـئُهُــم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾... والهاء لهــم لا للمؤمنين **لأنَّه المتبــادر**، ولئلَّا يلزم تفكيــك الضمائر لو أعدناها للمؤمنين، **لكن يجوز** التفكيك مع ظهور المعنى	67
• ويجوز أن يكون اللفظ إخبارا والمعنى أمر، أي ليحذر المنافقون، واللام للأمر، [**قلت**:] والإبقاء على الظاهر **أولى**	68
• والمعنى: أيحســن بكم أن لا تكون همَّتكم إلَّا الاستهزاء بالله ورسوله؟ على طريق قصر القلب... **فصحَّ** الحصر، **لا كما قيل**: **لا يَصِحُّ**..	70
• ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُـنَّا نَخُــوضُ وَنَلْعَبُ﴾... **ويبعد** أن يراد بالســؤال القول بدون صيغة استفهام، بمعنى: قلتم كذا وكذا، **لأنَّه خلاف الظاهر**	70
• وذكر بعض أنَّ كلَّ منكر ذكــر في القرآن فهو عبادة الأوثان والشــيطان، [**قلت**:] **وليس كذلك** بل أعمُّ وقد يقتضي المقام خصوصا	73
• أي وخضتم كالخوض الذي خاضوه، **فَلَا تَهِم** أنَّ الهاء مفعول به، **ولا** أنَّ التقدير فيه، وإنَّما هي كهاء قولك: القيام قمته، [**قلت**:] **وذلك أولى** من أن يقال: الأصل «كالذين» حذفت النــون تخفيفا، **وأولى** من أن يقال «الذِي» حرف مصدريٌّ	77
• ويجوز أن يراد أنَّ لبعضهم بساتين ولبعضهم مساكن **وهو ضعيف**..	84

الصفحة	المسألـــــة
199	• ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... فـ«مَا» تغليب لغير العقلاء؛ أو أطلق «مَا» متناولاً للأجناس، **فهو أولى** بإرادة العموم
200	• ﴿إِنَّ الذِيــنَ لَا يَرْجُــونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يطمعــون في خير الآخــرة... أو لا يتوقَّعون... أو لا يخافون لقاءنا... وما ذكرته بمعنى الطمع **أولى**
206	• [**قلــت**:] **وهذا أولى** من تقدير: اســتعجالا مثل اســتعجالهم، لأنَّ مصدر عَجَّلَ تعجيلٌ لا استعجال... **ولا حاجة إلى تكلف** أنَّ الأصل: ولو يعجِّل الله للناس الشرَّ تعجيله للخير
207	• ﴿لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِـدًا اَوْ قَـآئِمًـا﴾... و«أَوْ» لتنويع الأحــوال فهي كالواو، ويجــوز أن تكون لتنويــع أصنــاف المضــارِّ... **والأوَّل أولــى** لعمومه وخصوص الثاني بالأمراض
206	• ويجوز أن يراد بـ«الذِينَ لَا يَرْجُونَ» ما يشمل من يتوب... **وهو بعيد**
210	• ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ﴾... والضميــر للقرون وأجاز مقاتل كونه لأهل مَكَّة، **وهو ضعيف**
218	• ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَــبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾... والكلمة: قضاؤه بتأخير العذاب والثواب إلى يوم القيامــة... أو بإنزال آية مُلجئة إلــى اتِّـبَاع الحقِّ، **وهذا ضعيف**
222	• [**قلت**:] وأمَّا قول أبي حيان: إنَّ مضمون الخطاب في قوله: ﴿يُسَيِّرُكُمْ...﴾ نعمة للمؤمــن والكافــر... فقريب من ذلــك، لكن يوهــم أنَّ الخطاب للمؤمنين والكافرين **وليس ذلك مراده**
222	• ﴿بِهِم﴾ الباء للمصاحبة، **ويضعف** كونها للتعدية
222	• ﴿جَآءَتْهَا﴾ الضمير عائد إلى الريح... **وهذا أولى** من عوده للفلك... و«عَاصِفٌ» للنَّســب كتَامِر ولَابِن، لا اســم فاعل... كذا قيل، **ولا أقول بذلك**

الصفحة	المسألـــــة
14	• ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ﴾ في الأربعة الحرم... أو الضمير للشهور الاثني عشر، والأوَّل **أولى** لأنَّه أقرب مذكـــور... **إلَّا أنَّ الصحيح** نســـخ تحريم القتال فيهنَّ كما مرَّ
15	• وقد **زعم** بعض أنَّ عموم الأشـــخاص يســـتلزم عموم الأحـــوال والأزمنة والأمكنة
33	• **وزعم** بعض أنَّ قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـتَاذِنُكَ...﴾ منسوخ بقوله تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءَامَنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ...﴾
35	• [**قلت:**] وإنَّما عاتب رســـولَ الله ﷺ علـــى إذنه في التخلُّـــف لهم مع أنَّ خروجهم مفسدة لأنَّه مكلَّف بالظاهر
57	• ﴿وَالْمُؤَلَّفَـــةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الذين أريد تأليف قلوبهم إلى الإســـلام... قيل: أو أسلموا وقوي إســـلامهم فيعطون ولو كانوا أغنياء ليسلم نظراؤهم، **قلت:** هذا جائز... قيل: من أســـلم وكان يذبُّ على الإســـلام فـــي أطراف بلاد الإسلام يعطون ولو أغنياء، **قلت**: هذا جائز...
57	• وقيل: يجوز [أن يَجمع الزكاةَ] الهاشـــميُّ ويأخذ من غيـــر الزكاة عناءه، وأجيز منها علـــى كراهة، [**قلت:**] **والصحيح** أنَّ الهاشـــميَّ أو المطَّلبيَّ لا يكون عاملا على الصدقات
59	• ويعطَـــى المكاتبُ لا ســـيِّده، فيـــؤدِّي لســـيِّده، لأنَّه حرٌّ مـــن حينه **على الصحيح**..
130	• وإسلام الصغير إذعانه، أو كان التكليف بالتمييز ثمَّ نسخ بالبلوغ، أو هو [أي عليٌّ] بالغ حينئذ، **والصحيح الأوَّل**
136	• والصدقة هذه نفل **كما يتبادر** من إعطائها كلِّها... ولو احتمل أنَّهم تبرَّعُوا بها على الزكاة إذ منعوها، **وهـــذا بعيد بل ممنوع** بقوله ﷺ: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا»



المسألـــــة	الصفحة
• و«مَـا» مَصدَرِيَّة، والمصـــدر من الكون الـــذي له خبر، وهـــو دال على الحدث... [قلت:] **هذا هو الحقُّ**، لا ما قيل: إنَّه لا يدلُّ على الحدث..	95
• ﴿أَنَ ـ امِنُـواْ بِاللهِ وَجَاهِـدُواْ﴾... فـ«أَنْ» مَصدَرِيَّة، والبـاء مقدَّرة متعلِّقة بـ«أُنزِلَتْ». [قلت:] **والأولى عندي** أنَّ حرف المصدر لا يدخل على الأمر والنهي	110
• ويجوز أن يكون [﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾] جوابَ «إِذَا»، فيكون قوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾ جواب ســؤال مقدَّر، **والأولى** أنَّه جـــواب «إِذَا»... **وزعم** السمين... أنَّه يجوز عطفه بواو محذوف، أي: «أتوك لتحملهم وقُلْتَ»... وأمَّا أن يجعل الجـارُّ والمجرور في محلِّ التمييــز... **فلا يعرف هذا في العَرَبِـيَّة**، وأمَّا أن يُجعل «مِنْ» صلة و«الدَّمْع» تمييزا... وهو قول الكوفيِّين **فلا يجوز**	117
• ﴿وَمِنَ اَهْلِ اَلْمَدِينَةِ﴾ خبر مقدَّم... أو «مِنَ اَهْلِ الْمَدِينَةِ» عطف على «مِمَّنْ حَوْلَكُمْ»... وفي العطف يكون الفصل بين الموصوف وصفته بالمعطوف **وهو لا يحسن... فالحقُّ الإعراب الأوَّل**	132
• والجملة [تُطَهِّرُهُمْ] مستأنفة، أو نعت لـ«صَدَقَةً»، **والأوَّل أولى**	136
• أو خبره: «أَفَمَنُ اسَّـسَ» والرابط محذوف... **وفيه بعـدٌ** لفظًا ومعنًى، أو خبره: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ﴾ **وفيه بعدٌ** لفظا أعني طول الفصل	142
• والآية حجَّة على مجيء «مِنْ» لابتـداء الزمان، **وله أدلَّـة كثيرة، وأخطأ** البصريُّون في منع ذلك	146
• **ومن العجيب** أنَّ بعض المحقِّقين كلَّمـا رأى لام ابتداء أجاز أنَّها لام في جواب قسم مقدَّر، **ولو لم يكن دليل** على تقديره سوى أنَّ المعنى قابل له	145
• **ودعوى** أنَّ هذه الــواو أوَّل البيت [وإن ســألت وضــوًا...] عاطفة على محذوف **خلاف الأصل**	148

المسألـــة	الصفحة
• ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾... **وزعم** بعض المحقِّقين أنَّ «وَعْدًا» منصوب مضمون اشترى من الوعد	153
• ويدلُّ له قراءة عبد الله وأُبي: «التَّآئِبِيـــنَ» بالياء على أنَّه نعت للمؤمنين، **ولا دليل** على أنَّه مقطوع إلى النصب	155
• فواو الثمانية واو قولـه: ﴿وَالنَّاهُـونَ﴾ ولم يرض أكثـر النحويِّين بواو الثمانية، [**قلت:**] **والحق عندي** جواز واو الثمانية	156
• ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ عطف على قولـه: ﴿عَلَى النَّبِيءِ﴾... **ولا يَصِحُّ** العطف على «عَلَيْهِمْ» لأَنَّ الثلاثة لم يتَّصفوا بكيد زيغ قلوبهم **فلا تهم**	165
• فحينئذ يقال إذًا: يجوز لنا «زيد فصيح متكلِّـم»، **قلنا**: نعم إذا كان المقام للتأكيد، **ولا يجزي** أن يقال: قدِّم للفاصلة	165
• أو «ثُمَّ» زائدة في جوابها بعدُ **وهو ضعيف**	166
• ﴿عَزِيزٌ﴾... نعتٌ لـ«رَسُـول» سـببيٌّ ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ «مَـا» مَصدَرِيَّة، والمصدر فاعل «عَزِيـزٌ»... أو «عَزِيزٌ» خبر والعنـت مبتدأ والجملة نعت لـ«رَسُـولٌ»، **والأوَّل أولى**... ﴿بِالْمُومِنِينَ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿رَءُوفٌ﴾، أو بقوله: ﴿رَحِيمٌ﴾... وتعليقه بالأوَّل **أولى**	184
• ﴿ثُمَّ يُعِيـدُهُ﴾... والمضارع للتجـدُّد والتكرير **أولى** مـن كونه بمعنى الماضي... ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بعدله سـبحانه وتعالى؛ أو بعدلهم في الاعتقاد والقـول والعمـل؛ أو بالتوحيـد التـامِّ المسـتتبع للعمـل... متعلَّق بـ«يَجْـزِي»؛ أو حال مـن «الذِينَ»؛ أو ضميـر «يَجْـزِي» كما رأيت، **والوجهان الأخيران أولى**	194
• ﴿عَمَّا يُشْـرِكُونَ﴾ بـه، و«مَا» مَصدَرِيَّة... أو اسـم موصـول... أو نكرة للتحقير موصوفة... وَالأَوَّل **أولى** لأنَّ التنزيـه عن الفعل **أولى** من التنزيه عن نفس ما يشرك	217

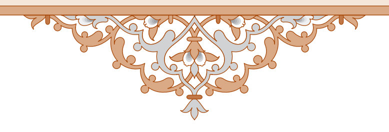
المسألـــــة	الصفحة
السيرة	
• وكما وقف له اثنا عشر رجلا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا به ﷺ كذلك، قيل: من ذي جدَّة، **والصواب** من ذي جدر، وهو موضع قريب من المدينة	37
• فلعلَّه كان [ﷺ] يســتغفر له من ذلك إلى أن نزلت الآيــة بالمدينة، وكان المؤمنون كذلك... **وذلك بعيد**	159
• **ويبعد** ما روي عن سعد بن أبي وقَّاص لَمَّا قدم ﷺ المدينة قالت جهينة: نَزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنًا	183
• قيل: همَّ النبيء ﷺ أن لا يذكر الآيات التــي فيها ذمُّ آلهتهم فنزلت الآية، [**قلت**:] وهذا **لا يَصِحُّ**	360
الأخبار والقصص	
• **قلت**: **لا يصح** عنه أن يقول له [أبو ذر لكعب الأحبار] يا يهودي معايرة له بنسبه ولا بما تاب منه، **وإن صحَّ** فما هو إلَّا قد تاب	9
• وتســمَّى غزوة العســرة لذلك، والفاضحة لأنَّها أظهرت حــال كثير من المنافقين حتَّى **زعم** بعض أنَّه تخلَّف عنها عشر قبائل	20
• ﴿وَأصحاب مَدْيَنَ﴾... وقال قتادة: أهلكــوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة بالنار، قيل: وهم قوم شيت، **ولا يصحُّ**	79
• **وضعف** ما روي عن العَبَّاس أنَّه أصغى إلى أبي طالب بأذنه وهو يحرِّك شفتيه فقال: يا ابن أخي لقد قالها	159
• والمشــهور في نوح رســالته إلى أهــل الأرض كلِّها وقيــل: لبعضها... **والصحيح الأوَّل**	292

فهارس عامة للموضوعات الفرعية



فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

التعريف بالمفسِّر(*)



- في سنة 1237هـ/1818م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

- في سنة 1243هـ/1827م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ، واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغًا كبيرًا.

- في سنة 1253هـ/1837م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

- منذ سنة 1300هـ/1882م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

(*) انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

- في سنة 1304هـ/1886م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها، وألقى دروسًا في الحرم المدني، تشريفًا وتقديرًا له من علمائه.

- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفًا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

- تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

- في سنة 1332هـ/1914م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.